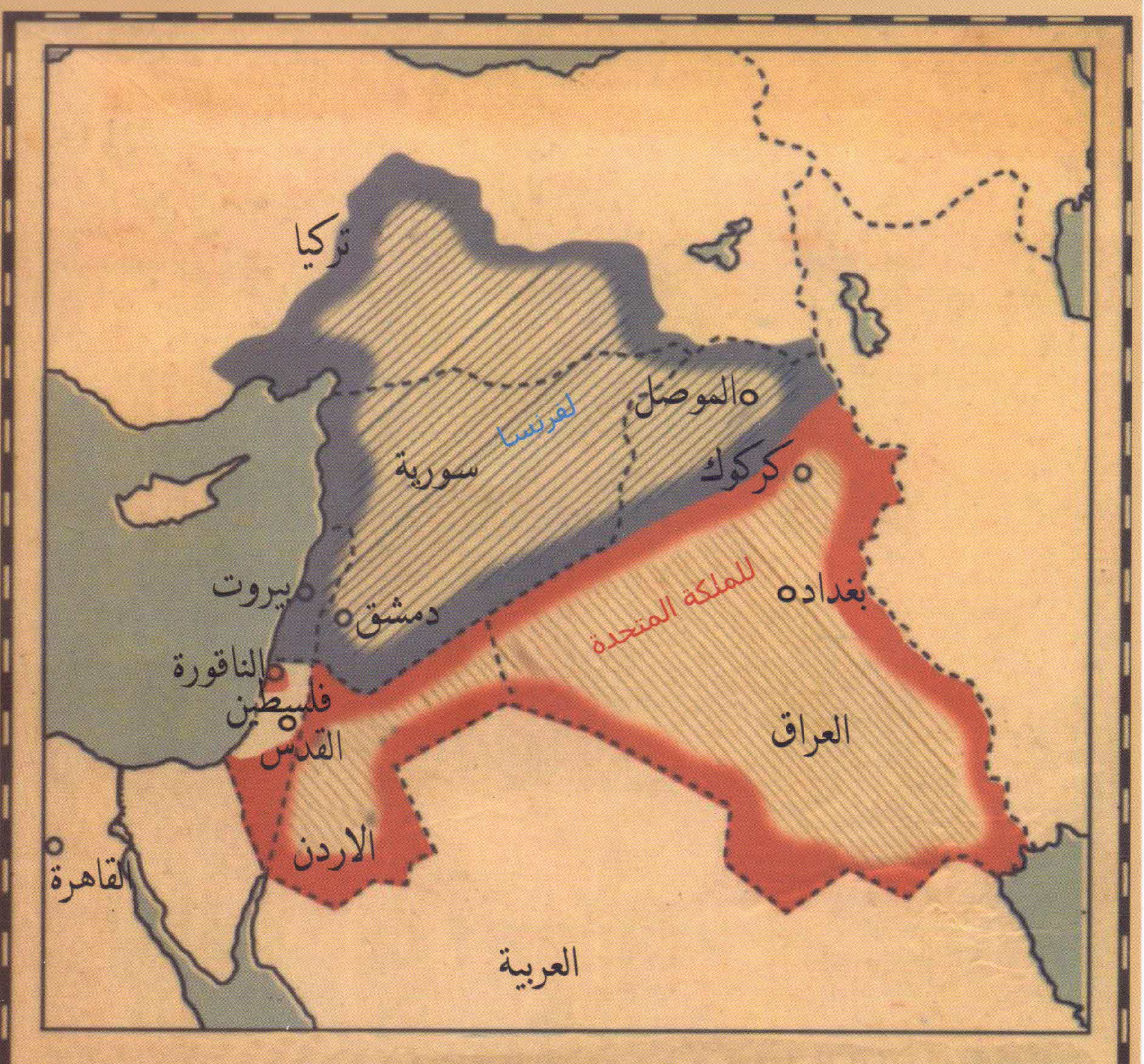


خط في الرمال

بريطانيا وفرنسا والصراع الذي شكّل الشرق الأوسط

A LINE IN THE SAND

ترجمة: سلافة الماغوط

دار الحكمة

لندن

من تشرشل الذي كان يراه أبوه بان حياته عديمة الفائدة الى لورانس الذي بعد انتهاء الثورة العربية الكبرى و بعد عودته الى بلده وصفته امه بانه كان يجلس طوال النهار من فترة الفطور حتى الغداء بنفس الوضعية من دون ان يتحرك و بنفس التعابير على وجهه ، الى غورو الذي عندما وصل الى قبر صلاح الدين صاح لقد عدنا ، الى فيصل الذي كان مشروع ملك عندما فر من دمشق ، جلس على أمتعته مطرودا ينتظر القطار وسط الصحراء ، الى ديغول الذي تربى منذ صغره على كره الإنكليز وجد نفسه معتمدا عليهم فترة احتلال فرنسا ، قصص عن شخصيات سياسية بتفاصيل دقيقة بالاضافة الى وصف المعارك مثل ثورة الدروز من خلال وصف بيئة الدروز الجغرافية و تركيبة الدرزي و لمحة عن ديانته و معتقداته المتوارثة و الثورة في العراق و الثورة العربية الكبرى و مشروع سورية الكبرى ثم سبب فشلها و سبب دعم البريطانيين لها . تفاصيل هامة لا بد ان يقراها المواطن العربي . يبدأ الكتاب من لمحة عن حياة سايكس حتى اخر فصل في الخاتمة حيث يخرج اخر عميل بريطاني من سورية ستيرلينغ مراسل التايمز ، بعد ان سلم البريطانيون فلسطين الى الوكالة اليهودية بعد انتهاء الانتداب البريطاني .



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037
Fax: 44 (0) 20 7383 0116

Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN 978-1-78481-021-4



خط في الرمال

ترجمة : سلافة الماغوط

دار الحكمة
لندن

- خط في الرمال

- ترجمة سلافة الماغوط

- الطبعة: الأولى ٢٠١٥

- الناشر: دار الحكمة ـ لندن

- الاخراج الفني: محمد الصاروط (لندن)

ISBN: 978-1-78481-021-4

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution



Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116 88

E-Mail: hikma_uk@yahoo. co. uk Website: www. hikma. co. uk

مقدمة المترجمة

من تشرشل الذي كان يراه أبوه بان حياته عديمة الفائدة الى لورانس الذي بعد انتهاء الثورة العربية الكبرى وبعد عودته الى بلده وصفته امه بانه كان يجلس طوال النهار من فترة الفطور حتى الغداء بنفس الوضعية من دون ان يتحرك وبنفس التعابير على وجهه ، الى غورو الذي عندما وصل الى قبر صلاح الدين صاح لقد عدنا ، الى فيصل الذي كان مشروع ملك عندما فر من دمشق ، جلس على أمتعته مطرودا ينتظر القطار وسط الصحراء ، الى ديغول الذي تربى منذ صغره على كره الإنكليز وجد نفسه معتمدا عليهم فترة احتلال فرنسا ، قصص عن شخصيات سياسية بتفاصيل دقيقة بالاضافة الى وصف المعارك مثل ثورة الدروز من خلال وصف بيئة الدروز الجغرافية وتركيبة الدرزي ولمحة عن ديانته ومعتقداته المتوارثة والثورة في العراق والثورة العربية الكبرى ومشروع سورية الكبرى ثم سبب فشلها وسبب دعم البريطانيين لها . تفاصيل هامة لا بد ان يقراها المواطن العربي . يبدأ الكتاب من لمحة عن حياة سايكس حتى اخر فصل في الخاتمة حيث يخرج اخر عميل بريطاني من سورية ستيرلينغ مراسل التايمز ، بعد ان سلم البريطانيون فلسطين الى الوكالة اليهودية بعد انتهاء الانتداب البريطاني .

اسلوب الكاتب لا يعلو عليه اسلوب نقل التفاصيل بإمانة ودقة استغرق معه تأليف هذا الكتاب اربع سنوات جال فيها بين دمشق وكابتاون وفرنسا ،

نقل صورة الاحداث بشكل حيوي نابض بالحياة من كثرة ما اهتم بتصوير المعارك ووصف الشخصيات بلغة تجذب القارئ لدرجة الإدمان وأنا ان شاء الله قدمت هنا الكتاب من دون ان يبدو انه ترجمة من لغة اخرى من كثرة حرصي على عدم بخس حق هذا العمل القيم .

يروي الكتاب قصة إعطاء بريطانيا ثلاثة وعود متناقضة لثلاثة جهات مختلفة وبنفس الوقت وبالسر . وعد ماكماهون الشريف حسين بحكم دولة تشمل شبه الجزيرة العربية سورية لبنان فلسطين الأردن والعراق ، بينما وعد بيلفور اليهود بفلسطين ووعد سايكس الفرنسيين بسورية ولبنان . وتضاربت المصالح وازداد التنافس والصراع بين الفرنسيين والبريطانيين من اجل السيطرة والسيادة في الشرق الاوسط مرورا بتكاتف نشاط العصابات الإرهابية التي كانت تلقى دعما سريا من قبل الوكالة اليهودية ضد الحكم البريطاني في فلسطين ، ثم التدخل السافر من قبل البريطانيين في شؤون حكم الفرنسيين في سورية ولبنان الى درجة الإذلال بعد ان خسرت المانيا الحرب وزال الخطر الالماني حيث تحولت الدولتين الحليفتين بريطانيا وفرنسا الى متنافستين من جديد ، وكان البريطانيون هم سبب جلاء الفرنسيين عن سورية ولبنان خصوصا بعد حادثة اختطاف الفرنسيين لرئيس الحكومة اللبناني واغلب اعضاء مجلس الوزراء الذين كانوا تدبيرا بريطانيا . ما أدى الى تعاون الفرنسيين في السر مع العصابات اليهودية الإرهابية (التي تخلت عنها الوكالة اليهودية) لطرد البريطانيين من فلسطين لما تعرضوا له الفرنسيون من ذل على يد البريطانيين في المشرق . قصة صراع وحسب ما يقول جيمس بار في نهاية الكتاب لم يخرج منها كلا الطرفين بثمة فائدة .

مقدمة الكاتب

في صيف سنة ٢٠٠٧ قرات بالصدفة جملة من تقرير سري من قبل الحكومة البريطانية وقد تم الكشف عنه حديثاً ما جعل عيني تخرجان من محجريها . كتب هذا التقرير ضابط في خدمة الأمن البريطاني MI5 ، في بداية سنة ١٩٤٥ لكنه لم يتم نشره حتى الان ، وهو يفسر الغموض الذي كان يحير الحكومة . من كان يمول ويسلح الإرهابيين اليهود الذين كانوا حينها يحاولون انهاء الحكم البريطاني في فلسطين؟ الضابط ، الذي كان عائدا للتو من زيارة الى الشرق الاوسط ، يقدم الجواب المذهل . الإرهابيون ، كما كتب» على ما يبدو كانوا يتلقون الدعم من الفرنسيين .

مضيفا انه تكلم مع نظرائه في خدمة المخابرات السرية البريطانية MI6 ، وتابع الضابط حديثه بالقول : «نحن . . . نعلم من مصادر «غاية في السرية» ان الموظفين الفرنسيين في المشرق كانوا يبيعون في السر الاسلحة الى الهاغانا (ميلشيا يهودية) واستلمنا تقاريرا حديثة عن نواياهم لتأليب النزاع داخل فلسطين» . بكلمات اخرى ، بينما كان البريطانيون يحاربون ويموتون لتحرير فرنسا ، الفرنسيون المفترض انهم حلفاؤهم كانوا في السر يؤازرون الجهود اليهودية لقتل الجنود والموظفين البريطانيين في فلسطين .

حركة فرنسا هذه الخارقة كانت علامة نهاية التدرج في الصراع للسيطرة على الشرق الاوسط الذي كان قائما لمدة ثلاثين سنة . سنة ١٩١٥ حاولت

بريطانيا وفرنسا الحليفتان فترة الحرب في ذلك الوقت أيضاً حل التوترات التي سببتها أطماعهم التنافسية في المنطقة . في اتفاق سايكس ـ بيكو السري قسما فيما بينهما امبراطورية العثمانيين في الشرق الاوسط من خلال خط في الرمال ممتد بين زاويتين متقابلتين من ساحل البحر المتوسط الى الجبال على الحدود الفارسية . المنطقة شمال هذا الخط الاعتباطي ستكون لفرنسا ؛ اغلب الاراضي جهة الجنوب ستكون لبريطانيا ، ولان كلا القوتين لم تستطيعا الاتفاق حول مستقبل فلسطين . التسوية التي لم تحبذها القوتان ، بان تخضع الاراضي المقدسة الى إدارة دولية .

بناء امبراطوري غير متقن من هذا النوع كان شائعا في القرن التاسع عشر ، لكنه بطبيعة الحال لم يحظى بشعبية مع حلول الوقت الذي تم فيه توقيع اتفاق سايكس بيكو . وكان الرئيس الأميركي وودرو ويلسون الأبرز من بين منتقديه . وعندما اعلنت الولايات المتحدة الاميركية الحرب على المانيا سنة ١٩١٧ انتقد الإمبريالية الاوروبية وعرض ، انه عندما تنتهي الحرب ، فان الشعوب الخاضعة لها والتي لاتشكل وطنا يجب ان تكون قادرة على اختيار مصيرها عوضا عن ذلك .

في تلك الأجواء الجديدة ، احتاج البريطانيون بشكل عاجل وملح الى اساس جديد لمطالبتهم بقسم الشرق الاوسط الى قسمين . كانوا مسبقا يحكمون مصر ، أدركوا بسرعة انهم من خلال دعمهم علنا الطموح الصهيوني لإقامة دولة يهودية في فلسطين يستطيعون بذلك ضمان جناحهم اليميني لقناة السويس المكشوف بينما يقومون بالمراوغة حول الاتهامات انهم يسلبون الاراضي . ما بدا في ذلك الوقت على انه طريقة حاذقة للتغلب على فرنسا بالمناورة كان له صدى محبط دائم منذ ذلك الوقت لان البريطانيين منذ البداية عرفوا ان هذه الحركة الخطرة ستسبب غضبا عربيا في العالم الاسلامي ،لكنهم كانوا واثقين من انهم يستطيعون التغلب عليه . واعتقدوا ان العرب سيدركون الفوائد الاقتصادية من وراء هجرة اليهود وان اليهود سيكونون ممتنين لبريطانيا

لمساعدتهم بلوغ حلمهم . واثبت كلا الافتراضين انهما كانا خطا . عندما أثارت هجرة اليهود السخط العربي ، فان محاولات البريطانيين المحافظة على السلام من خلال إبطاء التغيير بسرعة أغضبت اليهود .

تحت سلطة الانتداب الممنوحة من قبل عصبة الامم ، حصلت بريطانيا على السيطرة على فلسطين ، ترانس(عبر) الأردن والعراق ؛ فرنسا ، حصلت على لبنان وسورية . كان من المفترض من كلا القوتين هو قيادة تلك الدول الناشئة الى الاستقلال السريع . لكنهما سرعان ما بدأتا بجرجرة أقدامهما والتباطؤ . وكان رد العرب غاضبا عندما تقهقر باستمرار أمامهم الوعد بإعطائهم حريتهم مثل السراب . لام البريطانيون والفرنسيون كل واحد الاخر على سياسته إزاء المعارضة التي كل منهما كان يواجهها . كل طرف كان يرفض مساعدة الاخر مواجهة المعارضة العربية العنيفه لأنهم يعرفون انهم سيجعلون انفسهم اقل شعبية من خلال قيامهم بذلك . وتجاهل البريطانيون ولمدة عامين تقريبا في فترة العشرينيات بشكل متكرر طلبات الفرنسيين لإيقاف الثوار الذين كانوا يحاربون قواتهم داخل سورية من خلال استخدامهم المنطقة المجاورة التابعة للسيطرة البريطانية في عبر الأردن كقاعدة لهم . الفرنسيون بدورهم امتنعوا عندما سألهم البريطانيون مطاردة العرب الذين كانوا يأخذون من سورية ولبنان ملاذا لهم فترة العصيان المسلح في فلسطين في النصف الثاني من فترة الثلاثينيات . بناء على النقص في الدعم من المناطق المجاورة ، لجأ كل من الفرنسيين والبريطانيين الى تكتيكات العنف لسحق المعارضة مما أدى فقط الى إثارة غضب العرب اكثر .

اكتشف الفرنسيون ان الصهاينه يشاركونهم رغبتهم بالانتقام ، لانه حتى الان كان الرأي اليهودي قد تحول بشكل قاطع ضد البريطانيين . وفرض البريطانيون سنة ١٩٣٩ في محاولة لإرضاء العرب ، تقييدات مشددة للهجرة تمنع أعدادا كبيرة من اليهود للفرار من المانيا النازية من خلال وصولهم الى أمان فلسطين . عندما ظهرت أنباء عن درجة والطبيعة الممنهجة للهولوكوست ، قرر

العديد من اليهود انه حان الوقت لرمي البريطانيين خارجا . وارضاء البريطانيين للإرهابيين العرب قبل الحرب أظهرت ان العنف له مفعوله . كما يكشف هذا الكتاب ، الفرنسيون الان يعرضون بشكل سري دعمهم للإرهابيين الصهاينه الذين يشاركونهم تصميمهم لطرد البريطانيين خارج فلسطين .

وما يجعل هذا التنافس المسموم بين بريطانيا وفرنسا مهما كثيرا هو انه غذى الصراع العربي ـ الاسرائيلي . واستخدام بريطانيا للصهاينه لإعاقة الأطماع الفرنسية في الشرق الاوسط قاد الى تصعيد دراماتيكي للتوترات بين العرب واليهود . لكن كان الفرنسيون هم من لعب دورا حيويا لإقامة دولة اسرائيل ، من خلال مساعدة اليهود على تنظيم هجرة باعداد كبيره والإرهاب المسيء الذي في االطرف لاخر قضى على الانتداب البريطاني المنهك سنة ١٩٤٨ . يحاول الكتاب شرح كيف وصلت الامور الى ثمة توجه .

لطالما اعتقد الفرنسيون ان البريطانيين كانوا يساعدون المقاومة العربية بفعالية ضد حكمهم ، لكن حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية هذا الشك لم يكن له اساس . سقوط فرنسا سنة ١٩٤٠ ، والقرار التي تبعه من قبل الفرنسيين في المشرق لدعم حكومة فيتشي ، أدى الى تدخل كلا الطرفين على مضض في مشاكل الاخر . وغزت القوات البريطانية والفرنسيين الاحرار في شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤١ سورية ولبنان لإيقاف إدارة فيتشي من تزويد الألمان بالقاعدة لتنطلق منها بعملياتها وتقوم بهجوم على قناة السويس . بعد شهر من استسلام حكومة فيتشي الفرنسية ، ائتمنت الحكومة البريطانية الفرنسيين الاحرار على سورية ولبنان . عندما سببت هذه الحركة غضب العرب قرر الموظفون البريطانيون انه افضل طريقة لتحويل الانتباه بعيدا عن فلسطين هو مساعدة سورية ولبنان على نيل استقلالهما على حساب الفرنسيين . مع مساعدة بريطانية بارزة حقق اللبنانيون الاستقلال سنة ١٩٤٣ . سيكتشف الفرنسيون ان البريطانيين يتآمرون مع السوريين لنفس النهاية السنة التي تلت .

الفصل الاول

التقسيم: ١٩١٥- ١٩١٩

سياسة عملية جداً

كان شاب سياسي واعد اسمه السير مارك سايكس مسرعا الى ١٠ داونينغ ستريت (مقر الحكومة البريطانية) في وقت متأخر من صباح اليوم السادس عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩١٥ ، لحضور اجتماع . بناء على دعوة من قبل رئيس الوزراء للبارونيت البالغ من العمر ستة وثلاثين سنة ليقدم له ولمجلس الحرب النصيحة حول كيف يمكنهم حل الخلاف المتعلق بمستقبل الامبراطورية العثمانية التي بدت كأ نها ستمزق حلف بريطانيا الهش مع فرنسا . «وبحظ خارق» كما وصفها سايكس لاحقا ، «كان مسموحا لي إلقاء خطاب امام مجلس الحرب» . وما قاله كان تحديد شكل الشرق الاوسط الحديث .

لم يكن تفاجئ سايكس مفتعلا عندما دعي الى الرقم عشرة ، لانه تمكن بصعوبة ان يجد لنفسه وظيفة مستشار رئيسي في الحكومة للشؤون الشرق أوسطية لمدة اربع سنوات فقط . انتخب كعضو من المحافظين في البرلمان لمنطقة «يوركشير» ميناء منطقة «هول» سنة ١٩١١ ، طالب بان يكون خبيرا في شؤون الامبراطورية العثمانية في اول خطاب ألقاه . وصف فيه زيارة حديثة

قام بها الى شمال افريقيا ، الذي كانت وقتها ما زالت بأيدي العثمانيين ، واعلن انه يعتقد ان» امبراطورية تركية قوية وموحدة»هي مهمة للتجارة والاستراتيجية الانكليزية الان» بنفس القدر مثل ايام ديزرائيلي (رئيس وزراء بريطاني سابق) ، قبل ثلاثين سنة . لكن عندما اندلعت الحرب سنة ١٩١٤ ، انضم العثمانيون الى المانيا لمحاربة بريطانيا وفرنسا ، وسايكس كان حينها مضطرا لتغيير رأيه .

احضر سايكس معه الى اجتماع مجلس الحرب خريطة وملخصا عما كان ينوي قوله . هذه الوثيقة كتب لها البقاء من بين الاوراق التي تركها وراءه بعد موته بمرض الإنفلونزا وهو في سن التسعة والثلاثين عاما . خط يده الواضح المميز لكن الطفولي أعطاها مظهر المذاكرات التي يقوم بها تلميذ المدرسة في اخر لحظة ، لكنها كانت اهم شيء كتبه على الاطلاق . لان الجولة المسحيه التي صورها ساعدته على إقناع مجلس الوزراء بانه يتوجب عليهم على وجه السرعة التوصل الى اتفاق مع الفرنسيين حول كيفية تقسيم الامبراطورية العثمانية فيما بينهما ، وانه هو الرجل الذي يجب ان يتكفل بإدارة هذا الاتفاق .

كتب احد الوزراء عن سايكس فيما بعد «انه رجل كفؤ جداً بالتأكيد ويحمل أفكارا كثيرة ،لكن بنفس الوقت مجتهد وحريص» . لكن في الحقيقة عضو البرلمان هذا العبقري كان اقل خبرة بهذا الموضوع مما قاد مجلس الوزراء الى الاعتقاد بذلك . سمعة سايكس باعتباره مرجعا للشرق الاوسط بقيت في سلسلة كتب ألفها عن المنطقة ، آخرها كان مجلدا بسماكة أنشين كان قد نشر باكرا من تلك السنة . العنوان «ارث الخليفة الاخير» وكان جزءا منه عن تاريخ نهضة الاسلام كقوة سياسية ، والجزء الاخر كان يوميات غزيرة عن سفرياته في أرجاء الامبراطورية العثمانية قبيل الحرب . ناثراالعبارات العربية فيها والحوارات المضحكة ، يتضمن الكتاب فهما اكثر عمقا مما قصده

المؤلف حقيقة . لم يحاول سايكس إفساد هذا الإدراك الخاطئ . ذاك اليوم ترك رئيس الوزراء وزملاءه تحت انطباع انه يتكلم العربية والتركية بطلاقة . في الحقيقة لا يستطيع تكلم اي من اللغتين .

كان الكتاب وثقة الكاتب بنفسه هذه الثقة التي تتسم بخفة الظل كلاهما كانتا ثمرة نشأته التي لم تكن اعتيادية . ولد سايكس وسط عائلة من مدينة يوركشير ، من ملاك الاطيان وكانت عائلته فاشلة ككيان اسري . وقام بأول زيارة له الى الشرق الاوسط مع عائلته ، التي كانت تضم غريب الأطوار السير تاتون ، المهووس بعمارة الكنائس ، ووقاية جسمه في درجة حرارة ثابتة وبحلوى مصنوعة من الحليب تشبه المهلبية ، كان عمره وقتها اربعة وستين سنة ؛ وام سايكس الليدي جيسيكا ، التي كان عمرها تقريبا نصف عمر زوجها ، وكانت على علاقة غرامية مع الدليل السياحي . مارك سايكس كان ابنهما الوحيد .

كان ذلك سنة ١٨٩٠ . زارت عائلة سايكس مصر ، التي استولت عليها بريطانيا من الامبراطورية العثمانية قبل ثمانية سنوات ، ومن ثم ذهبت الاسره التي القدس ولبنان ، والتي ماتزال حينها في ايدي الاتراك . كان بالنسبة لسايكس الإحساس بالعودة للوراء عبر الزمن شيئا مثل التنويم المغناطيسي . أيضاً تلهيه عن زواج والديه غير السعيد ، والذي بلغ ذروته سنة ١٨٩٧ في القضية المحرجة التي وصلت للمحكمة والتي كشفت عن عيوب الطرفين . اثناء تلك الفترة ، هرب سايكس الى الشرق الاوسط على نحو متكرر ، في البداية كطالب غير متخرج بعد ، ثم كملحق شرف شاب لدى السفارة البريطانية في العاصمة العثمانية ، القسطنطينية . وقد روى قصة كيف اطلق النار على قفل باب مقطورة مهجورة حتى يتمكن من المكوث فيها اثناء الليل ، وحصل على سمعة انه جسور ، او بالأصح بانه سواح شارد . وعندما صادف رحالة اخرى ، جيرترود بيل ، في القدس اعترف بما دفعه من المال على الأحصنة ، ولهذا تخيلت في عقلها لتنظم رحلتها بعيدا عنه «حتى لا

تصادفه باركه الله ، لانني اذا كنت اعرف الشرق ، فان الأسعار ستتضاعف على طول الطريق الذي سيسلكه» .

مثل العديد من الكتاب الرحالين ، سايكس احب ان يتظاهر انه سيذهب الى مناطق مجهولة . وادعى انه كان يختار طرقاته ، من خلال اللحاق بأنفه فيما يتعلق بتلك المناطق على الخريطة والتي كانت الاكثر بياضا او الاكثر ثراء بعلامات إشارات الاستفهام والخطوط المنقطة» . وكان يفسد المنظر منظر الأوروبيين الأخريين . بينما بيل ، مثل العديد من المعاصرين الاخرين ، وجدت سايكس «الاكثر طرافة» ، بينما كان سايكس اقل سرورا بكثير عند لقائه الآنسة بيل . واخبر زوجته عنها بغضب قائلا : «اللعنة على السخيفة الثرثارة تتكلم كلاما فارغا وتتبجح المغرورة بحماس مفرط وصدرها مسطح كالمرأة الرجل وتجوب العالم بردفها الهزاز ، الحمارة التي ترغي» .

كانت الامبراطورية العثمانية في ذلك الوقت «في حالة تراجع» ، كما وصفها سايكس في ذلك الخطاب البرلماني الاول له . بعد ان أفلست حكومة السلطان سنة ١٨٧٦ تخلت الحكومة البريطانية عن السياسة التي عمرها خمسين سنة والتي تقوم على دعم استقلال ووحدة اراضي العثمانيين التي كانت بمثابة حصن ضد مطامع القوى الأخرى . في سنة ١٨٧٨ استولت بريطانيا على قبرص ، وبعد اربع سنوات ، مصر وقناة السويس حتى تضمن الطريق الى الهند . ولان القناة قد تحولت الى شريان رئيسي للتجارة بريطانية الشرقية المتنامية ، اصبحت مصر نقطة الارتكاز بالنسبة للامبراطورية البريطانية .

بينما أخذ المستثمرون البريطانيون ما تبقى من أموالهم وهربوا ، عقب الإهمال العثماني ، دخل الفرنسيون ليحلوا مكانهم . كان الفرنسيون مسبقا يتمتعون بمكانة متميزة في الامبراطورية العثمانية من خلال مؤسساتهم الدينية ، التي كانت تدير العشرات من المدارس الافضل واكثر شعبية من

مثيلاتها العثمانية . وفي محاولة للاستفادة من عجز الاتراك ، الان اشتروا تقريبا كل ديون الحكومة العثمانية ، مراهنين بأكثر من دخل حكومتهم السنوي على تجاوز العثمانيين للازمة . لكن «اتباع تركيا الفتاة الذي استولوا على الحكم بعد الانقلاب الذي قاموا به سنة ١٩٠٩ ، فشلوا في إيقاف الفساد . وخسروا ليبيا وأملاك الامبراطورية الاوروبية المتبقية في البلقان بعد ثلاث سنوات .

وانحسر مركز ثقل الامبراطورية العثمانية بشكل ملحوظ نحو الشرق . الى جانب تركية بحد ذاتها ، يسيطر العثمانيون الان فقط على سورية ، فلسطين ، العراق والشريط الساحلي لشبه الجزيرة العربية . ورغم فساد العثمانيين ، بقي السلطان يتمتع بنفوذ عبر العالم الاسلامي السني الواسع على اعتباره خليفة ، او الخلف ، للنبي محمد وحامي المدن الثلاثة المقدسة في الاسلام : مكة ، المدينة والقدس . هذا كان اخر ارث الخليفة ، لكن حتى في تلك المناطق واجه العثمانيون استياء من العرب الذين أخذت ثقتهم بأنفسهم تكبر وأرادوا حكما ذاتيا اكبر او حتى استقلالا عن الملكية التي حكمتهم لمدة اربع مائة عام .

صادفت سفريات سايكس عبر الامبراطورية تماماً تلك الحقبة ، وعلى نحو غير مفاجئ ، في كتابه الاخير صور العثمانيين مثل المحتضر على فراش الموت . ولتعزيز جدله شمل وصفا رائعا للحالة المزرية التي شاهدها في المدن الشهيرة في الاراضي العثمانية الشرقية . فمثلا في حلب ، المدينة «حيث المباني المهدمة الحديثة التي هي بحاجة ماسة للدعم الى المباني القديمة الضخمة والاكثر صلابة» ، وجد ان «القذارة والامراض تسيطر على الاسواق الشعبية المزدحمة والمتداعية ؛ الانحطاط والفقر هما اكثر السمات التي يمكن ملاحظتهما» . هاجمه في دمشق مجموعة كلاب قذرة . . . جنود بملابس ممزقة ، بغال تنهق ، بائعي الانتيكا الطماعين ، وكان مروعا من الفنادق المفتقرة للخدمات والمعدات ، لحم الضأن القاسي والذبدة الزنخة» .

ووفر خزيه وعاره العميق للموصل التي وصفعا بانها»عش فساد عفن ، تعم فيا الرذيلة ، والإضطراب والسقم ، حيث البيوت مضعضعة ، غير صحية نتنة والقديمة مثل الحديثة بشعة غير مثيرة للاهتمام تشمئز منها النفس» . الاسواق هناك «غارقة بارتفاع القدم في عفونة الأمعاء وأحشاء الذبائح ؛ ويتدفق في المجارير دم متخثر نتن دامغ في مجارير دبقة بألوان قوس قزحية ، تقلب معدة من يراها عبقة بالروائح المعوية» .

بدا سايكس مصدوما ، مع ذلك في الحقيقة لم يريد هذا المجتمع الفاسد بألوانه المتنوعة ان يختفي ، يحرمه من لمحة عبر عالم العصور الوسطى التي يمنحه اياها هذا المشهد اثناء عطله . ولان نفوذ القوى الاجنبية المخادعة قد بدات تظهر نفسها ، كان مسرورا» ان الفرجار ، والمسطرة التي يستخدمها المهندسون لرسم الخطوط العمودية والافقية والتي شكلها على شكل الحرفT ولوح المخططات الذي يستخدمه المهندس الفرنسي كانوا غير قادرين على تحطيم بدائية العرب السوريين الأميين» . تجاهل حقيقة ان السكك الحديدية ، التي كان يبنيها العثمانيون بمساعدة الألمان ، تحقق رحلات رخيصة ممكنة للعرب الذين كان افقهم سابقا محدودا بالمسافة التي يستطيعون السير او امتطاء الدواب . فيها عوضا عن ذلك ، ادعى ، ان محرك البخار لم يضيف «ولا فضلا واحدا» وفقط «بؤرة رذيلة جديدة «التي تشمل «الخمر ، والصور القذرة ، والفونوغراف (تسجيل الأصوات وأذاعتها) وحانات الشرب» . واهمل تأثير خدمة البريد والتلغراف وسكة الحديد ومجال الصحافة المزدهرة ومعرفة القراءة والكتابة بشكل متزايد كانوا على وشك ان يغيروا العالم العربي للابد ، وهو اما لم يستطع الرؤية او لم يريد ان يقول ذلك .

كتب احد النقاد : «سمح سايكس لتحيزه لان يسرح بعيدا بأحكامه» ، لكن الى ما هو أبعد من العوالم الأكاديمية الضعف في كتابه ـ بالتحديد استخفافه بالأتراك ـ لم يتم ملاحظته لدرجة كبيرة . كما علق ناقد اخر ،

«الحقائق التي جمعها سيكون لها قيمة على اعلى مستوى عندما يتم تولي تسوية المسالة الشرقية» . ساعد كتاب «ارث الخليفة الاخير على نيل سايكس الاسم المستعار «المولى المجنون» في الوايتهول ، المكان في المجلس الذي ياخذ بعين الاعتبار مستقبل الشرق الاوسط ، والان الدعوة الرسمية لحضور الاجتماع في رقم عشرة ليلقي خطابا عن «المسألة الشرقية» ، الجدل الحاصل منذ مدة طويلة حول من سوف يقوم بمهمة السيطرة عندما ينهار العثمانيون في النهاية ، والبريطانيون والفرنسيون كل واحد منهما أكيد انهما هما وحدهما الجواب الوحيد .

داخل الرقم عشرة اربع رجال بالتحديد اهتموا بشدة لما سيقوله سايكس . رئيس الوزراء ، اسكويث ، الذي كان ما زال يتعافى من انهيار عصبي ، لم يرد تفاقم الشجار مع الفرنسيين . كيتشنر ، وزير الدفاع الذي كان وجهه واصبعه حينها يزينان ملصقات التجنيد في الشوارع في كل مكان ، في السابق كان يدير مصر . اللويد جورج الزئبقي وزير الذخائر ، كان ضد الاتراك بشكل عنيف واحب فكرة التوسع الإمبريالي اكثر على حساب العثمانيين . بيلفور ، من المحافظين رئيس وزراء سابق ، الان في الأميرالية (البحرية) ، شعر ان الامبراطورية البريطانية قد وصلت الى أفولها ، ولم يرد ذلك ان يحصل .

اقترح سايكس : «اشعر ان علينا ان نحسم الامور مع فرنسا في اقرب وقت ممكن ، ونحصل على فهم واضح حول موضوع سوريا» .

سأل بيلفور : «ما نوع الترتيبات التي ترغب في الحصول عليها مع الفرنسيين؟» .

اجاب سايكس وهو يشير بيده الى خريطته : «أحبذ ان نحتفظ لأنفسنا بتلك البلد جنوب حيفا» .

بدا على بيلفور الشك . «دائماً كنا ننظر الى تلك التسعين او المئة مايلا من الصحراء على جانبها الشرقي على انها حصن لمصر ؛ الان انت تقترح

التوجه اكثر نحو الشرق لتعطينا القليل من البلد المأهول والمهتم بها الذي سنكون مسوؤلين عنه . للنظرة الاولى يبدو ذلك كانه سيضعف ولن يقوي موقعنا في مصر» .

مال كيتشنر الى جانب دفاع سايكس : «اعتقد ان هذا ما كان يعنيه السير مارك سايكس ان الخط سيبدأ من الساحل في حيفا . هؤلاء العرب ـ مشيرا الى شبه الجزيرة العربية ـ حينها سيصبحون تحت سيطرتنا» .

عجل بيلفور في قوله مشيرا بذلك الى الفرنسيين : «ماذا يعني ان تعطي بالضبط؟» .

قسم سايكس باصبعه عبر الخريطة الموضوعة أمامهم على الطاولة . قال : «أحبذ ان ارسم خطا من الـ "e" في عكا الى اخر "k" في كركوك» .

اللويد جورج كان متحمسا لتدمير الامبراطورية العثمانية . «هل تقترح ان هذه هي الخطوة الاولى قبل ان تتخذ أية إجراءات عسكرية؟» .

لم يرد سايكس التعدي على صلاحيات كيتشنر . «اعتقد انه من الضروري معرفة اين نحن» .

وزراء اسكويث كان قد حذر مسبقا من خطر إزعاج «عش دبابير القبائل العربية «من خلال التدخل في الشرق الاوسط لكنه كان منهكا ، وكان سعيدا بتفويض احد للقيام بهذه المسالة واحب هذا الخط البسيط في الرمال الذي رسمه سايكس . وقال لانهاء الاجتماع «يجب ان نحصل على اتفاق سياسي» مضيفا «يجب ان نصل الى اتفاق مع الفرنسيين ، ما يعني انه يجب ان نتفق معهم بشكل ديبلوماسي» .

وكتب سايكس المبتهج فيما بعد الى زميل له «اعتقد انني تكفلت بهذا اليوم ، ستلاحظ لم احلق بعيدا عن السياسة العملية جداً» .

حقيقة ان بريطانيا وفرنسا قد وصلتا تقريبا الى مرحلة المضاربة حول نزاع

إقليمي من نفس النوع قبل اقل من عشرين سنة هي التي جعلت اسكويث رئيس الوزراء وزملاءه قلقين جداً من حل مسالة ماذا سيحدث للامبراطورية العثمانية ، على فرض انهم سيربحون الحرب . اثناء المراحل الاخيرة من التزاحم للاستيلاء على افريقيا في فترة ال ١٨٩٠ كانت ملكية منابع نهر النيل هي التي في خطر . لان السير أدوارد غري الذي كان وزير حديث في ذلك الوقت ، والان وزير الخارجية الحالي ، قد قام بتحذير الفرنسيين سنة ١٨٩٥ ان الحكومة البريطانية ستفسر أية حركة للمطالبة بمنابع النهر على انها «تصرف عدواني» . اعتقد الفرنسيون على نحو خاطئ ان هذا التهديد فارغ ، لان البريطانيين كانوا قد فقدوا السيطرة على السودان لصالح المهدي قبل عقد من الزمن . فيما بعد بقليل ارسلوا حملة من غرب افريقيا للمطالبة بالروافد العليا للنيل . هدفها كان جعل الحكم البريطاني اسفل مجرى النهر في مصر من دون دعم .

يعرف البريطانيون المطامع الفرنسية ، ونزلوا في الجزء المعاد غزوه في السودان . في شهر اب سنة ١٨٩٨ ، تماماً عندما كان كيتشنر يقترب من الخرطوم ، وصل الفرنسيون الى الفاشودا وهي مركز مستوطنة صغيرة تستعمل فقط لاغراض عسكرية وكانت في وضع مزر وقذر تقع على نهر النيل الاعلى في اقصى جنوب البلاد ، حيث نصبوا العلم الثلاثي الألوان . كان هنالك ازدراء في لندن عندما أذيعت الاخبار ان «ثمانية مغامرين فرنسيين» قد «طالبوا بمقاطعة ضعف حجم فرنسا» ، كما نقل الخبر وينستون تشرشل الذي كان حينها مراسلا صحافيا مع قوات كيتشنر . أرسلت الحكومة البريطانية بسرعة كيتشنر الى الجنوب ليقف في وجه الفرنسيين ، وهيأت الاسطول استعدادا للحرب . اضطرت الحكومة الفرنسية الى التراجع نحو الوراء وكان ذلك إذلالا كبيرا لها لانها كانت هي من دبر الأزمة في المقام الاول .

اصيب الطرفان بفقدان الثقة بعد ان قادتهم حادثة الفاشودا الى شفير

الحرب ، لذلك توصلا الى «معاهدة ودية» سنة ١٩٠٤ . اعترف بها الفرنسيون على مضض بحكم بريطانية في مصر والسودان ، وفي المقابل ، اعترفت بريطانيا بمطالب فرنسا بالمغرب . ومراعاة للحساسية الفرنسية عملوا أيضاً على اعادة تسمية موقع المواجهة المشؤومة ، وشطبوا الفاشودا من الخريطة .

كما يوحي معناه الأنيق ، الحلف الودي كان مثل الزواج التعسفي الذي بات ضروريا لانه اتضح ان الأصبع الالماني يقترب من الزناد . لم تنتهي نتيجة المعاهدة الشكوك الموجودة بين المتنافستين الاثنتين القديمتين . الفرنسيون كانوا متأكدين من ان شهية حليفتهم نحو الاراضي العثمانية المتبقية يمكن ان تكون اي شيء ما عدا ان تكون مشبعة . بعد ملاحظة الى اين يميل الموظفون البريطانيون مثل سايكس قضاء إعطالهم ، في نهاية سنة ١٩١٢ ألحوا على الحكومة البريطانية حتى تأكد على انها ليس لديها نية في الاستيلاء على سورية . البريطانيون ، في ذلك الحين كانوا يرون سورية مكانا فارغا عديم القيمة ، كانوا مسرورين لكي يتفضلوا عليهم بالمعروف . فقط فيما بعد حتى أدركوا العلامة التي أشاروا اليها من خلال قيامهم بذلك . «عندما انكرنا أية تطلعات سياسية لأنفسنا في سورية أخذها الفرنسيون واعتقدوا انه قد يمكنهم الحصول عليها لأنفسهم» ، كما برظم مدمدما فيما بعد السفير البريطاني في باريس .

وقت اندلاع الحرب سنة ١٩١٤ انضمت القوات البريطانية مع منافستيها السابقتين ، فرنسا وروسيا ، لمحاربة الألمان وحلفائها العثمانيين . ولكن عندما وقعت الجبهة الغربية بسرعة في خلاف بعد اختلاف وجهات النظر التي ادت الى طريق مسدود بدأت القوتان الغربيتان بالجدال حول الاستراتيجية ، والغيرة المدفونة من وقت قريب بسرعة بدات بالبزوغ مجددا . بينما فضل الفرنسيون هجوما شاملا على الجبهة الغربية ، أراد البريطانيون تدريب المتطوعين الذين كانوا يستجيبون لنداء كيتشنر للتسليح قبل أعطائهم الأوامر لتنفيذ هجوم

كبير . في غضون ذلك الوقت اقترح «الشرقيون» داخل الحكومة البريطانية انه يجب عليهم التعامل مع العثمانيين الأكثر ضعفا عوضا عن ذلك ، ليس فقط لان السلطان قد قام للتو بالاستفادة من نفوذه كخليفة ليطالب المسلمين عبر العالم الى الانضمام اليه في حرب دينية ضد أعدائه . مع مئة مليون مسلم خاضعين له يمتدون عبر امبراطورية العثمانيين ، البريطانيون كانوا الهدف الواضح لنداء السلطان .

كان البريطانيون قد واجهوا وقمعوا ثورات محلية مستلهمة من الاسلام في الهند والسودان في السنوات التي جاءت قبل الحرب . اتخذوا تهديد السلطان ، الذي كان له جاذبية من نوع مختلف ، بجدية فائقة . خلال أسابيع من إعلانه الجهاد ، جاء «الشرقيون» بفكرة خطة الإمساك بالامبراطورية العثمانية من العنق ولكمها على احشائها من خلال هبوط الجنود بنفس الوقت في غاليبولي (مدينة تقع قرب القسطنطينية شمال الدولة العثمانية) والإسكندرونة . لم تكن غاليبولي بعيدة عن العاصمة العثمانية القسطنطينية ؛ والإسكندرونة تمتد على تعرج البحر المتوسط حيث تركية اليوم تلتقي مع سورية ، تقع قرب سكة الحديد التي تصل القسطنطينية ببغداد ودمشق اي المراكز الادارية الرئيسية في امبراطورية العثمانيين العربية . .

سايكس كان متأكدا ان هذه الخطة متوقع من ورائها كسب الحرب . وفي رسالة مليئة بالطاقة المعهودة ارسلها الى تشرشل ، الذي انتقل الى السياسة وكان حتى ذلك الحين لورد الأميرالية الاول ، حاول سايكس ان يثبت انه في لحظة استسلام العثمانيين سيكون الألمان ضعفاء الى أبعد حد . وكتب في عنوان رسالته الى «الرجل الوحيد الذي اعرف انه يجترح المخاطر» ، تساءل : «هل بإمكانك حتى حلول حزيران / يونيو القتال تجاه فيينا ، ستكون قد وضعت سكينك في مكان ما قرب اعضاء الوحش الحيوية المسؤولة عن بث الروح فيه» ، محرضا تشرشل على إلقاء ثقله خلف المخطط . لكن اعتبارات

ذات أمد اطول جرت آخرين الى تلك الخطة . شرح ضابط مخابرات مبتدئ في القاهرة في ذلك الوقت ان «المكان الوحيد الذي يستطيع منه الاسطول القيام بالعملية مقابل مصر هو الإسكندرونة» . و«هي قاعدة طبيعية بحرية بديعة (والتي لا نريدها لكن ما من احد اخر يستطيع الحصول عليها من دون الضرر بنا)» . اسم هذا الشاب الاستراتيجي؟ ت . ا . لورانس .

أقلقت خطة الإسكندرونة السفير الفرنسي في القاهرة . مشتبها ان البريطانيين يتراجعون عن تعهدهم حيال سورية سنة ١٩١٢ ، وحذر حكومته من الدوافع المحتملة لحليفتهم . في الثامن من شهر شباط / فبرايرسنة ١٩١٥ ذكر وزير الخارجية الفرنسي ، ثيوفيل ديلكاسيه ، مذكرا غري بالاتفاق الذي عمره سنتين وبقوة طلب منه منع موظفيه من حبك الخطط .

وغري طويل ، نحيل ومنهك ، ودائم الحيرة بين إغراء السلطة في الويستمنيستر وبين متعة الصيد وحيدا ، صيد السمك الطيار في التيارات الكلسية جنوب انكلترا ، غري كان هو الرجل الذي حذر فرنسا من تجاوز مناطق نهر النيل غير المشروعة لها قبل عقدين من الزمن . لكن في فترة التدخل تغير موقفه من الفرنسيين بالكامل . مع الوقت الذي اصبح فيه وزير خارجية بريطانيا سنة ١٩٠٥ ، توصل الى استنتاج ان الألمان الان هم التهديد الأعظم وان معاهدة مع فرنسا ضرورية لهزيمتهم . هذا الاعتقاد الراسخ ، والاستنزاف بعد عشر سنوات من المحاولة لتجنب الحرب من خلال ديبلوماسية مشربكة وسرية الى حد ما ، الان قد شكلا قراره بتقديم التنازلات لديلكاسيه .

كتب غري بعد فترة قصيرة من شكوى ديلكاسيه «اعتقد انه من المهم ترك الفرنسيين الحصول على ما يريدون» . «سيكون مهلكا التعاون الودي في البحر الابيض المتوسط وربما في كل مكان اذا أثرنا شكوكهم مثل اي شيء يتعلق في منطقة سورية» . ثم امر موظفيه البريطانيين في مصر التوقف عن الالحاح على خطة الإسكندرونة» . ستعني قطع العلاقات مع فرنسا ، «كرر

ذلك بعد عدة ايام قليلة ، «اذا وضعنا أي مطالب في سورية ولبنان» .

اجبر الضغط الفرنسي البريطانيين على إسقاط خطة رائعة . كما اعترف فيما بعد مارشال ساحة المعركة الالماني فون هيندنبورغ ، «ربما ليس مجرى الحرب كلها ،لكن بالتأكيد مصير حليفنا العثماني كان من الممكن ان يخرج عن زمام الامور ، اذا أحكمت انكلترا قرارا في تلك المنطقة ، او حتى حاولت القيام بذلك بجدية . كان من الممكن ان تخسر تركية المناطق التي تستولي عليها جنوب سلسلة جبال طوروس بضربة واحدة اذا نجح الإنكليز في الهبوط في خليج الإسكندرونة» . بدلا من ذلك ، ونتيجة للمخاوف الفرنسية ، بعد ستة أسابيع نزلت قوات بريطانية يسيطر عليها النحس في الدردانيل . كان اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩١٥ . القسطنطينية ، والنصر ، كانا فقط على بعد مئة وخمسين مايلا .

استبق الفرنسيون والبريطانيون تقسيم الغنائم . في فرنسا جماعة صغيرة لكن متمسحة من الإمبرياليين وهي لجنة اسيا الفرنسية ، بدأت بممارسة الضغط على ديلكاسيه ليطالب بسورية وفلسطين . العديد من داعمي لجنة اسيا الفرنسية كانوا ديبلوماسيين يعملون في وزارة الخارجية الفرنسية في الكاي دورسيه ، كانوا قلقين من حال عدم اعلان الحكومة الفرنسية أية «اهداف حربية» على الصعيد الرسمي . «قد نكون متأكدين ان الاخرين لن يتكلفوا عناء تحديد مكاننا لنا» ، هذا ما ناقشته الجمعية في شهر آذار / مارس سنة ١٩١٥ . «اي انسان يبدو مصمما على الجلوس وهو مقصر يخاطر برؤية نفسه يخسر كرسيه» .

هذا كان جدلا مألوفا من قبل الجمعية ، التي بشكل اعتيادي اعتمدت بثقل على كراهية الشعب الفرنسي لكل ما هو إنكليزي لتحقق دعما لاجندتها . كانت تجادل دائما لصالح التوسع الامبريالي ، رافضة المكاسب البريطانية الجشعة على حساب الفرنسيين . والحلف فترة الحرب مع بريطانيا جعل

ثمة مسار مربك ، وكذلك السكرتير العام للجمعية ، ديبلوماسي أرستقراطي اسمه روبرت دو كيه ، اعتمدعلى الكتب التاريخية ليرتب قضيته . حاول ان يثبت ان فرنسا لها حق «وراثي» في سورية وفلسطين لانها كانت «ارض الصليبيين . . . حيث كانت النشاطات الغربية ذات هيمنة فرنسية كبيرة منذ بداية العصور الوسطى حيث ان كل الأوروبيين الذين يعيشون هناك ما زالوا يطلق عليهم اسم «الفرانك» . مغفلا التفصيل الثانوي ان كلمة «فرانك» كانت تستخدم الان بشيء من الاحتقار لتعني «الغرباء» من قبل العرب ، الذين طردوا اخر الصليبيين قبل ستة قرون ، دو كاسيه لمع «نزاع العرق والدين الدفين» الذي خلفه أجداده وراءهم وأصر على ان ثلاثة قرون من إراقة الدماء بين فترة واخرى كان بالحقيقة قد أسس «رابطة مميزة جداً من الوحدة بين فرانك فرنسا والعالم الاسلامي» .

ثمة خطاب غامض كثير الكلام فاض به ديلكاسيه . بالرغم من انه كان راغبا في تذكير غري بتعزيز اتفاق ١٩١٢ في وجه اي معارضة ، الا انه لم يرد الضغط على الحلف اكثر مما فعل وزير الخارجية البريطاني من اجل موضوع ثانوي نسبيا مثل سورية . في هذا الامر حصل على دعم كامل من قبل سفيرين كبار ، موريس بومبارد وبول كامبون . بومبارد ، الذي كان مبعوثا الى القسطنطينية حتى بداية الحرب ، لم يرد سورية معتبرا إياها «بضعة هكتارات غير محروثة» ؛ كامبون ، الذي تم تعيينه سفيرا في لندن مباشرة بعد الفاشودا حتى يقوموا بالتعتيم على القصة ، لم يرى أية إيجابية في طرح مطالبة في منطقة كانت في رأيه وطنا فقط» لمجموعة من قطاع الطرق اللصوص الهمجيين» .

لذلك ، كانت اللجنة مضطرة لمحاولة طريقا آخراً . ففي شهر نيسان / أبريل من تلك السنة اعدت لأقوى حليف عندها في مجلس الشيوخ الفرنسي ، محامي بدين اسمه ايتين فلاندين ، حتى يصدر تقريرا توقعت من ورائه

زيادة الضغط على ديلكاسيه . حققت جهود فلاندين المتبجحة قراءة مثيرة للاهتمام . في هذا التقرير حرض وزير الخارجية الفرنسي على ان ديبلوماسي وزير الخارجية الذين في حالة «سبات مؤسف» بسبب فشلهم في الدفاع عن المصالح الفرنسية في سورية ، ودعا حكومته من اجل» إنفاذ الملايين من البشر المطاردين من قبل مرتزقة السلطان» . كتب قائمة بالفوائد الاقتصادية نتيجة الاستيلاء على البلد ـ كل شيء من قوة الاستشفاء من الينابيع الحارة الى العطورات من زيوت الأزهار ومرورا بالبترول . ووعد بخصوبة متجددة لحظة اعادة اكتشاف أقنية الري الرومانية القديمة . حتى لفت الانتباه الى حقيقة ان سورية تزود فرنسا بقاعدة يمكنها منها سد السويس . لكنه فشل كثيرا في التأثير في ديلكاسيه ، بالرغم من ان اتهامه بالتقصير قد لسعه في الوقت المناسب .

في تلك الأثناء في بريطانيا شكلت الحكومة لجنة لتقرر اي جزء تريد من المناطق العثمانية ؛ وجد سايكس نفسه الأصغر سنا في تلك المجموعة التي تأخذ على عاتقها تلك المهمة . موضوع هذه المسالة مألوف لديه اكثر من غيره وهو اقل تحملا لإعباء ومسؤوليات الاعضاء الاخرين ، لذلك قام بأغلب اعماله . لكن عرضه الاول والذي كان تقسيم الامبراطورية العثمانية الى منطقة في الشمال الى روسيا ومنطقة مركزية الى فرنسا وقسم جنوبي الى بريطانيا ، لم يفضله زملاؤه . معا ، اتفقوا في النهاية على ان تقسيم الامبراطورية المغلوبة الى مقاطعات ستفرض عليها بريطانيا نفوذها ، اكثر مما هو سيطرة مباشرة . وتم ارسال سايكس الى الشرق الاوسط والهند حتى يروج لتلك الفكرة بين الموظفين البريطانيين هناك .

ما سمعه سايكس لدى وصوله الى القاهرة اقنعه بان يتمسك بفكرته الاصلية . في بداية الحرب ، ارسلت الحكومة البريطانية قوة جيش هندية لتفرض سيطرتها على مصانع تكرير النفط الحيوية في «عبادان «باللغة الفارسية

وبالعربية هي «شط العرب» على الساحل الجنوبي من ايران والمرفأ الرئيسي الأقرب الى البصرة التي هي الان في العراق . الموظفون الرسميون الذين التقى بهم سايكس اقنعوه بان يدعم المشروع المتهور الذي يصل القاعدة العسكرية في البصرة مع مصر ، مشكلا طوقا بريطانيا دائماً على امتداد منطقة هو وصفها بنفسه ذات مرة «امتداد كبيرا من العزلة الميتة المنسية» ، وصف فظ لكنه دقيق لما يسمى الان شمال العربية السعودية .

ما هو مذهل ، ان سايكس قبل ان يبدأ رحلته الى الهند ، قام بالبوح بتلك الفكرة لديبلوماسيين فرنسيين في اجتماع في اليوم الثامن والعشرين من شهر تموزيةليو . بعد ان اكد لهم ان الحكومة البريطانية ليس لها اي نية تجاه السيطره على سورية ، ثم اخبر نظراءه ان حكومته تخطط لبناء سكة حديد بين البصرة وقناة السويس عندما تنتهي الحرب ، وتريد السيطرة على الاراضي التي تجري عليها سكة الحديد . ولان الطريق المباشر لم يكن قابلا للتطبيق بسبب طبيعة الرمال الانسيابية التي سوف تعيق سكة الحديد ، شرح بان على سكة الحديد ان تتبع قوسا كبيرا عبر الصحراء الحجرية جهة الشمال اكثر ، عبر دمشق ، حتى تصل الى البحر في حيفا . وكنوع من التعزية ، عرض على الفرنسيين الإسكندرونة والميناء المجاور لها أضنة كذلك حصة من تدمر ، وهي واحة في الصحراء السورية كانت ذات يوم مدينة رومانية مزدهرة . من دون شك قلق الفرنسيون من الطريقة المقتصدة التي حدد فيها سايكس لما تتألف منه سورية ، وارسلوا تقريرا كاملا عن «النوايا الانكليزية» الى الكاي دورسيه في باريس من نفس اليوم .

والشكر لأعضائها داخل الكاي دورسيه ، عرفت لجنة اسيا الفرنسية في الحال بخطة سايكس ، والتي أخيرا قد زودتها بذخيرة من الحقائق التي تحتاجها في جدلها . فكان رد فعلها إصدار اقتراح مضاد ردا على اقتراح سايكس والذي يضع سورية وفلسطين بالكامل تحت سيطرة فرنسية . «وانه

يجب ان لا نفعل شيئا في المشرق اكثر من جني حصاد القرون السبعة من المحاولات الفرنسية» ، مصرة على ذلك ، وداعية الى مفاوضات مع بريطانيا .

ديلكاسيه ، الذي تم مهاجمته مسبقا بالانتقادات في البرلمان الفرنسي بسبب فشله إظهار أفعال مفعمة بالطاقة اكثر من ذلك ، الان حوصر تحت الضغط . واخبر سفيره في لندن ، كامبون ، ان تطلعات سايكس لا يمكن تحقيقها «من دون المخاطرة ذات يوم بخلق مشكلة للعلاقات الأنجلو - فرنسية» . فورا أخبر كامبون البريطانيين في اليوم الواحد والثلاثين من شهر آب / أغسطس سنة ١٩١٥ ان حكومته «لن تتحمل أية إنقاص لحقوقها في سورية وسيليكا - المنطقة المتاخمة ، الان في جنوب تركيا» .

اذا بدا ذلك على انه شيء ليس من طبيعة كامبون ، انه كذلك . السفير شخصيا تساءل عن حكمة المطالبة بسورية ، وتحذيره الصريح في الحقيقة ، كتب صيغته للملحق الجديد الذي وصل من باريس قبل ايام لينضم الى المهمة الفرنسية . ومن كتب الرسالة ، هو فرانسوا جورج بيكو ، والذي كان قنصل فرنسا في بيروت مباشرة قبيل الحرب ، لكن كان انتماءه لشيء اخر هو الاكثر اهمية الى حد ما في تلك الظروف . هو أيضاً كان عضوا في لجنة اسيا الفرنسية . اشقر الشعر ، طويل نحيل صلب قلبا وقالبا- يكنز بيكو حقدا منذ أمد طويل على البريطانيين . ظهوره في العاصمة البريطانية ينذر بنهج فرنسي متعنت اكثر من ذلك بكثير .

الفصل الثاني

المسيو بيكو

يجري في عروقه إيمان فرانسوا جورج بيكو بمهمة فرنسا الإمبريالية لنشر ثقافتها الحضارية . وكانا وو اخوه تشارلز ا عضوين في لجنة اسيا الفرنسية ، والتي كانت تحث على حق فرنسا في الحصول على سورية ، وأبوهما المتوفى جورج بيكو كان مؤسس مجموعة اخرى لممارسة الضغط ، وهي لجنة افريقيا الفرنسية قبل ربع قرن للضغط على الحكومة حتى تطالب بتلك الأجزاء من افريقيا التي كانت «ما تزال من دون سيد» .

كان جورج بيكو محاميا كبيرا ، عضوا في المعهد الفرنسي ومؤلفا لسيرة حياة غلادستون رئيس الوزراء الذي امر البريطانيين بالاستيلاء على مصر . ابنه فرانسوا جورج بيكو قام باتخاذ اسم ابيه المعروف بالكامل ليكون كنيته ، كانه لا يريد ان يترك لاحد اي مجال للشك ليعرف ابن من هو . البريطانيون ، الذين يثير حساسيتهم صوت بيكو «العالي» وطريقته بالتعامل كانه صاحب فضل على الاخرين ، تجاهلوا عمدا هذا التصنع ولقبوه ببساطه «السيد بيكو» العجوز . لكن على ما يبدو ان الديبلوماسي الفرنسي لم ينزعج من ذلك . وكتب عنه ديبلوماسي بريطاني مدمدما :كان «احد هؤلاء الفرنسيين الذين

قلما وجد مثلهم . . . ويبدو انه كل حياته لم يكن شابا» .

لكن جورج بيكو البالغ من العمر ثلاثة وأربعين سنة كان شابا ذات مرة . كطالب في البداية تبع خطوات أبيه ودرس القانون في الجامعة . ثم ، في سن الثامنه والعشرين ، فجأة غير مهنته . توقيت قراره ليصبح ديبلوماسيا قد جاء ، ولانه اتخذ قراره هذا سنة ١٨٩٨ : نفس السنة التي وقعت فيها حادثة الفاشودا ، كانت الكارثة التي ساعدت جماعة ابيه بحدوثها بسبب الضغوطات التي كانت تمارسها على الحكومة . هيمنت الفاشودا و«عواقبها» على سنوات جورج بيكو المبكرة في وزارة الخارجية الفرنسية او ماتعرف الكاي دورسيه ، وتركت هذه الحادثة المهينة علامتها . ولان جورج بيكو لم يعد يؤمن بتصميم الحكومة الفرنسية للدفاع عن مصالحها القومية ، قرر هو ومعاصروه التعامل مع البريطانيين بحزم اكثر في المستقبل . لخص سياسي بريطاني فيما بعد نهجهم بانه» لا تعطي شيئا وطالب بكل شيء» .

بينما بدا مارك سايكس غافلا عن المضامين السياسية المعاصرة في العالم العربي ، جورج بيكو كان على معرفة كاملة بها . بينما كان جورج بيكو قنصل فرنسا في ميناء بيروت المزدهر تماماً قبل الحرب العالمية الاولى استلم رسائلا من ضباط جيش عرب شباب وطموحين ، محامين وصحافيين الذين يريدون مساعدة فرنسا لتحقيق هدفهم والذي هو الحكم الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية . حتى ان العرب قد عملوا على عقد كونغرس لمناقشة هذا الهدف في باريس سنة ١٩١٣ ، لكن الحكومة الفرنسية كانت غير مستعدة لمساعدتهم بسبب فوائدها المالية التي تحصل عليها من استمرارية العثمانيين ، وكان بمقدور جورج بيكو فقط حفظ هذه المساعي المتعلقة بالآمال بعيدا بحذر .

في شهر حزيران / يونيو سنة ١٩١٤ ، تم إرسال منشور عربي الى بيكو يطالب باستقلال سورية التام مما اقنعه ان سياسة حكومته يجب ان تتغير .

معتقدا ان المنشورالمرسل اليه «يتمتع بفرصة اكبر من الماضي لإيقاظ صدى في نفس القارئ» ، وحذر رؤساءه بانه اذا لم يساعدوا العرب ، فآخرون - يقصد بذلك البريطانيين - سيفعلون . لكن حكومته لم تفعل شيئا . ففي حالة من الياس عندما بدا من المحتمل خوض فرنسا والعثمانيين الحرب في فصل الخريف ، نظم بشكل سري تزويد الحكومة اليونانية المسيحيين في لبنان بألف وخمسمائة بندقية ومليوني جولة من الذخائر . وعندما نشبت الحرب ، اضطر للمغادرة .

كان توقع جورج بيكو خاطئا ان فرنسا ستغزو بسرعة حتى تساعد الثورة اللبنانية التي توقع ان تبدا بعد وصول الاسلحة والذخائر . بناء على هذا الافتراض ، بدلا من حرق الرسائل التي ارسلها العرب له ، بسذاجة ائتمن القنصل الاميركي على مفاتيح القنصلية والأرشيف الذي يدين الكثيرين . عندما اسرع الى ظهر السفينة ليغادر بيروت ، قال لحظة توديعه الموظفين المحليين الذين تركهم في بيروت «أراكم بعد أسبوعين» .

الغزو لم يحصل إطلاقا ، والأمل بحدوث ثورة في لبنان تلاشى عندما استولى العثمانيون على ملفات القنصلية الفرنسية ، وبسبب إهمال جورج بيكو ، تمكنوا من القبض على العديد ممن كانوا ينقلون له الرسائل وأصدقاءهم واعدموهم . عاد الى باريس واجتمع من جديد مع زملائه الذين يشاركونه نفس العقلية ، ترك منصب القنصل ليقود اوركسترا جهود لجنة اسيا الفرنسية لإجبار ديلكاسيه على مواجهة «المسالة الشرقية» ، في البرلمان وبين رجال الاعمال في ليون ومارسيل الذين تمسكوا بفكرة الاستفادة من صناعة الحرير السورية . يا لها من قوة متنامية من الضغط على الحكومة لدرجة انها انصاعت لافكارهم عندما قرر أخيرا ديلكاسيه انه لا خيار أمامه سوى بحث المسالة مع البريطانيين . في شهر اب سنة ١٩١٥ تم ارسال جورج بيكو الى لندن ولم يتم ارسال السفير السابق في القسطنطينية بومبارد الذي كان شاكا بهذه الخطوة .

سرعان ما شعر جورج بيكو بانه قادر على كتابة تقرير عن تحسن الوضع الى حلفائه في باريس وفي اي مكان اخر، واخبر صديقه القديم ألبرت ديفرانس السفير الفرنسي في القاهرة، «الان بين ايادي البريطانيين نصا يعرض مطالبنا، ولا يمكنهم التظاهراكثر من ذلك بتجاهلها» لكن رغم انه كان على حق في قول انه اجبر الحكومة البريطانية على تناول المسالة التي شغلت بال الجمعية كثيرا، الشيء الذي لم يعرفه ان نظراءه البريطانيين لم يعد أيضاً بوسعهم النظر الى المطلب الفرنسي بمعزل ايضا، لانه من دون علمه، لكن تماماً كما كان يخشى، كانوا قد قدموا عروضهم الى العرب في السر. العاقبة كانت طلب إقليمي اخر متداخل مع طلبهم، الطلب هذه المرة من قبل الشريف حسين في مكة.

حاكم مصر البريطاني، المندوب السامي السير هنري ماكماهون، بهدوء تقرب من حسين بعد ان بدا واضحا ان النزول في غاليبولي(مدينة تقع قرب القسطنطينية ايام الامبراطورية العثمانية) قد فشل في تحقيق الضربة القاضية التي قصدها سايكس والآخرون. رجل نحيل واه وحذر مع سمعة انه الى حد ما كسول، خدم ماكماهون اغلب حياته المهنية في الهند. تم تعيينه في مصر فقط لملئ الفراغ بعد كيتشنر، الذي كان ملقى على عاتقه تلك المهمة في السابق، تم استدعاءه الى لندن حتى يتراس مكتب الحرب(احدى دوائر الدولة غير موجودة هذه الايام بل كانت تعود الى القرن السابع عشر حتى سنة ١٩٦٤ في تلك السنة تم تحويل وظائف هذا المكتب الى وزارة الدفاع). شعر ماكماهون بعدم الارتياح للمسؤولية التي القت على عاتقه، ليس فقط لانه يعرف انه ما ان تنسحب القوات البريطانية من الدردانيل سيقوم الاتراك بهجوم معاكس، وقد يكون هدفهم مصر. هذا التصور اثار خوفا آخراً. تأثر اقتصاد مصر بشكل سيء بسبب الحرب وغالبية شعب مصر العربي المسلم كان الجمهور الاكثر قربا الأسرع تاثرا بنداء السلطان للجهاد. حتى منتصف سنة

١٩١٥كان ماكماهون ومستشاريه خائفين من ان الهجوم التركي على القناة قد يشكل بسهولة إشعال شرارة الثورة العربية ضدهم في دلتا النيل .

انه كان رجل شاب اخر غشاش واثق من نفسه شعره خفيف رونالد ستورس ، الذي جاء بفكرة عبقرية وهي استخدام الشريف حسين لإضعاف قوة الجهاد . ستورس ، الذي كان مستشار ماكماهون للشؤون الشرقية ، كان قد عمل في المفوضية السامية البريطانية في القاهرة لعدة سنوات . كان يعلم ان علاقة حسين مع العثمانيين متوترة لانه تماماً قبل الحرب ابن الشريف ، عبد الله ، سأله بشكل مباشر فيما اذا يمكن لبريطانيا تزويد العائلة بالأسلحة لتمكينها من إسقاط الاتراك . قبل الحرب ، لم يكن باستطاعة البريطانيين المساعدة ؛ الان يستطيعون . بتحريض من ستورس عمل ماكماهون بشكل سري على الاتصال بحسين ، ملمحا ان مساعدة البريطانيين ستترتب اذا ثار ضد عدوهما المشترك الان .

جادل ستورس ان الشريف حسين العبوس ذا العمامة ، واللحية البيضاء يناسب بشكل مثالي ليضعف نداء السلطان المجلجل هذا لخوض حرب دينية . لم يكن فقط حسين حاكم المدينة التي هي قطب العالم الاسلامي - رقم هاتفه كان مكة ١ - لكن كونه» شريف «كان معترفا به على انه سليل مباشر للنبي محمد ، نسب لا يمكن للسلطان المطالبة به . اقترح ستورس ايضا انه كان من مصلحة بريطانيا الامبريالية تشجيع طموح حسين لأخذ مكانة السلطان كخليفة . كتب ستورس انه بعد انهيار الامبراطورية العثمانية سيكون حسين «الرئيس الوريث الروحي من دون سلطة مؤقتة» ، المعتمد على البريطانيين بالدخل والحماية ووكيل لبسط النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط .

هذا الموقف السافل قد شكل ردة فعل ماكماهون عندما استجاب حسين لعرضه في شهر آب سنة ١٩١٥ ، بنفس وقت وصول جورج بيكو

الى لندن ليحث على حق الفرنسيين في سورية . عندما طالب الشريف على نحو غير متوقع ان يدعم البريطانيون طلبه بالحصول على امبراطورية كبيرة لا تتألف فقط من شبه الجزيرة العربية لكن سورية ، العراق وفلسطين كذلك ، رفض ماكماهون في البداية أخذ طلبه على محمل الجد . ستورس ، الذي كان بين فترة واخرى يفاصل في السعر عندما يريد شراء الانتيك والسجاد في بازار القاهرة ، نظر الى حسين على انه بائع يمكن لسعره الذي يبدأ به ان يقايضهعليه في الوقت المناسب . لكن عندما حاول المندوب السامي البريطاني تأجيل النقاش حول هذا الطلب ، ردة فعل حسين كانت حادة . رد عليه الشريف في بداية شهر أيلول ، «في الحقيقة الحدود المقترحة لا تمثل فقط اقتراحات فرد الذي طلبه قد ينتظر نتيجة الحرب ،لكنه حق شعبنا الذي يؤمن ان هذه الحدود تشكل الضرورة الدنيا لتأسيس نظام جديد يتوقون له» .

طلب حسين الذي كبر ليشمل أراض أوسع حتى يمثل العالم العربي قد يبدو مستحيلا بعيد عن الصواب اذا لم يتم تأييده من قبل مصدر اخر . لكن في صدفة مثل السحر ، تماماً لدى وصول رسالته الى القاهرة ضابط عربي شاب في الجيش العثماني اسمه محمد الفاروقي انشق وهرب الى البريطانيين في غاليبولي . في سلسلة من المقابلات مع الضباط البريطانيين في القاهرة ، من بينهم سايكس ، الذي كان في ذلك الوقت في طريق عودته من الهند الى بلده ، ادعى الفاروقي ان تقريبا كل رفاقه الضباط العرب كانوا اعضاء في حركة قومية عربية سرية . بناء على ما قاله الحركة في تلك اللحظة بالذات تفكر اما بإلقاء ثقلها على العثمانيين والألمان ، او بتحويل ولائها الى البريطانيين . الفاروقي كان يبالغ بشكل واسع ،لكنه لم يكن امام البريطانيين من خيار سوى أخذ كلامه على محمل الجد عندما أفضى لهم انه يعلم انهم يتفاوضون مع حسين بالسر . بسبب اعطائه هذه المعلومات السرية عن تلك المراسلات ، اتضح ان شبكة الفاروق العربية ذات التأثير الكبير وطلب حسين

الدراماتيكي ليمثل العالم العربي الواسع كلاهما صحيح .

كشف الفاروقي هذه المعلومات اجبر ماكماهون على اعادة تقييم نفوذ حسين . في الثامن عشر من شهر كانون الاول حذر المندوب السامي البريطاني لندن في برقية بشكل مختصر بان «جماعة العرب على مفترق طرق «وانه بناء على ذلك بحاجة الى تقديم عرضه الى حسين بسرعة . وتابع : «ان لم يكن بإمكاننا أعطاءهم ضمانا عاجلا حتى يرضوا سيرمون انفسهم الى ايدي الألمان» . ايد سايكس ماكماهون عندما عاد الى لندن . هو أيضاً شعر ان العرب سيقفون الى جانب الاتراك العثمانيين «في حالة تركنا هذه الفرصة تضيع منا» .

ترك الوضع المتطور في القاهرة السير أدوارد غري في وضع لا يحسد عليه . ما من واحد منهما يعرف الاخر ، الاول جورج بيكو والان حسين يطلبان منه الاعتراف بالمطالب المتعارضة نع بعضها بالأراضي المتداخلة في الشرق الاوسط ، مجبرين إياه على الاختيار بينهما . نصحه احد موظفيه ان «الوضع يجب ان يكون مفهوما من قبل الجانبين الفرنسي والعربي منذ البداية ، او سنكون مقبلين على مشاكل حقيقية» ، لكن يمكنه أيضاً ان يرى ان الصدق بحد ذاته فيه خطورة . تفضيل العرب على الفرنسيين سيهدد الحلف بالخطر ؛ حسين الرافض قد يلقي بثقل العرب وراء جهاد السلطان العثماني .

دفتر غري الذي يسجل فيه ملاحظاته والاحداث اليومية والمواعيد ، بالاضافة الى الإشاعات التي كان يسمع بها ، جعله يميل الى الفرنسيين . كان يتوقع لقاء كامبون ليناقش الحق الفرنسي في الحصول على سورية في يوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الاول ، وفي نفس الوقت كانت تصله قصص مزعجة ان الدعم الشعبي في فرنسا لخوض غمار الحرب يلوح بالأفق . اقنعه كلا العاملين ان الحاجة الى عدم إزعاج الفرنسيين اكثر اهمية من خطر الجهاد . ولانه ناقش مع زملائه في مجلس الوزراء التعليمات التي عليه ان

يعطيها لماكماهون (الذي كلماته المخربشة يترأسها سؤال محزن ، «هل يفي هذا بالغرض؟») في اليوم العشرين من شهر تشرين الاول ارسل برقية الى القاهرة مخبرا المندوب السامي ان لا يكون واضحا قدر المستطاع في رسالته التالية للشريف عند مناقشة الزاوية الشرقية الغربية من السورية والتي يطالب بها حسين . لكن بناء على السرعة التي تتحرك بها الاحداث ، أيضاً ترك لماكماهون بشكل قطعي «حرية التصرف في الامر حسب الضرورة وليس هنالك وقت ليناقش صيغة محكمة . . . اذا شيء يفترض تحديدا اكثر من هذا يمكنك توضيحه» .

لم يكن ماكماهون مسرورا من التهرب من تحمل المسؤولية ، واتبع نصيحة غري بدقة . ولانه استخدم الفاروقي ليعرف منه بما يمكن ان يقبل به الشريف ، في رسالة بتاريخ يوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول عرض على حسين وعدا غير واضح ان بريطانيا ستعترف بحقه بأغلب المنطقة التي يريدها ، باستثناء منطقتين منها الاكثر خصوبة . احدهما القاعدة العسكرية على راس الخليج الفارسي والذي يحتله الجيش البريطاني بالاصل . والمنطقة الاخرى كانت الجزء الساحلي من سورية التي يرغب الفرنسيون بها بولع والتي حددها بالمجمل فقط من دون تفاصيل . «كان يتوجب علي ان اكون غامضا بالضرورة «شرح لاحقا ، «لانه من ناحية واحدة لا تحبذ حكومة جلالته ان تتعهد بإقرار عمل سيحصل في المستقبل ، ومن ناحية اخرى أي تحديد مفصل لمطالبنا سيخيف العرب» . معنى عبارته منذ ذلك الحين وهو موضع جدل ، هذا الشيء ليس مفاجأة ، لانه لم يقصد بهذه العبارة ان تكون واضحة أبدا .

التطور التدريجي في الجملة الرئيسية في الرسالة يثبت ان ماكماهون كان يحاول عمدا تضليل الشريف . في البداية ، عمد على تكييف قدرته ليعترف بطلب حسين في المنطقة المتبقية بعبارة «الى حد تكون فيه انكلترا حرة في

التصرف من دون الضرر بمصالح حلفائها الحاليين» ، لكن ما خطر على باله ان هذا التحذير قد يلفت انتباه حسين فعمل على تخفيف اللهجة . لذلك نصت النسخة الاخيرة من الرسالة (الخاضعة للتعديلات التي اشترطها) على : «نقبل بهذا القدر من الحدود ؛ وفيما يتعلق بتلك الأجزاء من المناطق التي بريطانيا حرة بالتصرف فيها من دون الضرر بمصالح حليفتها فرنسا «قال ماكماهون انه كان» مفوضا باسم حكومة بريطانيا العظمى ، لإعطاء التأكيدات التالية» . . .

تبدو الفقرة الشرطية بالعقد الان مثل تأكيد ان لا شيء يمنع بريطانيا من الاعتراف بحق العرب في ما تبقى من سورية ، وكان هنالك فاصلة بين الكلمتين (فيها) و(التي فيها) ، لكن بشكل متعمد عمل ماكماهون على حذف أية فواصل لانه أرادها ان تعني العكس . كما اخبر وزير الخارجية انه «حاول ان يحتاط من الادعاءات الفرنسية المتوقعة . . . فعمل على تحوير شامل لمفعول ان حكومة جلالته يمكنها فقط إعطاء تأكيدات بخصوص تلك المناطق ، التي يمكنها ان تتصرف فيها من دون الضرر بمصالح حليفتها فرنسا ، «يوحي قراره وضع الجملة قاب قوسين نفس العبارة التي استخدمها بانه واثق جداً من هذه المراوغة ، لكن لسوء حظه اول شخص احتار بشانها عميل ستورس السري ومترجمه ، روحي . ترجمة روحي العربية التي تم إرسالها الى الشريف في ذلك الحين ، اضاعت بالكامل هذا المعنى الثاني المعدل . فيما بعد ، ستورس المتالم على ضياع هذه الفرصة التي كان يرغب بها بتوق كبير ، عكس الصورة من خلال قوله : ان روحي كان «عميلا افضل مما هو تلميذ طالب علم» .

في الوقت الذي بعث فيه ماكماهون رسالته الى حسين ، رأى غري السفير الفرنسي ، كامبون . عندما التقيا في الواحد والعشرين من شهر تشرين الاول عرض وزير الخارجية البريطاني على كامبون ان تعين فرنسا وكيلا لها ليناقش

حدود سورية في المستقبل لان بريطانيا أرادت دعم اقامة دولة عربية مستقلة ، لكنه لم يخبر كامبون الى اي حد وصلت اليه المناقشات مسبقا مع حسين . كامبون ، الذي اخبر غري انه حسب بانه سيتم استشارة الحكومة الفرنسية حول أي تعامل مع الشريف ، ارسل تقريرا الى باريس معبرا عن سروره من ان وزير الخارجية البريطاني يوحي من خلال المحادثات ، بانه أعطى بشكل فعال «اعترافا رسميا وقانونيا لحقوقنا في سورية» . رجح مستشاره الجديد جورج بيكو ليكون المفاوض ، لان جورج بيكو يفهم المسائل السورية «اكثر من اي شخص اخر» .

من هذا المنطلق أضحى جورج بيكو الناطق باسم سياسة الحكومة الفرنسية في الشرق الاوسط . عاد الى باريس ارسل تعليمات اخرى من دون ذكر اسمه الى كامبون ، معترفا بنفسه بانه مفاوض كامبون وآمرا إياه المطالبة بسورية التي تتألف من فلسطين من خلال الامتداد جهة الجنوب الى الحدود المصرية ومن جهة الشرق الى الموصل . كما وضعها بجفاء ان كتابة أوامره «طريقة جيدة للتأكد ان تعليماتي كافية» . ومن ثم عاد الى لندن لينفذ هذه التعليمات .

بينما قام جورج بيكو بالتحضير لمواجهته القريبة مع الحكومة البريطانية ، تمكن السفير الفرنسي في القاهرة ، ديفرانس ، من معرفة ان حسين على اتصال مع البريطانيين عندما سال الفاروقي . في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول (من نفس اليوم الذي حذر فيه ماكماهون لندن ان هناك «سبب لشكوكه «في ان ديفرانس قد عرف بالتبادل الحديث في الرسائل بيننا وبين مكة») ارسل ديفرانس تقريرا عن هذه المراسلات الى باريس . ولان ديفرانس لم يحكم بشكل صحيح على الجواب المحتمل من قبل البريطانيين الى الشريف ، لذلك اخبر الكاي دورسيه انه يعتقد ان ماكماهون سيرفض طلب الشريف ، لانه اذا كان طلب فرنسا للحصول على سورية ليس كافيا

لردعهم ، ستمنعهم رغبتهم في ابقاء سيطرتهم على المنطقة حول البصرة التي احتلوها في بداية الحرب .

في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني انعقد اجتماع فوق العادة مع شخص واحد في الوايتهول .

من على جانب واحد من الطاولة كان الأشقر جورج بيكو ؛ مقابل النواب الاخرين البريطانيين السبعة من وزارات الحكومة الثلاثة التي لها مصلحة في الشرق الاوسط . عندما قام من يدير مجموعة البريطانيين المفوضة من قبل الحكومة ، رئيس مكتب الخارجية السير أرثر نيكسون ، باخبار بيكو بالضبط ما قد قامت الحكومة البريطانية بعرضه على الشريف ، كانت ردة فعل الرجل الفرنسي «لا تصدق بالمرة» ، حسب احد الشهود البريطانيين . لم يكن فقط افتراض ديفرانس ان البريطانيين لن يمنحوا أرضا للعرب افتراضا خاطئا ، لكنه كان من الواضح ان البريطانيين لم يكن لديهم النية باستشارة حليفتهم قبل التوصل الى اتفاق مع حسين .

رد جورج بيكو الذي استرد هدوءه بسرعة «ان تعد العرب بدولة كبيرة هو ان تربكوهم» . «ثمة دولة لن تتحقق . لا يمكنك تحويل عددا هائلا من القبائل الى وحدة قابلة للتطبيق» . أظهر جورج بيكو القليل من التعاطف مع الجدل البريطاني حول تهديد الجهاد ، مشيرا الى ان الخطر يعود الى عدم شعبية الحكم البريطاني في مصر . على كل حال ، تابع ، الشعب الفرنسي المتطرف في وطنيته لن يقبل ابدا بخطة بريطانيا ، ولن تصمد أية حكومة ستوافق على ذلك . واخبر نظراءه البريطانيين ان «سورية كانت قريبة جداً من قلب الفرنسيين» ، مذكرا إياهم بانه ، بينما كانوا مشغولين في حملة غاليبولي ، احتملت فرنسا وطئة المعركة من خلال قتالها على الجبهة الغربية في تلك السنة . «و الان ، بعد التضحية بأرواح الكثير ، لن توافق فرنسا على عرض الاستقلال على العرب ، رغم انه في بداية الحرب كان من الممكن ان تفعل ذلك» .

انفض الاجتماع من دون الاتفاق على شيء . اجتمع فيما بعد النواب البريطانيون مرة ثانية على شكل مجموعات صغيرة ليعبروا عن سخطهم من جورج بيكو . تركوا فاغري الأفواه من الطريقة التي كان يتكلم بها الرجل الفرنسي» وكأن سورية بل وحتى فلسطين هما بالكامل لهم مثل النورماندي» ، وتلميحه ان الحكم البريطاني في مصر غير شرعي قد سبب ذلك سخطا تاما . عندما استلم رئيس المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة ، بيتي كلايتن ، نسخة عن الدقائق التي جرى فيها الاجتماع ، تذكر على الفور الفاشودا . هاجم جورج بيكو واصفا إياه بانه «احد هؤلاء من مدرسة سنة ١٨٩٨ التي تكره كل ما هو انكليزي» ورفض جدله معتبرا إياه «كلام عاطفي أجوف» .

لكن في لندن ، أدرك البريطانيون بسرعة انهم لن يتمكنوا بسهولة من مواجهة ما قاله جورج بيكو لانه كان يلعب بذكاء على وتر حساس . الفرق في الاستراتيجية بين الحليفتين الاثنتين ان الفرنسيين كابدوا إصابات كثيرة حتى الان في الحرب ، والحكومة البريطانية تتذمر دائما من العواقب . في وقت حديث مثل شهر تشرين الاول ، سفير بريطانيا في باريس اللورد بيرتي رفض قصص رواها الرحالة عن الفرنسيين بانهم «غير مثابرين ويقاتلون في الحرب حتى النهاية . لكن بعد ايام من لقاء جورج بيكو بالبريطانيين ، بيرتي كان مضطرا للاعتراف انه منذ ان لاحظ» ميولا في بعض مراكز المجتمع والتجارة للاعتقاد اننا نستغل فرنسا ضد المانيا من اجل مصلحتنا الفردية وان التضحيات التي اجترحتها فرنسا هي اكثر بكثير من التضحيات التي قدمتها انكلترا» .

الخطر ، كما قدر البريطانيون بسرعة ، هو ان طبيعة سرية العروض بين ماكماهون وحسين عملت فقط على تعزيز الادعاءات ان بريطانيا كانت تتابع مطامعها الإمبريالية بمفردها بينما كانت فرنسا تضحي بجنودها على

الجبهة الغربية من اجل قضيتهما المشتركة . من خلال ربط عدد الإسعافات الفرنسية بعدم رغبة فرنسا قبول العرض البريطاني استغل جورج بيكو هذا الضعف ، والحلف كان مهما جداً مع ذلك هشا حتى تتجرأ بريطانيا على تحدي جورج بيكو ليثبت صحة مزاعمه . كما وضعها احد الجنرالات قائلا من خلال أسنانه المكزوزة ، «يجب ان نستمسك بحلفائنا الخبيثين» .

نتيجة قلق البريطانيين من ردة الفعل التي تسببوا بها ، حاولوا التقليل من اهمية رسالة حسين ، حيث ناقشوا ان الشريف لن يتمكن من المطالبة بالجائزة او الغنيمة التي عرضها عليه ماكماهون . نيكسون ، الذي تراس الاجتماع مع جورج بيكو ، بدا يسترجع في ذهنه انتقاد الرجل الفرنسي لعرض ماكماهون . الان الديبلوماسي البريطاني صرف النظر عن الدولة العربية التي وعدوا بها على اعتبار انها «لا معنى لها بشكل واضح» لان العرب «مجموعة من القبائل المشتتة من دون روابط ومن دون تنظيم» بعد ان اشتكى كامبون بشكل لاذع من ابقائه في الظلام حول الى اي حد وصلت اليه المفاوضات مع حسين ، بشكل مباشر طمأنه وزير اخر بمجلس الوزراء ، اللورد كرو ، ان بريطانيا «ليس لديها نية في تنظيم تلك الدولة العربية ، اذا كان لواحدة ان تتشكل ، ستشمل لبنان او اي جزء من العالم سيتقدم الفرنسيون بطلب معين فيه» .

ترك هذا التراجع السريع جورج بيكو تحت انطباع ان «ما يريده البريطانيون ، هو فقط تضليل العرب» . في اليوم الثاني من شهر كانون الاول كتب تقريرا الى رئيس الوزراء الفرنسي اريستيد برياند ، انهم «يتمنون إنجاز ذلك من خلال العرض عليهم الكثير بينما يعترف ان البناء الذي يبنوه من المحتمل ان لا يدوم الى فترة ما بعد الحرب» .

اقلق نجاح جورج بيكو برياند . معتقدا ان الحصول على الكثير من الاراضي قد يشكل عبئا كبيرا على الدولة الفرنسية ، عندما عاد بعد ذلك جورج بيكو الى باريس اخبر الديبلوماسي ان يقلل مطالبه . وجادل برياند ان فرنسا لا

تحتاج بالتحديد المنطقة حول القدس ، لانها «بلد قيمته قليلة ، الحصول عليه غير مرغوب به» .

لم يكن على هذا النحو موقف جورج بيكو في التفاوض الذي أعاد النظر به ليطرحه على البريطانيين عندما عاد الى لندن . عندما التقى بالبريطانيين للمرة الثانية في اليوم الواحد والعشرين من شهر كانون الاول أبدى رغبته بقبول التخفيضات بحجم الاراضي التي ستسيطر عليها فرنسا كتنازل انتزعه من رؤسائه الذين رفضوا هذا التنازل . شاعرا ان البريطانيين «مفزوعين» من الشريف ، مطالبا انهم يوافقون على ان يبقى مجال النفوذ الفرنسي ممتدا حتى بتجاوز مدينة الموصل ليصل الى نهر دجلة في الشرق . اعتقد جورج بيكو انه بامكانه فرض هذه الصفقة ،لكنه قوبل بمقاومة . البريطانيون كانوا مستعدين للاعتراف بالحق الفرنسي بهذه المنطقة الشرقية من البلاد ، لكن بدورهم كان لديهم طلب خاص بهم . على عكس ما قاله اللورد كرو للتو لكامبون ، اخبر رئيس المفوضية البريطانية السير أرثر نيكلسون جورج بيكو ان بريطانيا تريد لبنان لتشكل جزءا من الدولة العربية في المستقبل . «خذ اقتراحنا الى حكومتك : لن ترفضه حقيقية» ، اخبره نيكلسون ، بنزق . «بهذا ستكون في موقف افضل بشكل بارز من الموقف الذي نحن به ، في مصر . ماذا تريد اكثر من هذا بالضبط؟ .

رد جورج بيكو : «يمكنك ان تشعر بقيمة هذا المكان . لهذا بالضبط انت تريده لشريف مكة» . لم يكن ينوي التنازل اكثر من هذا . «انت تضيع الوقت الذي ، انت وأنا كلانا يعلم ، انه ثمين» . الاجتماع الثاني ، مثل الاول ، انتهى من دون حل .

من اجل حل المأزق ، اتجه نيكلسون الان الى سايكس الذي ، قبل خمسة ايام ، ترك انطباعا حسنا في مجلس الوزراء بسيطرته البادية للعيان على الموضوع ولتقسيمه الشامل للشرق الاوسط . السياسي الواعد التقى بجورج

بيكو فورا وبالسر في فترة بعد ظهر يوم الواحد والعشرين .

كان من الممكن التوصل بسرعة الى اتفاق على طول الحدود التي قام للتو سايكس باقتراحها على مجلس الوزراء . فشل سايكس في رؤية حركة الوعي السياسي العربي اثناء سفرياته في الامبراطورية العثمانية قبل الحرب ، وقد وضح رايه بروح خفيفة في احد المداخل في فهرس» ارث الخليفة الاخير» ـ «شخصية العرب : انظر ايضا الخيانة» ـ ، لم ير أية ضرورة على الاطلاق بالاعتراف بعرض ماكماهون المعروض على حسين منذ فترة . جورج بيكو ، الذي كان على معرفة جيدة بالتهديد الذي تمثله القومية العربية لمطامع بلاده الإمبريالية ، كان مسرورا بالموافقة على العرض الذي يتجاهل هذه المراسلات .

بموجب المشروع الاستراتيجي الذي تم إقناع سايكس تأييده في وقت مبكر من ذلك الصيف في القاهرة ، راى ان مهمته «جعل العرب يتنازلون قدر المستطاع للفرنسيين ، وان نحصل على منفذ لنا في حيفا وفلسطين ضمن نطاق مشروعنا لتكون بمثابة تنازل من الفرنسيين لنا» . ولان هذا التصور كان في ذهنه ، كان سعيدا بالتنازل عن الموصل ، المدينة التي يكرهها على أية حال ، وعن لبنان ، الى جورج بيكو .

لكن لم يتمكن الرجلان من التوصل الى اتفاق حول فلسطين . رغم ان برياند قد اخبر جورج بيكو ان لا يتابع هذه المطالبة ، الا ان هذا الطلب كان أساسيا جداً في الخطابات البلاغية للحزب الاستعماري ما جعله يرفض تفويت تلك الفرصة . «أية إيماءة يبدو انها تثير ذكريات كل ضيم من جان دارك الى الفاشودا» ، قال سايكس ذلك متأوها بعد ان فتح الموضوع . في النهاية اتفق الرجلان على ان تكون فلسطين تحت سيطرة دولية . كان هذا حل وسط لم يحبذه كلا الرجلين ـ جورج بيكو لانه «ما من شيء اكثر من هذا يمكنه ان يولد صراعا في المستقبل» ، وسايكس بسبب التجويف الذي تركه

في مشروع الدفاع الإمبريالي الذي خطط له ـ لكنه مهد الطريق الى اتفاق توصلا اليه في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦ .

في اتفاق سايكس ـ بيكو ، كما اصبحت هذه الترتيبات معروفة ، دار الكلام شفهيا فقط بين الرجلين حول وعد ماكماهون لحسين باستقلال العرب ، لكن حينها استعملا خط سايكس في الرمال ـ من عكا على ساحل البحر المتوسط الى كركوك قرب الحدود الفارسية ـ لتقسم الى قسمين المنطقة التي عرضها المندوب السامي البريطاني على حسين . المنطقة شمال الخط ستكون تحت الحماية الفرنسية ؛ والمنطقة في الجنوب ، للبريطانيين .

ضمن اي من هاتين المنطقتين هنالك مناطق حيث فرنسا وبريطانيا يمكن لهما توطيد سيطرة كاملة اذا رغبا بذلك . «الأزرق» فرنسا ، منطقة تتألف من الساحل السوري واللبناني ، تمتد وتتوسع باتجاه تركية الحديثة جهة الشمال على شكل حبة الفطر . «الاحمر» ، للبريطانيين ، منطقة تمتد الى الجزء البريطاني الموجود في الاصل والذي يشكل قاعدتها العسكرية في جنوب العراق وباتجاه الاعلى نحو بغداد ، وبشكل منفصل ، تغطي منطقة بريطانيا ميناء حيفا . فلسطين مشار اليها باللون البني . سعى الطرفان للحصول على موافقة حليفتهما روسيا ، وانهيا الاتفاق بتبادل الرسائل في شهر ايار سنة ١٩١٦ . في الوقت الحالي بقي الاتفاق سرا ، انعكاس حقيقة من اجل حل المأزق ، اتجه نيكلسون الان الى سايكس الذي ، قبل خمسة ايام ، ترك انطباعا حسنا في مجلس الوزراء بسيطرته البادية للعيان على الموضوع ولتقسيمه الشامل للشرق الاوسط . السياسي الواعد التقى بجورج بيكو فورا وبالسر في فترة بعد ظهر يوم الواحد والعشرين .

كان من الممكن التوصل بسرعة الى اتفاق على طول الحدود التي قام للتو سايكس باقتراحها على مجلس الوزراء . فشل سايكس في رؤية حركة الوعي السياسي العربي اثناء سفرياته في الامبراطورية العثمانية قبل الحرب ، وقد

وضح رايه بروح خفيفة في احد المداخل في فهرس»ارث الخليفة الاخير» ـ «شخصية العرب: انظر ايضا الخيانة» ـ لم ير أية ضرورة على الاطلاق بالاعتراف بعرض ماكماهون المعروض على حسين منذ فترة. جورج بيكو، الذي كان على معرفة جيدة بالتهديد الذي تمثله القومية العربية لمطامع بلاده الإمبريالية، كان مسرورا بالموافقة على العرض الذي يتجاهل هذه المراسلات.

بموجب المشروع الاستراتيجي الذي تم إقناع سايكس تأييده في وقت مبكر من ذلك الصيف في القاهرة، راى ان مهمته «جعل العرب يتنازلون قدر المستطاع للفرنسيين، وان نحصل على منفذ لنا في حيفا وفلسطين ضمن نطاق مشروعنا لتكون بمثابة تنازل من الفرنسيين لنا». ولان هذا التصور كان في ذهنه، كان سعيدا بالتنازل عن الموصل، المدينة التي يكرهها على أية حال، وعن لبنان، الى جورج بيكو.

لكن لم يتمكن الرجلان من التوصل الى اتفاق حول فلسطين. رغم ان برياند قد اخبر جورج بيكو ان لا يتابع هذه المطالبة، الا ان هذا الطلب كان أساسيا جداً في الخطابات البلاغية للحزب الاستعماري ما جعله يرفض تفويت تلك الفرصة. «أية إيماءة يبدو انها تثير ذكريات كل ضيم من جان دارك الى الفاشودا»، قال سايكس ذلك متأوها بعد ان فتح الموضوع. في النهاية اتفق الرجلان على ان تكون فلسطين تحت سيطرة دولية. كان هذا حل وسط لم يحبذه كلا الرجلين ـ جورج بيكو لانه «ما من شيء اكثر من هذا يمكنه ان يولد صراعا في المستقبل»، وسايكس بسبب التجويف الذي تركه في مشروع الدفاع الإمبريالي الذي خطط له ـ لكنه مهد الطريق الى اتفاق توصلا اليه في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦.

في اتفاق سايكس ـ بيكو، كما اصبحت هذه الترتيبات معروفة، دار الكلام شفهيا فقط بين الرجلين حول وعد ماكماهون لحسين باستقلال العرب،

لكن حينها استعملا خط سايكس في الرمال ـ من عكا على ساحل البحر المتوسط الى كركوك قرب الحدود الفارسية ـ لتقسم الى قسمين المنطقة التي عرضها المندوب السامي البريطاني على حسين . المنطقة شمال الخط ستكون تحت الحماية الفرنسية ؛ والمنطقة في الجنوب ، للبريطانيين .

بعد فترة قصيرة من وضع اللمسات الاخيرة على اتفاق سايكس ـ بيكو طلب من سفير بريطانيا في باريس ان يعرف كيف يمكن ان تكون ردة فعل الفرنسيين اذا أصدرت بريطانيا تصريحا تدعم فيه الصهيونيين ، «لكسب عطف القوى اليهودية في أميركيا والشرق وكل مكان والتي هي في الوقت الحالي قوى منتشرة على نطاق واسع اذا لم يكون اغلبهم معادين للحلفاء» .

لم يستوعب بسرعة الفرنسيون ما كان يحاول البريطانيون تحقيقه وضحكوا من الفكرة . اعلان لدعم «مملكة اسرائيل» كانت كما وصفها ديبلوماسي فرنسي كبير «مضحكة ولا تخدم غاية . . . اقل ما يمكن ان يقال عن ذلك هو الافضل» . على العكس يستطيع البريطانيون ان يروا بوضوح لماذا يمكن ان يكون التعاطف مع الصهيونيين له وزنه . عندما فشل هجوم الحلفاء الكبير في «سوم» في شهر تموز سنة ١٩١٦ في تحقيق الإنجاز الحاسم ، بدا من الواضح ان مساعدة أميركيا ضرورية لهزيمة الألمان . كما أشار صموئيل ، هنالك مليوني يهودي في الولايات المتحدة ، وبدا زملاؤه بالاعتقاد ان كسب دعمهم قد يساعد على جر الولايات المتحدة الى الحرب .

حتى ذلك الحين كانت الولايات المتحدة رافضة الانضمام الى صف الحلفاء . بسبب نمو المعارضة الشعبية للإمبريالية بشكل أقوى ، وفي اواخر سنة ١٩١٦ تم انتخاب الرئيس الأميركي وودرو ويلسون مرة ثانية حديثاً ، وحث كل المحاربين على التبرؤ من المطامع الإمبريالية التي يعتقد انها مسؤولة بشكل كبير عن الحرب . مهد تحديه السبيل الى جواب مراوغ من قبل الحكومتين البريطانية والفرنسية ، وصفا فيه نفسهما بانهما «لا يقاتلان

من اجل المصالح الأنانية لكن ، فوق كل شيء ، لحماية استقلال الشعوب ، الحقوق ، الانسانية» . حتى انهما قالتا انهما تعهدتا «بتحرير الشعوب الخاضعة لاستبداد الاتراك الدموي» . ويلسون صاحب المبادئ والأفكار الذي يلبس نظارات طبية والذي حتى الان لا يعرف شيئا عن اتفاق سايكس ـ بيكو ، رغم ذلك نظر الى هذه التوبة المفاجئة بشيء من الريبة الجديرة بها . «ما من أمة يجب ان تسعى الى توسيع سياستها على حساب أية أمة اخرى او شعب اخر» ، كرر في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ ؛ «كل شعب يجب ان يترك حرا ليقرر سياسته . . . الشعوب الصغرى مثل العظمى والقوية» . هذا المبدا الذي اصبح معروفا باسم «حق تقرير المصير» .

وكان يأمل ويلسون ان يبقى حياديا لكن المانيا أجبرته على تغيير موقفه . في شهر آذار سنة ١٩١٧ بعد ان اغرقت ثلاثة سفن أميركية بعد قرار القيصر الالماني متابعة حرب الغواصات التي لا تعرف العرف او القانون . عرف ايضا من بريطانيا ان الألمان كانوا يحاولون تشجيع المكسيك على غزو الولايات المتحدة . لم يكن امام ويلسون من خيار سوى خوض الحرب ، لكنه حاول ان يميز بين دوافع بلده وبين دوافع هؤلاء المقاتلين الاخرين . في الثاني من شهر نيسان / أبريل شن هجوما عاما على السياسات الإمبريالية الاجنبية المتبعة من قبل كل القوى الاوروبية . وخص بالذكر في انتقاده «المجموعات الصغرى من الرجال الطموحين المعتادين على استغلال أبناء بلدهم مثل أدوات او بيادق شطرنج» ، تابع : «ليس عندنا اهداف أنانية نخدمها . لا نرغب في الغزو ولا الهيمنة . لا نريد ضمانات لأنفسنا ، لا تعويضات مادية للتضحيات التي سنقوم فيها بحرية» . وختم الرئيس على هذا النحو : الولايات المتحدة «ستحارب من اجل الاشياء التي دائماً حملناها قرب قلوبنا ـ من اجل الديمقراطية ، من اجل حقوق هؤلاء الذين يخضعون للسلطة ليصبح لهم صوت في حكوماتهم ، من اجل حقوق وحريات الامم الصغيرة» .

سبب هجوم الرئيس ويلسون تفسيرا غير مريح في لندن . استقال كل من اسكويث وغري في شهر كانون الاول سنة ١٩١٦ ، ورئيس الوزراء الذي جاء بعد اسكويث ديفيد لويد جورج ، كان قد قرر حتى الان شن غزوة على فلسطين التي لطالما فضلها . عارفا تماماً ان ثمة حركة ستعمل بالتأكيد على اثارة شرارة الاتهامات بالإمبريالية ، لذلك قرر ان دعم آمال الصهيونيين المشردين طريقة جيدة ليعيق المطامع الفرنسية في الشرق الاوسط وإسكات ويلسون بنفس الوقت . على خلاف اتفاق سايكس ـ بيكو ، تبدو كفالة الصهيونيين شهامة ونبل ، لكن السبب الذي جعل رئيس الوزراء يقوم بذلك هو نفسه . كما وضعها اسكويث ، بشكل لاذع لكن دقيق ، «الويد جورج . . . لا يأبه باليهود او بماضيهم او مستقبلهم ، لكنه فكر انه انتهاكا للحرمات اذا تركنا الاماكن المسيحيية المقدسة – بيت لحم ، جبل صهيون ، القدس – لتستولي عليها «فرنسا الملحدة التي لا تؤمن بالله» ! .

في صباح اليوم الذي تلا خطاب ويلسون ، تناول لويد جورج الفطور مع القائد الصهيوني البريطاني ، حاييم وايزمان ، الذي اكد له دعم الصهيونيين لبريطانيا . لاحقا من نفس اليوم التقى بسايكس ، الذي كان على وشك الرحيل الى مصر مع جورج بيكو ليتعاملا مع الأسئلة التي يمكن ان يثيرها احتلال فلسطين . وشرح له قوة السياسة البريطانية الجديدة ، وحثه على «اهمية عدم الحكم على الحركة الصهيونية بشكل مسبق واحتمالية تطورها في ظل الرعاية البريطانية» ، لان اليهود «قد يكونوا قادرين على رد المساعدة لنا اكثر من العرب» . قبل ان يرحل سايكس ، كرر لويد جورج تحذيره الذي قاله له في البداية . يجب ان لا يكون هنالك «تعهدات للعرب ، وبالتحديد لا شيء بخصوص فلسطين» . فهم سايكس الرسالة . عندما رأى بعد ذلك جورج بيكو ناقش ان سبب مطالبة بلده بفلسطين «الانحياز العام الى الصهيونية لصالح السيادة البريطانية» .

رغم ان جورج بيكو على الفور شك ان البريطانيين يحاولون التراجع عن اتفاقه مع سايكس ، زميله روبرت دوكيه كان راضيا عن ذلك ، حسب ما قال : «مسالة حماية إنكليزية على فلسطين اليهودية من الصعوبة حدوث ذلك . . . الحكومة البريطانية بالتأكيد لا تحلم بهذا» ، مفترضا انه ما من احد سيكون غبيا جدا ليواصل سياسة ستسبب مشاكل بين العرب واليهود . «ستكون لفائدة ضئيلة جداً وتثير صعوبات جادة» .

في النهاية عرفت حكومة الولايات المتحدة باتفاق سايكس ـ بيكو بعد أسبوعين عندما قام وزير خارجية لويد جورج أرثر بيلفور بإفشاء سر وجوده الى «مستشار ويلسون في شؤون السياسة الخارجية أدوار هاوس . في ضوء تعهد بريطانيا «بتحرير الشعوب الخاضعة لاستبداد الاتراك الدموي» ، كان بالكاد مفاجئة ان يكون هذا الإفشاء قد اغضب هاوس» . «هذا كله سيء وقد أخبرت بيلفور بذلك . سيجعلونها مكانا يولد الحرب في المستقبل» ، هذا ما كتبه . استجوب بيلفور بعنف حول ما تعنيه بالضبط عبارة «نطاق النفوذ» التي سايكس وجورج بيكو قد اتفقا فيما بينهما عليها . «بيلفور كان غامضا فيما يتعلق بهذا الشيء ؛ فيما اذا عنت احتلالا دائماً ، او فيما اذا عنت ان كل بلد منهما له حق حصري لتطوير المصادر التي في منطقته ، لم يكن واضحا بالمرة» .

كان بيلفور غير متأكد ، لانه على حد علم البريطانيين اتفاق سايكس ـ بيكو هو تمرين أكاديمي لحل الجدل ، وليس تصميما هندسيا باللون الابيض والأزرق (عادة هذا هو شكل المخطط الرسمي بشكله النهائي الذي يعطي شرعية للمشروع وتكون خلفية الورق الرسمي باللون الازرق) لرسم حكومة للمنطقة في المستقبل . ولانه تقسيم افتراضي نظري لبلاد لم يحكمها بعد الموقعين على المعاهدة ، كان عرضة للفشل بشدة حسب تطور الاحداث والاكثر من ذلك انه كان سريا ، حتما سيسبب خلافا عندما يتم في النهاية

كشفه . وكما تأمل البريطانيون وتخوف الفرنسيون قد تؤدي الاحداث في الشرق الاوسط مع ذلك الى التراجع عن هذا الميثاق عندما لا يعود له من فائدة يؤديها .

انه هذا الضعف الذي سيقوم احد الرجال الان ببذل قصارى جهده للاستفادة منه .

الفصل الثالث

لورانس

بدأت ثورة الشريف حسين في مكة في شهر حزيران / يونيو سنة ١٩١٦ ، لكن لم يكن حتى شهر ايار / مايو من السنة التي بعدها حتى اكتشف الضابط البريطاني الشاب الذي اصبح منظمها العبقري تفاصيل اتفاق سايكس - بيكو من مارك سايكس نفسه وأدرك منضامينها العميقة . رغم انه لا يوجد سجل حديث للمقابلة بين لورانس وسايكس على ساحل البحر الأحمر في العربية في اليوم السابع من شهر ايار ما عدا التعليق الموجز في دفتر يوميات لورانس ، هنالك العديد من الأدلة الاخرى ان اللقاء بينهما قد تم من دون تفاهم .

بعد ذلك اللقاء كتب لورانس بشكل اتهامي الى سايكس : «اعتقدنا انك كريم مع العرب» ، مضيفا انه حتى موعد اجتماعهما لم يكن يعلم سوى على الصعيد «الغير رسمي» ان بريطانيا قد تتنازل عن سورية للفرنسيين . سايكس ، الذي توقف ليلتقي بلورانس في طريق عودته من اجتماع مع الشريف حسين ، نظر الى الاسفل الى لورانس القصير المتسخ بملابس غير مرتبة واصغر منه بثماني سنوات وطوله فقط خمسة أقدام وستة إنشات - رفض دعمه للتطلعات العربية . وقال ساخرا بعد ذلك : «الاستقلال التام يعني . . . فقر وفوضى» ،

مضيفا «دعه ينظر للأمر كما يهوى للشعب الذي يقاتل من اجله» .

لم تكن مفاجأة عدم الانسجام بين الرجلين ، لان لورانس البالغ من العمر ثمانية وعشرين سنة لا يمكن ان تكون خبرته في الشرق الأوسط مختلفة اكثر من ذلك عن خبرة سايكس . بينما اول زيارة لسايكس الى المنطقة كان سائحا مع والديه وحاشية من الإدلاء المحليين والحماليين ،لورانس سافر اول الامر الى هناك لوحده ، ليقوم ببحثه من موقع الحدث مباشرة لا من المراجع عن القلاع الصليبية في المشرق ، عندما كان طالبا في جامعة أوكسفورد . سايكس كان باستطاعته ان يكون مبذرا ؛ لورانس البالغ من العمر العشرين ذهب سيرا على الأقدام ، مسلحا بخريطتين ، وقنينة ماء ، كاميرا ومسدس موزر(بندقية اخترعها الالماني موزر) ، الذي باعه عندما انتهى من اجل المربح . لاحقا لخص بشكل لاذع فهم سايكس للمنطقة بانه»من الخارج» .

ترك سايكس كامبردج من دون ان يكمل درجته ، لكنه وجد وظيفة من خلال اتصالاته كملحق شرف في السفارة البريطانية في القسطنطينية . لورانس الذكي بشكل رائع كانت درجته الاولى عندما تخرج ، بعض الشيء بسبب قوة بحثه في القلاع الصليبية ، وتابع طريقه للعمل على سلسلة من الحفريات المعمارية في شرق سورية . هناك عمل على حث العمال العرب الذين كان مسؤولا عنهم لتحقيق غرضه من خلال اطلاق النار في الهواء أينما استخرجوا شيئا مثيرا للاهتمام . تركته التجربة بفهم جيد للغة العربية الدارجة المحكية وإعجاب عميق للعاملين معه ، الشيء الذي كان من الواضح انه إعجاب متبادل ، لانه تم كتابة تقارير انه «انسجم بشكل جيد جدا مع السكان المحليين» . تذكر احد الزوار انه شرب معه من كؤوس من العصر الحتي ، وانهما تدربا على اطلاق النار على علب الكبريت من عن بعد ثلاثين يارد . الكاتبة جيرترود بيل ، اقدم منه بعشرين سنة ، أيضاً صادفته في ذلك الوقت . «ولد مثير للاهتمام» ، قالت ذلك قبل ان تتنبا بانه «سيصبح رحالة» .

عندما اندلعت الحرب سنة ١٩١٤تطوع لورانس وتم تعيينه بسرعة في قسم المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة . لكن عمله (رسم الخرائط لتحركات الجيش العثماني) اضجره عمله بشدة وأخذ يشعر بانه يريد التخلص من الشعور بالذنب لان اخويه ، ويل وفرانك ، قتلا في المعركة على الجبهة الغربية سنة ١٩١٥ . اخبر صديقا له «كلاهما كانا اصغر مني . . . ولا يبدو ذلك منطقيا ، بشكل ما ، انه علي ان استمر بالعيش بسلام في القاهرة . «اشرقت فرصته بعد اندلاع ثورة حسين المتطلع اليها منذ أمد بعيد في شهر حزيران سنة ١٩١٦ لكنها سرعان ما أخفقت بعد استيلاء الاتراك على مكة . عندما ، تم إرسال لورانس في شهر تشرين الاول ذاك في مهمة قصيرة الى الجزيرة العربية ليعرف لماذا كانت الثورة على شفير الفشل ، انتهز الفرصة التي سنحت له ليهرب من العمل المكتبي بشكل دائم .

اذا استطاع لورانس تحويل هذه المغامرة الى تعيين دائم اكثر ، أيضاً تقدم له فرصة ليحقق طموحه الشخصي بالثأر الذي كان يغذيه . مثل سايكس ، لاحظ نمو مصالح فرنسا في الامبراطورية العثمانية قبل الحرب - «غزو الفرنسيين» ، كما وضعها - وكان مصمما على الحد من توسع تلك المصالح اكثر من ذلك . «اذا فقط رأيت الخراب الذي سببه التأثير الفرنسي لن تتمنى له أبدا ان يمتد» ، هذا ما كتبه الى امه من سورية قبل الحرب . «افضل بألف مرة حال العرب وهم لم يلمسهم شيء» .

وجد لورانس نفسه محاطا برجال لهم نفس أفكاره لدى وصوله الى القاهرة . هناك ، حادثة الفاشودا كانت ما زالت حية في ذاكرة رؤسائه . رئيسه المباشر ، رئيس دائرة المخابرات بيرتي كلايتون ، خدم في حملة كيتشنر ، مثل ريجينالد وينغيت ، الذي اصبح المندوب السامي مكان ماكماهون سنة ١٩١٧ ولانه كان ضابط مخابرات رئيس كيتشنر . فقد عمل على المبالغة بتهديد السودانيين المهديين ليجد عذرا حتى يتوجه الى الجنوب الى

الفاشودا . نظر كلا الرجلين الى الحلف الودي على انه ليس اكثر من توقف كاذب لتنافس قديم ، هذا الرأي انتقل تأثيره بسرعة على لورانس ، الذي كتب : «ما من احد بإمكانه ان يراهن على ان تبقى فرنسا صديقتنا» .

هذا الحكم السابق لأوانه تعزز فقط عندما رفض الفرنسيون خطة بريطانيا للنزول في الإسكندرونة ، واكتسب هذا الراي صبغة عادلة عندما تم اعادة فتح كارثة غاليبولي في ذلك الحين . «طالما شان سورية يعنينا عدوتنا فرنسا لا الاتراك» ، كما كتب لورانس الى بلده في شهر شباط سنة ١٩١٥ تماما عندما تم إلغاء خطة الإسكندرونة بسبب ضغط الفرنسيين .

ازدادت جرأة الفرنسيين ؛ وجبن الديبلوماسيين البريطانيين حتى اكثر من ذلك : «اشتم وابصق عليهم وامقت وزارة الخارجيه . وكل خرابها» ، «كما كتب بغضب الى صديقه . بعد أسبوعين اخبر أستاذه فترة الجامعة ، ديفيد هوغارث ، عن أمله بتوحيد قبائل البدو في غرب العربية ؛ وانه ، معهم ، «يمكننا الهجوم مباشرة تجاه دمشق والقضاء على كل امل للفرنسيين في سوريا» .

عبر لورانس عن حلمه الى هوغارث في رسالة سرية ، لكنه لم يستغرق الكثير من الوقت حتى شعر الفرنسيون بتهديد ثورة العرب بعد ان قامت في منتصف سنة ١٩١٦ . ما أقلقهم الى اقصى درجة هو النفوذ الذي قد يحسن استخدامه الشريف حسين ضد امبراطوريتهم في شمال افريقيا ، اذا نجحت الثورة . في الكاي دورسيه موظف كبير اسمه بيير دو مارجري وهو عضو اخر في اللجنة الفرنسية ـ حذر رئيس الوزراء الفرنسي ان ما يحصل في الجزيرة العربية «قد يكون له تأثير خطير على كل مستعمراتنا» . اذا نجحت الثورة ، كما تنبأ ، قد تجد فرنسا نفسها «في حضور اسلام مستعرب يستمد من فتوحاته قوة جديدة ليتوسع ويقاوم السلطة المسيحية» . أيد ان «يشرك

الفرنسيون انفسهم في الجهود العربية سرا حتى يحصلوا على حريتهم . . . ليتجنبوا تحول نجاحهم ضد القوى المسيحية ضمن المناطق الاسلامية» .

تم اتباع نصيحة دو مارجري بسرعة بان على فرنسا ان تحاول بحذر احتواء الثورة . فتم ارسال الكولونيل أدوارد بريموند الى الجزيرة العربية في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩١٦ ليصبح رئيساً للبعثه العسكرية الفرنسية المتعلقة بالعرب . «اذا كان بإمكانك سحب رجل الانكليز ستكون هذه افضل خدمة تقوم بها لأجلنا» ، هذا ما طلبته الكاي دورسيه من بريموند قبل مغادرته . لقد اثبت انه خبير في القيام بذلك ، من خلال عرضه على العرب مساعدة الفرنسيين عندما تراجع زخم الثورة الذي تولد في البداية .

رغم ان عرض بريموند لم يتم تحقيقه فعليا ، الا انه اشعل شرارة نقاش حاقد بين البريطانيين حول فيما اذا كان يتوجب عليهم القيام بنفس الشيء هم ايضا . بينما نجح حسين بطرد الاتراك من مكة ، بقيت قوة عثمانية ضخمة في المدينة ، على بعد مئتي ميلا تجاه الشمال ، حيث استلموا إمدادات من دمشق بواسطة سكة الحديد . حتى شهر تشرين الأول / اكتوبرسنة ١٩١٦ وبدت محاولة عثمانية لاسترجاع مكة قريبة جداً . ما وقف بين الاتراك ومركز الاسلام كان سلسلة من الجبال على شكل مسننات تدعى الحجاز يحميها رجال القبائل البدو المسلحين بشكل هزيل ، وهم رجال همج يرتدون الأثواب الصوفية بالألوان البني والنيلي ، ويزينون عيونهم بالكحل ويغسلون شعرهم المجدول ببول الجمل حتى يلمع . بقيادة ابن حسين فيصل ، يقاومون بضراوة كل نفوذ اجنبي .

يحتاج الان البدو في الجبال بشكل ملح الى دعم في النقل والطعام وايواء الجنود في الميدان لكن الجيش البريطاني رفض فكرة تزويدهم بذلك . منذ غاليبولي الأجواء في مراكز القيادة العسكرية في مصر مسمومة ، وعندما بدات الثورة بالترنح بسبب نقص في المواد عمل منافسي كلايتون على لومه

بسرعة ، لانه مؤيد رئيسي لتشجيع حسين على الثورة . كانت بريطانيا الان مجبرة على دعم العرب بالجند الذين من الممكن انها لا تستطيع توفيرهم على نحو كاف ، كلايتون كان يعلم انه يمكن ان يفقد وظيفته . لكن رئيس المخابرات الذي وصفه لورانس بانه يعمل «مثل الماء ، او الزيت المتسرب ، يتسرب بصمت وبإلحاح في كل شيء» ، دبر خطة مؤامرة لينقذ نفسه . ارسل احد اتباعه حادي الذكاء الى جدة ليكتب تقريرا ليرسله اليه من موقع الحدث بانه ما من فرق سيحدث من إرسال الجند البريطانيين الى الجزيرة العربية .

كان يفترض من الرحلة ان تكون قصيرة لانها كانت غير ضرورية : صممت فقط لتثبت انه ليس من الضرورة لتدخل وزن إضافي بشكل يبدو انه ناتج عن الاعتماد على المعلومات من مكان الحدث مباشرة . لكن ، عندما أبحر لورانس للأسفل في البحر الأحمر الى جدة مع ستورس ، بدا من الظاهر بسرعة ان طموحه امتد بعيدا الى ما وراء إكمال المهمة التي فوضه بها كلايتون . واثناء الرحلة المملة بدلا من ان يتكلم مع زميله ، انفق وقته يتدرب على الرماية ، يطلق النار على الزجاجات المتوازنة على مقبض امان المركب .

»عندما رسينا في الميناء الخارجي ، للمدينة البيضاء المعلقة بين السماء الملتهبة وانعكاسها في السراب» ، كما كتب لورانس فيما بعد عن وصوله الى جدة في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الأول / اكتوبر ، «حينها لفح لهيب الجزيرة العربية مثل السيف المسحوب من غمده وصعقنا تاركا إيانا عاجزين عن الكلام» . لكن قبل ان ينهي اليوم ، وبالرغم من الحرارة المضنية كان قد حقق مهمته الشخصية من خلال استخلاص الدليل الاكثر إقناعا ان الدوافع الفرنسية لم تكن حميدة . حول مائدة العشاء من ذلك المساء بريموند ، الذي يحب الويسكي الإسكتلندي ، أباح له انه ليس من مصلحتهما كلاهما ان تنجح الثورة لان «أنصار المملكة العربية الكبرى يسعون الى خوض المعركة في سورية ، والعراق ، من حيث نحن ـ الفرنسيون والإنكليز ـ يجب علينا ان

نطردهم» . هذا بالطبع لم يكن على الاطلاق ما يجول في ذهن اي من لورانس او كلايتون .

في محادثة هاتفية طويلة اقنع ستورس الشريف حسين الرافض بالسماح للورانس الذهاب للمنطقة الداخلية لتقييم الوضع في الجبال بنفسه . لورانس ، الذي تستهويه كثيرا فكرة انه غريب الأطوار ومحب للمواجهة ، بسرعة لبس الثوب العربي بينما رفض زملاؤه النظاميون ارتداء الثوب من حيث المبدا ، وانطلق على ظهر الجمل الى الجبال التي يتموج لونها بين البني والاحمر والتي كانت اخر حصن لحسين في وجه انتقام العثمانيين .

«حرب الحجاز هي حرب الدراويش ضد الجند النظامي ونحن الى جانب الدراويش» ، هذا ما اعلنه لورانس لدى وصوله الى القاهرة بشكل استفزازي عن عمد ، لان العديد من زملائه كانوا جنود نظاميين حاربوا الدراويش في السودان قبل بضعة سنوات . رفض الفكرة السائدة ان رجال القبائل تدريبهم رديء جداً ليقاوموا الهجوم العثماني المضاد وبناء على ذلك يحتاجون الى تعزيزات أجنبية . بدلا من ذلك جادل انه ، بناء على اساس قضائه يوم واحد في مراقبتهم في الجبال ، انهم ولدوا محاربي عصابات الذين ببساطة يحتاجون الى أسلحة وذخيرة وذهب ونصيحة من واحد مثله . وذكر في تقريره وجهة نظر بريموند ، أضاف ان السبب الحقيقي لاعراب الفرنسيون انهم مستعدون جداً لإرسال الجند لإعاقة الثوار اكثر مما هو مساعدتهم . هذا الرأي التهكمي ضرب على الوتر في لندن ، وانهى بسرعة الخلاف حول إرسال جند ، والممتن كلايتون سرعان ما سمح للورانس بالعودة الى الحجاز ، لإمداد العرب بالمواد ونقل الاخبار التي سيعتمدون عليها الى القاهرة .

لورانس كان مقتنعا ان فشل الثورة حتى ذلك الحين سببه سلوك زعيمها حسين . الشريف البالغ من العمر ثلاثة وستين ، الذي حسبه ستورس انه سيكون أداة مطواعة لمصالح البريطانيين ، اثبت على ارض الواقع انه مشاكس

ويرفض قبول مساعدة البريطانيين . اقترح لورانس انه يجب تجنبه بالكامل وبدا بتقييم اي من اولاد الشريف حسين الاربعة قد يكون الافضل لدعمه .

ابن الشريف الاكبر كان ضعيفا جداً ـ مصابا بمرض السل ـ والصغير من دون خبرة . ما ترك الخيار بين فيصل وأخيه الاكبر ، عبد الله المكتنز الضحوك المستقل برايه الذي طلب من ستورس اسلحة قبل الحرب والذي تم وصفه لاحقا بلطف بان فيه «لمسة من هنري الثامن» . لكن عبد الله كان مرتابا من لورانس ، ولورانس ، رغم ذلك سرا كان يعتقد ان عبد الله كان في الحقيقة منظما اكثر من أخيه الأصغر ، كتب تقريرا من أدلة مما سمع ورأى ان العرب تدربوا على الرماية من خلال اطلاق النار على إبريق شاي متوازن على راس احد الخدم ، ليصوره على انه لا يمكن الاعتماد عليه بتاتا .

فيصل ، الذي التقى فيه لورانس اولا في غزوته في جبال الحجاز ، بدا بانه واعد اكثر بكثير . اكبر بسنتين وعلى الاقل أطول من لورانس بأربعة إنشات ، وجهه نحيل بشدة ملكي ما يجعلك تصدق طلب العائلة بانها من سلالة محمد . بينما يبدو عبد الله قليلا مثل هنري الثامن ، فيصل ذكر لورانس بريتشارد قلب الاسد . في تقرير الى كلايتون نقل لورانس جدارة وأهلية عبد الله الى أخيه الأصغر . وصف فيصل بانه «محبوب شعبيا ، وطموح ؛ مفعم بالأحلام ، وبالقدرة على بلوغها ، مع بعد نظر شخصي حاد ، ورجل اعمال كفؤ جداً» . بعد سنوات سيدعي انه عرف «من اللمحة الاولى» ان فيصل كان هو الرجل الذي بإمكانه «ان يضرم الصحراء بالنار» ، لكن في الحقيقة ، بينما كان عبد الله راميا ممتازا وواثقا من نفسه بشكل فائق ، فيصل الافضل اطلالة وجاذبية كان عصبيا وميالا للتقلب بسرعة بين الامل والياس . لم يكن شخصية قوية واكثر تأثرا بالمحيطين به» ، كما كتب ضابط بريطاني اخر والذي عمل معه عن قرب . لكن هذا ، من وجهة نظر لورانس ، جعله الأمثل لمساعدة البريطانيين .

كان هنالك سبب قاطع اخر لماذا فضل لورانس فيصل . بينما اتجهت افاق عبد الله السياسية الى الجنوب ـ فضل توحيد الحجاز القاحلة مع اليمن الخصيب في الجنوب ـ فيصل كان يعرف اعضاء من الحركة القومية العربية صغيرة جداً كبرت في السر في مدن سوريا والعراق . مع هذه الصلات ، كان فيصل يمثل افضل امل لتوسيع ثورة حسين بعيدا تجاه الشمال ، وتحويل حلم لورانس بالقضاء على كل امل للفرنسيين في سورية الى واقع .

شجع لورانس طموح فيصل للوصول الى دمشق وبسرعة كسب ثقته من خلال تزويده بالذهب الذي سيساعده على ربط جيشه المشاكس الذي يتألف من القبائل والقوميين السوريين والعراقيين معا . ثم أعطاه فيصل ثوبا عربيا أبيض اللون ناصعا ليرتديه ، لا للتنكر ، ولكن ليجعلها واضحة انه يدعم بالكامل الحضور الأجنبي في مخيمه . وكتب الشيخ الشاب فيما بعد عن مستشاره الجديد الذي يحترم مشاعر الاخرين : «يا لها من أمانة ، من إخلاص ، يا له من ولاء للواجب ويا لها من سيطرة» . لورانس رآها بطريقة مختلفة» . افضل ان تأتي المعلومات لي لأجله» ، همس لورانس» ، لانني احب ان اصل الى قرار قبله» .

بمساعدة لورانس ومجموعة من المستشارين البريطانيين الاخرين ، تم مباغتة كتيبة تركية بواسطة استطلاع جوي قامت به الطائرات البريطانية مع عبد الله المفترض أنه متراخي ،وتغير حظ العرب اخيرا . في شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩١٧ قاموا بوثبة جريئة نحو الشمال ، مستوليين على ميناء البحر الأحمر في الوجه . الوجه مكان غير معروف ومن ناحية اخرى قليل الأهمية ، لكنه القاعدة المناسبة لمرحلة الهجوم التالية في الثورة العربية ، لانه يقع على بعد مسافة ملفتة للنظر من سكة الحجاز على امتداد مائتي ميلا ، والتي تعتمد عليها الحامية التركية في المدينة المنورة للحصول على الإمدادات . من منطقة الوجه ولمدة سنتين قادمتين ، سيقود لورانس وزملاؤه البريطانيون وينظمون سلسلة من الهجمات ضد القطارات ، المحطات ، الطرق وخزانات المياه على طول سكة الحديد ، مجبرين الاتراك على الدفاع .

سرعان ما اختلف لورانس مع الضباط البريطانيين الاخرين حول التكتيك للعمليات . بينما يريدون تركيز طاقاتهم على إجبار الاتراك على الاستسلام بشروط داخل المدينة المنورة من خلال قطعهم بشكل دائم لسكة الحديد التي تصلهم بدمشق ، كان يعرف لورانس انه اذا نجحت خطتهم ستجلب الثورة بطريقة فعالة الى نهاية سابقة لأوانها . وسيتم سحب الدعم البريطاني ولن يتحقق حينها أمله الشخصي بحرمان الفرنسيين من الحصول على دمشق .

فيما يتعلق بهذا المضمار ، الظهور في منطقة الوجه شهر نيسان / أبريل سنة ١٩١٧ لشيخ اسمه عودة ابو تايه شجع لورانس تشجيعا كبيرا ، لان عودة جاء من اقصى الشمال ليتعهد بدعمه لقضية فيصل ، عودة كان زعيم الحويطات ، قبيلة صغيرة التي جالت في سيناء ومنطقة الصحراء الان انشطرت الى نصفين بسبب الحدود الاردنية والعربية السعودية ، على بعد ثلاثمئة ميلا شمال الوجه . كان شخصية لها تأثير التنويم المغناطيسي ، كان هاربا من العثمانيين لعدة سنوات بعد إطلاقه الرصاص على موظفين اتراك جاءا لإلقاء القبض عليه بعد فشله في دفع الجزية . متزوجا ثمانية وعشرين مرة ، مصاب بجروح في ثلاثين حادثة وله وجه يشبه وجه الصقر ، نسي عدد الرجال الذين قتلهم ، الذي اكتسب سمعته من اكله قلوبهم النيئة .

اقنع عـودة لورانس ان وادي بعيد في المنطقة الداخلية يدعى وادي سرحان ، كثيرا ما ترعى قبيلته ماشيتها فيه ، سيكون قاعدة الهجوم الممتازة لامتداد الثورة تجاه دمشق . من الوادي سيكون من الممكن الاستيلاء على العقبة ، الميناء في راس البحر الأحمر ، الذي كان في ذلك الوقت في ايدي الاتراك ، وليكسبوا الى صفهم الرولى وهي العشيرة الاكبر في قبيلة عنزة القوية ، التي تطوف في الصحراء في اقصى الشمال . زعيم الرولى نوري شعلان ، الذي اغتال اثنين من إخوته ليستولي على حكم القبيلة قبل سنوات ، قد جادل في السابق انه لا يستطيع تقديم الدعم لفيصل لانه يعتمد على الاتراك في الحصول على الغذاء . لحظة سيطرة فيصل على العقبة ، يستطيع ان يقدم

الغذاء لنوري شعلان ورجال قبيلته .

أضاف لورانس هدفا أخيرا الى غزوته : جبل الدروز ، سهل مرتفع جنوب شرق دمشق . هناك كان يأمل إقناع الدروز ، الشعب المشاكس الذي يعيش هناك ، التمرد على العثمانيين الشيء الذي قاموا به مرتين في الذاكرة الحديثة ، ولورانس كان واثقا انه يستطيع جعل التاريخ يكرر نفسه مرة اخرى .

تم لقاء لورانس مع مارك سايكس قبل ثلاثة ايام من بدئه مع عودة ومجموعة صغيرة من البدو بتلك المغامرة الخطرة ، وتلك الظروف تفسر لماذا ما اخبره إياه سايكس قد اغضبه كثيرا . لورانس ، الذي الح على نحو متكرر ان حكومته أرادت ان ترى العرب يطالبون بدمشق لأنفسهم ، الان أدرك ان اتفاق سايكس مع جورج بيكو يعني انه كان يكذب من دون قصده . اذا كتب لاتفاق سايكس ـ بيكو الصمود فترة الحرب ،لن يكون للوصول الى دمشق أية تاثير على الاطلاق : قد يأخذ العرب ـ ما أعطيناه سلفا» .

بقي هنالك بعض الأسس للتفاؤل . اتفاق سايكس ـ بيكو كان عرضة للانتقاد لسببين انه افتراضي وسري . في عالم على نحو متزايد معاد للإمبرياليين ، سيتم انتقاده ما ان ينكشف ؛ وفي الوقت الحالي تأمل لورانس انه ، اذا تمكن العرب من الوصول الى دمشق اولا ، يستطيعون توطيد مطلبا معقولا اكثر بكثير للمناطق التي عمل سايكس وجورج بيكو على تقسيمها بينهما بشكل جائر جدا وقال بعد ان فكر مليا بعمق» ستكون حجتهم لملكية تلك المناطق أقوى وبحق ـ ذلك ان الفتح تم بواسطة السكان المحليين «متسائلا» ، وماذا سوف تقول القوتين الكبيرتين بخصوص ذلك؟»

منقادا بذلك الإدراك ، انطلق لورانس مع عودة ومجموعة صغيرة من البدو بهذه الرحلة الشاقة الثلاث مائة ميلا الى وادي سرحان بعد ثلاثة ايام من اجتماعه مع سايكس . الرحلة التي استغرقت أسبوعين من المسير ، والتي أخذتهم عبر سهل كبير معروف حتى للبدو ببساطة باسم الهول ، كان عذابا . أصيب بصرهم بالغشاوة بسبب نور الشمس وعصف الرمال بفعل الرياح اللاهبة اثناء النهار ، وعدم قدرتهم على النوم بسبب الجوع في المراحل النهائية من

الرحلة ، وصل لورانس الى وادي سرحان ليكتشف ان عودة قد ضلله . بعيدا عن تزويده بالماشية التي وعده بها ، الوادي كان «قاحلا الى حد ما» . ولا بعد عدة ايام كان هنالك علامة على ان لوصوله أية تأثير ذي جاذبية على الرولى . بعد ان استقر عودة لبضعة ايام من الولائم مع رفاقه من رجال القبائل ، لورانس ، من الظاهر كاد ينحر من الإحباط بسبب فشل الخطة ، أرسل مذكرة الى رئيسه : «كلايتـون : قررت المضي لوحدي الى دمشق امل ان اقتل في الطريق . لاجل الجميع حاول توضيح هذا العرض قبل ان يستمر اكثر . نحن ندعوهم للقتـال من اجلنا على كذبة وأنا لم اعد استطيع الاحتمال» .

في الخامس من شهر حزيران / يونيو انطلق لورانس لوحده بطريقة نزقة ، عميقا في المناطق السورية الخاضعة لسيطرة العدو ليرى فيما اذا كان بإمكانه ان ينقذ الوضع . في رحلة خطرة للغاية غامر اكثر تجاه المنطقة التي أعطاها سايكس لجورج بيكو ، مفجرا جسر سكة حديد في راس بعلبك ، ستين ميلا شمال شرق بيروت . بالرغم من ان هذا قد اثار المشاكل بين السكان المحليين السريعي الإثارة يطلق عليهم اسم المتأولة (أي الشيعة) ، قرر انه ليس من الممكن البدء بثورة عامة اكثر مباشرة . لم يكن زعيم الدروز ، حسين أطرش ، ولا نوري شعلان مستعدين للانضمام الى فيصل في الوقت الحالي ، لكن لقاءات لورانس مع كلا الرجلين أعطاه أسس للتفاؤل بحرص . شعلان ، الذي عيناه تبدوان للورانس تلمعان بلون احمر في ضوء الشمس ، طمأنه بانه «بالتأكيد سينضم لهم عاجلا ام اجلا» .

عاد لورانس الى وادي سرحان في اليوم الثامن عشر من شهر حزيران / يونيو ليجد ان عودة قد قام بتجنيد قوة من خمس مائة وستين رجل قبيلة فقط ، رغم ذلك قرروا ان يهاجموا العقبة . تشمل حامية الميناء ثلاثمائة جندي تركي ، لكن دفاعها كله متوجه للبحر . تقدم العرب من الصحراء كان غير متوقع وكانوا قادرين على الإحاطة بالقاعدة الأمامية التركية الرئيسية في ابو العسل في الهضاب خلف الميناء . بعد اطلاق نار دام طوال يوم كامل تغلبوا على الاتراك بهجوم مفاجئ أخير والذي فيه من غير قصد اطلق الرصاص

على الجمل الذي كان يركبه من خلف راسه . بعد ايام تدفقوا لأسفل الوادي الضيق المؤدي الى العقبة والبحر . استسلم القائد التركي المحلي وفي اليوم السادس من شهر تموز / يوليو ، استولى لورانس والحويطات على الميناء المهم من الناحية الاستراتيجية من دون قتال .

لم يكن لدى لورانس أي شك بعمق دعم الحويطات . لكن قلة الطعام والمال لم تكن لديه ليكافئ رجال القبائل ، رحل في نفس اليوم بعد الظهر على ظهر الجمل عبر صحراء سيناء الى مصر ، على بعد مائة وخمسين ميلا . ظهر في مكتب بيرتي كلايتون في القاهرة بعد اربعة ايام اذهل رئيسه ، الذي كان فقط من ذلك الصباح قد عمل على انهاء مذكرة يرفض فيها القيام بهجوم على العقبة لما في ذلك من «صعوبات لا يمكن التغلب عليها» . على حد علم البريطانيين ـ قام لورانس بمفرده على تقدير عدد الوفيات او الملقى القبض عليهم بأكثر من الف وثلاث مائة جندي تركي . احد هؤلاء الذين تأثروا للغاية بهذا الإنجاز كان موظفا آخراً في دائرة المخابرات في القاهرة ، والذي كان مثل لورانس ، يتوق للهروب من عمله المكتبي . «لقد كتبت للتو لتهنئة ت . ا . لورانس ، عالم الاثار الأشقر الصغير . . . هل تتذكرينه؟ «هذا ما كتبه و . ف . ستيرلينغ الى أخته ، هذه الكلمات لا تنم عن شيء سوى ان لورانس في السابق لم يكن يتمتع بأهمية . اقترح : «يجب ان يحصل على وسام صليب فكتوريا» ، مضيفا ؛ «ما من شيء يمكن ان يقدمونه له كثير عليه» .

الفصل الرابع

رجل اللنبي

اخبر سايكس كلايتون وهو مصمم على تحقيق وضع صعب : «حركة لورانس بديعة وأريده ان يتم تقليده برتبة فارس ، لانه قدر مباشرة ان ، من العقبة ، قد يفسد خصمه الشاب اتفاقه مع جورج بيكو . ومن اجل هذا السبب أيضاً ، بالرغم من ان دوافعه تختلف عن دوافع المندوب السامي البريطاني في مصر راجينالد ويتغيت ، الذي أراد تغطية نجاحات لورانس . «لأسباب سياسية» ، اخبر لندن ، «انه من المهم جداً ان لا يتم معرفة شيء علنا عن المعلومات التي ينقلها لنا لورانس عن سير التقدم الى سورية . لذلك ، لم يعرف الفرنسيون ابدا الى أي مدى غامر لورانس تجاه الشمال ، واتخذ خمسة أسابيع ، من قبل ضابط المخابرات الفرنسي ، انتونيون جوسان ، حتى يجمع معا بعض تفاصيل ما أنجزه لورانس ومضمونه .

تلقى جوسان تدريبه في القدس ليصبح قسيسا ، لكنه تابع ليصنع اسمه كعالم في الاثار القديمة . كان بين الاهتمامين صلة وثيقة ، لانه ، مثل سايكس ، اعتقد بما هزا منه لورانس لاحقا «الشرق الذي لا يمكن تغييره» . جوسان كان مقتنعا بانه من خلال دراسة البدو الرحل يمكنه ان يكتسب نفاذ

بصيرة ليفهم الكتاب المقدس . مسافرا الى شرق الأردن لتلك الغاية ، فأسرته اثار الحضارتين القديمتين سبا والانباط اللتين سيطرتا على تجارة البخور بين اليمن وغزة قبل مئات السنين ، وقرر ان يعرف اكثر عنهما . في السنوات التي جاءت مباشرة قبل الحرب ، بينما كان سايكس يسجل خيبة أمله من فنادق دمشق ولورانس يقوم بحفريات للتنقيب عن اثار الحثيين في شرق سورية ، اتجه جوسان الى الجنوب الى سكة الحديد في الحجاز مع زميل له ، وكاميرا وسلم طوله ثلاثين قدما ليجد ويصور نقوش تلك الحضارتين الغابرتين اللتين تركتا على القبور الصخرية المحفورة في منحدرات الصخور الرملية في غرب الجزيرة العربية .

شق جوسان طريقه الى القاهرة بعد ان طرده الاتراك من تدمر عندما اندلعت الحرب سنة ١٩١٤ . هناك ، مثل لورانس ، كان منهمكا في جهود الحلفاء بجمع الاخبار . القسيس السمين له سمة مضحكة ، لانه يشبه فراير تاك الذي يلبس قبعة خفيفة لتحميه من الشمس ، لكنه كان يعرف عن المنطقة الشرقية من البحر الميت اكثر من أمثاله البريطانيين ، الذين انسجم معهم ، في الاول . بداية سنة ١٩١٥ لورانس ، الذي كان اصغر منه بعشرين سنة ، وصفه بانه «مسل جدا ، وذكي جداً : ومفيد جداً كمترجم» .

رفض فرنسا لخطة الإسكندرونة ومن ثم الاختلاف الواضح بين الحليفتين حول ثورة العرب قد عكر اجواء الزماله داخل دائرة المخابرات . في شهر آذارمارس سنة ١٩١٧ زار جوسان لورانس في الوجه ولاحظ كيف ان الذي كان زميله من قبل قد بنى علاقة وثيقة مع فيصل وكان» له تاثيرا حقيقيا «على القائد العربي . هذا كان مشكلة ، شعر القسيس الفرنسي ، لان لورانس «يشارك ويدعم العدائية الطبيعية لدى كل من فيصل واتباعه من التدخل الأجنبي في الجزيرة العربية . ستكون سياسة افضل ومفيدة اكثر لمصالح الحلفاء التخفيف من حدة النفور الفطري لدى البدو نحو هؤلاء الذين ليسوا

من قبيلته ولا من عرقه» .

بعد خمسة أسابيع من الاستيلاء على العقبة ، في اليوم الثالث عشر من شهر آب / أغسطس من سنة ١٩١٧ ، كتب جوسان تقريرا انه لم يتم اتباع نصيحته . معارضة البدو للتدخل الأجنبي اصبحت أقوى من اي وقت مضى وبتوجيه من لورانس ، تم بقوة تشجييع كل قبائل البدو في منطقة شمال العقبة ليشكلوا قضية مشتركة مع الشريف حسين . فهم الرجل الفرنسي مباشرة مضمون ما كان يجري . الخط الفاصل الذي اتفق عليه سايكس وجورج بيكو ، والذي وصفه بانه «رسم بطريقة غير واضحة الى حد ما على الورق من دون النظر الى منطقة القبائل او امتداد الارض» ، يمكن الان «على نحو يمكن تفهمه ان يحتمل الخط اكثر من تعديل بفعل ضغط الاحداث» . السفير الفرنسي في القاهرة ، دوفرانس ، نبه وزارة الخارجية الفرنسية (كاي دورسيه) الى ملاحظة جوسان . لاحظ ان البريطانيين يبدو كانهم لم يعينوا حدودا ثابتة الى اين يمكن أن يتجهوا شمالا تجاه دمشق وسورية ويمكن ان يمتد توسع الحركة العربية .

لكن عضوا آخراً في السفارة الفرنسية في القاهرة ، ديبلوماسي ناجح اسمه رينه دوينل دو سانت كوينتين ، شعر انه ما من داع للقلق . دوينل دو سانت كوينتن مدحه لورانس بانه «الرجل الوحيد ليس إنكليزيا في القاهرة الذي يستطيع المرء التكلم معه بصراحة عن اي شيء نقوم به» ، لذلك لم يدرك ان لورانس قد تعمد تشجيع ثورة ضد الاتراك في قلب منطقة تتوقع فرنسا ان تحكمها بعد الحرب ، لان هذا كان استراتيجية قام لورانس بطمأنته بوضوح انه لن يتبعها . واصفا زميله البريطاني باعجاب - «ربما الشخصية الاكثر تميزا في الجيش او الادارة البريطانية في الشرق» اعترف دوينل دو سانت كوينتن بعلاقة لورانس مع العرب لكنه جادل ان الضابط البريطاني الشاب كان»مخلصا جداً لدرجة انه لا يذعن لأوامر رؤسائه اذا وضعوا بوضوح سياسة

تعاون فرانكو-بريطانية» . استغرق من الوقت عدة اشهر قبل ان يصبح واضحا للفرنسيين ان لورانس لن تلجمه السياسة البريطانية الرسمية لانه كان بشكل بارز هو من يقوم بتشكيلها الان .

جاءت فرصة لورانس لتحقيق ذلك بعد ايام من وصوله للقاهرة ، تم دعوته لرؤية الجنرال الجديد قائد القوات البريطانية في مصر ، إدموند اللنبي . كان من المتوقع ان يكون اللقاء كارثة ، لان لورانس المشاكس والمتعالي والذي وصفه جندي نظامي غاضب بانه» شاب حمار مغرور «الذي يحتاج الى الركل والركل بقوة على هذه» ـ كان على وشك لقاء رجل مشهور بمزاجه المشتعل ، معروفا من وراء ظهره «بالثور» . لكن رغم ان الجنرال اللنبي قد يكون له سمعة مخيفة ، كان أيضاً متفهما واسع الأفق ويعرف عيوبه : هو نفسه قال هذا فيما بعد ، لانه رسب في امتحان خدمة الهند المدنية مرتين ، التحق بالجيش لانه كان «غبي كبير جداً للقيام باي شيء اخر» . وكان أيضاً كما لاحظ لورانس بذكاء انه في مأزق حرج .

كان اللنبي قد وصل للتو الى مصر ليستلم مهمته الجديدة وهي غزو فلسطين . كان في السابق قائدا في جيش بريطانيا الثالث ، تم طرده بعد انتقاد لأدائه في فرنسا اثناء معركة الاراس ذاك الربيع ، وأعطي قيادة قوة الحملة المصرية ، لم يكن هذا بشكل واضح فقط تخفيضا لمرتبته ولكن ، قبل ان يرحل الى القاهرة ليستلم منصبه الجديد ، استلم رسالتين متناقضتين . اخبره لويد جورج ان يستولي «على القدس خلال مدة أقصاها فترة أعياد الميلاد» ، لكن المستشار العسكري الرئيسي للحكومة ، السير ويليام روبيرتسون ، الذي نظر الى احتلال فلسطين على انه تشويش عن الجبهة الغربية ، حذره على نحو متكرر بالسر انه لن يرسل جنودا إضافيين لمساعدته للقتال في حرب رئيس الوزراء الصليبية . تحت ضغوط مشابهة الجنرال الذي كان قبل اللنبي سيء الحظ حاول مرتين وفشل في الاستيلاء على غزة من العثمانيين ، ودفع

وظيفته ثمنا لإخفاقه . اللنبي كان مستميتا ليتجنب الوقوع بنفس الفخ .

عرف لورانس ان خوف الجنرال الأعظم ، من انه عندما يتقدم للإمام نحو القدس بناء على طلب رئيس الوزراء ، سيستخدم الاتراك سكة حديد الحجاز ليركزوا قواتهم جهة جنوب شرق البحر الميت ومن هناك يشنون هجوما معاكسا ضد خطوط إمداداته العرضة للهجوم الممتدة بين مصر وغزة . لذلك استغل فرصة اجتماعه معه ليعرض عليه خطة تتألف من سلسلة مداهمات من قبل عصابات الفدائيين العرب ضد سكة حديد الحجاز قرب العقبة والتي ستجعل من المستحيل على الاتراك تنظيم جند كفاية لشن هجوم دفاعي . الدافع من وراء هذه الخطة ان يجعل العرب يبدون لا غنى عنهم بالنسبة للجنرال ، ولإضعاف اتفاق سايكس .

في الاجتماع لم يتعهد اللنبي بشيء لكنه تأثر بشكل واضح لانه فيما بعد اوصى بخطة لورانس في لندن . مستخدما عرض لورانس لتعزيز جدله مع روبيرتسون انه يجب السير قدما في غزو فلسطين ، تنبأ ان التأثير المشترك لهاتين الخطتين قد يسبب «هزيمة الحملات التركية في الحجاز وفي سورية وتحقيق نتائج على المدى البعيد ، على كلا الصعيدين السياسي والعسكري» . ولتوفيق النشاطات على جانبي البحر الميت قرر إحضار فيصل ولورانس تحت قيادته ، مشكلا الدور العربي بالطريقة التي يريدها لورانس تماما . زاوج لورانس بشكل رائع بين أجندته السياسية الخاصة به وبين الاحتياجات التكتيكية لحملة اللنبي .

للتأكد ان الخطة قد سارت للامام من دون عوائق ، كان اللنبي مستعدا لحماية لورانس من الفرنسيين . رفض بشكل قاطع محاولة فرنسية لإرسال احد رجالهم ليكون ضابط علاقات مع لورانس . اذا دخل لورانس اثناء تنفيذ عملياته المنطقة التي خصصها اتفاق سايكس ـ بيكو للفرنسيين ، تعهد الجنرال البريطاني ان يقوم فقط بإبلاغ الفرنسيين «بقدر ما تسمح به الضرورات

العسكرية» . اثبتت الضرورات العسكرية انها مقيدة لدرجة كبيرة ، ما أعطاه العذر حتى لا يقوم بتحذير الفرنسيين من اي من عمليات لورانس لانه يعلم انهم فقط سيعترضون ويرفضون ، كما فعلوا بخطة الإسكندرونة .

في شهر آب / أغسطس سنة ١٩١٧استلم اللنبي أوامر من لندن للاستفادة من الاستيلاء على العقبة والتعجل في التوجه الى الامام الى فلسطين ، وعاد لورانس الى مسرح انتصاره ليخطط ويدير حملة معقدة من الكر والفر التي وضع لها مخططا مبدئيا وقدمها الى ضابط القيادة . لكنه وصل الى الميناء ليجد ان في غيابه بدأت انقسامات جوهرية في الجيش العربي في الظهور . السوريون والعراقيون الذين تطوعوا للقتال مع حسين يتخاصمون من دون انقطاع ، وكلا المجموعتين لا يجمعهما شيء مشترك مع رجال القبائل البدو الهمجيين الذين بالأصل انضموا الى الشريف . بعيدا عن ان يبرهنوا عن مواصفات امة كان يأمل انها ستطرد الفرنسيين ، كان العرب على الدوام بحالة عداء فيما بينهم .

غضب لورانس من رسالة ارسلها سايكس ، التي كتبها لإخباره انه سيتطلب «عشر سنوات» من وصاية تحت الحلف حتى يصبح العرب أمة ، ارسل لورانس ردا عدائيا . اثناء فترته في القاهرة سمع أيضاً عن انجذاب الحكومة البريطانية للصهاينه ، والان سأل سايكس ان يوضح التقلب في الوعود البريطانية للعرب ، ومن ثم للفرنسيين ، والان لليهود . «نوعا ما نحن في حفرة» ، وانهيكلامه بالقول : « رجاء اخبرني ، في رأيك ، ما هي الطريقة الواقعية التي سنجد بها مخرجا» .

كلايتون ، الذي ارسل له لورانس هذه الرسالة ، قرر ان لا يعطيها لسايكس . لم يرد تحدي سايكس ، كما فسر ، في وقت اتفاق سايكس ـ بيكو ـ «ليس وثيقة قابلة للتطبيق» ـ كان «الان تقريبا اثر بلا حياة» . ادعى ايضا ان جورج

بيكو ليس له شعبية عميقة ، لانه في ذلك الوقت كان معروفا ان إهماله قاد مباشرة الى موت العديد من القوميين العرب الذين انكشف أمرهم بعد معرفة قصة مراسلاتهم معه .

على عكس توقعات كلايتون صمد اتفاق سايكس - بيكو فترة الحرب ، لكن في تلك المرحلة شعر سايكس بالتأكيد بانه معرض للانتقاد بسبب هجوم لورانس والموقف الشعبي العدائي المتزايد ضد الإمبريالية . بعد أسبوعين من الاستيلاء على العقبة ، سلم عضو البرلمان البريطاني بالامر الواقع بان اتفاقه مع جورج بيكو كان الان «الى حد ما عكس روح العصر» . كتب بعد فترة قصيرة «سأذهب مسرعا الى باريس لاجعل الفرنسيين يلجؤون الى تطييب خاطر العرب بالمجاملة لقضيتهم لان هذا هو أملهم الوحيد» ، مضيفا بشكل متفائل : «الاستعمار جنون واعتقد انه يمكنني مع جورج بيكو ان نثبت لهم ذلك» .

لم يعد قلقا بعد الان من موضوع انتهاء المصالح البريطانية اذا نجحت حرب العصابات التي يقوم بها العرب ، انطلق لورانس حتى يخرب سكة حديد الحجاز بشكل دائم - نفس العملية التي نصح بعدم القيام بها ذات مرة . المحركات البخارية التي تعمل على سكة الحديد تحتاج بانتظام الى تعبئتها بالماء ، فقرر ان يحاول تدمير آبار الماء الرئيسية في محطة المدورة ، التي تقع اليوم على الحدود الاردنية - السعودية ، وهي محاولة حتى يخلق امتدادا من دون ماء لمسافة طويلة جداً فلا تستطيع المقطورات من مواصلة رحلاتها كل تلك المسافة من دون ماء . لكن محاولته للقيام بذلك أعاقها الخصام بين رجال القبائل الذين يشكلون جماعته التي تنفذ الهجمات . مصالحتهم مثل محاولة تصليح «طوق مقطوع» ، قال ذلك شاكيا ، مضيفا ان اثناء هذه الحملة كان قلقا اكثر من «مسائل الإمداد ، المواصلات ، دفع الأجور للقبائل ، التخاصم ، تقسيم الغنائم ، الضغائن ٢٠ ، أوامر السير ، وما

شابه اكثر من عمل التفجير» . وصل لورانس الى المدورة واستطلع تلك المنطقة في الليل ليتعرف عليها ، وقرر ان قواته غير متماسكة كفاية حتى تنافس الاتراك الذين عددهم يفوق عدد جماعته بواحد مقابل اثنين . خاب ظنه فالتفت الى جنديين نظاميين احضرهما معه - بيلس وبروك - لينظموا هجوما على قطار .

بينما قام بيلس وبروك بإطلاق مدفع هاون ورشاش آلي من على الهضبة المجاورة التي حصلوا منها على موقع مطل على هدفهم ، الى الأسفل الى جانب المقطورة أمضى لورانس ساعتين يدفن كيس رمل محشي بخمسين رطل من الديناميت الهلامي تحت السكة في نقطة حيث تتقاطع فيه السكة مع الجسر ، ولانه حتى الان كان الحرس التركي يقوم بالبحث عن الألغام في سكة الحديد كان عليه أن يمضي اربع ساعات اخرى حتى يخفي السلك الرئيسي ، ثم وصله بكبسولة تفجير كهربائية التي سلمها الى احد رجال القبائل . بعد ذلك انتظروا لمدة طويلة وبقلق . وفي بعد ظهر اليوم التالي تم رؤية قطار تسحبه مقطورتان ، أعطى لورانس الأوامر بالضغط على المكبس تماماً لحظة وصول المحرك الى اللغم .

تذكر فيما بعد «هناك تبع ضجيج مروع» و«اختفى خط سكة الحديد عن الأنظار وراء عمود متدفق من الغبار الاسود ودخان على ارتفاع مائة قدم للاعلى وباتجاه الأفق . بعيدا عن الظلام تقدمت قرقعة حطام وصوت طنين معدني صاخب لفولاذ مهشم دام لوقت طويل ، مع كتل عديدة من الحديد والصفيح ؛ بينما دولاب مقطورة بكامله أخذ يلف فجأة باتجاه الاعلى من خارج غيمة سوداء في وجه السماء ، وأبحر بشكل موسيقي فوق رؤوسنا حتى سقط ببطء وبتثاقل في الصحراء خلفنا» . بعد لحظة صمت استمر اطلاق نار شرس بين العرب والاتراك الذين بقوا على قيد الحياة . اثبت مدفع الهاون والرشاش الآلي ان لهما تأثير كبير على النتيجة .

هذه كانت اول مرة يشاهد فيها لورانس يقاتل على مقربة من مراكز القيادة ، وكان مصدوما من ذلك . تحطم الجسر بفعل التفجير ، وبعد نهاية المعركة وجد محركا ثانيا «كومة مبيضة من الحديد المتدخن» في اسفل الوادي الذي عبره ، مع الأموات ومن كان يحتضر من العربة الاولى مخلوطين معا في كومة . «لن احتمل هذه اللعبة اكثر من ذلك» ، هذا ما باح به الى صديق له ، واصفا كيف وجد الاتراك» في كل مكان اشلاء بانها تجربة «مخيفة» .

هذه التجربة المضنية وصبره الذي نفذ مع البدو ، شجعا لورانس حتى يبحث عن ضباط بريطانيين آخرين مناسبين ورجال لمساعدته . احتاج الى رجال يمكن الاعتماد عليهم ، خصوصا في المراحل المتقدمة من الحملة عندما يكون التنسيق الوثيق لعملياته مع تقدم النبي الى فلسطين حاسما . احدهم كان زميله السابق و . ف . ستيرلينغ ، الذي استلم منه رسائل تهنئة لدى عودته الى العقبة . وحتى يحاول إقناع ستيرلينغ والذي يتكلم اللغة العربية الانضمام اليه ابتلع الذعر الذي شاهده وفي وصف خفيف الظل «للعمل الرائع المغامر الاخير» وصف «الطلقتين الجميلتين» من مدفع الهاون وانهمار النار من الرشاش الالي كيف أسفرتا هاتين العمليتين عن موت سبعين تركي وثلاثين جريح وثمانين سجين ، في مدة فقط عشر دقائق . أتأمل ان ترى هذا المتعة التي حصلت ، «أنهى بهذا الشكل : «انه اداء من النوع الهجومي وشغل هواة الى اقصى حد . فقط انت ستفكر بانه النعيم لانه لا يوجد هناك بيانات ، أوامر ، رؤساء ، مرؤوسون ، أطباء ، تقارير ، وجبات ، ولا مشروبات . «انضم اليه ستيرلينغ بتوق بسبب أجواء الحملة السنة التالية . كان «الرفيق بالضبط «هذا ما قاله زميل اتفق معه بالرأي ، «لترسله ليقوم بالأعمال الخطرة المغامرة في الميدان» .

عندما عاد لورانس الى العقبة في بداية شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩١٧وجد دعوة في انتظاره من اللنبي . قرر اللنبي شن هجوم على غزة في

نهاية نفس الشهر ، لكن معلومات استلمها قادته للاعتقاد ان فرق العدو التي ستواجهه قد تضاعف عددها . بسبب رغبته في إيقاف تحريك العثمانيين تعزيزات اكثر لتقاومه ، لذلك اقترح ان يهاجم لورانس الخط الفرعي لسكة خط الحديد التي تصل دمشق بفلسطين . عندما التقيا النقطة التي اتفقا عليها الرجلان كانت حيث سكة الحديد تجتاز جانب وادي اليرموك الشديد الانحدار عندما تنزل الى فلسطين .

في عمق المنطقة التي يحتلها العثمانيون ، ستكون حملة اليرموك مهمة لورانس الاكثر خطورة حتى الان ، لكن لم يكن أمامه من خيار سوى الموافقة لانه بالأصل قد جاء بالفكرة لان الوادي يشكل جزءا من خط سايكس وجورج بيكو الفاصل الذي حدداه . قرر ان يأخذ معه مهندسا ملكيا والذي بإمكانه التكفل بالخراب اذا هو نفسه قد قتل ، ومجموعة من جنود الغوركا (جنود من الهند يقاتلون لصالح بريطانيا) لتزويد قوة نار إضافية . دليله كان عبد القادر الجزائري ، وفرد من عائلة دمشقية شهيرة والذي قاد جده مقاومة ضد الفرنسيين في الجزائر في فترة الأربعينيات من القرن الفائت . اخبر عبد القادر لورانس انه يستطيع طلب دعم الجزائريين الذين يعيشون في الجانب الشمالي من وادي اليرموك .

نجح هجوم اللنبي . بدلا من ان يقوم بهجوم مباشر على غزة مرة اخرى بعد ، في اليوم الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول / اكتوبر هاجمت قواته بئر السبع ، جهة الشرق . كانت ليلة ضبابية ، مقمرة ، وقد تفاجا الاتراك . الليلة التي تلتها ، بدا البريطانيون بالقصف لمدة خمس ساعات على غزة نفسها . مع طلوع الفجر ، استولت القوات البريطانية على موقع له تأثير كبير لانه يطل على ميناء غزة ، لكن بسبب هبوب عاصفة رملية ونقص في الماء ، عاملان جعلا البريطانيين في بئر السبع غير قادرين على الإحاطة بغزة . تجنب الاتراك حركة الكماشة البريطانية من غزة وبئر السبع وانسحبوا مع اغلب قواتهم من

دون ان تتعرض لشيء . عزز البريطانيون زخم هجومهم بالتقدم مع الحرس .

لتفادي الضغط الفرنسي الذي لا يمكن تجنبه من اجل جعل الإدارة في فلسطين دولية لحظة غزو فلسطين ، الان جعلت الحكومة البريطانية دعمها للصهيونية علنا . في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني / نوفمبر نشرت التايمز رسالة من سكرتير الخارجية أرثر بيلفور الى اللورد روثتشايلد ، صهيوني بريطاني شهير . كان بيلفور مرتابا بعمق من تولي السلطة في فلسطين عندما اقترح سايكس الفكرة قبل سنتين ، بيلفور الان قد غير رأيه . أنقل اليك بسرور كبير» ، اخبر روثتشايلد بشكل مسرحي ، «التصريح التالي المتعاطف مع الآمال الصهيونية اليهودية التي تم تقديمها والموافقة عليها من قبل مجلس الوزراء» . ينص تصريح بيلفور على :

تنظر حكومة جلالته لصالح اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وسيستخدمون افضل مساعيهم لتسهيل تحقيق هذا الهدف ، من المفهوم بشكل واضح انه ما من شيء سيضر بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير يهودية الموجودة في فلسطين ، او بحقوق وبالوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في اي بلد اخر .

حتى الان كان لورانس غير دار بالتطورات التي غيرت العالم . عميقا خلف خطوط العدو تأمل ان يهاجم سكة حديد وادي اليرموك في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . لكن الصعوبة التي واجهها في تجنيد رجال قبائل متعاطفين واختفاء مرشده عبد القادر الجزائري بشكل غامض ، أدى الى تأخيره . فقط حتى بعد ان خيم الظلام من اليوم السابع من شهر تشرين الثاني / نوفمبر حتى وصل أخيرا الى وادي اليرموك المنحدر بشدة .

كشف وهج نار عبر الوادي عن موقع خيمة الحراسة التركية على اقرب جسر سكة حديد . وترك لورانس الغوركا على قمة المنحدر الوعر حتى يفتحوا نار المدافع الرشاشة على الخيمة اذا اطلق حارس الخيمة الإنذار ، وزحف

للامام مع رجال القبائل الذين كانوا يحملون معهم أكياس متفجرات ، الى الأسفل باتجاه الجسر المعدني الذي يعبر الخندق الاسود . ولانه اكتشف انه لا يستطيع الوصول الى القناطر المنخفضة الضعيفة ، فقط استدار لورانس حتى يخبر رجال القبائل حتى يتبعوه وعلى مسافة بعيدة من فوق ، حصل صوت قرقعة عندما سقطت بندقية من احدهم .

انتبه الحرس التركي من هذا الصوت الذي لا يخطىء ، الحارس على الجسر الان رأى الغوركا . صاح لتحديهم ، بدا اطلاق النار ونادى طلبا للمساعدة . تذكر لورانس لاحقا «فورا كل شيء كان بلبلة وحيرة» . رجال القبائل خلفه ، الذين كانوا غير مرئيين ، مباشرة ردوا اطلاق النار بمثله . تاركين مكانهم خلفهم اثناء تقدمهم . قبل ان يحصل الغوركا على وقت حتى يخرموا خيمة الحرس بالرصاص ، هرع الحرس الاتراك الى الخارج وبداوا بإطلاق النار على رجال القبائل ، الذين خافوا لانه تم أخبارهم انه اذا تم اطلاق النار عليكم ، ستنفجر المتفجرات التي يحملونها . استفاق القرويون المحليون على صوت اطلاق النار ، وخرجوا ليدافعوا عن بيوتهم . مع وابل من اطلاق النار في السماء اثناء الليل قرر لورانس انه حان الوقت للرحيل . محاولته لتخريب خط الإمداد الرئيسي المتجه الى فلسطين انقلبت الى إخفاق تام .

لورانس تقريبا قتل نفسه في محاولة بعد ايام ليزرع لغم لتخريب قطار : الأشرطة الكهربائية قصيرة في العقبة ما دفعه الى صنع سلكا واحد بنفسه طوله غير كاف . كان قريبا جداً من سكة الحديد عندما انفجر اللغم تحت قطار يحمل تعزيزات تركية الى فلسطين ، تذكر فيما بعد «الانفجار كان هائلا» ، مضيفا» انفجر في وجهي سواد من الارض ، ما دفعني للدوران ، حتى جلست بقميص ممزق عند كتفي والدم يقطر من جروح مشروطة طويلة من على ذراعي الأيسر . والمتفجر كان ملقيا بين ركبتي ، مسحوقا تحت صفيح ملتو من الحديد المشحور . عندما ظهرت من وسط الغبار وبخار الانفجار ، بدا

كامل حراق المحرك الاول مختفيا . تماماً أمامي كان القسم الاعلى من رجل يتدخن ومسلوق . «القطار كان يحمل جنرالا تركيا كبيرا ، وجنوده واجهوا القتال بقتال بضراوة» .

لورانس كان محظوظا لانه نجا بعد اصابته بخمس ثقوب رصاص في ملابسه واصبع قدم مكسور بسبب شظية . كان على علم بأنه «يجب ان نحاول ونجعل الاعلام المساعد الى جانبنا» ، ارسل المهندس والغوركا الى العقبة مع تقرير عن الهجوم على القطار للصحف . الان استدار الى الشرق ليلجأ الى ازرق ، قلعة أطلال في واحة في الصحراء شرق عمان حيث التقى بنوري الشعلان باكرا من تلك السنة . بقي هناك لعدة ايام قبل العودة الى العقبة . وصل الى الميناء في اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . وتقريبا سافر على الفور بالطائرة الى جنوب فلسطين ليناقش التكتيكات مع اللنبي . .

جيش اللنبي كان حتى ذلك الحين قد قام بتقدم اكثر في فلسطين . بينما كان لورانس في ازرق في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر استولت القوات البريطانية على المحطة التي تتقاطع فيها السكك ، حيث تنضم خطوط طريق غزة والقدس الفرعية الى الخط الرئيسي شمالا ، الذي يعبر وادي اليرموك ليصل الى دمشق . بعد ذلك بثلاثة ايام ، دخل الجنود البريطانيون يافا . والثمن ستة آلاف حالة اصابه . حتى اصبحوا على مسافة من القدس ملفتة للنظر . مع الوقت التقى لورانس باللنبي ، والمدينة المقدسة انقطع عنها الامداد لكن ، بسبب فشله في تفجير سكة الحديد في وادي اليرموك ، كان ما زال بامكان الاتراك تزويد الجند في شمال فلسطين بواسطة سكة الحديد .

باكرا في شهر كانون الأول / ديسمبر انسحب الاتراك الى الشمال من القدس ، ولراحة بال اللنبي ، استولت القوات البريطانية على المدينة المقدسة

من دون قتال . متوقعا ان الفرنسيين سيحاولون التدخل في إدارة المدينة من دون إذن ، أخبرت الحكومة البريطانية اللنبي بتجاهل أية طلب بينما فلسطين ما زالت منطقة حرب ، لكن «لتجنب أي انطباع . . . انه يتم التفكير بضم فلسطين الى البريطانيين» . في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩١٧ ، قام الجنرال البريطاني بدخول رسمي على الأقدام عبر بوابة يافا . كان «يوما مضيئا ؛ صقيع ابيض هنا . . . ومن ثم أشعة شمس مثلجة ، من دون رياح» ، كما اخبر زوجته . مشى خلفه جورج بيكو ، كذلك كلايتون ولورانس . لقطة في شريط سينمائي مع تعليق على هذه الاحداث في ذاك اليوم ظهر فيها لورانس لمدة قصيرة يبتسم ابتسامة عريضة .

تمت القراءة بصوت عال وتعهد النبي بانه سيدعم حرية الديانة في المدينة ، وبعد ذلك كان هنالك مائدة غداء مفتوحة لضباط الحلفاء . هناك ، كما هو متوقع ، فتح جورج بيكو موضوع مستقبل حكومة المدينة . اعلن الديبلوماسي الفرنسي «غداً ، عزيزي الجنرال ، سأتخذ الخطوات الضرورية لإقامة حكومة مدنية في هذه البلدة» . حسب لورانس انه قوبل بالصمت . «علقت في افواهنا السلطة وساندويشات الدجاج بالمايونيز ودهن الكبد من دون مضغ» ، حسب ما تذكر لورانس ، بينما استدارت عيوننا الى اللنبي وانتظرنا» .

احمر وجه اللنبي . وقال : «في المنطقة العسكرية السلطة الوحيدة هي للقائد العام ، أنا» .

«لكن االسير أدوارد غري أشار الى الحكومة المدنية التي ستتأسس عندما يسمح الوضع العسكري بذلك ، «نطق اللنبي بكلمات لاذعة متجاهلا بها جورج بيكو بالكامل في مكانه حيث كان جالسا .

لم يتغير الوضع العسكري لعدة اشهر . رغم ان اللنبي الان يتمتع بدعم كامل من لندن ، هناك حيث اقنع لويد جورج الفرنسيين ان يرضوا عن عمليات اخرى في فلسطين وطرد من الخدمة مستشاره العسكري السير وليام

روبيرتسون ، تدخلت احداث على الجبهة الغربية قبل ان يتمكن اللنبي من استئناف تقدمه . في شهر آذار / مارس من سنة ١٩١٨ شن الألمان هجوما مفاجئا ضخما ، وتلقى اللنبي أوامرا من قبل مكتب الحرب بإرسال ستين الف من افضل جنده لانكلترا لتعزيز خط الحلفاء .

بسبب تقلص حجم قوته بشكل دراماتيكي ، ازداد قلق النبي على امن جناح جيشه الشرقي المكشوف . رغم تفاؤل لورانس ، فشل العرب بتخريب سكة الحجاز ، ما قاد الجنرال الى المحاولة مرتين للاستيلاء على ضفة الأردن الشرقية بنفسه . فشلت كلا المحاولتين ، وبعد بداية الصيف ، كان عليه ان يتقبل ان ما من تقدم اخر سيكون ممكنا حتى فصل الخريف . اعاد تنظيم قواته بسبب تلهفه للقيام بحركة للإمام سريعة ما ان تنخفض درجة الحرارة ، وزع فيلق الجمال بين قواته حتى يزيد عدد الفرق الراكبة على الجمال تحت قيادته من ثلاثة فرق الى اربعة .

لورانس ، الذي أمضى اغلب شهر ايار / مايو من سنة ١٩١٨في مركز قيادة اللنبي ، سمع عن هذه الحركة التي قام بها اللنبي وبأحد الأمسيات حول مائدة العشاء طلب ألفي جمل .

«لماذا تريدهم؟» سأله اللنبي .

اخبر لورانس «الثور» بصراحة فظة «لوضع الف رجل في درعا في اليوم الذي يرضيك» ، وافق اللنبي بسرعة .

بلدة صغيرة ومغبرة على بعد ثمانين ميلا جنوب دمشق ، درعا كانت محور شبكة سكة الحديد السورية ، واصلة فلسطين ، جنوب سورية والحجاز بدمشق . تامل لورانس انه من خلال هجوم على البلدة سيشل نظام سكة الحديد التركية في الوقت الذي يقوم فيه اللنبي في النهاية بشن هجوم جديد . لكن كان هنالك سببا ثانيا اقل وضوحا للخطة . تقع درعا تماماً في المنطقة

التي وعد سايكس بها جورج ـ بيكو . هجوم عربي هناك الذي سيسمح للنبي التوجه الى الشمال ويحقق المطلب العربي بتحرير أرضهم الخاصة بهم وستساعد في نصر اللنبي النهائي .

عكست الفكرة معرفة لورانس الشديدة بصعوبة تلك الأوقات ، رغم قضائه شهورا في عمق الصحراء ، كان يعلم جيدا هذا الشعور العام المتطور بسرعة المعادي للإمبريالية الذي كان يجبر لويد جورج على دعم حق تقرير المصير . بعد ان استولى البلشفيون على السلطة في روسيا ، نشروا كل المعاهدات السرية ـ من بينها اتفاق سايكس ـ بيكو ـ الذي اطلعت عليه الحكومة القيصرية سرا ، اجبر حزب العمال لويد جورج في بريطانيا على التلميح على ان سياسة الحكومة قد تتغير .

في بداية سنة ١٩١٨ طمأن رئيس الوزراء كونغرس نقابة العمال ان الجزيرة «العربية ، أرمينيا ، بلاد الرافدين ، سورية وفلسطين» سيكون لهم الحق بالاعتراف بأوضاعهم القومية المنفصلة ، رغم انه عن طريق صياغته المراوغة نفسها تجنب تحديد بالضبط ما يعنيه هذا . فيما بعد بأيام ، عرض الرئيس ويلسون بشكل واضح اكثر اراءه المعروفة باسم النقاط الاربعة عشر حول شكل العالم بعد الحرب . النقطة الثانية عشر تصرح بان الاتراك يجب ان «يضمن لهم سيادة مصانة «وان القوميات الاخرى المحكومة في الوقت الحالي يجب أيضاً «طمأنتها بالحصول على امن الحياة لا ريب فيه وبفرصة التطور المستقل ومن دون تعرضها لسوء على الاطلاق» .

في لندن ، يستطيع سايكس رؤية خطر ان يتم فهمه من جانب هذا التيار الخطا . اعترف ان العالم «قد سار مسيرة بعيدة جداً» منذ سنة ١٩١٥ ، وان اتفاقه مع جورج بيكو يمكنه «الان ان يعتبر مقياسا رجعيا» . كان «ميتا ومنتهيا ، وبأقرب وقت يتم محيه فيه سيكون افضل» . في شهر آب / أغسطس من سنة ١٩١٨بدا بوضع مشروع تصريح جديد للعرب ينقح به بشكل جوهري

اتفاق سنة ١٩١٦ . لكنه لم يتم تشجيعه لمناقشته مع جورج بيكو من قبل وزير الخارجية اللورد روبرت ساسيل الذي اعتقد انه سيكون من الافضل فتح المفاوضات فقط بعد دخول الجند البريطانيين المنطقة الفرنسية . قال ساسيل «يجب ان لا ننسى أبدا انه على الصعيد الدولي الفرنسيون جشعون» ، مضيفا ، «وستسنح لنا فرصة افضل لنستخلص منهم شروط منطقية اذا جاؤوا إلينا في اللحظة الاولى ليحصلوا على شيء يريدونه لأنفسهم» . هدف ساسيل الذي يوافقه عليه لورانس من كل قلبه ، هو ان يخلق»حقائق على ارض الواقع «التي ستجعل اتفاق سايكس ـ بيكو لا علاقة له بالواقع .

هجوم لورانس على درعا ، الذي جاء مناسبا لهذا الهدف ، بدا في اليوم السادس عشر من شهر أيلول / سبتمبر من سنة ١٩١٨ ، ثلاثة ايام قبل ان يبدأ تقدم اللنبي . شكل الجو التكتيكي للحملة العربية . مع الف رجل قبيلة على الجمال ، بقيادته هو وستيرلينغ ، ومجموعة من الزملاء البريطانيين الاخرين في سيارات روز رايز مدرعة ، قطع سكة الحديد جهة غرب وجنوب البلدة عن طريق تدمير جسور سكة الحديد . حيث وضعوا المتفجرات بذكاء شديد تحت المسامير المثبتة لخط سكة الحديد المعدنية ، مما سبب في التواء مئات الامتارمن سكة الحديد التي كان قد تم إصلاحها .

لورانس بنفسه أيضاً قطع أسلاك التيليغراف التي تصل الجنرال الالماني قائد القوات التركية في فلسطين ، اسمه ليمون فان ساندرس ، بدمشق والقسطنطينية . ما عكس بعد عدة ايام من انقطاع تواصل الجنرال مع العالم الخارجي عندما عادت في النهاية الاتصالات الى حالتها الطبيعية ، استلم جوابا لا علاقة له إطلاقا بما كان ينتظره من العاصمة العثمانية . «البرقية» ، وكما تذكر الجنرال لاحقا تقول : «التحقق فيما اذا كنت مستعدا لعرض جائزة لسباق الاكياس نحو القسطنطينية في اليوم الثامن من شهر تشرين الأول / اكتوبر» .

في الساعة الرابعة والنصف صباحا في اليوم التاسع عشر من شهر أيلول شن اللنبي هجومه الرئيسي . لان ليمان فون ساندرس كان مقتنعا ان الهجوم على درعا قد كشف نوايا اللنبي الحقيقية ، كذب الخبر الصحيح الذي استلمه بان تدفق الهجوم سيتجه الى الاعلى نحو الساحل على انه محاولة ذكية لخداعه . لكن البريطانيين قاموا بالضبط بذلك بعد قصف مكثف لمدة قصيرة ، تفاجا بذلك الجيش العثماني بالكامل وانهار . بسرعة غزت قوات النبي مركز القيادة التركي في طولكرم ، وكادت تلقي القبض على ليمان فان ساندرس عندما دخلوا الناصرة . مع الوقت وصلوا الى درعا ، العلم العربي كان مسبقا يرفرف فوق البلدة ، تماماً كما اراد لورانس .

وبعد ان ابتدأ تقدم اللنبي كتب ضابط مخابرات فرنسي اسمه انتونيون جوسان تقريرا الى باريس عن «الأنباء المهمة جدا» ان قوة بقيادة لورانس دمرت سكة الحديد حول درعا . فجأة مدركة ما كان يحاول لورانس القيام به ، أمرت وزارة الخارجية الفرنسيه (كاي دورسيه) سفيرها في لندن ، كامبون ، ان يذكر بيلفور ان «لا ينسى» اتفاق سايكس ـ بيكو . بالرغم من انهم عاجزون عن إيقاف لورانس ، تحرك أيضاً الديبلوماسيون الفرنسيون لتنفيس الانطباع ان العرب هم من حقق النجاح لوحدهم . فعلوا ذلك من خلال الكشف للعالم باسره الدور الذي لعبه الضابط البريطاني . في اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول / سبتمبر كانت الصحيفة الفرنسية المحافظة والقومية «ايكو دو باريس» اول من أشارت علنا الى دور لورانس في الحملة ، والذي كان حتى الان قد بقي سرا بالكامل . «يجب ان نتطرق للحديث عن الكولونيل لورانس» ، أضافت الصحيفة ، عندما كتبت عن نصر اللنبي . ناسبة نجاح لورانس «الى خبرته في البلاد وموهبته في التنظيم» ، شارحة الصحيفة كيف انه ، «على راس قوات الحرس ، التي شكلها مع البدو والدروز ، قطع سكة الحديد في درعا ، وبهذا عمل الى حد ما على قطع اتصالات العدو بين دمشق وحيفا» ،

جزء من الاهمية العظمى في النصر الفلسطيني» . المضمون كان واضحا . من دون ان يقودهم لورانس ، العرب لن يكونوا قادرين على ثمة عمل فذ .

لزيادة الصعوبة على تراجع الجيش العثماني ذهب لورانس مع ستيرلينغ الى دمشق بسيارة روز رايز مصادرة من المعركة باكرا من صباح يوم الاول من شهر تشرين الاول اوكتوبر تماماً بعد ان ترك الاتراك المدينة . الجند الأستراليون الذين يركبون على ظهور الخيل كانوا مسبقا قد عبروا دمشق اثناء مطاردتهم الاتراك ،لكن اللنبي امر اغلب جنده بالتراجع حتى يتمكن العرب من الدخول للمدينة اولا . بعد ذلك بسنين ما زال ستيرلينغ يتذكر ذلك اليوم بصورة مفعمة بالحياة «دراويش يرقصون حولنا . أحصنة البدو ، تقفز مرحا وتتبختر والتي بالتدريج أفسحت الطريق لنا وسط الجمع الغفير ، بينما من الشرفات واسطح البيوت نساء بالخمار رشقونا بالزهور و- الأسوأ اكثر - بعطر الورد ، «كما تذكر . استغرق مني من الوقت أسابيع للتخلص من رائحة العطر من ملابسي» .

لكن نشوة الفرح لم تدم . اشتكى ستيرلينغ لاحقا : «نجحت قضية العرب اكثر مما يحلم به اي احد . هنا المشكلة تماماً» . الوضع الذي فكر البريطانيون بثقة كبيرة بانه يفوق التصور قد جاء وعبر . مع العرب يطالبون بدمشق كحق لهم بعد الفتح ، سيضطر البريطانيون الان الى الاعتراف بانهم لم يعدوهم وحدهم بالمدينة ولكن أيضاً الفرنسيين . أرثر بيلفور ، وزير الخارجية البريطاني ، لم يوافق على اسلوب المجابهة الذي يفضله الوزير ساسيل الأحدث منه ، واصدر حكما بان تحترم بريطانيا اتفاق سايكس - بيكو كما هو .

سبب قرار بيلفور استياء في دمشق . وفي لقاء حرج مع فيصل ، اعلن اللنبي ان فرنسا يجب ان تكون السلطة الحامية في سورية ، رفض فيصل بشكل قاطع العرض . استقبل ستيرلينغ وفودا من عرب غاضبين واغلبهم يائس ولا يستطيعون تصديق اننا وقعنا اتفاقا يسلمهم الى الفرنسيين» .

لتأجيل مشاكل خطرة اكثر ، بذل اللنبي قصارى جهده ليهدئ العرب من خلال عرضه عليهم تفسيرا شهما لاتفاق سايكس . عندما أنهى ترتيبات مؤقتة لاحتلال اراضي العدو ، ترك العرب في موقع السيطرة في دمشق والاراضي جهة الشرق . أعطى الفرنسيين شريطا ضيقا من ساحل لبنان لا يقع ضمن المنطقة التي وعدهم سايكس بها . لكنه أدرك ان هذا كان مهدئا قصير الأمد . «عندما لا يعود القانون العسكري مطبقا ، فالمستقبل لن يكون صافيا كثيرا» ، هذا ما كتبه رئيس أركان الحرب الإمبريالية في لندن . «اذا لم يحصل العرب على منفذ على البحر ، سيكون هنالك مشاكل لا نهاية لها» .

عندما شهد لورانس لقاء اللنبي مع فيصل ، ذهب الى لندن في اليوم الرابع من شهر تشرين الأول / اكتوبر ليتابع حملته في الوايتهول . اشتبه على نحو صائب ان الحكومة البريطانية ، مواجهة بفضح الوعود المتناقضة التي اتخذتها مع كل من العرب والفرنسيين ، يمكن ايضا ان تخون حلفاءها العرب . لانه تنازل قبل سنة لسايكس ، «أنا أدرك تماماً اننا قد نبيع أصدقاءنا الصغار لندفع لأصدقائنا الكبار ، او نبيع امننا في المستقبل في الشرق الأدنى حتى ندفع ثمن نصرنا الحالي في الفلاندرز «لكنه كان مصمما على بذل قصارى جهده حتى يمنع ذلك من الحدوث . هرع لبلده ليحاول البرهنة ان اتفاق سايكس - بيكو قد أدركته الاحداث ، ان فيصل وإخوته يجب ان يستولوا على السلطة في المناطق العربية التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية ، وليصر على ان العرب ، ولأنهم حلفاء للبريطانيين ، يجب ان يتم تمثيلهم في مؤتمر السلام القادم في باريس ، الذي سيبدأ في شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩١٩ . لكن استغرق ذلك معه من الوقت ثلاثة أسابيع حتى يصل الى العاصمة ، وفي ذلك الوقت ، تدخل عامل حاسم اخر .

الفصل الخامس

اريد الموصل

عندما اصبحت درجة هزيمة العثمانيين في سورية واضحة ، بعد عشاء في اليوم السادس من شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩١٨ اخذ لويد جورج يفكر مليا بكيفية «تقسيم تركية» . كان رئيس الوزراء البريطاني في باريس ، وقد أمضى اليوم مع الفرنسيين يتفقون على شروط الهدنة التي سيعرضونها على عدوتهم . لويد جورج من اعماقه يكره الاتراك ـ لذلك من الواضح ان احد وزرائه تساءل فيما اذا كان يحلم في اليونان ـ وانه بشكل واضح لطالما تمنى تحطيم الامبراطورية العثمانية . قبل سنة اخبر مجلس الوزراء ان الامبراطورية العثمانية قد حولت «مهد الحضارات الى «صحراء قاحلة وانه «يجب على الاتراك الا يسمح لهم بإساءة حكم تلك الاراضي العظيمة في المستقبل» .

لكن اذا لم يكن العثمانيون ، إذن من؟ قدم اتفاق سايكس ـ بيكو الطبعة الزرقاء للتصميم الهندسي للاستيطان بعد الحرب لكنه لم يكن الاتفاق الذي حبذه لويد جورج . في اجتماع مع مجلس الوزراء والذي اكتشف فيه ان بيلفور قد قام بأخبار اللنبي باحترام الاتفاق المثير للجدل هذا ، ووصفه بانه «الى حد ما غير قابل للتطبيق في الظروف الحالية» ، و . . . كله على بعضه اكثر اتفاق

غير مرغوب به من وجهة النظر البريطانية» . على حد علمه ، بريطانيا هزمت العثمانيين بمفردها ـ كتب فيما بعد» الحكومات الاخرى وضعت القليل من رجال الشرطة الزنوج ليروا اننا لم نسرق القبر المقدس!» ـ وعلى بريطانيا بناء على ذلك ان تأخذ حصة الاسد من الغنائم . لكن بالرغم من تلك الحقيقة ، أصر السفير الفرنسي كامبون على تنفيذ المعاهدة . مع الوقت الذي وصل فيه لورانس الى دمشق كان واضحا منذ البداية ان الحكومة الفرنسية لن تتخلى من دون قتال عن الامتيازات التي حصل عليها جورج بيكو من بريطانيا قبل ثلاث سنوات .

على العشاء من ذاك المساء في باريس مع زميلين له اتخذ لويد جورج «موقفا عنيدا جداً» ، حسب السكرتير في مجلس الوزراء موريس هانكي ، الذي كان حاضرا ايضا حيث قال «أراد التراجع عن اتفاق سايكس ـ بيكو ، حتى نأخذ فلسطين لنا ولنضم الموصل الى المنطقة البريطانية ، وحتى لإبقاء الفرنسيين خارج سورية» . أضاف هانكي انه رغم ان رئيس الوزراء كان «مستاء جدا» من الرئيس ويلسون ، يمكنه ان يرى كيف ان الأميركي المنافق المتظاهر بالتقوى يمكنه ان ينتفع من هذه المساومة التي ستحصل . حسب هانكي ، اثناء النقاش الذي تبع قام لويد جورج «مع بعض المراوغة الحاذقة بالطلب من أميركيا ان تأخذ فلسطين وسورية ، لجعل الفرنسيين اكثر قلقا حتى يعطونا فلسطين ، وقد يحصلون على عذر لإبقاء سورية» .

يعود اهتمام رئيس الوزراء المفاجئ في الموصل الى هانكي . هو من نبه لويد جورج على اهمية المدينة قبل ثمانية أسابيع ، بعد ان قرأ مذكرة كتبها أدميرال كبير عن حاجة بريطانيا للنفط . شرح الأدميرال : لان النفط يعمل بفعالية وبتوفير اكثر بأربع مرات من الفحم ، سيأخذ مكانه في النهاية كوقود رئيسي في القوة البحرية . هذا سيترك بريطانيا عرضة للخطر لانه بينما لديها احتياط من الفحم خاص بها ، ستعتمد على الولايات المتحدة لإمدادها

بالنفط . على الرغم من عدائية الرئيس ويلسون للإمبريالية ، اذا ارادت الامبراطورية البريطانية ان تبقى قوة الملاحة المهيمنة ، فانه من الضروري «ان تسيطر ، بطريقة لا تقبل الجدل ، على اكبر قدر من البترول نستطيع عليه» .

نوعا ما تعمد الأميرال توقيت تدخله ، لان الحكومة البريطانية كانت في ذلك الوقت تنظر في مسألة استراتيجيتها في الأشهر المقبلة . قام الحلفاء للتو على رد هجوم الماني مفاجئ بأعجوبة ، وتوقعوا ان تدوم الحرب على الاقل سنة اخرى . أركان الحرب الذي كان يخطط لهجوم في وقت قريب على شمال فرنسا وفلسطين ، اخبر مجلس الوزراء انهم لم يخططوا للتقدم جهة الشمال اكثر الى بلاد الرافدين . هناك تقدم الجند البريطاني من البصرة الى بغداد ، ثم كركوك ـ النقطة الاخيرة من الخط الذي اقترحه سايكس في اجتماعه في الرقم عشرة (مقر رئاسة الوزراء البريطانية) قبل ثلاث سنوات .

وكما تابع الأميرال في ملاحظته ، ان هذه القوات البريطانية كانت تقع على بعد مسافة مثيرة للرغبه لقربها جداً من دون ان تصل لحقول النفط تلك التي يعتقد بانها تقع ناحية الشمال اكثر ، تحت السهل القاسي المكسو بالحجارة حول الموصل ، التي كانت في ذلك الوقت ما زالت بأيدي العثمانيين . تقارير من جيولوجيين المان استكشفوا المنطقة قبل الحرب قادته الى الاعتقاد ان تلك الحقول «اكبر المنابع غير المستثمرة معروفة في العالم في الوقت الحاضر» ، ثم تنبأ : «السلطة التي تسيطر على اراضي النفط في ايران وبلاد الرافدين ستسيطر على إمداد غالبية الوقود السائل في المستقبل» . كان مشددا على نقطة واحدة اخرى . «هذه السيطرة يجب ان تكون مطلقة ويجب الا يكون هنالك مصالح أجنبية مشتركة فيها من اي نوع» .

هانكي ، ضابط مخابرات بحرية سابق ، كان مقتنعا على الفور وشعر انه يجب على رئيس الوزراء الأخذ بعين الاعتبار نصيحة الأميرال كذلك . عارفا ان لويد جورج يمقت قراءة المذكرات ، وضع فوقها رسالة تغطية ، التي كتب

عليها «سري وهام للغاية» . وأشار فيها انه بينما لا يوجد سبب عسكري للتقدم البريطاني الى شمال العراق ، «قد يكون هنالك اسباب اخرى اكثر مما هي عسكرية محضة للحث الى الذهاب الى بلاد الرافدين حيث لدى البريطانيين هناك كم كبير من القوة الضخمة . اليست فائدة ، قبل نهاية الحرب ، ضمان آبار النفط القيمة في بلاد الرافدين»؟

الفائدة كانت واضحة ، لكن كان هنالك عائقين . ليس فقط وعد سايكس بحسن نية الفرنسيين بالموصل قبل ثلاث سنوات ، لكن الاستيلاء على المدينة هو تحدي لمبادئ الرئيس ويلسون التي أعلن بانها يجب ان تقود نظام العالم الجديد . بيلفور الذي استجوبه بقسوة الغاضب مستشار ويلسون الكولونيل هاوس قبل سنة ، قلق من ثمة حركة ستبدو «إمبريالية بشكل محض» ، لكن هانكي ناقش ان ضمان إمداد نفط مستقل قبل» الحرب المقبلة» هو» هدف بريطانيا الحربي درجة اولى» ، ووافق لويد جورج الذي كان ينظر الى وزير الخارجية على انه ضعيف الإرادة . وعندما اصبح واضحا من شهر تشرين الأول / اكتوبر ذاك ان العثمانيين قد انهزموا لكن الفرنسيين ما زالوا متشبثين بشدة باتفاق سايكس - بيكو .

امر لويد جورج الجند البريطاني بالاستيلاء على الموصل حتى يضع حلفاءه امام الامر الواقع . تماماً بعد اكثر من شهر من وصول لورانس والعرب الى دمشق ، وبعد اربعة ايام من الهدنة مع تركية ، في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني / نوفمبر احتلت الجيوش البريطانية المدينة .

بنى لويد جورج حياته المهنية على فرصة من هذا النوع . اعترف لزوجته في المستقبل مارغريت حتى قبل مدة طويلة من دخوله البرلمان . «فكرتي الأسمى هي التقدم للامام» . مضيفا «من اجل هذه الفكرة ، ساضحي بكل شيء - ما عدا كما ارجو ، الأمانة . أنا مستعد ان اسحق حتى الحب نفسه تحت عجلات قوتي الماحقة اذا اعترض طريقي» . في النهاية ضحى بكل

من الحب والأمانة في بحثه عن السلطة . علاقته الغرامية مع سكرتيرته ومستشارته فرانسيس ستيفنسون كانت علاقة من بين العديد من العلاقات التي أكسبته كنية «الماعز» ، بينما لم يبرئ ذمته تماماً بعد من تورطه في فضيحة التجارة غير الشرعية في قضية ماركوني سيئة السمعة (وهي فضيحة سياسية انكشفت سنة ١٩١٢ اعضاءها من مستو عال في الحكومة البريطانية ايام اسكويث بقي صداها خمسة وعشرين سنة لما فيها من فساد) . استهوته الثروة والنساء ، وروى موظف حكومي قصة تلخص أولوياته التي تسييره . كان يكتب ملاحظة ضمن اجتماع ممل ذات يوم ، وجد ان السياسي «قد أمضى الساعة الاخيرة في كتابة كلمة التصويت بأحرف سميكة كبيرة جداً ، ثم زخرفها بكل انواع الخطوط والتخطيط بالقلم الأزرق . وقد اشار السياسي والكاتب اللورد مورلي بشكل اصبح به وصفه للويد جورج مشهورا ، شبهه فيما يتعلق «بالصدق بشخصية انانياس (الكذاب) وللصداقة ببروتوس ، للمواصفات الاخرى استشهد بسينيور ماركوني» . لكن بعد ان واجه جيش كيتشنر المتطوع كارثة في سوم ، وبعد ان انقسمت حكومة اسكويث الليبرالية الى جماعات صغيرة بعد ان اختلفوا على موضوع الخدمة العسكرية الإلزامية ، ثمة تحفظات تتعلق بالويد جورج تم ابتلاعها من دون رضى . الان ، كانت صفات العند والولع بالحرب التي أبداها كوزير ذخيرة ومن ثم وزير دولة للشؤون الحربية هي التي ساعدته على إدارة البلد . لكن عندما استلم الويد جورج السلطة نهاية سنة ١٩١٦ ، لم يكن من رفعه الى سدة الحكم رفاقه الليبراليين بل المحافظون ، الذين اتفقوا معه في الرأي ان التجنيد الإلزامي ضروري الان ، وشاركوه بحماسه للتوسع الإمبريالي وبتعطشه للسلطة . كان «الرجل الشعبي هنا الذي يتمتع بلمسة عبقرية لا شك فيها» ، هذا ما كتبه عنه الى بلده السفير الأميركي في لندن . «هنالك شيء مميز جدا فيه» ، كما كتب شاب ديبلوماسي بريطاني بعد ان ألتقى به للمرة الاولى . «يخلف انطباعا على

انه رجل عظيم ومن دون ان يبدو ذلك استعراضيا او من دون نفاق . . . انه نقيض كبير للسيد اسكويث الذي يفضل ان لا يتكلم عن شيء اقرب الى الوطن من ثيوسيديدز» .

قبل ان تصبح هذه المرحلة مسمومة ، وصف لويد جورج نفسه بانه «اشتراكي قومي» . عين خمسة رجال جدد في مجلس الوزراء من بينهم إمبرياليين مشهورين اللورد كورزون واللورد ميلنر ليديرا الحرب . اختار هانكي ليدير أشغال مجلس الوزراء ، وجعل عشيقته ستيفنسون سكرتيرته الخاصة ، وعلى نحو واسع استحوذ هو على سلطة السياسة الخارجية بنفسه . تركيزه على السلطة كان مصدر خلاف وجعل له أعداء ، رغم ذلك نجح اسلوبه . مع النصر نصب عينيه ، كان على حافة ان يعامل معاملة الرجل الشهير الذي ربح الحرب . قبل ان يتلاشى التيه وارتفاع الروح المعنوية كان مصمما على انتهاز الفرص التي جلبها النصر . في امسية تشرين الأول / اكتوبر ذاك في باريس ، رأى بانه «لن يلفت الكثير من الانتباه الى مكاسبنا الضخمة في هذه الحرب ، اذا بلعنا حصتنا من تركية الان ، ومن المستعمرات الالمانية لاحقا» .

هذا الامر عكس رغبة لويد جورج بتجنب التدقيق المستهجن من قبل الرئيس ويلسون . كان يحسب انه بسبب عدم اعلان الولايات المتحدة الحرب على العثمانيين ، سيكون امام ويلسون أعذارا اقل للتدخل في الشرق الاوسط . لكنه سرعان ما بدا واضحا ان لويد جورج كان متفائلا اكثر من اللازم . بعد ان اعطى الرئيس ويلسون فريق واشنطن لصحافة الشؤون الخارجية معلومات دقيقة عن النهج الذي ينوي اتباعه في مؤتمر السلام ، وصلت اخبار الى لندن انه كان» معارضا بقوة لاستفادة بريطانيا من شروط السلام «وبالتحديد كان معارضا للحماية البريطانية على فلسطين وبلاد الرافدين» . ما هدد آمال لويد جورج في السيطرة «المطلقة» على نفط الموصل .

نتيجة لذلك قدم لورانس فائدة حقيقية عندما وصل الى لندن في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول / اكتوبر . لانه بينما جاء ليكون فكرة ماذا يمكن ان تفعل الحكومة البريطانية للعرب ، سرعان ما اضحى واضحا ان الموظفين الذين التقى بهم كانوا يتساءلون حول ماذا بإمكان لورانس ان يفعل حتى يجعل العرب يقدمون لهم شيئا . احد هؤلاء الذين التقى بهم وضعها على هذا الشكل ، «نهوض الحركة العربية كان تطورا فيه حظ للامبراطورية البريطانية في مرحلة حاسمة من تاريخها» .

في اجتماع من نفس اليوم طرح وزير الخارجية اللورد روبرت ساسيل موضوع حكومة بلاد الرافدين معه ، وسجل فيما بعد ان لورانس «حث على انه يجب ان توضع تحت حكومة عربية مع نشاط عملي قليل قدر الإمكان . اقترح ان يكون احد أبناء الملك حسين الحاكم . عبدالله سيقوم بالمهمة بشكل جيد جداً» . اليوم التالي سالت ايضا اللجنة الشرقية لورانس عن مواقف الزعماء العرب تجاه الاستقرار في المنطقة . أجاب لورانس ان فيصل مؤيد للبريطانيين ،لكن استعداد مؤيديه لتقبل الحقوق البريطانية في فلسطين وبلاد الرافدين بالغزو قد يعتمد على فيما اذا عارضت بريطانيا المطالب الفرنسية . مع نهاية الاسبوع تأثير وصول لورانس كان واضحا لمعلمه السابق ، ديفيد هوغارث . «موقفنا بالكامل من الفرنسيين هنا اصبح متشددا اكثر» ، كما كتب هوغارث . ان «ت . ا . لورانس شد همة الجميع وأبلى بلاء حسنا» .

رغم ان طريقة لورانس أثارت المخاوف في وزارة الهند ، هناك حيث قلق احد الموظفين الكبار من ان دعم حكومة عربية في شمال العراق «سيتسبب بعدائية فرنسا» ويحول دون الاستثمار الذي نحتاج له لتمويل اكتشاف النفط ، ثمة مخاوف تم تجاهلها في ذلك الوقت . تناسبت رسالة لورانس المعادية للفرنسيين بعنف مع تلك الأوقات .

صرح رئيس مجلس ادارة اللجنة الشرقية ، اللورد كورزون ، بانه يخشى بشكل جدي من ان القوة الكبرى التي يجب ان نخاف منها الى اقصى حد في المستقبل هي فرنسا ، «وهذا الموقف شاركه فيه آخرون . مع هزيمة الألمان والعثمانيين ، من لندن ، حليفة بريطانيا فترة الحرب بدت منافستها مرة اخرى .

عزز هذا الانطباع النهج الذي اتبعته الحكومة الفرنسية المشحون بروح القتال المدعوم بالضغط المكثف الممارس على الحكومة لتغير من سياستها من قبل لجنة اسيا الفرنسية ومن البرلمان ، في بداية شهر تشرين الثاني / نوفمبر حاولت بنجاح افشال محاولة بريطانية لجعلها تروج لحكم ذاتي عربي حتى تتجنب انتقاد ويلسون المحتمل . ما ادى الى تصريح «أنجلو ـ فرنسي والذي تم إصداره في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، بشكل سابق لأوانه أدى الى احتفالات عربية لانه تعهد بدعم كلا الحكومتين «لإقامة حكومات وإدارات قومية تستمد سلطتها من ممارسة الشعب واهل البلد المحليين حقهم في المبادرة والاختيار بحرية» . لكن بعد فترة قصيرة أعطى كلا القوتين مطلق الصلاحية لتدخلات لا نهاية لها من خلال التصريح عن نواياهم «ليكفلوا من باب الدعم والمساعدة الكافية» ان الحكومات الجديدة قد قامت بأدائها بشكل حسن . ولهذا ، عندما خاطب وزير الخارجية الفرنسي ، ستيفان بيكون ، البرلمان الفرنسي في نهاية شهر كانون الأول / ديسمبر ، كان قادرا على طمأنته ان «الاتفاقات التي عقدت مع انكلترا تستمر في إلزام بريطانيا والزامنا» . ايضا وعد ان فرنسا ستحث على الاعتراف بحقها في سورية في مؤتمر السلام .

بالرغم من ذلك استمرت اللجنة الشرقية ووزارة الخارجية بالاعتقاد ان دعما من طرف واحد لحق تقرير المصير يمثل افضل طريقة لتحقيق الهدف البريطاني في الهيمنة على الشرق الاوسط بالمراوغة . في ظهور ثان للورانس ،

قبل اللجنة الشرقية ، ناقش ان الحكومة البريطانية يجب ان تدعم الحضور العربي في مؤتمر السلام . هذا بالتأكيد لقي استحسانا من قبل ساسيل ، وزير الخارجية الحديث . قلقا من «الحصول على قضية صعبة جداً من دون شك من وجهة نظر دولية ، بالتحديد عند تقديمها الى الأميركيين» ، ناقش انه سيكون «من المهم جداً اذا تمكنا من تقديم عربي بإمكانه دعم مطالبنا» . كذلك كان مقتنعا رئيس مجلس إدارة اللجنة ، كورزون . وشعر بانه : «يجب ان نلعب لعبة الحكم الذاتي على قدر ما تستاهل» ، مضيفا»عارفين من أعماق قلوبنا اننا من المحتمل المستفيدون اكثر من اي احد اخر» . تم إرسال لورانس الى فرنسا ليبحث عن فيصل من اجل اجراء محادثات في لندن .

ما ان قررت الحكومة البريطانية دعم حق تقرير المصير لهؤلاء الذين يمكن الوثوق بانهم سيطلبون المساعدة من بريطانيا ، في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر احضر بيلفور معا الرجلين الذين ستعتمد الحكومة عليهما الان . فيصل والصهيوني البريطاني حاييم وايزمان الذين كانا قد التقيا سابقا ذات مرة قبل هذه السنة ، في شهر ايار / مايو ، قرب العقبة . شجع بيلفور وقتها الاثنين لتوقيع اتفاق يؤجل قضية واحدة مريرة ستحصل الى ما بعد مؤتمر السلام . في معاهدة في يوم الثالث من شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩١٩اتفق الرجلان على وضع حدود واضحة بين الحجاز وفلسطين ، بعد انتهاء مؤتمر السلام . ، هذه المعاهدة احيانا يستشهد بها على انها اعتراف عربي معطى بحرية لشرعية وجود دولة اسرائيل ، لكن فيصل يعتمد على معونة مادية بريطانية تبلغ مائة وخمسين الف جنيها في الشهر ولذلك وقع . أيضاً جعل دعمه مشروطا بتحقيق العرب استقلالهم .

بنفس الوقت ، وبمساعدة كبيرة من لورانس ، اكمل فيصل مذكرة تعبر عن آمال العرب في المؤتمر . أصر على استقلال سورية الكامل ، لكن في بلاد الرافدين وفلسطين قبل الحاجة الى مساعدة خارجية . معترفا بانه

هنالك رغبة «في استثمار النفط في بلاد الرافدين بسرعة» ، وافق على ان تكون الحكومة هناك «مدعومة من قبل قوة أجنبية عظمى ومن قبل مواردها المالية» . في فلسطين اعلن رفضه ان ياخذ على عاتقه مسؤولية «السيطرة على تسوية درجة صراع الإعراق والأديان الموجود «في تلك المنطقة ، والذي لطالما ادخل العالم في مشاكل» ، ودعا من اجل وجود «منصب اعلى فعال لكفيلة عظمى» . في كلا الحالتين ، كان من الواضح أية سلطة في ذهنه .

لكن في الوقت الحالي ، حاول القلق لويد جورج اكثر من خطة مختلفة وعدوانية اكثر . مشغول البال ليحل مسالة وضع الموصل وفلسطين قبل ان يصبح الامر عرضة للتدقيق الأميركي في مؤتمر السلام ، قرر ربط المسالة بهدف فرنسا الصميمي ـ استرداد الألزاس واللورين ، المقاطعة التي خسرتها لصالح المانيا سنة ١٨٧١ . هو يعلم ان رئيس الوزراء الفرنسي ، جورج كليمانصو ، سيحتاج الى مساعدة بريطانية حتى يتأكد من استرجاع هذه الاراضي التي كانت لها في السابق والتي هي موضع الخلاف لانه لم يكن واضحا كيف يمكن ان يصوت السكان المحليون اذا طلب منهم حسم المسالة بأنفسهم . هو أيضاً يعلم ان نظيره الفرنسي ، على عكس العديد من موظفيه في الخارجية الفرنسية (كاي دورسيه) ، لا يهتم إطلاقا بالشرق الاوسط . قبل سنة ، فورا بعد استلام السلطة ، اخبره كليمانصو «انه لا يريد سورية لفرنسا» لكن اذا حقق له لويد جورج «حماية على سورية لفرنسا لن يرفضها «لانها ستسر بعض الرجعيين» ، لكنه لم يعلق اهمية عليها» . انها المحادثة التي لم ينساها رئيس الوزراء البريطاني .

بناء على لذلك ، بفترة قصيرة قبل ان يأتي موعد قدوم كليمانصو الى لندن ليناقش التكتيكات القادمة في مؤتمر السلام ، جعل لويد جورج بيلفور يحذر السفير الفرنسي من ان الدعم البريطاني للالزاس واللورين غير مضمون . مشتكيا من العناد الفرنسي حول اتفاق سايكس ـ بيكو ، اخبر بيلفور الفرنسيين

بفتور من دون ود : «تتمنى حكومة جلالته فقط من الحكومة الفرنسية من جهتهم الا تعرض نفسها للإحراج عبرموقف جاف من نفس المستوى من جهة حلفائها من المحتمل ان يتسببوا به . «لم يتطلب ذلك ذكاء كثيرا من السفير الفرنسي حتى يقدر ان هذه الرسالة كانت «نوعا من التهديد» .

في اليوم الاول من شهر كانون الأول / ديسمبر وصل كليمانصو الى لندن ، حيث قوبل بحشد يرحب بقدومه . «حسنا» ، بدا عندما التقى مع لويد جورج لاجراء محادثات سرية ، «ماذا سنناقش؟» .

انتهز لويد جورج اللحظة واجاب «بلاد الرافدين وفلسطين» .

قال كليمانصو : «قل لي ماذا تريد»

«اريد الموصل» .

«خذها» ، رد كليمانصو . «اي شيء اخر؟»

«اجل ، اريد القدس أيضاً» .

«خذها» ، قال كليمانصو مجددا ، رغم انه حذر لويد جورج ان وزير خارجيته الإمبريالي ستيفان بيكون قد «يسبب مشاكل بخصوص الموصل» . التعهد الفرنسي بدا واضحا كفاية ، لكن المحادثات ولدت توترات جديدة . لانها تركت كليمانصو يتمنى لو كان اقل سخاء ولويد جورج تحت الانطباع انه كان يجب عليه ان يطلب المزيد .

اول اجتماع للمجلس الاعلى للقوى الخمسة المنتصرة في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩١٩ في مكتب وزير الخارجية في الكاي دورسيه . ترأس كليمانصو الجلسة لانه كان القائد الاكبر سنا والمضيف . من كرسي بذراعين امام الموقد المشتعل يستطيع تفحص نظرائه الاربعة ـ الرئيس ويلسون ، لويد جورج ، ورئيس وزراء ايطاليا واليابان مع وزراء

خارجياتهم ومستشاريهم من خلفهم ، جلسوا قبالته في الغرفة بديكور مقاعد وطاولات خشبية طويلة مصممة للاجتماعات .

على تراب الوطن لم يظهر كليمانصو اي من ضعفه الذي استغله بمهارة لويد جورج قبل ستة أسابيع . اسمه المستعار كان «النمر» ، لكن رئيس الوزراء الفرنسي الذي عمره سبعة وسبعين سنة كان رجلا قويا وأصلعا الذي أعطته شواربه البيضاء كالثلج شبها قريبا بفيل البحر (حيوان من الثدييات يعيش في البحر) . لاحظ الديبلوماسي البريطاني هارولد نيكلسون بعد مراقبته لكليمانصو نصف ابتسامة لغوريلا منزعجة مرتابة ونورستينية (وسوسة وضعف الأعصاب لاعتلال النخاع الشوكي)» . مهما كان الحيوان الذي يقارن به رئيس الوزراء الفرنسي ، هنالك اتفاق مجمع عليه انه كان سمجا واستبداديا . نتيجة ذلك طالت اجتماعات المجلس .

في البرد ، خارج القصر ، وقف اعلام العالم منتظرا التطورات . في الداخل ، انحلت الآمال القديمة التي كانت تنتظر نتائجا واضحة وسريعة . «ما من أحد ليس لديه خبرة في عمل اللجان بشكل عملي فعليا يمكنه ان يدرك صعوبة إقناع رجل فرنسي ، إيطالي ، أميركي وإنكليزي للموافقة على اي شيء» ، كما كتب نيكلسون في يومياته . «موافقة الأغلبية سهل كفاية : اتفاق إجماعي هو استحالة ؛ او ، اذا امكن ، ممكن حينها فقط في صيغة بعض المساومات المشلولة» . والتي كانت أخبار جيدة فقط لرسام البورتريه المعاصر اوغوستوس جون ، الذي رأى إمكانيات العمل في ثمة تجمع من الغرور لم يسبق له مثيل ، وجاء الى باريس ليفتتح دكانا .

كليمانصو لم يشعر بالأسف على الوقت الذي استهلكته المفاوضات التمهيدية . كتب فيما بعد «فن تنظيم كيف يعيش الرجال هو حتى اكثر تعقيدا من ذبحهم» . مثل لويد جورج ، كان راديكاليا مدعوما من قبل حزب المحافظين الذي يدين بمنصب رئاسة الوزراء الى الاعتقاد الشائع بانه يتمتع

بالتماسك ليفوز بالحرب. طبيب مؤهل سجن في شبابه بسبب مبارزة، حصل على الشرف (المشكوك بنزاهته وقيمته) لكونه رئيس الوزراء خدم أطول مدة اثناء الجمهورية الثالثة غير المستقرة، ولانه بقي في مكتبه لمدة ثلاثة وثلاثين شهرا بين سنة ١٩٠٦ و١٩٠٩. في فترة مبكرة من الحرب أدار صحيفة «لوم أنشينه»، والتي استخدمها للتخلص من وزير الدفاع وجنراله الرئيسي، ومن ثم وزير الداخلية عندما تم اكتشاف تمويل الألمان لصحيفة فرنسية معادية للحرب اسمها «لو بونيه روج». واعلن «ما من حملات للسلم بعد الان، ما من دسائس ألمانية بعد الان، «قال ذلك عندما طلب منه تشكيل حكومة بعد هذه الفضيحة في تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٧». لا للخيانة ولا لوصمة الخيانة؛ الحرب، ما من شيء سوى الحرب».

فظاظة كليمانصو كانت جزءا من اغوائه: على عكس لويد جورج «النمر» الذي لم يستخدم هذه الجاذبية للوصول الى القمة. اختصاصه كان الاستخفاف بوزرائه. اشتكى بصوت عال ان كلوتز، وزير المالية، اليهودي الوحيد الذي لا يستطيع ان يحسب. «من هو بيكون؟» كما سال ذات مرة، عندما تطرق الى ذكره وزير الخارجية المشهور بكسله. قال: «اذن هذا هو»، عندما تم تذكيره به؛ «لقد نسيت اسمه». وكما وضعها السفير البريطاني في باريس بطريقة جيدة: «النمر لم يدعو أفرادا ليكونوا اعضاء في مجلس الوزراء ليسمع ما قد يقولون ولكن لينفذوا آراءه». هذه الاستراتيجية نجحت. لان كليمانصو سحق هزيمة سنة ١٩١٧، أنهى الحرب كانه «اب النصر». الان، عليه ان يبرهن انه يستطيع الفوز بالسلام.

ثمن النصر كان هائلا. حيث مات مليون واربعمئة الف رجل فرنسي. الجرحى ثلاثة ملايين اخر. تدمر شريط واسع من الاراضي شمال فرنسا. ستة مائة وسبعين الف امرأة ارملة الان، وكانت فرنسا مديونة بسبعة مليار دولار. وبعد، أثناء الهدنة توقع كليمانصو: «فرنسا، سابقا كانت محاربة

الاله ، الان مخلصة البشرية ، دائماً محاربة المثل الاعلى ، ستستعيد مكانتها في العالم وستتابع سباقها الرائع والذي لا نهاية له لمواكبة التقدم الإنساني» . القسم الاول من هذا الاحياء يتطلب تسوية مربحة في مؤتمر السلام .

كما هو متوقع ، ادعى الاستعماريون في فرنسا ان التوسع الإمبريالي على حساب العدو سيساعد فرنسا حتى تتعافى . كتبت احدى الصحف «تطور فرنسا الاستعماري احد الشروط الاساسية لإعادة توطيد قوتها في وجه المانيا التي ستبقى . . . عدوتها التي لا ترحم» . لكنه بسرعة ما بدا واضحا عندما بدا مؤتمر السلام ان هدفهم سيكون من الصعب تحقيقه .

موقف كل من ويلسون ولويد جورج كان حجر العثرة . مدعيا انه كان عالقا بين «المسيح بيد واحدة ، ونابليون بونابارت باليد الاخرى» ، كليمانصو كان مجبرا على تقبل ان مستعمرات أعدائه ستتحول الى «دول واقعة تحت الانتداب» وان احدهما او آخرين سيحكمونها على اساس انهم «وكلاء مفوضون» من قبل عصبة الامم ، المنظمة الدولية التي ما زالت في مراحلها الاولى من التكوين والتي تم تأييدها من قبل الرئيس ويلسون .

في الامبراطورية العثمانية السابقة كان هنالك ثلاثة ـ بلاد الرافدين ، سورية وفلسطين ـ والنص الذي تم إصداره ليحدد مسؤوليات المندوبين في تلك الدول الثلاثة ذكر بشكل ضمني ان استقلالهم كلهم ليس بعيدا . يخضع الاعتراف باستقلالهم المشروط الى نقل المساعدة والنصيحة في الادارة من قبل الدولة المنتدبة حتى ثمة وقت تكون فيه تلك الدول قادرة على الاعتماد على نفسها لوحدها» . و«يجب ان تحترم بشكل أساسي رغبة هذه المجتمعات في اختيار الدولة المنتدبة» .

متقوقعين هذه النتيجة ، بينما كانت تجري هذه المفاوضات ، خلف الكواليس حاول الموظفون الفرنسيون إستثناء فيصل من إجراءات مؤتمر السلام . «الترحيب الرائع» الذي منحه البريطانيون للقائد العربي الشهر الفائت

اثار الشكوك الفرنسية بان فيصل كان مفتاح الى خطة «تكوين اسيا الصغرى للضرر بنفوذنا ، منظمة واسعة موظفة من قبل بريطانيا العظمى» . عندما وجد فيصل ان اسمه غير موجود في القائمة الرسمية للمندوبين واشتكى على ذلك ، رئيس القسم الآسيوي في الكاي دورسيه ، جان غوت ، حاول فصله عن الكفيل البريطاني من خلال الادعاء ان البريطانيين استثنوه عمدا . اذا حول فيصل ولاءه للفرنسيين ، كما قال غوت ، «يمكننا ان نرتب الامور لك» .

كانت ردة فعل البريطانيين عنيفة عندما اخبرهم فيصل بما قاله له غوت ، وأصروا على بقاء حليفهم العربي في المؤتمر . في النهاية ألقى فيصل خطابا في المؤتمر في اليوم السادس من شهر شباط ، مع لورانس مترجما له . لورانس كان قد قام مسبقا باختصار اهداف فيصل لمجموعة من المراسلين الصحافيين الأميركيين ، بشكل متوافق مع ذلك ، بنى فيصل مناقشاته للاعتراف بالعرب على اساس نداء ويلسون من اجل حق تقرير المصير ، وليس على وعد بريطانيا المحير والمربك فترة الحرب لوالده . معترفا ان فلسطين ولبنان تحتاجان الى معاملة مختلفة ، دعا الى استقلال العرب في اماكن اخرى . بشكل واضح ترك فيصل انطباعا جيدا في المفوضية الاميركية . حسب وزير الدولة روبيرت لانسينغ ، «بدا يتنفس عطر البخور» . اثار في مستشار ويلسون الكولونيل هاوس» شعورا رؤوفا بالعرب» ، بينما كتب موظف اخر في الولايات المتحدة انه كان» اكثر شخصية رابحة ، كما قال الجميع ، في كل مؤتمر السلام» .

اثناء المؤتمر ، عندما شكر فيصل البريطانيين على المساعدة التي قدموها له لطرد الاتراك ، قاطعه وزير الخارجية الفرنسي بيكون سائلا : الم تقدم فرنسا أيضاً المساعدة للعرب؟ فيصل الذين على ما يبدو كان مستعدا لهذا التدخل شكر الفرنسيين لإرسالهم «فرقة جنود صغيرة مع اربع مدافع موضة قديمة واثنين حديثين لينضموا الى قواته» . حسب كلمات مراقب بريطاني الذي سجل بسرور هذا الكلام المتبادل ، «بيكون كان متاسفا لانه تكلم وبدا مغفلا» . عندما طالب كليمانصو ، بعد موجز من الكاي دورسيه ، انه في

سورية لفرنسا» قرون قديمة من الحماية ، ويعود تاريخ اول حماية الى زمن الصليبيين» ، بشكل لاذع ، ذكر لورانس رئيس الوزراء ، الذي كان ملحدا نوعا ما ، ان «الصليبيين انهزموا والحملة الصليبية فشلت» .

بعد ان فشل الفرنسيون باستبعاد فيصل والحط من شانه ، حاولوا الان إظهاره على انه مذنب . في الصباح التالي شنت الصحف الفرنسية هجوما بتعجل ومن دون تفكير على القائد العربي ومترجمه ، الذي وصفه احد الجنرالات الفرنسيين بانه» إمبريالية بريطانية مع عمامة عربية» . زعمت صحيفة «باريس ميدي» ان طموحه الحقيقي له علاقة بالعالم الاسلامي ـ وكذلك تهديد للممتلكات الاسلامية الاخرى التابعة لبريطانية من بينها الهند ـ وأشارت الى ان لورانس «بدا على انه اصبح عربيا اكثر مما هو انكليزي» . عادت الى مرحلة الفاشودا ، قارنت الصحيفة لورانس بغوردون الخرطوم ، واصفة كلا الرجلين بانهما «رجلان ساهما في عظمة وسوء طالع وطنهما ؛ غامضان وهما بنفس الوقت مغامران . ما ان تسيطر عليهما أحلامهما ، ما من شيء يوقفهما ، ولا حتى مصالح بلدهما المعترف بها» . صحيفة «أيكو دو باريس» التي نزعت القناع عن وجه لورانس في شهر أيلول الفائت ، تابعت نفس الخط ، مجادلة ان لورانس كان يسعى الى ان يضع موظفي الوايتهول امام الامر الواقع ، على اعتقاد ان «انكلترا لا تتخلى عن مغامر نجح» . في الخلفية ، أعطى الموظفون الفرنسيون الاعلام موجزاً عن السبب الوحيد لماذا بريطانيا كانت قادرة على ارسال جند الى سورية لان فرنسا قامت بأغلب القتال على الجبهة الغربية . بناء على ذلك فرنسا أيضاً تستحق حصة من غنائم الشرق الاوسط .

اقلقت نتائج هذه الحملة الإعلامية البريطانيين . حتى اواخر شهر شباط اعتقدت دائرة المخابرات السياسية في وزارة الخارجية ان سورية اصبحت واحدة من «احدى المسالتين الصعبتين اللتين تواجهان مؤتمر السلام (المسالة الاخرى كانت فيما اذا كانت فرنسا ستحتل الراينلاند) ، لانه» عمليا كل الرجال الفرنسيين ما عدا الاشتراكيين «كانوا مصرين ان الاراضي

التي كانت خاضعة للعثمانيين قبل الحرب يجب ان تصبح مستعمرة فرنسية . عزز هذا الانطباع السفير الفرنسي في لندن . حيث حذر نظراءه البريطانيين انه بالرغم من ان المصالح الفرنسية في سورية «من الممكن انها الى حد ما عاطفية اكثر مما هي مادية . . . الشعور الموجود هو قوي بالفعل» .

لام لويد جورج نفسه حين سمح ان تكون باريس مكان استضافة المؤتمر . كتب «نعرف سلفا ان البيروقراطية الفرنسية ستلجا الى تلك الأساليب في السر للتأثير في مداولاتنا للمذكرات ، استبدادنا ، تملقنا ، كذبنا ، زرع الفتنة واللجوء الى كل أساليبهم المعروفة جيدا لتحقيق غاياتهم بالأساليب الملتوية» . مضيفا «مقالاتهم عن سورية لا تطاق» .

وضع الفرنسيون عربيا اسمه شكري غانم ليجادلوا انه يجب تجاهل فيصل لانه ليس سوريا ، لكن هذا التكتيك فشل . لان غانم كان يعيش في باريس لأكثر من ثلاثين سنة واعترف بنفسه انه نسي كيف يتكلم اللغة العربية . وقد اضعف قضيته اكثر فيما يتعلق بالسيطرة الفرنسية على سورية لانه تكلم لمدة ساعتين ونصف . الرئيس ويلسون المتململ الذي كان سيسافر في البحر الى الولايات المتحدة لقضاء زيارة قصيرة في اليوم التالي ، خرج من كرسيه ونظر الى الخارج من النافذة .

التفت كليمانصو وحدق في بيكون وسأله : «لماذا أحضرت هذا الرجل الى هنا على أية حال»؟ فمد بيكون يديه وتكلم بضجر ومن دون تفكير قائلا «حسنا لم اكن اعلم انه سيستمر بهذا الشكل» .

محاولة فرنسية اخرى لتطالب بفلسطين في وجه مطالبة البريطانيين سارت في الاتجاه الغلط على نفس الوترة . بعد ان تكلم حاييم وايزمان بشكل موجز وبشكل مؤثر لصالح الانتداب البريطاني ، اليهودي الذي وجدته الخارجية الفرنسيه ليحث على قضيتها تكلم مثل الطنين على وتيرة واحدة مضجرة لمدة نصف ساعة . اخبر الناطق الرسمي اندريه تارديو باسم كليمانصو الاعلام ذاك اليوم ان حكومته تتراجع عن مطالبتها بفلسطين وبانها تقبل بالانتداب

البريطاني . الان لجنة اسيا الفرنسية بعد ان تنبهت من مجريات الاحداث ، عملت على تقديم مذكرتها الى الحكومة الفرنسية تحث فيها كليمانصو على الوقوف في وجه لويد جورج . ولانها لاحظت ان بريطانيا قد خرجت من الصراع «عظيمة للغاية بشكل لا يقبل الشك «أصرت اللجنة : «لن نقبل بعد الان أي تصغير لوضعها العام في العالم . «في سورية ، كما ادعت اللجنة ، لفرنسا «حق لا يقبل الجدل ، ولم يتم بعد بلوغه ، حتى نفرض ثقافتنا» .

لم تتبع الحكومة الفرنسية نصيحة اللجنة . في اليوم الخامس عشر من شهر شباط / فبراير أرسلت وزارة الخارجية الفرنسية (كاي دورسيه) مذكرة الى البريطانيين تؤكد فيها عرض كليمانصو بتقديم الموصل والتخلي عن اتفاق سايكس- بيكو ، طالما ستدعم بريطانيا مطالبة فرنسا بانتداب كل من الساحل والمنطقة الداخلية في سورية . ولانها استوعبت اهمية النفط ببطء اكثر من منافسيها البريطانيين ، طالب الديبلوماسيون الفرنسيون أيضاً بأسهم مساوية من نفط بلاد الرافدين .

أيضاً اطلع البريطانيون على نسخة من مذكرة لجنة اسيا الفرنسية ، وصرفوا النظر عنها . وقد كتب احد الموظفين «كبرياء مجروحة تغمر هواجسها المتعلقة بقوتها من خلال وضعها لنفسها برنامجا باهظا متطرفا لتنجزه» ، الموظف الذي كتب ذلك كان يعتقد ان الطاقات الفرنسية من الافضل تفريغها اذا تقبلوا فكرة «اذا قادت فرنسا العالم في المستقبل قيادتها يمكن فقط ان تكون على الصعيد الفكري لا السياسي» . وبعد ان علم البريطانيون ان الفرنسيين ايضا قد تجاهلوا لجنة اسيا الفرنسية ، شعروا انهم يتمتعون باليد العليا بالهيمنة . ردوا بشكل هجومي على عرض الحكومة الفرنسية . ولأنهم قد قدمت لهم نصيحة من قبل خبرائها الخاصين بها في مجال النفط ان واحة تدمر والتي تقع في منتصف الطريق بين دمشق والفرات ، ستكون محطة هامة يجري من خلالها خط أنابيب النفط من الموصل الى البحر المتوسط ، أصروا على ان تكون تدمر جزءا من بلاد الرافدين ـ بذلك تقلصت بشكل دراماتيكي

المنطقة التي كان يحسبها الفرنسيون على انها جزء من سورية .

من خلال القيام بذلك ، سيتجاوزون البريطانيون الخط . اشتكى اندريه تارديو «فشل الكثير من البريطانيين بالاعتراف ان فرنسا تنزف ونهبت ، يحق لها شيء افضل من نصيحة كل يوم حتى تتنازل عن حقوقها» . أيضاً رئيسه كليمانصو شعر بخيانة لويد جورج له . ادعى انه في اجتماعهما شهر كانون الاول الفائت قال رئيس الوزراء البريطاني انه يقبل بمطالبة فرنسا بسورية . في البداية انكر لويد جورج انه قام بثمة وعد ، بالرغم من انه قال فيما بعد انه فعل ذلك . قال ديبلوماسي فرنسي فيما بعد «لويد جورج أصعب رجل يمكن التعامل معه» مضيفا «لانه ما من احد يستطيع ان يعرف من يوم الى الثاني ماذا سيكون موقفه» .

اتهم رئيس الوزراء الفرنسي لويد جورج «من نفس هذا اليوم بعد الهدنة أراك عدوا لفرنسا» . «حسنا» ، كان جواب نظيره البريطاني مثل وابل من الكلمات «الم تكن هذه سياستنا التقليدية دائماً؟» لسبب وجيه ، لم يرى كليمانصو النكتة ، لانه كان واضحا جداً ان حلفاء فترة الحرب هما الان متخاصمتان مرة اخرى . شاعرا بالضغط بسبب الموقف الراغب بالانتقام لدى العامة الفرنسيين ، قرر انه لن يقبل بمطالب الويد جورج المفرطة بعد الان . «لن ارضخ» . اخبر الرئيس الفرنسي ، ريموند بوانكاريه ، بعد شهر . «لن أتنازل عن اي شيء اكثر بعد الان . سنرى اذا كانوا يستطيعون القيام بشيء من دوني . لويد جورج مخادع . استطاع ان يجعل مني «سوريا» .

الفصل السادس

الطريق المسدود

بعد ان عاد الرئيس ويلسون من واشنطن الى باريس ، في اليوم العشرين من شهر آذار / مارس سنة ١٩١٩ التقى بلويد جورج وبيلفور ، كليمانصو وبيكون في شقة لويد جورج الأنيقة في شارع نيتوت .

افتتح بيكون النقاش من خلال وصفه المفاوضات المعقدة التي كانت تدور حتى ذلك الوقت . وصف بإيجاز اتفاق سايكس - بيكو ، التصريح الإنكليزي - الفرنسي في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٨ والذي حاولت فيه بريطانيا افشال اتفاق سايكس - بيكو ، واجتماع النمر مع لويد جورج في لندن في شهر كانون الأول / ديسمبر . ثم كان هنالك الاقتراحات التي تم عرضها في باريس مؤخراً : الذي عرضته حكومته في اليوم الخامس عشر من شهر شباط / فبراير ، والاقتراح البريطاني المقابل الذي يحد من حجم سورية ، الشيء الذي رفضته فرنسا على الفور .

كان معروف عن بيكون انه «ظل كليمانصو الوفي» ، كان بيكون ، مثل رئيس الوزراء ، طبيبا اصبح صحافيا . لكن على عكس كليمانصو ، وزير الخارجية كان عضوايدفع له في لجنة اسيا الفرنسية واذا ترك سيصبح مؤيدا

مفوضا لمطلب فرنسا في المشرق ، الشيء الذي وعد ان يسعى لان يكتب له النجاح عندما ألقى خطابا في البرلمان الفرنسي نهاية السنة الفائتة . كان عارفا تماماً مثل كليمانصو بالقوة البرلمانية والشعور الشعبي تجاه سورية ، واخبر ويلسون ولويد جورج ان عرض الخامس عشر من شهر شباط / فبراير كان اقصى ما يمكن ان تعرضه الحكومة الفرنسية .

واسترجع الحوار الذي أجراه جورج بيكو في الوايتهول منذ اكثر من ثلاث سنوات مضت ، أصر ان «الرأي الفرنسي لا يستطيع قبول امكانية استبعاد فرنسا حتى ولو جزئيا بعد التضحيات التي قدمتها في الحرب ، حتى لو لم تكن قادرة على لعب دور كبير في الحملة السورية» .

ثم شن بيكون تبريرا لحق فرنسا بسورية يغطي ويشمل العديد من الجوانب المختلفة . اشار الى ان «لدى فرنسا عددا كبيرا من المشافي في سورية . . . حوالى الخمسين الف طفل تلقوا تعليمهم في المدارس الابتدائية الفرنسية . . . نظام سكة الحديد في سورية فرنسي . . . بيروت بكاملها ميناء فرنسي . الغاز والكهرباء المعمول بهما فرنسيان ، وأيضاً ينطبق ذلك على الإنارة على طول الساحل» . فرنسا يجب ان تحصل على الانتداب في سورية .

لويد جورج قال لا . إعطاء فرنسا الانتداب على المناطق الداخلية في سورية سينقض «المعاهدة مع العرب» ، كما رد ، مشيرا بذلك الى الوعد الغامض الذي قدمه ماكماهون الى حسين في شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩١٥ . اهتاج بشكل واضح ، قال بيكون ان المرة الاولى التي رأى فيها رسالة ماكماهون عندما قام مستشار لويد جورج ، هانكي ، بتسليمه نسخة قبل بضعة أسابيع . «كيف يمكن لفرنسا ان تكون ملزمة باتفاق لم تكن تعرف بوجوده في وقت كان فيه اتفاق سنة ١٩١٦ موقعا»؟

قلما يكون في المحضر الرسمي اشارة للصوت العالي ، انما في هذا

الاجتماع تم بشكل جلي . قال لويد جورج «انه قد يكون الاتفاق قد تم من قبل انكلترا وحدها ، لكن كانت بريطانيا هي التي نظمت كامل الحملة السورية . ما كان هنالك من مسالة سورية لولا انكلترا» . منزعج من الجهود الفرنسية لتزكية نار الغضب الشعبي عن طريق الصحف ، ذكر بيكون انه «اذا كان هنالك رأي عام فرنسي هنالك أيضاً رأي عام بريطاني» . وقال ان البريطانيين يعرفون ، «ان كل عبء الحملة السورية قد وقع على عاتق بريطانيا العظمى . عدد الجند الفرنسيين المساهمين . . . كان قليلا لدرجة انهم لم يشكلوا اي فرق» . وصل عدد الجند البريطانيين في المعركة الى المليون ، كان هنالك مئة وخمسة وعشرين الف اصابه وكلفت الحملة مئات الملايين من الجنيهات» . أضاف ان «مساعدة العرب كانت اساسية» .

حتى الان كان الرئيس ويلسون صامتا بينما كان البريطانيون والفرنسيون يتجادلون فيما بينهم . قاطعهم واقترح فكرة كانت تجول في باريس لعدة أسابيع . مصرحا : «احد المبادئ الاساسية التي تتمسك بها الولايات المتحدة الاميركية هو موافقة المحكوم «لهذا السبب ، من وجهة نظره»الفكرة الوحيدة . . . كانت فيما اذا كانت فرنسا موافق عليها من قبل السوريين» و«فيما اذا بريطانيا العظمى سيقبل بها سكان بلاد الرافدين المحليين» . الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك كان ارسال لجنه «لتعرف رغبات الشعوب في تلك المناطق» . شعر كليمانصو بفرصة لإحراج لويد جورج ، ووافق على هذا الاقتراح . وحث على فكرة انه»اذا كانت اللجنه مهمتها تكوين فكرة عن الرأي في سورية ، إذن يجب ان تزور فلسطين وبلاد الرافدين أيضاً .

لورانس كان مفتونا بهذه الخطة ؛ لكن من ناحية اخرى ، الاعضاء الآخرون في الوفد البريطاني لم يكونوا كذلك . تفحص مطلق حر لمطلب بريطانيا بان تكون السلطة التي يريدها سكان بلاد الرافدين وفلسطين حتى تحكمهم كان اخر شيء يريده الموظفون البريطانيون . حذر بيلفور لويد جورج في السابق :

«ضعف موقفنا» ، بانه «في حالة فلسطين نحن حقاً وعن عمد نرفض قبول مبدا حق تقرير المصير . اذا تم أخذ رأي السكان الحاليين من دون شك سيعطون حكما معاديا لليهود» . كانت اللجنه متأكدة من انها ستكشف هذا . من يعلم ماذا يمكن ان تكتشف في بلاد الرافدين ، هناك حيث لورانس قد اكتشف وجود بعض «القوميين العرب بشكل نشيط»؟

يعرف البريطانيون ان اللجنه ستصل لقرار لصالح استقلال العرب في سورية . لكن حتى لو قبلت بحالة الحكم البريطاني في بلاد الرافدين وفلسطين ، سيكون المثال السوري مثيرا للعدوى . كما أشارت جيرترود بيل التي أمضت الكثير من الوقت اثناء الحرب في بلاد الرافدين كضابطة سياسية في القوات البريطانية ـ «لدينا في بغداد حزب قومي في طور التكوين واذا صنعوا دولة عربية مستقلة في سورية سيبقوا الى الأبد يتطلعون الى هذا الاتجاه ويشتكون انهم لم يحصلوا على نفس الشيء» . بيل ، التي كانت رافضة لحق فرنسا في سورية ، الان تستنتج : «اود بكل سرور رؤية تعيين الفرنسيين هناك ، ويبقى اكثر سرورا الأميركيين . اي شيء افضل من اقامة دولة عربية في مكان ما (،) تؤثر في السيطرة البريطانية في مكان اخر» .

تراجع دعم الوفد البريطاني الضمني لاستقلال العرب في سورية عندما أدركوا ان عدم الاستقرار الذي سيتولد منه له تعقيدات تؤثر على قدرة بريطانيا لاكتشاف النفط تحت ارض الموصل . في مذكرة اخرى عن البترول شدد قسم مخابرات الأميرالية على ان تجربة اكتشاف النفط في المنطقة المجاورة ايران ، حيث كانت تعتمد عمليات شركة الحفريات بشكل قوي على العلاقات مع القبائل المحلية ، أظهرت انه «أساسي . . . اقامة حكومة «قوية ومستقرة «في بلاد الرافدين . كما اعترف لاحقا لورانس ، «لويد جورج لم يجرؤ على الوعد بأية درجة من الحكم الذاتي هناك» .

سعيا لتقويض لورانس اكثر ، أرسلت وزارة الهند كل من جيرترود بيل

ورئيسها المباشر أرنولد ويلسون من بغداد الى باريس ليقوموا بكتابة تقارير عكس آراء لورانس لتحقيق التوازن في الآراء . التقى ويلسون بلورانس وكتب تقريرا : «يبدو لي انه تسبب بضرر ضخم والصعوبات التي نواجهها مع الفرنسيين في سورية تبدو لي بشكل رئيسي بسبب تصرفاته ونصائحه . «وجد لورانس نفسه على نحو متزايد قد اعطي أعمالا إضافية الى جانب اعماله الاساسية . الرجل الذي وجد له الرئيس الأميركي مكانا في كتابة يومياته في شهر شباط / فبراير الان لديه الوقت ليزور الميدان في المساء .

ذات يوم في الفندق حيث يقع هنالك مقر المفوضية نظر من اعلى الدرابزين ليرى لويد جورج ، أرثر بيلفور والسفير البريطاني في باريس يجلسون في قاع البناء اسفل الدرج ، ذهب ووجد علبتي محارم من دورة المياه وأفرغ محتوياتهما في الهواء فوقهم . في نهاية شهر ايار / مايو ذهب فجأة الى القاهرة ، في الظاهر ليستعيد بعض المذكرات التي ستساعده في كتابه عن الحملة ، في الحقيقة ليحاول التاثير على الوضع في المنطقة .

هنالك سبب آخر لقلة الشهية البريطانية للشجار مع الفرنسيين ، السبب هو ازدياد الوهم الكاذب ان تحقيق سلام متين ممكن . كتب هارولد نيكلسون اواخر شهر اذارمارس : «نحن نخسر السلام بسرعة وضاع كل العمل الصعب الذي حققناه» . عندما ساسيل وزير الخارجية البريطاني ، رأى مسودة المعاهدة مع المانيا في شهر ايار / مايو ، حذر لويد جورج انه يعتقد انها «لا هي سخية ولا حتى عادلة» . اذا كان على السلام ان يكون قصير الأمد ، إذن قد يدفع هذا بريطانيا ان لا تزيد من خطورة حليفتها فترة الحرب اكثر . لخص بيلفور الحال بإحكام . معلنا نفسه انه «متضايق جداً بسبب اللخبطة السورية ، الاكثر من هذا لانه ربما هو المسؤول عن ذلك شخصيا» ، اعترف ، لانه بالرغم من اننا «لم نكن صادقين لا مع الفرنسيين ولا مع العرب . . . من الافضل الان ان نتشاجر مع العرب من ان نتشاجر مع الفرنسيين ، اذا كان هنالك شجارا بكل الأحوال» .

في محاولة لتجنب الخلاف الذي سيتسبب به الانتداب الفرنسي على سورية بشكل حتمي ، حاول البريطانيون أخذ دور الوسيط لعقد صفقة بين فيصل وكليمانصو . كليمانصو كان مستعدا للقاء فيصل لانه كان راغبا في التوصل الى اتفاق يجعل لجنه الرئيس ويلسون غير ضرورية ، ولكن عندما التقى الرجلان في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان / أبريل لم يقبل فيصل طلب كليمانصو ان يحتل الجيش الفرنسي دمشق . ولان القائد العربي كان مسرورا من فرصة نجاح اللجنه ، بعد فترة قصيرة رحل الى دمشق ليحذر من الخطر الفرنسي .

لان فيصل كان ما يزال يستلم معونة مادية بريطانية كبيرة ، حث مستشارو كليمانصو القائد الفرنسي على القيام بكل شيء يستطيع فعله لإقناع البريطانيين قطع دعمهم المالي وليسحبوا جيوشهم من سورية . لكن لويد جورج لم يكن مستعدا للقيام باي من الطلبين . كانه كان لديه شك من ان الفرنسيين لديهم المصادر حتى يملؤوا الفراغ بنفس سرعة القوميين العرب الذين اذا سيطروا على دمشق ، سيشكلون قوة زخم لا يمكن إيقافها لاستقلال العرب في بلاد الرافدين وفلسطين . ولن يتنازل عن تدمر ، بسبب أهميتها الاستراتيجية . ترجم الفرنسيون رفضه على انه دليل على طمع بريطانيا في سورية أيضاً . ثمة أجواء من الريبة انه عندما في النهاية غير لويد جورج رأيه وعرض سحب جيوشه ، رفض كليمانصو ان يثق بضمانته . «انت أسوأ صبي للغاية ، «اخبر نظيره البريطاني ، الذي كان اصغر منه باثنين وعشرين سنة .

فشلت اخر محاولة لتسوية المسالة السورية في باريس اثناء اجتماع اخر في شقة لويد جورج في اليوم الثاني والعشرين من شهر ايارمايو حصل فيها» صياح وانفجارات اكثر» ، حسب احد الشهود . عندما تراجع لويد جورج عن اتفاق اسهم النفط التي تفاوضت عليها المفوضية البريطانية والمفوضية الفرنسية بمبادرة منهما وبطريقة متعبة ، انتقم كليمانصو من خلال سحبه

عرض الموصل . شن رئيس الوزراء البريطاني حملة توبيخ ضد اسلوب فرنسا المعيق لتنفيذ عمليات ضد العثمانيين اثناء الحرب . كليمانصو بدوره قال ان فرنسا لن تساهم في لجنه ويلسون الا اذا انسحب الجند البريطانيون اولا من سورية . لكن ، لان كلا الرجلين لن يتفقا على موقع الحدود السورية - كل واحد منهما ما زال يريد تدمر- رفض لويد جورج سحب جنده حتى تكتب لجنه ويلسون تقريرها . وقال انه سيرسل وكلاء فقط اذا فعل كليمانصو- وحتى الان ، الرجل الفرنسي لا نية لديه لإعطاء البعثة اهمية كبيرة من خلال القيام بذلك . اغلق الاجتماع من دون اتفاق . بالرغم ان رئيس الوزراء الفرنسي «لا يهتم كثيرا حقيقة بخصوص سورية» ، كما لاحظ السفير البريطاني في باريس ، «اصبحت الان مسالة عزة نفس وكرامة وما من شيء سيقنع كليمانصو بالاذعان» نتيجة مقاطعة البريطانيين والفرنسيين ، عندما وصلت لجنه ويلسون الى فلسطين في اليوم العاشر من شهر حزيران / يونيو تألفت من فقط أميركيين هنري كينغ وتشارلز كرين . كان كينغ لاهوتي وكرين رجل اعمال من شيكاغو ومهتم بالسياسة الخارجية وقد وصفه ويلسون بانه «رجل ذو خبرة واسعة وعلى مستوى عالمي» . مهمتهما كانت ان يقررا ما هي افضل طريقة لتقسيم اراضي العثمانيين العربية وتعيين الدول الشرق اوسطية المنتدبة الثلاثة حتى تأسس «النظام السلام والتطور» ، من خلال طرح الأسئلة على الناس انفسهم ماذا يريدون ؛ تقدمهم تجاه الشمال أخذهم من يافا الى القدس ، دمشق ، بيروت وحلب ، ما اثار حسب وصف احد الجنرالات البريطانيين «لهوا سياسيا» أينما ذهبا .

رغم ان الحكومتين البريطانية والفرنسية قد حاولتا اضعاف مفعول اللجنه من خلال رفضهم المشاركة ، كلاهما كان يعلم جيدا ان نتائجها ثقيلة . نتيجة لذلك بذل الموظفون البريطانيون والفرنسيون في اماكن تنقل اللجنه قصارى جهدهم للتأثير على النتائج . بعد تسجيل ان احد مستشاري الوكلاء

اسمه وليم ييل بانه كان الممثل المحلي لشركة البترول الاميركية ستاندارد أويل قبل الحرب ، تمكن البريطانيون من إقناع الوكيل ييل بالعدول عن زيارة بلاد الرافدين بالمرة ، وبدلا عن ذلك زودوه بملخص عن رأي العراقيين والذي كان على نحو متوقع موال للبريطانيين . «هناك السنة والشيعة ، الحضر والبدو . لا بد من سلطة من الخارج للمحافظة على السلام بينهم ، «هذا ما قاله احد الرجال قاب قوسين في التقرير المعنون بشكل مضحك «حق تقرير المصير في العراق» . صرح اخر «البريطانيون يجب ان يحكموا البلد بأنفسهم» ، ليقطع الشك الذي خلفه الجواب الاول باليقين من خلال هذا الجواب .

في فلسطين لاحظ الوكيلان ان «حاكمين عسكريين او ثلاثة على ما يبدو قد اتخذوا بعض الإجراءات حتى يحصلوا على أصوات لبريطانية» ، لكن خلافا لذلك شعر ان الموظفين البريطانيين الذين التقى بهم كانوا «لطفاء ، كرماء ويحبون تقديم الخدمة» . لكن ييل اشتكى فيما بعد ان رئيس لورانس القديم كلايتون الذي اصبح في ذلك الوقت الضابط السياسي الرئيسي في فلسطين ، قد حاول ان يحد من تحقيقات اللجنه من خلال تحذيره له ان لا يستفز التوترات النامية في البلد : «اذا أظهرت اي تحيز او تصرفت اي تصرف نزق ، ييل ، سيكون هنالك إراقة دماء» .

في سورية ترك البريطانيون فيصل يقوم بالعمل القذر بنفسه والذي كان ما زال يدفع البريطانيون له معونة مادية شهرية . لدى عودة فيصل الى دمشق انشأ برلمانا يدعى الكونغرس السوري العام . تماماً لدى وصول كرين وكينغ الى المدينة صوت الكونغرس الى «استقلال سورية التام والمطلق «و اصدر رفضا تاما للفرنسيين . عندما واجه ييل موظفا بريطانيا آخراً بشككوكه ان بريطانيا قد سمحت لحملة بروبغندا فعالة معادية للفرنسيين واسعة الانتشار وعلى اعلى مستو من التنظيم» ، رد عليه : «انت محق ، ييل ، هنالك حملة بربغندا معادية للفرنسيين . لكن لا علاقة لنا بها .«

بينما كانت الجهود البريطانية متكتمة نسبيا ، المحاولات الفرنسية لاستمالة الرأي العام في منطقتهم في لبنان كانت «سيئة لدرجة الإهانة» ، على حسب ما اشتكى الوكيلان . في ملحق سري في تقريرهما ، اتهم كينغ وكرين الفرنسيين باستعمال «مقالات ملهمة في الصحف ، محاولات التخويف والتجسس» ، «التهديد والرشاوي ، وحتى السجن والنفي «حتى يمنعوا السكان المحليين في منطقتهم إعطاء الوكيلين آراءهم الحقيقية . بالرغم من تلك الجهود العنيفة ، ستين بالمئة من العرائض التي استلمها كل من كينغ وكرين كانت معادية للفرنسيين . ونتيجة لمحاولات التأثير بالقرارات وحسب خبرتهما ، كتب في النهاية الوكيلان التقرير بانهما كانا «مضطرين على مضض الى الاعتقاد» انه كان «من المستحيل ترجيح انتداب واحد فرنسي على كل سورية» . عوضاعن ذلك ، بناء على العرائض التي استلماها ، اقترحا ان الولايات المتحدة يجب ان تقوم هي بالانتداب على سورية وفلسطين المتحدتين ، وفيصل ، الذين وصفاه بانه ، «شخصية فذة بارزة قادر على تحقيق الخدمة الأعظم لصالح «السلام العالمي» ، يجب ان يكون رئيس الدولة . تماماً كما أراد البريطانيون ، رجحا ان بريطانيا العظمى يجب ان تكون الدولة المنتدبة في بلاد الرافدين . وفي اختلاف واضح عن الدعم الأميركي للصهيونية الذي حصل فيما بعد ، ناقشا ان «برنامجا صهيونيا متطرفا» في فلسطين سيتطلب «تعديلات جادة» لتجنب حرب بين العرب واليهود .

حتى قبل ان يقدم الأمريكيان تقريرهما في اليوم الثامن والعشرين من شهر اب / اغسطس ، توقع الفرنسيون النتيجة المحتملة لمداولاتهما وشنوا حملة إعلامية عنيفة متهمين البريطانيين بالعمل بأساليب ملتوية خلف الكواليس . قائد لجنة اسيا الفرنسية الديبلوماسي روبرت دو كيه كتب مقالا في منشور منظمته اتهم فيه الموظفين البريطانيين الخونة بسلسلة من التكتيكات الخفية

المصممة لإضعاف حكم فرنسا . ادعى ان البريطانيين رفضوا تأشيرات دخول لعرب مؤيدين للفرنسيين عائدين ليقنعوا وياثروا بقرار الوكيلين ومنعوا تدريس الفرنسية في بعض المدارس ، وكانوا ينشرون الإشاعات ان فرنسا مهتمة في رفاهية الشعب المسيحي فقط .

الكثير مما ادعاه دو كييه من الصعب إثباته الان . لكن ادعاءاته ان الموظفين البريطانيين كانوا أيضاً يستولون على كل وسائل النقل لاغراض حربية وانهم سدوا على نحو فعال الطريق بوجه تصدير القمح من سورية الى لبنان كان حقيقة . في كل هذا رأى دوكييه «تخريب انتقامي منظم» ، لكن في الواقع كان البريطانيون يحاولون مصارعة الفوضى التي خلفتها هزيمة العثمانيين . تجاهل دوكييه سياق الكلام هذا . باعترافه ، احتمالاته كانت (مانوية) . كما كتب «بالنسبة لي هنالك شيئان فقط في العالم ، الاشياء التي تخدم وطني ، والاشياء التي تضره . لا انظر الى المسائل السياسية باي ضوء اخر» .

المنشور الذي كان يكتب به لم يكن مشهورا ، لكن دوكيه كان له تأثير - «أينما اتجه يتبعه كتاب مقالات الافتتاحية» هذا ما كتبه ديبلوماسي بريطاني في باريس . عندما قامت «اللوتام» الصحيفة المعروفة بقربها من الحكومة الفرنسية ، بإعادة طبع مقال دو كيه في نهاية تموز ، وافقت على رأيه في التحليل ، ومثل مؤلفها ، حاولت إقناع لندن القيام بفعل شيء من خلال لفت الانتباه الى الفرق بين الحكومة البريطانية الموقرة ورجالها المتمردين في موقع الحدث في سورية . هذا الذي اصبح عبارة فرنسية مألوفة في الثلاثين سنة التي جاءت بعدها .

نبهت الحملة الإعلامية الحكومة البريطانية ، التي أخذت تقلق بازدياد من الفساد المفاجئ في علاقاتها مع الفرنسيين اكثر من فقط الحث على فقط ايجاد حل عادل لحلفائها العرب فترة الحرب . ديبلوماسي بريطاني ذهب

ليرى بيكون ليطلب منه «التخفيف من وطاة هذه الحملة الصاخبة المعادية للبريطانيين» ، لكن وزير الخارجية الفرنسي رفض القيام بذلك . وبخبث اخبر زائره البريطاني بانها ستكون «الغلطة الكبرى» اذا تم الاستخفاف «بالمصلحة التي هي تقريبا عاطفية» بان يسيطر الفرنسيون على سورية . نشرت صحيفة «اللوتام» الفرنسية مقالا آخراً بعد ايام متهمة بريطانية بشحن كميات كبيرة من الاسلحة الى فيصل عبر بيروت . كان هنالك بعض الأساس لهذا الادعاء ، لان بريطانيا كانت تحاول تخفيض عدد الجند في سورية من خلال اقامة درك عربي الذي بإمكانه المحافظة على السلام بدلا من جنودها ، لكن لويد جورج انكر ان الحكومة تزود الدرك بأية أسلحة .

رجل واحد كان بالتأكيد ما زال يبذل قصارى جهده لإعاقة الجهود الفرنسية لبسط نفوذها الى ما وراء قاعدتهم العسكرية في لبنان . ترك لورانس باريس في شهر ايار / مايو ليعود الى مصر ليجمع تعليقاته التي كتبها فترة الحرب حتى يستطيع انهاء كتابة مذكراته عن الحملة المذكرات التي لطالما خطط لها .

لكن عندما وصل الى القاهرة في شهر حزيران / يونيوكتب رسالة مذهلة الان مخجلة ، الى و . ف . ستيرلينغ ، رفيقه زمن الحرب حاليا المفوض الضابط السياسي الرئيسي في القوات البريطانية . ادعى لورانس في الرسالة انه في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٧ غدر به مرشده العربي ، عبد القادر الجزائري ، واعتقله الاتراك اثناء محاولته الاستطلاعية لمعاينته مفترق سكة الحديد في درعا .

نص الرسالة

دخلت الى درعا متنكرا للتجسس على الدفاع ، قبض علي ، وتم التعرف

على هويتي من قبل حاجم بيه الحاكم بسبب وصف عبد القادر لي . (عرفت عن كل خيانته من حديث حاجم ، ومن ادلائي) . حاجم كان لوطيا متأججا وأعجبته . لذلك ابقاني تحت الحراسة حتى الليل ، ثم حاول مجامعتي . لم اكن راغبا ، وتغلبت عليه بصعوبة . أرسلني حاجم الى المستشفى ، وهربت قبل الفجر ، لانني لم أتأذى بالقدر الذي ظنه .

هناك دليل جيد لماذا اخترع لورانس هذه القصة ، وبالتأكيد قراره لاتهام عبد القادر الجزائري بالخيانة الان كان تماماً متعمدا . عائلة الجزائري كانت عائلة دمشقية ثرية ، صاحبة نفوذ وطموحة والتي كانت مصممة على اغتصاب العرش من فيصل . في شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩١٨ عزل على الفور لورانس اخ عبد القادر محمد سعيد الجزائري من عمله والذي كان قد تركه الاتراك وراءهم حاكما لدمشق عندما هربوا . عندما قام الاخان بانقلاب بعد ايام لينتقما ، قضى لورانس على الانقلاب . قتل عبد القادر اثناء محاولة اخرى لخلع فيصل ، وفيما بعد بفترة قصيرة اعتقل البريطانيون محمد سعيد .

دافع لورانس في محاولة توريط محمد سعيد من خلال اشراكه كان بسيط تماماً . لإثارة قلقه ، تم اطلاق سراح المشكلجي الحاكم السابق في وقت حديث وكان معروف على نطاق واسع انه حتى يضعف فيصل كان يدعم الفرنسيين حتى يصبحوا حكاما في المستقبل على سورية على امل احتمالية ان يكافأه الفرنسيون في المقابل . الفرنسيون فعلوا ذلك بالضبط ، روجوا لمحمد سعيد كبديل لفيصل الذين كانوا مستعدين لدعمه . بدت من إخلاء سبيل محمد سعيد وكان السلطات البريطانية قد ترضى عن هذا الترتيب ، كطريقة للمصالحة بين الفرنسيين والعرب .

من الواضح ان ستيرلينغ وثق بكلام لورانس ، لان البريطانيين قد أعادوا اعتقال محمد سعيد في بيروت ؛ وبررت صحيفة «التايمز» القرار بعد ايام قليلة فيما بعد ، مكررة العديد من الاتهامات التي قالها لورانس بشكل سري الى

ستيرلينغ تقريبا كلمة كلمة . الفرنسيون كانوا غاضبين من التدخل البريطاني داخل منطقة عينها اللنبي لهم . امر بيكون سفيره في لندن ان يقدم شكوى للبريطانيين ان القاءهم القبض على رجل وصفه بانه «تحت رعاية» فرنسا شيء «لا يحتمل» .

قام لورانس بمحاولة اخرى غير ناجحة ليعيق المطامع الفرنسية في سورية . عندما في اليوم الاول من شهر أيلول / سبتمبر تم تسريحه ، بعد انتقاد اخر لدوره في تذكية التوترات مع الفرنسيين ، قرر الكشف عن الاتفاقات السرية فترة الحرب والتي دخلت فيها بريطانيا في رسالة الى صحيفة «التايمز» لانه بالرغم من ان الاتفاقيات كانت معروفة للجميع ضمن دوائر الدولة ، امام العامة كانت ما زالت غير معروفة . فعل ذلك لانه كان يعرف ان الحكومتين البريطانية والفرنسية على وشك اعادة فتح مناقشات حول الشرق الاوسط في ذاك الشهر ، وأراد زيادة التوتر عليهم ليقحم فيصل في سير المهمة تلك .

لكن لورانس كان متأخرا جداً مرة اخرى . في اليوم التاسع من شهر أيلول / سبتمبر يومان قبل نشر رسالته في التايمز ، عقد لويد جورج اجتماعا آخراً لخمسة من المستشارين الأقرب اليه ليناقش مفاوضاته القادمة مع كليمانصو . اهم شيء في أذهانهم كان الحاجة الملحة لحفظ المال . أرباب الرأي ، الاخوة هاروسورث قد شنوا حديثاً حملة «ضد الهدر» للسيطرة على سجل نفقة الدولة ، ووسط الدعوات الى التقشف والتقليل من التبذير عرف لويد جورج وزملاؤه ان تكلفة تعزيز اكثر من ثلاثمائة الف جندي بريطاني في الامبراطورية العثمانية التي انتهت لا يمكن تبريره . كورزون ، الذي تنبأ ان المشاكل في الشرق الاوسط قد تؤدي الى خروج سريع للبريطانيين حتى اكثر صعوبة ، نصح ترك كل من سورية وفلسطين «بينما ما زال بإمكاننا فعل ذلك» .

لكن لويد جورج لن يتنازل عن فلسطين . لانه تحارب مع كليمانصو بشدة

كبيرة على المنطقة ، قال انه لن يتنازل «من دون خسارة كبيرة لمكانته» ، والتي كان يقصد بها مكانته هو . بناء على ذلك ، أعطى تعليماته لوزير الدولة لشؤون الحرب الجديد تشرشل ، حتى يقلص نفقة وجود بريطانيا في بلاد الرافدين . اقترح ان يغسل يديه من سورية ، من خلال سحب الجند البريطاني من هناك الى فلسطين وترك الفرنسيين وفيصل ليروا حساباتهم بان يجدوا مكانا لكل منهما فيما بينهما .

في اليوم التاسع من شهر أيلول وضع لويد جورج مخططه . وناقش «يمكننا ان نحافظ على ثقة كل من الفرنسيين والعرب» مضيفا «اذا خرجنا من سورية ، وسلمنا المناصب العسكرية هناك الى الفرنسيين ، وبنفس الوقت ، نخرج من دمشق ، حمص ، حماه وحلب ، ونسلمهم الى فيصل . اذا وقع الفرنسيون حينها في مشاكل مع فيصل لن تكون مشكلتنا» . اليوم التالي ناقش رئيس الوزراء ومستشاروه موقع الحدود بين سورية وفلسطين . لويد جورج الذي تكلم مسبقا بشكل عرضي ان فلسطين تمتد من «دان الى بئر السبع» ، لكن يقع الضعف في الصيغة الموجودة في الإنجيل في حقيقة انه ما من احد يعلم اين تقع دان . ي النهاية ، بعد نقاش طويل لم يوصل الى نتيجة ، اخبر الويد جورج المحبط هانكي ان يتصل هاتفيا بلندن ليعرف من الناشرين المسيحيين كيف تعرف السلطات في الإنجيل فلسطين .

اعترف احد المستشارين البريطانيين الحقيقة هي ان اي تقسيم للبلد العربي بين حلب ومكة هو غير طبيعي «مضيفا» لذلك اي تقسيم سيتم اتباعه يجب ان يتم إقراره من خلال المتطلبات السياسية .

الصيغ الاستراتيجية افضل دليل . بشكل متطابق مع هذا الكلام ، اعتبارات معاصرة اكثر من الكتاب المقدس هي التي ستحدد موقع الخط الذي سينسحب الجند البريطاني الى ورائه . التطور السريع في سلاح القوى الجوية اثناء الحرب جعل مكتب الحرب يفكر في الدفاع عن قناة السويس

ضد الهجوم الجوي ، واعلن اللنبي ان حدود فلسطين الشمالية من المحتمل انها تقع تماماً جنوب ميناء صور - بشكل مشكوك به قريب المئتي ميلا من نهاية القناة . عندما انضمت في اخر الامر سلطة من المنطقة الى الاجتماع في اليوم التالي للتوصل الى رسم الحدود النهائية ، لم يكن ذلك خبيرا في الكتاب المقدس لكن المدير الاداري في الشركة الإنكلو - فارسية للنفط .

ما ان تتبع البريطانيون الحدود المثلى على الخريطة ، والتي أعطت الجند البريطاني المنفذ على منابع المياه التي أيضاً ستدعم سكة الحديد من شمال بلاد الرافدين الى البحر المتوسط ، اتصل لويد جورج بكليمانصو ليطلب منه ان يلتقي معه . اخبر الان نظيره الفرنسي «من اجلنا» مضيفا «صداقة فرنسا تساوي عشرة من سورية» . اقترح ان ينضم فيصل الى نقاش الترتيبات ، لكن رئيس الوزراء الفرنسي الذي كان يرى فيصل اركوز لبريطانيا ، رفض الفكرة . في اليوم الثالث عشر من شهر أيلول / سبتمبرفي باريس اخبر لويد جورج رسميا كليمانصو ان القوات البريطانية ستنسحب من سورية من اليوم الاول من شهر تشرين الثاني / نوفمبر .

بعد يومين من ذلك قدم لورانس مذكرة واحدة أخيرة الى وزارة الخارجية تنبأ فيها ان تدخلا فرنسيا سابق لأوانه في المنطقة العربية سوف «فقط يوحد العرب ضدنا» . متوقعا ان لا تنظر الحكومة البريطانية الى ذلك على انه مشكلتهم ، حذر أيضاً زملاءه في الماضي ، مع نفس البصيرة ، انه اذا لم ينخرط العرب اكثر في حكومة بلاد الرافدين توقع قيام ثورة هناك» حوالى شهر آذار / مارس المقبل» . ثم ترك لندن وذهب الى أوكسفورد ، حيث استلم وظيفة زمالة عرضت عليه من قبل كلية تدعى «اوولسول» . تعمد انهاء مذكراته عن الحرب لكنه كان منهكا ومكتئبا والمرحلة لم تكن مثمرة . تذكرت امه فيما بعد انه «كان يجلس احيانا كل النهار بين الفطور والغداء بنفس الوضعية ، من دون ان يتحرك ، وبنفس التعبير على وجهه» .

نتيجة لرفض كليمانصو ضم فيصل الى المحادثات ، فقط اخبر لويد جورج

القائد العربي بخطته بالانسحاب من سورية بعد ستة ايام ، في اجتماع في الرقم عشرة في الداونينغ ستريت . حسب احد الشهود ، رئيس الوزراء «قدم عرضه الاعتيادي من أقواله البهلوانية ، حيث تكلم كثيرا وقال القليل» ، وفيصل لم يتأثر . معبرا عن مخاوفه من ان يملئ الفرنسيون الفراغ الذي سيتركه البريطانيون ، واخبر لويد جورج كيف ، في العصور الوسطى ، العبد «كان له الحق بالمطالبة بان يباع الى سيد اخر . تأمل انه في القرن العشرين على الاقل ان يكون هذا الحق محفوظا» . لكن في اجتماع اخر اخبر لويد جورج فيصل بصراحة فظة ان الشعب البريطاني غير مستعد اكثر من ذلك الى تحمل نفقات نشر شامل للجند في الخارج : الانسحاب من سورية سيتم بغض النظر عن اي شيء .

لم يكن لدى لويد جورج فقط فيصل الغاضب ليرضيه ؛ كليمانصو كان مستاء بنفس القدر تماماً عندما أدرك ان نظيره البريطاني سوف يسلم اراضي سورية الداخلية الى العرب وليس له . كان رئيس الوزراء الفرنسي في منتصف حملة انتخابية التي فيها منافسيه الحزب الاستعماري يربحون الانتخابات . في محاولة للحد من الضرر الذي حتما ستتسبب به الاخبار من سورية ، اعلن كليمانصو على عجل انه سيرسل جنرالا يتمتع بشعبية كبيرة اسمه هنري غورو ليكون المندوب السامي الجديد في المشرق . صنع غورو اسمه من قمعه لمعارضة الحكم الفرنسي في شمال افريقيا قبل الحرب . ليهدئ اللوبي الاستعماري اكثر ، جعل دو كيه رئيس لجنة اسيا الفرنسية سكرتير غورو الرئيسي .

عندما اقترح لويد جورج حينها احتمال حدوث لقاء بين فيصل وغورو لينسقوا الترتيبات ، انفجر كليمانصو . مقتنعا ان الانسحاب البريطاني المتسرع متعمدا لإعاقة فرنسا ، في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول / اكتوبرارسل برقية متقدة الى رئيس الوزراء جادل فيها ان حركة البريطانيين تطعن بالتعهد في اتفاق سايكس ـ بيكو ان بريطانيا وفرنسا سوف «تحميان»

دولة عربية . أيضاً هاجم دعم بريطانيا لفيصل . أخذ يرغي ويزبد وهو يقول «كيف يمكن لحلف ان يكون ممكنا مع الامير» اذا» كان هذا الرجل ، الذي يطالب بسيادة على سورية ، في حماية الإنكليز؟»

أغضبت برقية كليمانصو لويد جورج الذي احتج على مطالبته ان تحت اتفاق سايكس - بيكو بان فرنسا سوف «تحمي» دولة عربية . «الكلمة المستخدمة في الاتفاق «دعم» والتي معناها مختلف بالكامل» ، هذا ما اشار اليه لويد جورج قبل ان يتهم كليمانصو «بالموقف هذا الذي فيه شك ومعارضة من دون استئذان بالمرة من خلال الوقائع» ، الذي كان عرضة ليقود الى «اضطرابات في كل المناطق العربية» . هذا أقلقه ، لانه كلما ساءت المشاكل ، كلما احتاجت بريطانيا الى تعزيز جند اكثر في فلسطين وبلاد الرافدين .

طري كليمانصو قليلا . بعد ان بدأ الانسحاب البريطاني ، سمح لغورو بلقاء فيصل في باريس . على العشاء ، حسب ما قاله فيصل ، اعترف الجنرال ان العرب لن يحتملوا تقسيم بلادهم ، لكنه حذر انه ، اذا كان لا بد من إراقة الدماء لفرض النظام في سورية ، لن يتردد في اراقته . في اليوم السادس عشر شرع ليستلم الادارة الفرنسية في سورية .

اخبر كليمانصو غورو بشكل عرضي قبل ان يغادر «مهمتك» هي «تأسيس مركز للنفوذ الفرنسي في قلب المتوسط . . . ضع بوالو (جندي فرنسي) في كل مكان فيه تومي (جندي بريطاني) . اعرف انك لم تختار الذهاب الى هناك ، لكن هناك نوعين من الرجال : هؤلاء الذين يضعون انفسهم قبل وطنهم وآخرون . اعلم انك واحد من هؤلاء الآخرون . اذهب»!

الجزء الثاني

التوترات في الفترة الممتدة
بين الحرب العالمية الاولى والثانية

الفصل السابع

الصليبي

وصل الى بيروت المندوب السامي الجديد في سورية الجنرال هنري غورو في اليوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ،ليتعامل مع فيصل ويفرض السلطة الفرنسية على سورية . استقبله جمع غفير يهتف مرحباً به ، لكن هذا الاستعراض التلقائي تعبيرا عن الولاء من الظاهر نتيجة تحضير تم مسبقا خلف الكواليس من قبل ضباط سياسيين فرنسيين . غورو البالغ من العمر اثنين وستين سنة رجل نحيل ، قوي البنية وعيناه زرقاوان . وصفه بدقة احد الديبلوماسيين البريطانيين بانه «ناري ، ملتحي ، بذراع واحدة وصلف .«

قصة كيف خسر غورو ذراعه أسطورة . بينما كان يقود القوات الفرنسية في غاليبولي قبل اربع سنوات ، أصيب بجروح بليغة نتيجة انفجار قذيفة تركية ، وفسدت احدى جروحه . «انها علامة غنغرينا ، جنرال : يجب ان توافق على بترها ، او ستموت هذا المساء» ، هذا ما قيل له في مشفى ساحة المعركة . أجاب غورو : «يا له من طلب غريب» ، متمكنا بصعوبة من ان يبتسم . «لا اعرف أحدا يريد ان يموت هذا المساء . ولا حتى انت ، لا اشك في ذلك» .

نتيجة جروحه خسر غورو ذراعه وكسب عرجة ، لكن ولا واحدة منهما

منعته من ان يعود الى الجبهة . في شهر تموز / يوليو سنة ١٩١٨ ، اثناء قيادته الجيش الفرنسي الرابع ، صد بنجاح اخر محاولة ألمانية لاختراق منطقة شامبين حتى يصل الألمان الى باريس . إشارة الى ما يعنيه هذا النصر بالضبط ، عندما التقى بكليمانصو بعد فترة قصيرة من النصر ، رئيس الوزراء الذي يفضل عادة المصافحة باليد ، حياه بعاطفة على غير عادته ـ ربما لان غورو ليس لديه يد يمنى ليصافح بها . تذكر غورو لاحقا «قبلني عشرين مرة ، على وجنتي ، على عيني ، على جبيني» . الان عندما فاز الحزب الاستعماري بالنصر الساحق في الانتخابات شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٩ ، نظر رئيس الوزراء الى «اسد الشامبين» لينقذه مرة ثانية .

غير متزوج ، ورع بكفاح وصارم بنسك ، رأى غورو نفسه صليبيا . في خياله ، عندما نزل في بيروت كان يتبع خطوات الرهبان المحاربين الفرنسيين الذين كانوا الاكثر عددا وسطوة من غيرهم واستجابوا للنداء البابوي قبل ثمانية قرون ، والذين قلاعهم ما زالت تتوج الهضاب اللبنانية والسورية المكسوة بشجر الزيتون . احد افضل ضباطه ، اسمه جورج كاترو علق بطريقة كمن يكشف سرا كيف الجنرال غورو «كمسيحي ، وكجندي ورومنسي» وقعت عينا غورو على دمشق ما ان وطأت قدمه بيروت . من غرفة نوم متقشفة لا يزينها الا صورة امه ، عين مكان امتلاك فرنسا لمدينة لم يصل لها أجداده الصليبيين . لانه كما وضعها كاترو ان دمشق لم تكن فقط «بلدة وحي القديس بول» لكن أيضاً «القلعة التي لم يتم غزوها والتي قاومت هجوم الفرانك ، عاصمة ومكان دفن العظيم صلاح الدين نصر فروسي على لوسيغنان في حطين» . في كلمات دو كيه ، غورو كان «فيه كثير من مواصفات الجندي» .

عندما وصل غورو الى بيروت ، اعلن ان النصر في اوروبا جعل قدوم الجند الفرنسي الى سورية ممكنا الان ، لكن في الحقيقة هو ببساطة ليس لديه القوة البشرية لتلبية تعليمات كليمانصو بان يضع جندي فرنسي في كل مكان فيه

جندي بريطاني . بالكاد لديه تحت تصرفه ثلاثين الف رجل . عندما انسحب الجيش البريطاني ،قلة عدد القوة الفرنسية التي أخذت مكان الجيش البريطاني اصبحت بشكل محرج مفضوحة لانه كما تذكر احد الضباط الفرنسيين «لا نستطيع وضع كتيبة (فرقة عسكرية تتالف من ثلاث وحدات صغيرة) في المكان الذي كانوا يضعون فيه فرقة عسكرية كبيرة منظمة» . حسب موظفي غورو «بدلا من ان نثبت للشرق قوتنا ، اظهرنا ضعفنا» .

هذا يهم ، لان غورو واجه مشاكل على الحدود الشمالية ومنطقة الساحل والتي كانت في ذلك الوقت بأيدي الفرنسيين . في الشمال ، قواته في سيليكا ـ اليوم جنوب شرق تركيا ـ كان يتم مهاجمتها من قبل الوطنيين الاتراك بقيادة الجنرال التركي الرائع مصطفى كمال . جهة الشرق ، ترك البريطانيون وادي البقاع في ايدي العرب ، بالرغم من انه حسب شروط اتفاق سايكس ـ بيكو كان جزءا من المنطقة الزرقاء التابعة لفرنسا . ولان الوادي الخصب كان يجوز لان يكون لكلا المنطقتين العربية والفرنسية ، أخذت التوترات بين القوات الفرنسية والقوات العربية في التصاعد في الجوار المتاخم .

غورو كان تواقا للسيطرة على البقاع ، لكن كليمانصو رفض اي تحرك في البداية ، قائلا انه يريد إثبات «الاعتدال في سياستنا» ، بينما حاول التوصل الى اتفاق مع فيصل الذي جاء الى باريس بعد لقاءاته المخيبة للآمال مع لويد جورج في لندن . بالرغم من ان فيصل رفض العرض المفتوح بان تسيطر فرنسا بالكامل على سورية ، بقي كليمانصو متفائلا من احتمالية التوصل الى اتفاق . في اليوم التاسع من شهر كانون الأول / ديسمبراخبر غورو انه ما ان يتوصل الى اتفاق مع فيصل سيكون «من مصلحتنا جعله مهما ووضع ثقتنا فيه» .

ثقة فرنسا في فيصل كانت قصيرة العمر . في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر اصطدمت قوات عربية مع الفرنسيين في وادي البقاع ،

ما أعطى غورو العذر حتى يتجاهل أوامر باريس . مدعيا ان الحادثة أظهرت ان فيصل لا يمكنه الحفاظ على النظام ، في اليوم التالي ارسل جنده الى البقاع بالقوة ، وحدث اقتتال عندما استولوا وقتها على البقاع بلدة الوادي الرئيسية .

قلق فيصل من هذه الاخبار والذي كان ما زال في باريس ، اخبر الفرنسيين انه كان مستعدا لقبول عرض كليمانصو ليشتري لنفسه بعض الوقت . هرع الى دمشق ، في الظاهر حتى يتوصل مع الفصائل القومية الى اتفاق ، لكن في الحقيقة لانه أدرك ما سببت به الحركة الفرنسية الخطرة التي حصلت في البقاع . وهو يعرف جيدا ان «العديد من الضباط في حاشية غورو ليس لديهم اي هدف سوى غزو البلد» ، تنبأ انه «اضطرابات او حوادث عسكرية محلية ستعطيهم العذر لاحتلال دمشق» : الشيء الذي حصل بالضبط في الاخر .

في وقت مبكر من تلك السنة وصف موظف بريطاني محاولات فيصل للسيطرة على القوميين غير الراضين بشكل متزايد مثل «مبتدئ يحاول قيادة مجموعة من الأحصنة لم تكبر بعد» . عندما وصل الشيخ العربي الى دمشق كان غير قادر على إقناع الوطنيين قبول الاتفاق الذي عرضه عليه كليمانصو . واتهمه مناصروه بانه خائن ، شعر بانه مضطر الى جعل موقفه أقوى من ذلك تجاه الفرنسيين . رفض السماح لغورو استعمال خط سكة الحديد بين دمشق وحلب ، الذي يحتاجه الجنرال الفرنسي لإمداد جنده الذي يواجه ضغوطات على جبهة الشمال التركية . قوافل اعادة الإمداد الفرنسية التي كانت تستغرق من الوقت في السابق اربعة ايام بالقطار الان أخذت تمضي أسبوعين في البحر . جعل العرب الوطنيون نقليات الفرنسيين لإمدادات الطعام والمتاع ولوازم الحرب اكثر صعوبة بعد من خلال استخدام خبرة علمهم إياها لورانس وهي كيف يفجروا سكة الحديد بين الإسكندرونة وحلب .

في باريس ، استقال كليمانصو حتى يتمكن من خوض المعركة الانتخابية لرئاسة الجمهورية ، رئيس الوزراء الذي جاء بعده ألكساندر ميلراند ، كان غير

مستعد لإعطاء فيصل الأعذار مدة أطول من ذلك . كان واثقا من عدم تدخل الأميركيين : في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩١٩ اضعفت احدى الإضرابات الرئيس الأميركي ورفض مجلس الشيوخ عضوية الولايات المتحدة في عصبة الامم بعد ذلك بفترة قصيرة . في اليوم العاشر من شهر شباط / فبراير سنة ١٩٢٠ اخبر ميلراند غورو ان على فيصل ان يعرض «دليلا كاملا اكثر لقدرته على فرض سلطته» . اذا لم يستطع القائد العربي فعل ذلك ، امر ميلراند الجنرال «باتخاذ أية إجراءات ضرورية لتعزيز النظام ، الدفاع عن الشعب ، وامن الجند . . . انت بالتأكيد لديك الوسائل لفرض احترام حقوقنا» .

هنا ، كان ميلراند غير واقعي تماماً مثلما كان كليمانصو ، لان غورو ببساطة ليس لديه الجند الكافي ليعزز النظام . هذا العجز عن تطبيق الأوامر ترك غورو امام خيار واحد : قبل ان يقمع المعارضة العربية ، يحتاج الى التوصل الى اتفاق مع مصطفى كمال القائد التركي ، ويحتاج الى دعم البريطانيين . بعد ان اعلن الكونغرس العربي العام فيصل ملكا على سورية وفلسطين ، وعبد الله أخاه الاكبر منه الطموح أميرا على بلاد الرافدين في اليوم الثامن من شهر آذار / مارس ، طلب السفير الفرنسي كامبون رؤية وزير الخارجية البريطاني اللورد كورزون ليتفقا على اجراء مشترك .

بالرغم من ان إعلانات الكونغرس كان لها وقع عميق على البريطانيين ، لم يكن كورزون مستعدا لمساعدة كامبون ، الذي تفاجأ من ذلك . بالرغم من ان وزير الخارجية البريطاني قد اتفق على ان خطوة الكونغرس كانت «من دون استئذان ولا تحتمل» ، لام الحكومة الفرنسية على حدوثها لان الفرنسيين اقحموا انفسهم في مناطق هم غير مرحب بهم فيها . كتب لاحقا الرئيس كورزون بطريقة مخجلة «اشعر انه ضروري» ان «تسجل في المحضر انها ليست مسؤوليتنا ، لكنها بالأساس ، ان لم يكن مقتصرة على الفرنسيين» . كانت ردة فعل ميلراند حادة . مع مؤتمر سان ريمو في الريفيرا الايطالية على

الأبواب ، والذي سيتم فيه إصدار قرارات تعيين الدول المنتدبة ، هدد بان يصر على إدارة دولية في فلسطين ، كما يحدد اتفاق سايكس - بيكو .

اقلق هذا التهديد الحكومة البريطانية بشكل عميق . علاقاتها مع الصهيونيين كانت تتدهور بسرعة والموظفون البريطانيون لم يعودوا متأكدين بعد الان من ان الصهيونيين سيدعمون بالضرورة الانتداب البريطاني في فلسطين . تعكرت العلاقة لانه بينما تعهد البريطانيون بدعم وطن قومي لليهود طالما لا يتعدى ذلك على حقوق الشعب الموجود العربي في اغلبه ، الصهيونيون كانوا مصممين على اقامة دولة يهودية بأسرع وقت ممكن ، وبغض النظر عن اي شيء . بريطاني برتبة كاردينال والذي زار فلسطين في وقت مبكر من سنة ١٩١٩ وصفهم ، بمزيج من التفاجئ والنفور ، كأنهم «اقحموا انفسهم مسبقا بكل طريقة ، مطالبين بالمناصب الرسمية لمرشحيهم ويتدخلون بالعموم» .

قلق البريطانيون من ان يزعزع الصهيونيون استقرار فلسطين ، لذلك حاولوا ردعهم . نصح الجنرال البريطاني في موقع القيادة في فلسطين «يجب ان نتمهل فيما يتعلق بالطموح الصهيوني والدولة الصهيونية» ، لان «حكومة يهودية باي شكل ستعني ثورة عربية ، وتسعة اعشار السكان الذين ليسوا يهودا لن يتعاطفوا مع العبريين» . في لندن ، وافق كورزون . شعر ان «المتكبرين وايزمان وكومباني» كانا «مترفين ببزخ ويجب صدهما» .

اشتكى الصهيونيون من بطء التقدم نحو حكم ذاتي ، متهمين البريطانيين بمعاداة السامية . غير مستعدين لتقبل ان نشاطهم يسبب غضب العرب ، أيضاً زعموا ان الفرنسيين هم وراء الاحتجاج العربي . ادعى وايزمان ان عدائية العرب تجاه اليهود في فلسطين «مصطنعة ، سهل طريقها الوكالات التي تعمل في الظلام ، تدير عملياتها ضد مكانة بريطانيا العظمى في الشرق» . كان تفسيرا ناسب التحيز البريطاني .

عندما وقعت مظاهرات في القدس في شهر شباط سنة ١٩٢٠ لصالح توحيد سورية وفلسطين وضد الصهيونية ، كتب ضابط بريطانيا السياسي الرئيسي في فلسطين واسمه ريتشارد مينرتزاغن انهم كانوا «من دون شك» نتيجة الجهود الفرنسية لزعزعة الحكم البريطاني في فلسطين . زميل لورانس و . ف . ستيرلينغ ، الذي كان في تلك الفترة حاكم يافا ، كان مقتنعا أيضاً ان المشاكل التي كان عليه التعامل معها «وسوسة مستمرة من جهة القنصلية الفرنسية» .

وسط هذه الشكوك ، وأياما بعد تهديد ميلراند بالدعوة لصالح إدارة دولية في فلسطين ، وقعت حالات شغب في القدس في اليوم الرابع من شهر نيسان / أبريل في احتفال النبي موسى للمسلمين . الاحتفال الذي جذب أعدادا كبيرة من المسلمين الى المدينة المقدسة ، كما كان معروف عنه من المحتمل ان ينفجر الوضع بشكل لا يمكن تجنبه ويتحول الى عنف لذلك كان يحرسه رجال الأمن بشكل مكثف ايام العثمانيين . ستورس ، الذي اصبح الان حاكم القدس البريطاني فشل في توقع كيف سيلهب اعلان الكونغرس السوري المشاكل ، وارسل فقط عددا قليلا من رجال الشرطة الى موقع الاحتفال ، ربما ، لان مينرتزاغن قد قام للتو بطمانته انه «لا يتوقع أية مشاكل مباشرة في فلسطين» . نتيجة لذلك ، كان هناك اقل من مئتي شرطي متوفر ذاك اليوم لتسيير حشد عربي الذي ازداد الى حوالى سبعين الف . من على شرفة النادي العربي الذي تجمهر تحتها الحشد ، سلسلة من المتكلمين نددوا بالصهيونية . احدهم ، الاخ الأصغر لمفتي المدينة الاكبر ، حمل صورة فيصل واعلن ، «هذا هو ملككم» . هدر الحشد وراءه «الله يحفظ الملك«!

مع تقدم الوقت ذاك اليوم أخذ غضب الحشد بالازدياد . هتف «الاستقلال! الاستقلال!» ما افسح المجال الى «فلسطين ارضنا واليهود كلابنا!» بشكل لا يمكن تجنبه حيث في مرحلة ما اصبح هنالك تزاحم ، تدافع بالمناكب ؛ من المحتمل ان احدهم بصق على علم شخص اخر . لم يكن واضحا ماذا او من

بدا بالضبط الشغب الذي تلا . الشيء المهم انه اتخذ من البريطانيين الوقت اربعة ايام حتى يقضوا على العنف ، في وقت قتل فيه خمسة يهود واربعة عرب واكثر من مئتين وخمسين جريح اغلبهم من اليهود .

اعتقد الصهيونيون ان ردة فعل ستورس البطيئة من الشغب كانت دليلا آخراً على معاداة الصهيونية وبل حتى معاداة السامية ضمن إدارته ، وقال ذلك في وجهه . لويد جورج الذي كان يعرف ان ادعاءات الصهيونيين فيها شيء من الحقيقة ، وعد بتبديل الحكومة العسكرية في فلسطين بإدارة مدنية يترأسها هيربرت صاموئيل ، وهو وزير في مجلس الوزراء يهودي الذي قبل خمس سنوات اقترح ان تدعم بريطانيا القضية الصهيونية . حيث لاحظ احد الموظفين البريطانيين بشكل ساخر لكن دقيق : «على أية حال لن يكونوا قادرين على اتهامه بانه معاد للسامية» .

لكن البريطانيين أدركوا انهم أثقلوا انفسهم بعبء مشكلة لا حل لها . كتب اكبر جنرال بريطاني ، «مشكلة فلسطين» ، كانت» نفس مشكلة ايرلندا ، اي ، شعبان يعيشان في بلد صغير يكرهان بعضهما مثل الجحيم» . لا اليهود اظهروا اي امتنان تتوقعه منهم بريطانيا . عندما زار فلسطين مدير المخابرات العسكريه بعد فترة قصيرة من الشغب ، اتضح له انه لا يوجد سبب ليفترض ان الصهيونيين والبريطانيين سيكون ودائماً «اصحاب حقيقة» . حيث ادرك ان هذه الصداقة ستدوم «فقط طالما تعتمد الدولة الصهيونية على بريطانيا العظمى في الحماية العسكرية» . هذا كان بعد نظر سيثبت انه قمة في الذكاء .

مع تدهور علاقة البريطانيين مع الصهيونيين ، اقتنعوا ان الفرنسيين كانوا يألبون الوضع المتأزم في فلسطين ، لم يشعر البريطانيون بالأمان كفاية ليواجهوا ميلراند في مؤتمر سان ريمو في شهر نيسان / أبريل ذاك . بالرغم من انهم كانوا يعرفون ان موافقتهم على الانتداب الفرنسي على سورية بالتأكيد ستسبب اضطرابا عربيا ، كانوا يعلمون أيضاً انهم اذا اعترضوا سينتقم رئيس الوزراء

الفرنسي من خلال دعوته الى إدارة دولية في فلسطين ـ خطوة في الظروف الحالية قد يدعمها الصهيونيون . لذلك في مؤتمر سان ريمو لم تعترض بريطانيا على مطالبة الفرنسيين بسورية وميلراند لم ينفذ تهديده . تم تأكيد الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، والانتداب البريطاني على فلسطين وبلاد الرافدين . في المنتجع أتمت السلطتان أيضاً اتفاقا يعطي الفرنسيين ربع اسهم شركة أقيمت لاكتشاف النفط حول الموصل . بعد بفترة قصيرة سلم كورزون بالأمر الواقع ان الفرنسيين كانوا «افضل الحكام في الإجراءات العسكرية الضرورية للسيطرة على الوضع المحلي» ، رأى ميلراند فرصته . في اليوم التالي قرر موظفوه رسم مخطط لغزو سورية بينما حكومة فيصل ما زالت غير منظمة . بعد ثلاثة ايام ، اخبروا غورو ان الحرب ضد فيصل «ملحة ولا غنى عنها» وانه سيستلم فرقتين بهدف احتلال دمشق وحلب . حتى الان عدد الجند تحت تصرف غورو قد كبر بشكل حقيقي ، من اربعة وثلاثين كتيبة الى خمسين كتيبة في فترة فقط اثني عشر اسبوع .

في غضون ذلك الوقت ، افسح مستشاره روبيرت دو كيه الطريق لاتخاذ إجراءات ضد فيصل من خلال الموافقة على هدنة وصفقة أسلحة مع الاتراك . فقط بعد ان تم تنفيذ الهدنة قام الفرنسيون باخبار البريطانيين عن وجودها وعن مخططهم لاستخدام قوة عسكرية لفرض مشيئتهم على فيصل . اتخذ البريطانيون هذا البوح بسوء كبير ، لانه في عيونهم مفاوضات الفرنسيين لسلام منفصل هو خيانة لحلفهم . لسنوات بعد ذلك انتابتهم الشكوك من ان فرنسا كانت تشجع بالسر الاتراك ليحاولوا الاستيلاء على منطقة الموصل ، مقابل زيادة اسهمهم في النفط .

حركة فرنسا هذه المفاجئة ومن طرفها فقط عملت على تعزيز الشكوك البريطانية ان حليفتهم الحالية كانت تقوم بقصارى جهدها لزعزعة حكمهم في فلسطين . تشرشل ، بالتحديد ، كان مقتنعا ان غزو الفرنسيين لسورية سيؤدي الى مشاكل أكبر . حث زملاءه على عدم سحب جندهم من فلسطين ،

مذكرا إياهم بأهميتها كممتصة للصدمات كدولة صغيرة حيادية بين قوتين متنافستين. للقيام بذلك، عليكم «فقط... تحويل مشهد المشاكل في المستقبل من فلسطين الى مصر وقناة السويس حيث سيكون التعامل مع المشاكل اكثر صعوبة ونتائجها اكثر خطورة». مع دعم تشرشل، تحرك أيضاً اللنبي لدعم فيصل.

هدفه، الذي كان يشاركه به كل من تشرشل وهربت صاموئيل، إبقاء القائد العربي مستقلا اذا امكن، محاولة إيقاف الاضطراب من الانتقال الى عرب فلسطين. متحديا أمرا من كورزون بان لا يدفع لفيصل اي مال، وصرف له راتب شهرين بعد ان اخبره مؤيدو فيصل انهم يحتاجون الى تمويل لإعادة النظام - وحرم غورو من اي عذر ليتدخل اكثر - لكن اللنبي كان عليه ان يعرف ان المال سيستخدم ضد الفرنسيين، كما كان يحصل في السابق. اخبر فيصل أيضاً ان بريطانيا كانت مستعدة للاعتراف به رئيساً على دولة سورية المستقلة، وحثه للقدوم الى اوروبا ليصنع قضيته. لكن فيصل لن يقوم بالرحلة من دون الاعتراف به اولا.

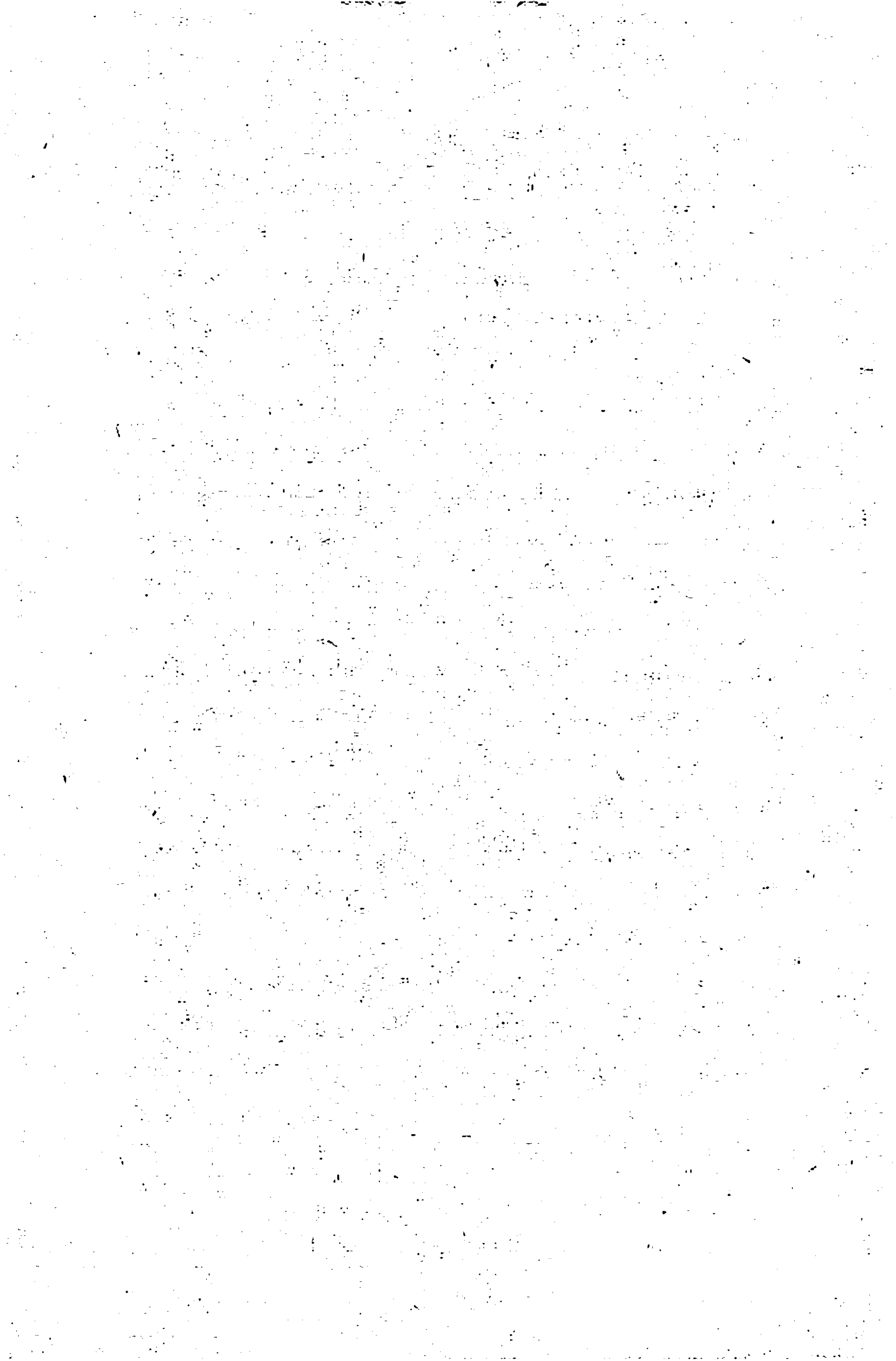
في يوم الباستيل سنة ١٩٢٠ تحرك غورو بشكل حاسم ضد فيصل، من خلال إصداره إنذارا يخبره به ان أمامه يومان لقبول الانتداب الفرنسي والفرنك، ولإنهاء النشاطات العدوانية ضد الفرنسيين. لكنه وافق على طلب فيصل تمديد المهلة ثمانية وأربعين ساعة، تنازل اغضب ميلراند في باريس. نتيجة لردة فعل ميلراند، قام غورو برحلته بغض النظر عن اي شيء عندما ارسل فيصل برقية بعد فوات الأوان يعلن بها قبوله الشروط، وان العرب الان يقبلون بسيطرة فرنسية كاملة على دولة سورية.

فيصل، تحت ضغط من مؤيديه الوطنيين، لا يمكنه قبول هذا الطلب الإضافي. في اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز / يوليوتغلب الجند الفرنسي على القوة العربية الأصغر منهم في ميسلون، خارج دمشق، مستخدمين الدبابات والطائرات ضد مدفعية العرب ورشاشاتهم الآلية. دخل

الجند الفرنسي العاصمة السورية في اليوم التالي ، وغورو فيما بعد بفترة قصيرة في اليوم السادس والعشرين . بينما فر فيصل الى الجنوب الى فلسطين التي كانت تحت السيطرة البريطانية ، اتجه الجنرال الفرنسي مباشرة الى مركز المدينة القديمة ، الى الضريح البسيط لأشهر محارب في العالم الاسلامي الذي كان مدفونا هناك منذ اكثر من سبعمائة سنة . اعلن «لقد عدنا يا صلاح الدين» .

قرار غورو طرد فيصل فاجأ البريطانيين الذين توقعوا القائد الفرنسي ان يبقيه اراكوزا . ظهور فيصل في وقت قريب فيما بعد في فلسطين حيرهم . كما وضعها احد الموظفين البريطانيين ، «كان علينا اما ان نخذله او ان نتشاجر مع الفرنسيين» . بسرعة حل رؤساؤه الورطة . بعد السماح لفيصل بالبقاء لمدة قصيرة في فلسطين ، اصطحبوه الى الحدود المصرية . هناك الرجل الذي كان لمدة قصيرة ملكا على سورية ترك ينتظر القطار «جالسا على أمتعته» .

لكن اذا تأمل البريطانيون انه من خلال إخراجهم فيصل من منطقتهم سيتجنبون تعقيدات ناتجة عن طرده المفاجئ من سورية ، هم فقط يخدعون انفسهم . أعاد الفرنسيون النظر في الوضع فيما بعد مشيرين الى ان هذا الضغط كان يتراكم على البريطانيين منذ شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٨ عندما وعدوا مع الفرنسيين في التصريح الإنكلو ـ فرنسي ، بدعم حرية اختيار الحكومات الوطنية . كما لاحظ الفرنسيون ، مع تلميح اكثر بالشماتة ، خلال ايام من هذا التعهد «ما كان هنالك من مسالة اخرى في بلاد الرافدين سوى خيار الامير . مثال دمشق كان مثيرا للعدوى» . الحكم الذاتي القصير الذي تمتع به العرب في سورية بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ألهمهم بالحصول على الاستقلال لأنفسهم . مع الوقت الذي طرد فيه غورو فيصل ، بداؤا بالقيام بنفس الشيء في بلاد الرافدين .



الفصل الثامن

ثورة في العراق

«انهض ؛ طالب بحقوقك ، طالب باستقلالك التام» ، حث الوطنيون العرب السوريون إخوانهم في بلاد الرافدين عندما اصبح واضحا ان غورو سوف يقضي على طموحهم . توقيت الثورة التي قامت في ذلك الوقت في بلاد الرافدين في شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٢٠ مرتبط بشكل حميمي بالاحداث التي كانت تجري في سورية ، لكنها استمدت قوتها من الغضب الذي تسببت به السنوات الثلاثة من الحكم العسكري البريطاني في العراق . لانه بالرغم من وعد البريطانيين بعدم التصرف مثل «الغزاة او الأعداء ولكن كمحررين» يوم ساروا في بغداد سنة ١٩١٧ ، فشلوا في الارتقاء الى مستوى وعدهم . بشكل جزئي لانه لم يكن وقتها هنالك حاجة عسكرية ، عزلوا من الخدمة اغلب الموظفين العرب الذين كانوا يديرون البلد في السابق للعثمانيين واستبدلوهم بضباطهم السياسيين ، الذين كانت مهامهم ضمانة إمدادات كافية من الطعام للقوات البريطانية في البلد وضمان امن خطوط اتصالاتهم بين بغداد والخليج الفارسي ، الذي كان يمتد الى اسفل وادي الفرات .

هذه كانت ترتيبات لتلبية هذا الغرض المعين والتي كان من الممكن

ايجاد المبرر لها اثناء الحرب ، لكن بقيت هذه الترتيبات في مكانها لمدة طويلة بعد الهدنة . حتى ذلك الوقت نائب القنصل الذي كان يتمتع بشعبية السير بيرسي كوكس ، نقل الى تعيين جديد في طهران ، وانتقلت مسؤولية الحكومة في بلاد الرافدين الى مفوضه الذكي بشكل رائع والواثق من نفسه اكثر من اللازم البالغ من العمر خمسة وثلاثين سنة أرنولد ويلسون الذي يعتقد ان مصير البلد مثل مستعمرة الهند . تابع الضباط السياسيون البريطانيون تحت سلطة ويلسون الحكم باستبداد ، متبعين وعد الذهب وتهديد الانتقام العسكري مثل الجزرة والعصا . مع منتصف سنة ١٩١٩ بدات تصل سورية قصص عن عدالة قاسية ، ما اغضب مؤيدو فيصل البغداديين بالتحديد . كان يعرف عن الموظفين البريطانيين انهم كانوا يصدرون أحكام التهم على المدعى عليهم بالقرعة . في حادثة اخرى اعلن ضابط بريطاني مدعيا انه سيغني اغنية باللغة العربية ، اول من سيضحك من بين المتهمين على لهجته المروعة سيعلن بانه هو المذنب .

ما جعل الامور أسوا ان فشل بريطانيا بان تفي بتعهدها الذي قطعته على نفسها في التصريح الإنكلو ـ فرنسي بان تدعم «الاختيار الحر الذي سيتخذه الشعب أبناء البلد» في اقامة حكومات قومية عبر الامبراطورية العثمانية التي لم تعد تحكمهم الان . لانه في شهر ايار / مايو سنة ١٩١٩ أشار مؤيدو فيصل العراقيين الى التصريح وسالوا البريطانيين فيما اذا بإمكانهم العودة الى بلدهم واقامة إدارتهم في بغداد ، تلقوا ردا تهكميا من أرنولد ويلسون . بشكل استفزازي ، لم يعطي اهمية لآمال العراقيين معتبرا إياها «كلاما فارغا» في وجههم عندما التقى بهم في دمشق . زميلته جيرترود بيل عرفت فيما بعد ان هذه المواجهة هي نقطة التحول ـ اللحظة عندما أدرك العراقيون انهم لن يحصلوا على مساعدة اكثر من البريطانيين ، ولذلك كان بناء على ذلك قد حان الوقت ليحاولوا طرد حليفتهم السابقة .

في السابق كانت قد وافقت بيل على رأي ويلسون ان العرب لا هم قادرين على ، ولا هم مهتمين بحكم انفسهم . كلاهما تم دعوته الى مؤتمر السلام من قبل مكتب الهند البريطاني ليقولا ذلك ، في محاولة لإضعاف لورانس . لكن بيل وقتها قد غيرت رأيها ، عندما اختبرت بنفسها ما كان الى حد ما بالمعنى الحرفي ، التحول العقائدي الدمشقي في طريق عودتها من باريس الى بغداد . عندما التقت أيضاً بالقادة القوميين في دمشق ، كانت مذهولة من الحظوة التي احسن استعمالها الحزب البغدادي وتوسع طموحهم . حذرت لندن انه «ما من طريقة لإبقاء شعب بلاد الرافدين في طريق السلام ما لم نعطيهم شيئا غير مستعدين للتخلي عنه . حكومة جيدة ، من قبل احد اخر مثلا من قبلنا غير كاف» .

قال ويلسون عن بيل بانها» مهيجة» . لم يعطي اهمية لرايها معتبرا إياه «غير صحيح» ، ركز على عمق التفرقة الطائفية في بلاد الرافدين بين السنة والشيعة ، عرب وأكراد ، ناقش ان الشيعة لن يدعموا حكومة مفروضة عليهم من قبل طائفة السنة البغداديين . «حكومة عربية غير محترفة» سوف تجلب «فساد سريع في السلطة ، القانون والنظام» ، قال ذلك مندفعا . علاقة العمل التي تجمعه مع بيل انهارت بعد فترة قصيرة . قالت بصوت خافت مثل الهسيس» هناك ايام عندما اريد ان اقتله بالسكين اذا استطعت» .

الآراء المتناقضة المنبثقة من بغداد ، بالاضافة الى حقيقة ان الحكومة العثمانية المتبقية لم توقع بعد على معاهدة السلام التي ستعترف على الصعيد الرسمي بانهيار امبراطوريتهم ، ما أعطى الموظفين في لندن العذر حتى يتراخوا . بالرغم من انهم يستطيعون الرؤية بوضوح ان الوضع السياسي في بلاد الرافدين يتدهور قلقوا من انهم اذا اعطوا العرب درجة من الحكم الذاتي في بغداد ، ان يتهمهم الفرنسيون بمحاولة زعزعة سورية والانتقام من خلال رفضهم المطلب البريطاني في حقول النفط وفلسطين في عصبة الامم .

بناء على ذلك، التقصير كان الطلب اليومي. هذا ناسب أرنولد ويلسون، لكن التأخير كان له عواقب مروعة. «فكر» كتبت جيرترود بيل سنة ١٩٢١، «اذا بدأنا بتأسيس مؤسسات محلية قبل سنتين! نكون الان قد حصلنا على حكومة عربية. وجيش؛ وما كان عندنا ثورة قبائل؛ كل المال والأرواح التي هدرت هذه السنة كان يمكن حفظها».

مع عدم قدرة الوايتهول على الموافقة على سياسة ليتم اتباعها في بلاد الرافدين، في بغداد كان أرنولد ويلسون حرا في القيام بما يحلو له. بدا سنة ١٩٢٠ بمزاج مرح، كتب الى كوكس ان «الشيوخ والقبائل في كل المناطق النائية مستقرون. الجو السياسي في البصرة جيد، في بغداد معتدل وفي تحسن، واعتقد حتى في الموصل الاشياء تتحسن هناك». حتى حفلة تنكرية في أمسية راس السنة حققت نجاحا باهرا. «الفساتين على الرجال الذين كانوا يتنكرون انهم نساء، بالمجمل، افضل من على النساء الحقيقيات». رسالته عن راس السنة في اليوم التالي كانت غير قابلة للجدل. سال في الرسالة بطريقة فيها من الحماس والحمية «هؤلاء أنتم الذين لا يتمتعون بالصبر حتى ترون اعادة تاسيس حكومة مدنية وتبادل تجاري ليصبح في وضع طبيعي اكثر، تذكروا ان هذه هي احد زوايا العالم القليلة التي لم ترفع فيها بعد فوضى غياب الحكم راسها البشع».

نتيجة لذلك، عندما اعلن الكونغرس السوري العام في شهر آذارمارس سنة ١٩٢٠ فيصل وعبد الله رئيسين الاول على سورية والثاني على بلاد الرافدين، لم يكن هنالك حكومة عربية في بغداد، ولم يكن هنالك أية إشارة الى وجود واحدة على الطريق. «حسنا نحن هنا لها»، كتبت بيل عندما سمعت الاخبار في دمشق. «نحتاج الى كل نثرة من النفوذ الشخصي... للحفاظ على هذا البلد من الوقوع في فوضى». تفاؤلها ان نفوذها ما زال له مفعوله في غير مكانه بالمرة، لانه حتى ذلك الحين كان البريطانيون قد فقدوا مصداقيتهم

مع العراقين . كما اعترفت لاحقا ، «لم نظهر اي علامة لنيتنا باننا نريد تنفيذ وعودنا ؛ على حد علم الادارة المحلية لم يكن عندنا النية بتنفيذها اذا كان بإمكاننا القيام بذلك» .

في النهاية اعترف ويلسون بخطورة الوضع . عندما تم في النهاية تأكيد انتداب بريطانيا على بلاد الرافدين في مؤتمر سان ريمو ، تعجل في اصدار اعلان يلمح فيه انه يريد تقديم تنازلات في محاولة منه لإرضاء الوطنيين . لكن كل هذا الشيء الذي أنجزه من خلال القيام بتلك التنازلات جعل نفسه يبدو ضعيفا ، انطباع تعزز من خلال انسحاب الجند البريطاني الذي شجعه علامات الضعف تلك ، تمكن الوطنيون من توحيد فصائل السنة والشيعة في بغداد فترة شهر رمضان ، الذي كان دائماً وقتا ، خصوصا في الصيف ، حيث تحتد فيه التوترات السياسية . «هناك العديد من القصائد النصف دينية نصف سياسية توعظ وتحرض» ، هذا ما كتبته بيل في تقرير وقد كانت قد ثبطت عزيمتها بسبب هذا التوحد بينهم والذي لم يسبق له مثيل من قبل وحقيقة ان «الأفكار غير الظاهرة على السطح قد بدات بالخروج فيها عدم ثقة وشك» .

تماماً عندما اصبح واضحا ان المشاكل في بلاد الرافدين لا يمكن تجنبها ، نشب شجار حول تكاليف إدارة الانتداب . في اليوم الاول من شهر يونيو ، ادعت صحيفة التايمز ان تكاليف الانتداب قد بلغت خمسين مليون جنيه في السنة وطالبت بشفافية اكبر من جهة الحكومة . بعد ايام عادت الى الموضوع ، ولفتت الانتباه الى الفرق بين الأرقام التي نشرها تشرشل قبل ثمانية أسابيع في تقدير الميزانية والأرقام التي كان منذ ذلك الوقت مضطرا الى نشرها ، تحت الضغط .

وقد اظهر ذلك انه ، بعيدا عن التقلص الذي أدعت مكتب الحرب انه سيحصل ، نمت الحامية العسكرية في الحقيقة خلال الشهرين الماضيين - من اكثر من ثمانية آلاف رجل ، الى سبعين ألف .

بالرغم من كبر حجم الحامية البريطانية في بلاد الرافدين ، حدود البلد التي لم يتم تعيينها حتى الان كانت محمية من قبل وحدات هيكلية وكانت معزولة ومعرضة للهجوم . في صباح اليوم الرابع من شهر حزيران / يونيواحد مراكز حراسة الحدود شمال غرب بلدة طول عفر قام عرب وطنيون مسلحون بمهاجمتها ، بقيادة قائد فيصل العسكري في دمشق . كتب الجنرال ايلمار هالدان قائد القوات البريطانية في بلاد الرافدين «ما الذي حصل في البلدة ربما لن يتم معرفة سببه بالضبط» هذا ما ذكره ايلمار في مذكراته عن الدفاع فترة الثورة . تم المعرفة من أجساد البريطانيين التي عثر عليها البريطانيون انهم كانوا يقاومون الهجوم بالوقوف على سطح مكتبهم قبل ان يتم التغلب عليهم . تم العثور على بعد ميلين على جثة الضابط السياسي المحلي الذي اختطف قبل ايام . تم ارسال فرقة من السيارات المدرعة حتى تحل مشكلة البلدة ، استخفوا لدرجة كبيرة بالمعارضة ولم يتمكنوا من الوصول الى طول عفر . تم مباغتة الكتيبة وقتل كل جندي بريطاني في الفرقة .

ارسل البريطانيون حملة اخرى تأديبية جردت طول عفر وساقت سكانها الى الصحراء ، لكن الحادثة هذه كشفت انه يمكن التغلب عليهم . قال أرنولد ويلسون «كانت اعترافا بالضعف العسكري» الذي «شجع كل رجل قبيلة ليدير يده ضدنا» . في حالة من القنوط الان اصدر أوامر لاعتقال من هم من المحتمل انهم زعماء الثورة قبل قيامهم باي فعل ثوري هجومي ،لكن هذه الحركة ألهبت الوضع اكثر حيث دفعت رجال قبائل لا علاقة لهم بالقصة الى ايدي المتطرفين .

عندما خاف ويلسون من ذلك حذر لندن ان الحل البديل هو» اما احكم او ارحل» . قررت الحكومة ان تحكم ،لكن الثمن كان استقالة ويلسون التي تركت أثرا . في اليوم العشرين من شهر حزيران / يونيواعلن ان السير بيرسي كوكس قد تم استدعاءه الى بغداد حتى يستلم مكانه ويبدأ العمل على

انشاء «القانون العضوي» ـ بكلمات اخرى دستور يدعمه السكان المحليون ـ هذا سوف يشكل اساس حكومة البلاد «حتى ثمة وقت يستطيع فيه البلد الاعتماد على نفسه ، عندما ينتهي الانتداب» . لم تعترف الحكومة البريطانية بما فعله ويلسون الا في نقاش حول ميزانية بلاد الرافدين في مكتب الحرب بعد ثلاثة ايام في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران / يونيو .

حتى هذه المرحلة بررت الحكومة البريطانية تكاليف وجودها في بلاد الرافدين من خلال الإشارة الى المكافأة المادية من انتاج النفط في المستقبل . لكن ، حتى الان شروط ترتيبات اسهم النفط التي توصلت لها بريطانيا مع فرنسا على جانب مؤتمر سان ريمو اصبحت معروفة علنا وسببت خلافا ، بالتحديد في الولايات المتحدة التي تم استبعادها من الصفقة . اثناء نقاش اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران / يونيو اسكويث الذي كان قبل لويد جورج هاجم بشكل منظم أرقام تشرشل التي تثبت ان تكاليف وجود بريطانيا ما زالت غير واضحة ، وشك في افتراض ان بريطانيا في النهاية سوف تحصد أرباحا من انتدابها . هاجم منشأ مصالح لويد جورج في البلد ، من اجل النفط ، بان مصالحه» نقض جوهري» لميثاق عصبة الامم الذي وقعت عليه بريطانيا ، وحذر زملاءه انه حتى تؤكد عصبة الامم الانتداب ، ليس لبريطانيا» موطئ قدم في بلاد الرافدين على الاطلاق» .

جواب لويد جورج غذى شكوك الصحافة انه لن يتم استرداد كامل قيمة المال الذي تم إنفاقه في بلاد الرافدين . علقت صحيفة ايمز في اليوم التالي ان «العموميات المخيفة» التي يصرح بها لويد جورج «لن تهدئ أمة أعمالها التجارية اصيبت بشلل يتسلل اليها ببطء نتيجة زيادة الضرائب والنفقة المهدورة بشكل ضخم» . هذه الصحيفة التي كان ينظر لها على نطاق واسع بانها ساعدت على طرد اسكويث سنة ١٩١٦ اليوم ختمت مقالها بشيء من الوعيد : «أية حكومة بريطانية مهما كانت أغلبيتها كبيرة ، التي تقترح

الاستمرار في إجبار الشعب البريطاني على تقديم أربعين مليون جنيها في السنة لبلاد الرافدين النصف بدو سوف تستنفذ صبر البلد» .

التكاليف على وشك ان تزداد اكثر . في بداية شهر تموز / يوليو ، تم مهاجمة حامية بريطانية صغيرة في بلدة الرميثة على سكة الحديد على بعد مئة وخمسين ميلا جنوب بغداد ، من قبل الآلاف من المتمردين المسلحين والمتدربين بشكل جيد ، الذين أيضاً كانوا قد هربوا من السجن شيخا قائدا اعتقل بناء على أوامر من ويلسون . الثورة التي يقودها الوطنيون وبدعم من زعماء الشيعة اصحاب الدين الأقوياء ، انتشرت بسرعة بين سهل الفرات الخصيب ، والذين نفذ صبرهم مثل محرري التايمز الرئيسيين الذين نفذ صبرهم من دفع الضرائب للحكومة البريطانية . قطع رجال القبائل سكة الحديد في عدة اماكن ، وخلال ايام قامت الثورة في اغلب المناطق بين الرميثة والديوانية التي تقع على بعد خمسين ميلا جهة الشرق .

حاولت الحكومة البريطانية ان تخفي درجة الثورة ، لكن مثل اي تغطية جعلت المشكلة أسوا . في يوم السادس عشر من شهر تموز / يوليو اضطر تشرشل الى الكشف عن تفاصيل اكثر الى البرلمان . سبب بيانه صدمة ، كتب احد الشهود ، لان «اغلب الناس افترضوا ان المشاكل . . . محلية بشكل محض ، لكنه اتضح الان ان . . . لدينا ما قد يكون حرب خطيرة جداً بين ايدينا» . في مذكرة لا تبشر بأمل قدمها الى زملائه في مجلس الوزراء اليوم التالي ، لام تشرشل في السر الفرنسيين على الوضع ، الذين «على ارض الواقع قد اعلنوا الحرب على فيصل» . متوقعا ان يوجه فيصل انتباهه الان الى بلاد الرافدين بطريقة لا يمكن تجنبها ، اخبر مجلس الوزراء ان فرقة إضافية «تكلف الملايين» قد تم إرسالها الى البصرة لقمع العصيان المسلح .

و لزيادة الضرر على الحكومة ، انضم لورانس الى الهجوم . الذي اصبح معروفا في تلك الفترة . اثناء منفاه في أوكسفورد اصبح من المشاهير بعد ان

قام الصحافي الأميركي لويل توماس ، الذي التقى لورانس لفترة قصيرة اثناء الحرب ، بتقديم عرض لندني عن مآثره .

نتيجة لذلك ، عندما قرر لورانس انتقاد سياسة الحكومة ، نشر رأيه كان مضمونا .

في شهر أيلول / سبتمبر تنبأ لورانس ان الثورة ستقوم في بلاد الرافدين «اذا لم نصلح طريقتنا» . الإحساس المستساغ بانه ثبت انه على حق الان هزه من حالة السبات التي تغلبت عليه عندما كان في أوكسفورد . انتقم من أرنولد ويلسون في سلسلة من المقالات ، حيث دحض لورانس التنازلات التي قام فيها ويلسون في اللحظة الاخيرة للعرب حيث اعتبرها «جاءت بعد فوات الأوان ، غير نزيهة ، ناقصة» . في رسالة الى التايمز في اليوم الثالث والعشرين من شهر تموز / يوليو لام قيام الثورة على فشل إدارة ويلسون في بغداد بتنفيذ وعد بريطانيا في الحكم الذاتي الوعد الذي قطعته على نفسها بريطانيا في تصريحها في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٨ . وتنبأ ان كلفة قمع العصيان المسلح قد تصل الى خمسين مليون جنيه تلك السنة وأضاف اكثر من خمسة بالمئة الى نفقة الحكومة الموجودة بطبيعة الحال والتي لا توفر مستو من الجاهزية . لتخفيض هذه التكلفة ، جاء جوابه «جعل العرب يقومون بالعمل» . من بغداد اتهمته جيرترود بيل بحنق بانه يجعل الوضع اكثر سوء من خلال كتابته «كلام فارغ» لكن ، كما اعترفت ، «الواقع اننا مذنبون فعلا بارتكاب أخطاء منذ البداية جعلت من الصعب جداً الاجابة على رسائل مثل تلك من قبل لورانس» .

في بلاد الرافدين ، استمر الوضع في التدهور . في نفس اليوم الذي نشرت فيه رسالة لورانس ، انطلقت قوة بريطانية من قاعدتها في مدينة الحلة ، على سكة الحديد ، لتحل مشكلة مدينة الكوفة ، بلدة صغيرة تقع على نهر الفرات حيث تم هناك عزل حامية بريطانية صغيرة جداً من قبل رجال القبائل قبل

ثلاثة ايام . الوهم الذي كان متصورا عن استعراض القوات البريطانية الهائل تحول الى دليل واضح على الضعف عندما انقلب حال الحملة ما ادى الى فشلها بشكل مروع . اعضاء القوة التي تتألف من ثمانمائة جندي قوي ، لم يقدروا بشكل صحيح شدة حرارة شمس الصيف وأخذوا معهم لمسافة بعيدة القليل جداً من الماء لمسير لمسافة ثلاثين ميلا الى الكوفة . مع الوقت اجبرهم الإنهاك الى التخييم قرب قناة في فترة مبكرة من بعد الظهر ، انهار الرجال من ضربات الشمس ، وبتلك المرحلة رأوا نحو الف رجل ينهالون على المخيم .

قرر البريطانيون انه ما من خيار أمامهم سوى الا نسحاب ، لكن هذه الحركة كان يتوقعها رجال القبائل بالأصل . عندما بدات الكتيبة بالتراجع بضجر صاعدة الطريق باتجاه مدينة الحلة ، باغت العرب الكتيبة . الهجوم كان سريعا وهمجيا . حسب احد الضباط ، «الفريق المسلح بالبنادق تم مهاجمته بسكاكين العرب الذين خرجوا من على طول الخنادق ليشرطوا بطون الأحصنة من الأسفل» . عندما هبط الليل ، بسهولة تم التقاط الجنود بعد ان تاهوا في الطريق النصف صحراوي الوعر : تم قتل او سجن اكثر من ثلاثمئة منهم . من نفس اليوم الذي تغلب فيه الفرنسيون على العرب في ميسلون ، هزم العرب البريطانيين هزيمة مروعة .

عندما وصلت أنباء الكارثة الى ويلسون ، اضطر الى اعادة التفكير بما كان لا يقبل التفكير به في السابق . عندما اقلقه ان تتخلى القوات البريطانية عن وادي الفرات بالكامل ، بعد اربعة ايام من طرد فيصل من دمشق ، اتصل بلندن ليسأل فيما اذا كان بالإمكان الأخذ بعين الاعتبار العرض على القائد العربي المخلوع ان يصبح أميرا على بلاد الرافدين . اذا أرادت الحكومة تقليص كلفة حكم المنطقة في المستقبل ، اعتقد «افضل تصور لها اذا تم تحقيقها عن طريق فيصل . . . من ان يكون من خلال أية ترتيبات اخرى محتملة» . من

خلال القيام بذلك، جادل، «لن نكون فقط استعدنا مكانتنا في عيون العالم العربي ولكن ربما اكثر من ذلك حتى نزيل الاتهام الذي ان لم نفعل ذلك من الممكن ان يتوجه ضدنا بتهمة قلة الأمانة مع كل من فيصل وشعب هذا البلد».

وافقت الحكومة في لندن، تسربت الفكرة بسرعة: في اليوم الخامس من شهر آب / أغسطس، كتبت الصحف ان فيصل قد يصبح «الحاكم المحتمل على بلاد الرافدين». التعليمات حول استبدال ويلسون، بالسير بيرسي كوكس والتي قدمت الى مجلس الوزراء حتى يتم التصديق عليها في نفس اليوم كانت الى حد ما واضحة. تضمنت التعليمات تعيين فيصل حاكما على بغداد، طالما هنالك طلبا تلقائيا على ذلك... من قبل الجماعة التي تمثل الرأي العام في بلاد الرافدين بشكل كاف».

استغل لورانس هذه الفرصة وروج لفيصل. حيث جادل في صحيفة «الاوبزيرفر» ان رفيقه فترة الحرب يستحق التعاطف لان المعاملة التي لقيها على يد غورو كانت «ردا رديئا» لدعمه لبريطانيا فترة الحرب. أنهى من خلال توسطه بأخذ دور الشفيع «انهاء ما قد فعلناه» واقامة دستور لحكومة عربية مدعوما من قبل المستشارين البريطانيين ما سيؤدي الى «التوفير علينا ملايين الجنيهات في الاسبوع». في مقالين اثنين من دون ان يكتب اسمه في التايمز أرسل تحية الى «القائد العربي الأعظم منذ صلاح الدين». في المقال الاول ـ الى حد ما بشكل مضحك مزقطط، لانه يعرف انه مكتوب باسم «المراسل» فقط ـ حاول ان يبدد فكرة ان فيصل كان «مشروعا، مدعوما بشكل سري من قبل بريطانيا العظمى، كجزء من مشروع ماكر لبسط النفوذ البريطاني الى ما وراء منطقة السيطرة البريطانية»، وجادل ان دوره في الثورة العربية قد تم المبالغة فيه. في المقال الثاني وصف الصعوبات التي تواجه فيصل حتى يؤسس الادارة في سورية بعد الهدنة. «في تلك الظروف»، اقترح، «شيء

رائع استمر كل هذه المدة ، «واصفا فيصل كون عمره ثلاثة وثلاثين سنة ، عزمه قوي ، ولم يصل بعد الى سمو قوته» ، أنهى لورانس بمكر متسائلا ماذا يمكنه ان يفعل بعد .

عرفت الحكومة الفرنسية بذلك مسبقا . في اليوم الثامن من شهر آب / أغسطس ، استجمع كورزون قواه حتى يخبر ميلراند ان فيصل قد يستلم الحكم في بلاد الرافدين . بعد بضعة ايام ، سجل ديبلوماسي فرنسا الكبير في لندن اعتراضا على العرض . قال انه سيكون «امتحانا قاسيا» للحلف الإنكلو ـ فرنسي ، لان فيصل سيبدأ بحبك المكائد على نحو لا يمكن تجنبه في دمشق .

لم يكن البريطانيون ميالين لإعطاء هذا الامر اية اهمية . بعد وصول غورو الى دمشق حذر السفير البريطاني في باريس كورزون ان الجنرال الفرنسي ينوي توسيع النفوذ الفرنسي جهة الجنوب من المدينة ، دافعا قطعة ارض مثل الاسفين بين فلسطين الواقعة تحت السيطرة البريطانية وبلاد الرافدين مما يهدد بتدمير فكرة سلسلة صف الجنود الدفاعية التي تحمي المنطقة عبر الشرق الاوسط والتي كان البريطانيون يطورونها منذ سنة ١٩١٥ . في لندن ، اخرج موظفون في وزارة الخارجية الخريطة الاصلية التي استخدمت لشرح اتفاقية سايكس ـ بيكو ، في محاولة لمعرفة اين يقع بالضبط الخط الفاصل بين المنطقة البريطانية والمنطقة الفرنسية . في حوالى اليوم العشرين من شهر آب / أغسطس ترك السير هيربرت صاموئيل القدس وذهب الى بلدة السلط ، على الضفة الشرقية من الأردن ، حيث تم دعوة شيوخ محليين للقائه . عندما اعلن انه سوف يعفو عن واحد من زعماء العصابات فترة اضطرابات النبي موسى والذي هرب الى الأردن ، ابتهجوا الشيوخ ، وصموئيل حسب احد الشهود ، «بذكاء كبير امسك بهم وهم في ذروة الرضى ، وقال «كل من يريد الحكومة البريطانية يتقدم خطوة للامام ويعطي اسمه» تقدموا كلهم» .

من خلال هذا التدخل أوقف البريطانيون بشكل فعال تعدي الفرنسيين على الحدود الى منطقة ينظرون اليها على انها جزء من فلسطين الواقع تحت انتدابهم ،لكنهم ما زالوا لم يخمدوا الثورة في بلاد الرافدين . في اليوم العشرين من شهر آب / أغسطس سالت التايمز لماذا يتطلب من تشرشل الكثير من الوقت حتى يحل مشكلة الكوفة ، بينما وعد منذ حوالى شهر ان ستبدأ «قريبا» كتيبة بحل المشكلة . لم يكن لدى تشرشل جوابا جاهزا . فقط حتى بعد ان وافق مجلس الوزراء على تكاليف اخرى حتى تمكن من إبلاغ هالدان انه «حتى منتصف او اواخر شهر تشرين الأول / اكتوبر يجب ان تحصلوا على قوات ملفتة للنظر بشكل فعال ، واستعمالها بشكل شديد حتى تقمعوا وتعاقبوا عدم الولاء بالاضافة الى سياسة اقامة دولة عربية يجب ان يمهد السبيل لوضع افضل» . بشكل مخجل ، حتى تشرشل امر القوات الجوية الملكية التحقق من استعمال غاز الخردل ضد «أبناء البلد المعارضين» . بالرغم من ان قوات الجوية تصرفت بحكمة ولم تفعل ذلك ، حتى نهاية الثورة قتل اكثر من ثمانية آلاف وأربعمائة عربي . أيضاً حوالى ألفين وثلاثمائة جندي بريطاني .

اغلب الاصابات بين البريطانيين كانوا من الجند الهنود ، والكلفة المالية اكثر من الكلفة البشرية هي التي سببت القلق لتشرشل . في نهاية شهر آب / أغسطس اشتكى الى لويد جورج «ما من مقابل ، بعد هذا الصراع في الحرب ، فقط عندما نريد ان نلم مواردنا العسكرية الزهيدة ونعيد تكوين دخلنا ونبقي القليل في يدنا في حالة الخطر هنا او هناك ، يتوجب علينا ان نضطر ونذهب ونسكب جيوشنا وثروتنا في هذه الصحراء الجحود» . اشتكى من ان «التكاليف العسكرية لهذه السنة وحدها سوف ترتفع من المحتمل الى شيء مثل خمسين مليون ، هكذا بسبب مصاريف هائلة تهدم كل ازدهار لإمكانيات في التجارة كان من الممكن ان تكون موجودة» .

السبب لماذا كان تشرشل مركزا على التكاليف لانه كان يحلم ان يكون وزير المالية ومن ثم رئيس الوزراء ، كان يعتقد انه يجب ان «يكسب سمعة في الاقتصاد» حتى هذا الطموح . أراد باستماتة التغلب على ابيه ، اللورد راندولف ، الذي كان يدير وزارة الخزانة قبل ثلاثين سنة . كان اللورد راندولف مترفع وغير راض ، وقد هاجم ذات مرة ابنه لانه يعيش «حياة بلا فائدة عديمة الجدوى تافهة» ، ثم مات بعد سنتين وعمره خمسة وأربعين عاما قبل ان يثبت له تشرشل انه على خطا . منقادا بالخوف من ان لا تسمح له جينات العائلة بالوقت ليقوم بذلك ، تشرشل ـ الان عمره ستة وأربعين ـ كان مصمما على ان يتفوق على ابيه ، باي ثمن . يقول الويد جورج بشكل متوافق مع ذلك «بإمكانه ان يصنع طبلا من جلد امه حتى يسمع صوت مديحه» .

يعلم تشرشل جيدا ان السياسة ليس فيها أمان . وهو ولد يحب المخاطر كونه كان مراسلا صحافيا مع القوات البريطانية على الحدود الهندية الشمالية الغربية وكتب كيف «ما من شيء في الحياة مفرح جداً مثل ان يتم اطلاق النار عليك من دون نتيجة» ـ دخل البرلمان واصبح من المحافظين ، ثم بدل الأطراف وانتقل الى الليبراليين ، واصبح اصغر وزير في مجلس الوزراء حيث كان عمره ثلاثة وثلاثين . بالفعل ، كونه اللورد الاول في الأميرالية سنة ١٩١٢ اتخذ قرارا بتبديل اعتماد الاسطول من على الفحم الى النفط : القرار الذي في ذلك الوقت ورط بريطانيا في العراق . لكن حينها ، مع تشجيع سايكس ، اتخذ القرار المشؤوم الذي دعم فيه النزول في غاليبولي ، ونتيجة لذلك جعل منه كبش فداء من قبل العديد من أعدائه عندما فشلت المجازفة . عندما حل لويد جورج مكان اسكويث سنة ١٩١٦ ودعا المحافظين للانضمام الى ائتلاف الحكومة ، تضمن ثمن المحافظين استقالة تشرشل .

بالنسبة الى رجل عاش من اجل السياسة والسلطة ، الذي كان يستمتع بالثرثرة وهو ثمل في وقت متأخر من الليل عن من كان فوق ومن كان تحت ،

هذه كانت ضربة فظيعة – ليس فقط لانه كان يعتبر لويد جورج صديقه . بعد ان خدم لفترة قصيرة على الجبهة الغربية عاد الى بريطانيا وهو ما زال مكتئبا ، مارس فن الرسم الزيتي ليقاوم الاكتئاب . وصف سعيه هذا بانه «جولة مرح في علبة الألوان» ، اعترف انه لا يستطيع «التظاهر بالشعور الحيادي تجاه الألوان ، ابتهج مع الألوان الزاهية ، وبصدق اشعر بالأسف على الألوان البنية الرديئة» . عبر النقاد عن رأيهم بذلك النتاج ، لكن تشرشل عندما عرض لوحاته لاول مرة باع اربع لوحات من اصل خمسة . ووقع اعماله باسم مستعار حتى لا يتأثر النقاد ، ولانه كان لا يستطيع مقاومة الذهاب الى هناك ليعجب بالمعرض بنفسه . وكما اعترف الى زوجته كلامنتين ، «افناني حبي لتحقيق رغباتي» .

يدين تشرشل بعودته فيما بعد الى مجلس الوزراء الى لويد جورج الذي في نهاية سنة ١٩١٨ جعله وزير دولة للشؤون الحربية . بالنسبة الى رئيس الوزراء اعادة الاعتبار الى رجل كان ينظر له على نطاق واسع بانه مسؤول عن احد اكبر الكوارث العسكرية في الحرب مخاطرة كبيرة . وصفت صحيفة «ذامورنينغ بوست» عودة ظهور مراسلها الصحافي في السابق «الرائع والضال» بانها «تعيين يجعلنا نرتعد من المستقبل» . رغم ان هذا الفهم يجعل هذا الشك يبدو غريبا اليوم ، الا انه كان شعورا شائعا ذلك الوقت . «قد يفعل اي شيء غبي وأحكامه العسكرية تقريبا كلها خطا» ، هذا ما قاله اكبر جنرال بريطاني كما حذر من دون علم احد : « يعتقد انه دوق مالبرا» .

عندما عاد تشرشل الى الحكومة وجد ان علاقته مع لويد جورج قد تغيرت من دون رجعة . كل فترة يتجادل الرجلان ، خصوصا حول موضوع الحاجة الى تسوية مع الاتراك . تشرشل ، الذي كان يدفعه الادخار الذي سينجم عقب ذلك ، كان بكليته مع ذلك ؛ لويد جورج الذي عماه كرهه للأتراك ، لم يرد ذلك ، وتشرشل الذي يعتمد الان على صديقه القديم من اجل بقائه ، لم

يكن أمامه من خيار سوى ان يوافق .

استمر الرجلان بعلاقة شائكة . اتهم لويد جورج تشرشل بالفشل في تكريس «قدراته العظيمة ، طاقته وشجاعته» من اجل «تخفيض التكاليف» . كان تشرشل غاضبا من انه كان يتوقع منه تعزيز السيطرة البريطانية على بلاد الرافدين في وجه عدائية كل من العرب والاتراك ، مع موارد قليلة وضد عدائية الاعلام . اشتكى الى رئيس الوزراء في شهر آب / أغسطس : «ليس لدينا صديق واحد في الصحافة حول هذا الموضوع وما من فائدة لما يفعلونه اكثر من الضرر بالحكومة . اسبوع بعد اسبوع وشهر بعد شهر لمدة طويلة سنحصل على استمرارية لهذا الصراع الهادر البائس من وقت الى اخر» . لكن بعد ان أطال التفكير بعمق في خطر اشتراكه بطريقة مشربكة بكارثة عسكرية اخرى ، جاءته فكرة رائعة : ان يشتري صمت ناقد الحكومة الأكثر معارضة من خلال استئجاره ليصبح مستشاره .

الفصل التاسع

الحل الافضل والارخص

دعا سكرتير تشرشل الخاص لورانس للقاء مديره في اليوم الرابع من شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٢٠ . اول مرة التقى تشرشل بلورانس كان بعد فترة قصيرة من الهدنة ، وبقي اللقاء حيا في ذهنه . عندما شرح لورانس في ذلك الوقت انه رفض للتو رتبة شرف من الملك ، زجر تشرشل لورانس . كتب تشرشل لاحقا «قلت له مباشرة ان اغلب سلوكه غلط ، ليس عدلا للملك باعتباره رجل فاضل وفيه بشكل فظ قلة احترام له كملك حاكم» . أخذ لورانس الانتقاد من جانبه الجيد . شرح بانها كانت الطريقة الوحيدة التي تجعل الملك يدرك ان «سمعة بريطانيا العظمى على المحك بما يتعلق بمعاملة العرب بصدق وان خيانتهم لمطالبة فرنسا بالحصول على سورية ستكون وصمة لا يمكن محوها من تاريخنا» . لا يمكن لتشرشل نسيان الرجل الذي «عيناه المتقدتان المشحونتان بالنار» الذي كان جالسا على الطاولة قبالته . في شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، قام بدعوة لورانس ليعمل معه .

في اعادة التشكيل الوزاري بداية سنة ١٩٢١ نقل لويد جورج تشرشل

من وزارة الدفاع الى وزارة المستعمرات . بغرور صريح ، كان تشرشل مسرورا عندما وجد مكتبه الجديد اكبر بمرتين من مكتبه القديم ، لكن الزيادة في المساحة كانت تعويضا ضئيلا عن الصداع الذي جاء من ورائه . لان سبب قلق تشرشل ، ان رئيس الوزراء جعله مسؤولا بالكامل عن فلسطين ، والأسوأ ، عن بلاد الرافدين حيث كانت مهمته هناك ، بعد نهاية الثورة ، اقامة هيئة لحكومة ترضي تطلعات العرب ومصالح بريطانيا الاستراتيجية . تشرشل لا يستطيع صد لويد جورج ، لكنه كان «مرتابا من العواقب السياسية علي» لانه سيكون مسؤولا عن رعاية بلاد الرافدين وفلسطين - «طفلين توام في رعايته» ، كما وصفهما ، والذي هو «ليس الاب «بالتأكيد» .

لهذا السبب تشرشل كان قلقا من مسالة تجريد لورانس من سطوته ، لان شهرة الضابط السابق الشاب تعني انه يتمتع بالسلطة العظمى لإلحاق الضرر به . ادعى لاحقا ان لورانس قد قبل مباشرة دعوته ، لكن لورانس قال انه فقط لدى المحاولة الثالثة من تشرشل حتى اقتنع بالعودة الى ما دعاه «قبر الوظيفة الحكومية الضحل» ، ربما لانه كان بحاجة للمال في ذلك الوقت . وصف لورانس معقول اكثر ، لانه كان فقط اليوم السادس عشر من شهر شباط فيرايرسنة ١٩٢١ عندما استطاع تشرشل الإفصاح عن سروره لزوجته كليمانتين انه أخيرا استطاع «الحصول على لورانس ليربطه باللجام والطوق حول عنقه» . خلال ايام ، أخذ لورانس يعمل حتى ساعات متأخرة من الليل في وزارة المستعمرات الان مصمما لحركات التغير المفاجئ الذي كانت الحكومة البريطانية على وشك القيام به . تشرشل كان مسرورا لانه اقنع ناقده الاكثر خطورة ليصبح خادم الحكومة مرة ثانية - وبشكل فعال إسكاته مع مرور الوقت . لكن الصفقة بدت واعدة بالنسبة الى لورانس أيضاً . لانه بالنسبة له «كانت فرصة رائعة جداً ممنوحة لي» ليتخلص من الإخفاق الذي سبب له الاكتئاب سنة ١٩٢٠ .

تفاؤل لورانس مرتبط بحقيقة انه ، في الفترة منذ ان عرض عليه تشرشل الوظيفة ، فكرة ادخال فيصل كرئيس صوري اصبحت سياسة الحكومة . نقطة التحول هذه جاءت في اجتماع في الوايتهول . في شهر كانون الأول / ديسمبرسنة ١٩٢٠ عندما تم مقارنة النصوص الانكليزية والعربية لمراسلات ماكماهون مع الشريف حسين .

في رسالته الهامة في اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩١٥ استخدم ماكماهون عبارة فيها شيء من الالتباس بسبب غياب الفاصلة لتجعلها تبدو وكانه وافق على طلبات حسين المفرطة ، بينما في الحقيقة كان يحفظ مجالا لمناورة بريطانيا مع الفرنسيين . لمدة خمس سنوات كان يعتقد البريطانيون انه قام بفعل ذلك بنجاح ، حتى ، لروع هؤلاء الحاضرين في اجتماع كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، تم كشف ان هذا الخط الصغير قد ضاع حينها في الترجمة العربية . كما وضعها احد الموظفين الذي كان حاضرا :

في النسخة العربية المرسلة الى الملك حسين مترجمة لتظهر ان بريطانيا حرة بالتصرف من دون الضرر بفرنسا في كل الحدود المذكورة . هذا المقطع بالطبع كان بالنسبة لنا مرساة الامن وقت الخطر : مكننا من اخبار الفرنسيين اننا حفظنا حقوقهم ، والعرب ان هنالك مناطق عليهم ان يتفقوا مع الفرنسيين حولها في اخر الامر . انه مربك للغاية قطع تلك الارض الصلبة من تحت أقدامنا . اعتقد ان حكومة جلالته قد تهب مسرعة لاستغلال فرصة تقديم ثمة تعويض عن الاضرار من خلال إرسال فيصل الى بلاد الرافدين .

هذا التخمين كان قطعا صحيحا ، بعد يومين امر مجلس الوزراء كورزون طلب رؤية فيصل ليراه فيما اذا كان مهتما بحكم بلاد الرافدين . بعد ذلك بفترة وجيزة جاء فيصل الى لندن .

المحادثات السرية التي تلت كانت مشجعة . أشار القائد العربي انه»لم يكن غير ميال «للفكرة ، مضيفا ان أخاه عبد الله لا يريد العرش . التقى أيضاً فيصل بلورانس في ذلك الوقت ، وقال انه كان مستعدا للتنازل عن أي حق في سورية وفلسطين ، رغم انه أراد رؤية دولة عربية في المنطقة عبر الأردن . موقفه ترك لورانس متفائلا جداً . واخبر سكرتير تشرشل الخاص : «كل مسائل التعهدات والوعود ، المحققة والغير محققة ، ألغيت «مضيفا «يمكن لفيصل المساعدة كثيرا في تحقيق تسوية سريعة لتلك البلاد ، اذا أراد هو ذلك» .

بدت هاتين الكلمتين ، «تسوية سريعة» ، سائغتين جداً لتشرشل ، وكذلك نسب فيصل الرفيع . رغم انه تخرج من ساندهيرست حيث اصبح ضابط حرس ، الا انه صنع اسمه من عمله مراسلا للحرب يكتب تقاريرا عن الحروب الصغيرة في الايام الاخيرة من القرن التاسع عشر ، مشاركا بحماس في المعارك التي كتب تقاريرا عنها في ذلك الحين . ولانه شهد الدمار الذي تسبب به نداء الملا المجنون للجهاد على الحدود الشمالية الغربية ، والتطرف الذي آثاره المهدي في السودان ، احب تشرشل فكرة ان يستخدم فيصل سلطته كسليل للنبي محمد ليحقق الاستقرار . ولانه استحضر في ذهنه صورة العرب على هذا النحو خيب ظنه عندما ظهر فيصل في لقائهم الاول مرتديا قبعة طويلة تلبس فقط في المناسبات الرسمية جداً مع معطف انكليزي قصير من الامام بطول الورك ومن الخلف طويل ومقسوم الى نصفين من الوسط . «اخبر الامير انني متأسف جداً لرؤيته وقد فقد ملابسه الجميلة» ، طلب تشرشل من لورانس ان يترجم له . «نعم» ، أجاب فيصل ، «ومملكتي الجميلة أيضاً» !

لانه تم التوصل الى ترتيب تكتيكات يحافظ بها البريطانيون على السلام على طول الحدود الشمالية الغربية ، لذلك ايد تشرشل دفع معونات مادية لفيصل في بغداد ، ولعبد الله في ترانس الأردن ، ولأبيهما العجوز في مكة .

«اذا عرف فيصل انه ليست فقط معونة ابيه . . . لكن أيضاً منصب أخيه في ترانس الأردن يعتمد على حسن سلوكه ، «جرى تفكير تشرشل ، «سيكون التعامل معه أسهل» . وسيكون الطموح عبد الله وأبوه العنيف ، الشريف حسين ، ملزمين على نحو مماثل .

حتى اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني / يناير استقر تشرشل على رأي ، مخبرا كورزون ان لديه «إحساس قوي» ان فيصل هو «الرجل الافضل «للمهمة . فقط في حال لم يوافق عليه سكان بلاد الرافدين ، نفس اليوم ابلغ السير بيرسي كوكس انه في الاستفتاء العام القريب ، الذي سيسأل فيه اهل بلاد الرافدين فيما اذا أرادوا فيصل حاكما لهم ، «أساليب سياسية غربية ليست بالضرورة قابلة للتطبيق . . . ويجب اقامة وتطوير قاعدة للانتخابات» .

تصميم تشرشل ان يحصل فيصل على نوع من الموافقة المحلية حتى يمنع الفرنسيين لوم البريطانيين على عودته الى بغداد ، لان الفرنسيين بقيوا النقطة العالقة الاكبر ، في نجاح الخطة البريطانية . حتى هذه المرحلة ابتعد البريطانيون بطريقة احتيالية عن الشكاوي الفرنسية من خلال الادعاء انهم حياديون لدرجة مثيرة للشكوك في مسالة من سيتصدر الحكومة العربية في بغداد . لكن حتى بداية سنة ١٩٢١ ، هذا اللغز أخذ يبدو مهترء وباليا . قال ديبلوماسي بريطاني كبير شيئا ما ازعج به الفرنسيين ونبههم الى حقيقة ان فيصل في لندن يتحدث مع البريطانيين ، هذا الاكتشاف بالاضافة الى اعادة تعيين لورانس ، قادهم الى الشك بما هو أسوا . حذر السفير الفرنسي وزارة الخارجية ان تعيين فيصل سيوتر العلاقات بين كلا البلدين ، ليس فقط لان غورو لا يثق بالقائد العربي بالكامل . اكد الفرنسيون ان الاعتماد على فيصل سيكون مثل»الاتكاء على قصبة مكسورة» .

كان تشرشل قد قام مسبقا بتنظيم مؤتمر للموظفين في القاهرة في شهر آذار / مارس للموافقة الرسمية على قرار تعيين فيصل ، لكن قبل ان يقام المؤتمر

أدرك انه يحتاج الى فهم «محدد وواضح» مع الفرنسيين . في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط / فبراير التقى بغورو وفيليب بيرثلوت ، رئيس الكاي دورسيه ، الذي على الفور شن هجوما مباشرا لا يقبل المساومة على السياسة البريطانية . واصفا فيصل بانه «اكبر خائن ، خصوصا انه من هذه النوعية» ، قال بيرثلوت ان تعيينه في بغداد سيضعف الحكم الفرنسي في سورية . ايده غورو في ذلك قائلا ان فيصل تراجع بالكامل عن وعوده التي قطعها على نفسه في وقت مبكر من تلك السنة .

حاول تشرشل ترك الفرنسيين من دون معين بطريقة لطيفة . بالرغم من ان تشرشل قد ادعى بطريقة تضليلية انه ما زال يتمتع «بذهن منفتح حول موضوع» حول من قد تعين الحكومة البريطانية رئيساً لبلاد الرافدين ، اخبر نظراءه الفرنسيين «كم سيكون من الصعب عليه . . . العودة الى بيت العموم والشرح للمستشارين المحليين البريطانيين الذين هم مع تعيين الامير فيصل وانه مع ذلك عليه ان يرجح الجلاء من كل المناطق ما عدا قاعدتهم العسكرية بسبب وجهة نظر الفرنسيين» .

التقى خبراء بريطانيا في الشرق الاوسط في القاهرة في اليوم الثالث عشر من شهر آذار / مارس ، وتم وصفهم بطريقة مثيرة للاهتمام «بالأربعين حرامي» ، ما اضحك تشرشل كثيرا . كان هنالك ضباط عسكريين بريطانيين كبار . مستشارو تشرشل الذين مقرهم لندن ، والموظفون من المنطقة من ضمنهم جيرترود بيل والسير بيرسي كوكس . لكن كان العميل البريطاني في الصومال السير جيفري ارشر هو الذي سرق العرض عندما وصل مع شبلين . اللنبي ـ الان المندوب السامي البريطاني في مصر ـ استضاف حفلة في البداية ، وصف اللحظة عندما راى احد الشبلين احد حيواناته المنزلية الأليفة في حديقة منزله . كتب : «تم فك رباطهما» ، واضاف «وركضا للإمساك بطائر اللقلق الذي اسمه مارابو . الذي هرب لينقذ حياته . كادا يمسكان به ؛ لكن

ارشر وخادمه الاسود لحقا بهما واوقفاهما تماما في الوقت المناسب . تم احتجازهما لإرسالهما الى حديقة الحيوانات في لندن» .

حضور هؤلاء المستشارين كان استعراضيا بشكل محض ، لان نتيجة المؤتمر جاهزة مسبقا . «التكلم عن ترك الاشياء للرجل الموجود في مكان الحدث . لم نترك شيئا» ، كما كتب لورانس لاحقا .

افتتح تشرشل المؤتمر في اليوم التالي من خلال كتابته بطريقة منمقة مسودة برقية الى رئيس الوزراء . واعلن : «اعتقد انه يجب ان نصل الى قرار بالاجماع . . . ان فيصل يقدم أملا بالحل الافضل والأرخص» ، مضيفا انه واثق من ان لورانس قادر على إقناع فيصل اتخاذ الدور كرئيس للبلاد التي سنسميها الان «العراق» . في مناقشة الخيارات التي تلت ، ايد لورانس فيصل ضد أخيه الاكبر ، تماماً كما فعل نفس الشيء قبل اربع سنوات في الجزيرة العربية . بينما كان فيصل «شخصية ملهمة ومفعمة بالنشاط» ، عبد الله كان «اصلا كسولا ومسيطرا» ، هذا ما أصر عليه . ولانه ما من احد اخر من الحضور يمكنه الادعاء انه يعرف الأخوين جيدا ، لذلك وافقوا . اتجه تشرشل الى الأهرامات مع عدة التصوير الزيتي . وقد كتب سكرتير تشرشل العسكري الخاص : «لم نره مرة اخرى حتى حلول الظلام» .

في اليوم التالي اتجه تشرشل للتصوير مجددا ، انقسم الموظفون الى لجنتين ، واحدة تغطي الجوانب العسكرية والسياسية ، والاخرى المالية ، بداوا كلهم بعنونة تفاصيل الخطط لإدخال فيصل وتخفيض كلفة وجود بريطانيا في بلاد الرافدين . كانتا احد أطول أسبوعين عشتهما ، قال لورانس ، ووافقته على رايه جيرترود بيل . في اليوم الخامس عشر من شهر آذار / مارس تناقشت مع كوكس لصالح دولة عراقية تشمل الاراضي الكردية الشمالية الواقعة في الخلف ، ومع الوقت الذي عاد به تشرشل من الأهرامات مرة ثانية كان قد تم الاتفاق على هذا ، بالرغم من انه لم يكن تفضيله الشخصي . بعد يوم اخر من

التصوير في اليوم السادس عشر ، هذه المرة في دير على الجانب الشرقي من المدينة ، ارسل تشرشل برقية الى لويد جورج ليخبره ان مستشاريه الرئيسيين قد توصلوا الى «اتفاق كامل حول كل النقاط ، السياسية والعسكرية» ، وان هذا الادخار البالغ عشرين مليون جنيه في السنة ممكن من برنامج الدفاع الذي اقترحه ، الذي من خلاله اولا وقبل كل شيء ستحافظ القوات الجوية الملكية على السلام من خلال تهديد القصف الجوي . «أرجوكم أدركوا» ، رغب تشرشل في تذكير موظفيه ، «ان كل شيء يحصل في الشرق الاوسط هو ثانوي لدى مقارنته بتخفيض التكاليف» .

النقاشات الان تحولت الى فلسطين وترانس الأردن ، وهي الاراضي الخلفية حيث تخوف البريطانيون ان الفرنسيين يريدون توسيع نطاق نفوذهم فيها . تعقدت الامور هناك مع وصول اخ فيصل عبدالله شهر تشرين الثاني / نوفمبرالماضي ، وعندما جاء السير هيربرت صاموئيل من القدس لينضم الى المناقشات حاول التاثير على قرار تشرشل حتى يستلم الاراضي بشكل رسمي . في الايام التي تلت ، ناقش ان «احتمالية الخلاف في فلسطين لعدة سنوات حول مسالة الصهيونية» جعلت توسيع المنطقة لتنفيس التوترات في المناطق المجاورة بين العرب واليهود شيئا مرغوبا به .

لم يوافق كل من تشرشل ولورانس على فكرة صاموئيل . تشرشل كان مصمما على عدم إثارة عداوة عبد الله ، وناقش لورانس انه من الافضل استخدام ترانس الاردن على اساس انها صمام أمان ، مع تعيين حاكم يؤثر به البريطانيون ليكبحوا به معارضة العرب للصهيونيين . مرشحه الأمثل يجب ان لا يكون «قويا جداً ، وان لا يكون من سكان ترانس الأردن ولكن يعتمد على حكومة جلالته للحفاظ على منصبه» . عبد الله كان الرجل الذي في ذهنه . هذا الاقتراح لقي دعما من مجلس الوزراء في لندن ، والذي لم يحبذ البديل الذي قدمه صموئيل بسبب التكلفة الإضافية التي ستتضمنها . كما اشتكى

احد الموظفين ذو عقلية إمبريالية ، «فكروا فقط بالجنيهات» .

تم تنفيذ كل شيء مع حلول اليوم العشرين من شهر آذار / مارس . ركب تشرشل مع زملائه على الجمال في جولة الى الأهرامات ، حيث على طول الطريق ارتكس جمل تشرشل بسبب إصراره على زيادة سرعته فألقى به بعيدا . اتخذ تشرشل وضعية لالتقاط الصور مع بيل ولورانس امام ابو الهول . صور اخرى رسمية اكثر اتخذت في الفندق مع المساهمين في المؤتمر تظهره في وسط المجموعة ، مع لورانس من الخلف قريبا منه . ما هو مثير للملاحظة للغاية وجود عربيين فقط في الصورة ، واحدهما فقط كان عراقيا ـ جعفر باشا ، احد قادة فيصل فترة الحرب . بيل التي كانت تبدو محرجة لانها مضطرة للوقوف الى جانب أرنولد ويلسون ، الذي انتقل من خدمة الحكومة بشكل دائم الى توزيع الرواتب في الشركة الإنكلو ـ فارسية للنفط وفي الصف الاول على سجادة فارسية اسدان يتقاتلان بمداعبة .

ارسل لورانس برقية لفيصل مع أنباء جيدة . اخبره بان : «تجري الامور تماماً كما تمنينا» . «رجاء أبدء فورا بالذهاب الى مكة . . . مهما كان ضع اي شيء في الاعلام» .

ذهب تشرشل الى القدس في اليوم الثالث والعشرين ، متلقيا استقبالا صاخبا على حدود غزة من المتظاهرين يهتفون يسقط اليهود!» و«اقطعوا أعناقهم!» وفيما بعد اثناء زيارته قبل دعوة لزيارة مستوطنة يهودية ـ «تم دعوتنا لنأخذ عينة من النبيذ الفاخر تنتجه المؤسسة ، ولنتفحص جمال البساتين» ، كتب متأثرا ـ لكن الامر الملح هو من علينا ان نعين في ترانس الأردن . ذهب لورانس ليلتقي بعبد الله ويقنعه للعودة معه الى القدس ليلتقي بتشرشل . وافق عبد الله على اقتراح تشرشل انه قد يحكم الأردن ووعد بالمقابل التوقف عن محاولة خلع الفرنسيين من دمشق . لجعله يلتزم بكلامه ، حصر البريطانيون «عقده «المبدئي بستة اشهر .

تشرشل كان راغبا في الاصل بإعداد تصريح فورا لصالح فيصل والذي سيجعل كوكس قادرا على استبعاد منافسي فيصل المحليين المحتملين ، نقيب بغداد ، الزعيم الديني المسن لجماعة السنة في تلك المدينة ، وسعيد طالب ، قومي طموح اكثر شبابا من البصرة . لكن لويد جورج في لندن قلق من ان أنباء ان بريطانيا كانت تخطط لتعيين فيصل وعبد الله بنفس الوقت في دولتين جديدتين متجاورتين يمكن فقط تفسيره من قبل الفرنسيين بانه «تهديد لمكانتهم في سورية ، تم حبكها من قبلنا عمدا» . أصر ان المبادرة يجب ان ترى على انها جاءت من العراق .

لذلك ، عندما التقى تشرشل بمستشار غورو دو كييه ، اضطر الادعاء بطريقة لا يمكن تصديقها ان السياسة البريطانية ستكون «موجهة من قبل رغبات الشعب في العراق واي مكان اخر» ، رغم انه اعترف انه كان «مؤديا الى حل شريفي» . الحقيقة انه بينما سافر فيصل الى مكة للحصول على موافقة ابيه ، ارسل تشرشل كوكس وبيل الى بغداد في شهر آذار سنة ١٩٢١ مع تعليمات لتحريض ما وصفه بشكل مثير للاهتمام بانه «حركة عفوية تلقائية لفيصل في بلاد الرافدين كمقدمة لكونه حاصل على تشجيعنا» .

كانت مهمة بيل وكوكس معقدة لان النقيب وسعيد طالب كانا مشغولين في غيابهما . طالب الان قد ألقى بثقله على الاكبر سنا نقيبا ، أملا ان يرث اللقب منه عندما يموت . الوقت المتاح امام كوكس للتعامل مع هذين المنافقين قصير ، ولانه تم اخبار فيصل انه بإمكانه الاعلان في اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان / أبريل انه مستعد لحكم العراق . بناء على ذلك دعا كوكس طالب لشرب الشاي ، وعلى نحو مخالف لمبادئ اللعب العادل ، اعتقله عندما كان خارجا بعد الزيارة . طالب كان مقداما واسع النشاط في البصرة وسيلان بالكامل . حينها قام نائب القنصل البريطاني بالقبض على نقيب . لا بد من انه كان مشهدا مؤثرا عندما اخبر الزعيم الديني الوقور انه ،

كصديق ، شعر انه مضطرا ان يدعه يعلم انه في عمره الكبير هذا ومع صحته المتدهورة من الصعب عليه ان يتوقع منه قيادة دعم الناس القادة» .

قام الفرنسيون مرة أخيرة بتسميم عقول البريطانيين ضد مرشحهم الذين اختاروه . اواخر شهر نيسان / أبريل ، التقى السفير الفرنسي بكورزون وكشف عن رغبة فيصل ، السنة الفائتة ، بالعمل مع غورو ليناضل من اجل الحصول على الموصل من البريطانيين . الإفشاء لم يحقق تماماً الضربة التي تأمل الفرنسيون حصولها ، لانه عندما واجه تشرشل لورانس ليتاكد منه ، اخبره لورانس انه كان من المحتمل الى حد بعيد انه امر فيصل القيام بهذا الاقتراح في محاولة لربح موافقة فرنسية اثناء المفاوضات سنة ١٩١٩ والتي تم فترتها اللجوء الى أساليب ملتوية . عندما سمع رئيس الوزراء الفرنسي ان فيصل قد وصل الى البصرة بالرغم مما حصل . اتصل بالسفير البريطاني ليراه واخبره ان أنباء ان بريطانيا قد القت بثقلها خلف الرجل الذي حديثاً خلعه غورو «من الصعب ابتلاعها» .

وصل فيصل الى البصرة في اليوم الواحد والعشرين من شهر حزيران / يونيو متجها الى اعلى الفرات في رحلة تشبه تقريبا التقدم الملكي . لكن كوكس ، الذي رافقه الى اعلى البلد والذي وصف في احد التقارير بانه عميل فيصل الموظف لخدمة إنجاحه كمرشح في الانتخابات ، خيب ظنه الاستقبال الفاتر له في قلب ارض الشيعة حيث التمرد كان في أوج توتره ، لانه انقاد الى الاعتقاد على ان الشيعة مستعدون لقبول شريف في بغداد . في بغداد ، اثناء ذلك ، ركزت بيل على المهمة الأسهل لكسب الشعب السني . «تعرف اين انت معهم ، «كتبت» ، هم مهتدون ، حسب النور الداخلي ، لسبب ؛ بينما مع الشيعة ، مهما كان مرامهم وقصدهم واضحا ، في أية لحظة احد ما عليم متعصب جاهل قد يخبرهم انه بأمر من الله ومنه عليهم ان يفكروا بطريقة مختلفة» . الصعوبة التي يواجهها البريطانيون في ذاك الوقت - كما كان

العثمانيون من قبلهم - في التعامل مع الشيعة ان اغلب العراقيين يشعرون بانهم مهمشون من قبل حكومة السنة المسيطرة التي يقيمونها هم الان .

عندما عاد تشرشل الى لندن ، أخذ صبره ينفذ بازدياد . اثناء جولته الى الشرق الاوسط ، استلم وزير المالية أوستين تشامبيرلين مكان بونار لو ، لان قائد حزب المحافظين ويد لويد جورج اليمنى ، قد ترك الوظيفة التي رغب بها من دون شاغر . تشرشل ، بشكل طبيعي ، تأمل انه من الممكن في النهاية ان يعرض عليه منصب رئيس القضاة ، وعندما لم يحصل هذا ، كان ، حسب كلمات تشامبرلين ، «غاضبا مثل دب مصاب بألم في الرأس» . سئم من كم من الوقت استغرقت العملية في العراق ، الان ارسل برقية الى كوكس مخبرا إياه ان يستعجل . السياسة ، ذكر المندوب السامي ، كانت «ان تخرج موجة اخرى من الجند من البلاد لتخفيض النفقة على دافعي الضرائب» و«ان تضع فيصل على العرش في اقرب وقت ممكن» .

تم الاستفتاء العام باكرا من شهر آب / أغسطس .

فيما بعد بقليل كوكس ، عميل الانتخابات بدا انه عاد ضابطا ، كان قادرا على اخبار تشرشل ان التصويت كشف عن ان «اغلبية ساحقة تمثل ستة وتسعين بالمئة من الناخبين اعلنت موافقتها على انتخاب الامير فيصل ملكا على العراق» ، النتيجة التي تم حينها نشرها في اليوم الخامس عشر من شهر آب / أغسطس .

لكن عندما تم اعلان فيصل ملكا في احتفال من الصباح الباكر في وسط بغداد بعد ثمانية ايام ، ما كان هنالك من شك ان البريطانيين لا العراقيين هم صناع الملك . على جانبي فيصل كان كل من كوكس والجنرال هالدان . الاعلام ذات الألوان الأحمر ، الابيض ، الاسود ، الاخضر التي زينت الميدان كانت من تصميم بريطاني ؛ في غياب النشيد الوطني العراقي ، عزفت الفرقة

العسكرية البريطانية «الله يحفظ الملك» . بالرغم من ذلك ، عمل فيصل في خطابه على المقاومة بنجاح الاعتراف ببقاء احتفاظ كوكس بالسلطة كاملة . كلماته كانت» رقيقة جداً وبسيطة ومن القلب» ، هذا ما كتبته جيرترود بيل ، التي كانت تراقب في صف الحضور الأمامي . قالت ذلك براحة واضحة ، «شيء رائع ان ترى كل العراق ، من الشمال الى الجنوب مجتمعا معا» للموافقة عليه .

كما اقترح تصميم توزيع الأدوار ، تتويج العرب فيصل كان في البداية يتمتع بأهمية رمزية بشكل اساسي ، لكن في الشرق الاوسط كانت مغادرة مهمة ، وقد سممت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا . الشيء الذي خشي الفرنسيون من وقوعه ، قرار بريطانيا ترقية الرجل الذين طردوه للتو من سورية بسرعة قد حركت الآمال العربية من اجل تحقيق الحكم الذاتي في مكان اخر . وكما وضعها وهو غاضب السكرتير العام السابق للجنة اسيا الفرنسية : خائن وحانث ، قاتل الجنود الفرنسيين : هذا هو الرجل الذي حلفاؤنا البريطانيون قد رفعوه على العرش للتو»!

الفصل العاشر

ثورة الدروز

«استمر في الذهاب ، يا رجل! ادعس بقدمك!» صاح الجنرال غورو على سائقه ، عندما شقت الرصاصات طريقها في الهواء حولهم . كان ذلك اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٢١ ، وكان قد باغتهم للتو قتلة مرتدين ملابس الدرك السوري في الطريق الضيق كثير المنعطفات من دمشق الى القنيطرة في مرتفعات الجولان . مترجم غورو كان مسبقا مطروحا في الطريق ميتا وراءه ، ملقى خارج السيارة نتيجة طلقة اصابته في راسه . حاكم دمشق ، حقي بيه العظم ، أيضاً أصيب بجروح ، لكن فقط بشكل طفيف . اخترقت ثلاث طلقات نارية كم غورو ذا الذراع الواحدة الفارغة لكن ولا واحدة منهم إصابته ، او حتى جورج كاترو ، نائبه في دمشق الشاب الموهوب الكفؤ ، الذي كان جالسا في الخلف الى جانبه . زيارتهم للقنيطرة كانت مخصصة لتثبت على نحو مثير للسخرية ان الامر القضائي الفرنسي الان مطبق على كامل الطريق حتى الحدود مع فلسطين .

قبل يومين وصل فيصل الى البصرة ليبدأ رحلته الى بغداد ، وفي ذهن غورو توقيت الاعتداء يؤكد المخاوف التي اخبر تشرشل عنها في شهر شباط

/ فبراير ـ ان البريطانيين من خلال دعمهم لفيصل «يبنون بشكل تدريجي وممنهج وعلى مراحل» ، مثل فرانكشتاين ، وحشا سيلتهمنا في النهاية» . عندما عرض كاترو استقالته على غورو ، لانه شعر بمسؤوليته عن اختراق الأمن ، رفض الجنرال قبولها . بدلا من ذلك ، قال انه أراد من نائبه ايجاد القتلة . العواقب الاخيرة لهذه المطاردة ستكون متشعبة .

ركزت بسرعة تحقيقات كاترو على رجل اسمه احمد مريود ، الذي اعلن موت غورو باكرا من اليوم الذي تمت فيه المباغتة فيما بعد ، ومن ثم فر الى الجنوب الى ترانس الأردن حيث وجد ان توقعه كان الى حد ما سابق لأوانه . بإمان بعيدا عن متناول الفرنسيين كان يعيش مريود ـ ادعى كاترو ـ «تحت تساهل» الضابط السياسي البريطاني المسؤول عن منطقة الحدود . بعد ان احتج غورو الى السير هيربرت صموئيل على سفر مربود بالطائرة الى منطقة تعتبر تحت السيطرة البريطانية ، تم انتقاد البريطانيين بشكل استفزازي حتى يتخذوا موقفا فعليا . في شهر أيلول / سبتمبر قاموا بمحاولة للقبض على من كان على وشك قتل المندوب السامي ، وفشلوا عندما علم عبد الله بما كان يجري . كما استنتج ضابط سياسي مستاء ، ما من جدوى من محاولة اعتقال المشتبه بهم طالما يحميهم ابتاع عبد الله ، الا اذا كانت الحكومة البريطانية «مستعدة لبذل المجهود» .

لم تكن الحكومة البريطانية مستعدة لذلك . عندما أرسل تشرشل لورانس الى ترانس الاردن . في وقت لاحق من السنة لتقييم الوضع ، اقترح انه يجب إبلاغ الفرنسيين انه» بالرغم من ان إلقاء القبض على القتلة من دون شك شيء مرغوب به ، واحد وظائف الدولة . . . نحن في ترانس الأردن علينا اولا ان نصنع الحكومة ، ومن ثم نصنع رأي عام يستنكر الاغتيالات السياسية» . من وجهة نظره ، الاستسلام للضغط الفرنسي كي يطاردوا القتلة شيء «سخيف» في الوقت الذي فيه الفرنسيون انفسهم لا يتمتعون بشعبية . ما من

شيء يمكن ربحه من رؤيتنا ندعم النظام الفرنسي الذي كان بالكاد يمكن تمييزه عن النظام العثماني الاستبدادي الذي حل محله .

سنة ١٩١٥ ايتين فلاندين ، المحامي الذي تولى مهمة مناقشة حصول الفرنسيين على حكم سورية ، كان قد حذر بتعقل رجال بلده ان لا يعاملوا السوريين على انهم بدائيين ، وتوقع انهم سيحتاجون الى «تطبيق النظام في الادارة ، النزاهة والعدالة في القضاء والاستقامة في الشؤون المالية لكسب دعمهم . لكن ، بعد ستة سنوات ، عمليا الحكم الفرنسي في سورية ولبنان ظهر بانه على نحو متزايد تعسفي ، يعتمد على كرسي الاعتراف ، استغلالي وفاسد .

بعد ان استولى غورو على دمشق سنة ١٩٢٠ ، قام سكرتيره دو كييه بعرض الخيارات امام الجنرال بصراحة فظة . يمكن لفرنسا اما «بناء أمة سورية والتي ليست موجودة بعد . . .

من خلال تشذيب الشقاقات التي ما زالت تفرقها ، «كما اقترح» ، او رعاية وتعزيز كل المظاهر ، التي تتطلب تحكيمنا ، والتي تمنحنا إياها هذه الانقسامات . يجب ان اقول ان فقط الخيار الثاني يثير اهتمامي . وافق غورو . في شهر اب سنة ١٩٢٠ نقل ملكية قسما من الاعمال الاقتصادية والمدرة للارباح الى المسيحيين في لبنان في محاولة لتزلف الفئة الشعبية المسيحية التي تتمتع بأهمية هناك ، وقسم سورية الى اربع مقاطعات منفصلة التي تفصل دمشق عن حلب وميز أقليات الطائفتين العلوية والدرزية .

عبر غورو عن شكوكه من هذه الحركة على انها اعتراف باختلافات البلاد العرقية والدينية ، لكنها سرعان ما تم الاعتراف بها على اساس ما كان في الواقع :محاولة انانية لتفرقة القوميين الذين كانوا معارضين بشكل مباشر للانتداب الذي سيتطلب من فرنسا اعداد سورية ولبنان للحكم الذاتي .

اتهمه معلق فرنسي بالتعامل مع «بلد متحضر ومتطور مثل سورية . . . كأنهم يتعاملون مع قبائل الأطلس او السود في السودان» - هذا كان صحيحا ، لان غورو كان يستخدم تكتيكات تعلمها من معلمه هيربرت ليوتي في شمال افريقيا . جزئيا بسبب الغضب الذي سببه هذا التقسيم ، وجزء اخر بسبب تكلفة التقسيم التي ستسبب العجز المادي ، سنة ١٩٢٢ كان الفرنسيون مضطرين لإعادة توحيد ثلاثة ولايات من اصل الاربعة في اتحاد . فقط جبل الدروز بقي منفصلا .

بالرغم انه من الوهلة الاولى ، يبدو الفرنسيون انهم قد تعلموا درسا واحدا من خبرة بريطانيا في العراق . على عكس البلد المجاور بلاد الرافدين ، منذ البداية الحكومة في سورية كان لها غطاء عربي كمظهر كاذب او تمويه مظهر خادع لكنه مقنع ، في كل مقاطعة عين غورو حاكما عربيا مثل حقي بيه العظم . لكن البريطانيين وصفوا حقي بيه العظم بانه «حكيم ، مسن . . . جبان» ، ما يعكس حقيقة ان الجنرال البس او خول قوة حقيقية من خلال المستشار الفرنسي للحاكم العربي ، يسمى هذا المنصب مندوب والذي منحه حرية مطلقة في التعامل بفظاظة مع أعدائه ، بنفس القدر الذي مارسه الضباط السياسيون في بلاد الرافدين . نتيجة لذلك ، سرعان ما ترسخت ثقافة الغاية تبرر الوسيلة . ما ان حل البريطانيون مشاكلهم في بلاد الرافدين انتقدوا بعمق الطريقة التي أرهق بها الضباط الفرنسيون عن قصد معارضيهم وحسموا قضايا قضائية ضدهم ، كما انتقدوا السرعة التي كانوا يلجاؤن بها الى العنف اذا فشلت تلك «العقوبات الادارية» . يبدو انهم ما زالوا يحتفظون بالكامل بنظرة القرن الثامن عشر او التاسع عشر تجاه «اهل البلد» ، «كما قالها ضابط بريطاني بطريقة تهكمية بأواخر سنة ١٩٤٥» : مبدأ «دخان المدفع» النابليوني الشرير يبدو انه ما زال عقيدة راسخة» .

بالرغم من انكار كاترو ان غورو كان «أسير معتقداته» وادعى انه كان «مفعم

بروح التعاطف والاحترام للإسلام وحضارة العرب المنبثقة منه» ، النظام القانوني الذي فيه عمليا ما من كلمة مسلم تؤخذ ضد كلمة المسيحي في المحكمة يكشف الانحياز المتأصل في النظام الفرنسي . الاعتماد الفرنسي القوي على المترجمين اللبنانيين - لخصه ضابط بريطاني بانه حكومة من قبل «ضباط فرنسيين برتبة رقيب ومترجمين مسيحيين» - عززت الانطباع بالتحيز وبسرعة استبعدت الأغلبية المسلمة .

اعتقد رفيق لورانس فترة الحرب و . ا . ستيرلينغ : «ان سورية سلبت منها مواردها الاكثر تحقيقا للمرابح» حيث لاحظ ستيرلينغ ان سلع البلد المربحة والمحتكرة ملكيتها فرنسية والبنى التحتية للبلد بنيت من اجل «غايات استراتيجية لا من اجل المنفعة العامة» . والفساد كان منتشرا : لم يستغرق الكثير من الوقت قبل ان يكتب ديبلوماسي بريطاني تقريرا ان الموظفين الفرنسيين كانوا «ينتظرون هدايا سخية مقابل خدمات يقدمونها» . حتى كما علق كاترو ، «كنا في المشرق حيث ما من شيء يأتي مجانا» .

كما ناقش لورانس اثناء زيارته لترانس الاردن انه لم يكن هنالك من فائدة على الاطلاق من رؤية البريطانيين يدعمون الفرنسيين . لكن بينما كان لا يريد إطلاقا للفرنسيين ان يسيطروا على سورية ، أدرك معاصروه انه كان هنالك فائدة حقيقة من وجود منافستهم التي لا تتمتع بشعبية في سورية ولبنان بالجوار . ليس فقط الوجود الفرنسي يجذب وطأة الغضب العربي ؛ أيضاً يجعل البريطانيين يبدون على نحو إيجابي يشعون نورا لدى مقارنتهم بالفرنسيين . صاموئيل ، المندوب السامي في فلسطين ، وضعها بشكل ساخر : «مهما كان الانتقاد في فلسطين للادارة البريطانية ، ربما لايوجد هنالك منتقد عربي واحد يتمنى ان تستبدل بالادارة الفرنسية» . رغب في ان يذكر العرب الفلسطينين انه ، عندما تنسحب بريطانيا من فلسطين ، تقريبا بشكل اكيد سيستلم مكانهم الفرنسيون . قال انه كان «احد الأسباب القوية التي تقودهم

الى عدم معارضة ممارسة الانتداب البريطاني بشكل جاد» .

بسبب رفض البريطانيين مساعدة الفرنسيين البحث عن قتلة غورو ، كان الفرنسيون مضطرين على حصر جهودهم بالمنطقة التي يسيطرون عليها . اثناء سنة ١٩٢٢ ، استلموا توجيها جديدا من الحاكم الذي عينه غورو في جبل الدروز ، سليم أطرش ، الذي اخبرهم ان احد مهاجمي غورو عند احد أقاربه ومنافسه ، سلطان أطرش . قام الفرنسيون بمداهمة بيت سلطان والقوا القبض على المشتبه به ، لكن القافلة من السيارات المدرعة التي أرسلوها لتصطحب السجين للعودة الى دمشق تم مباغتها من قبل سلطان وقتل الضابط الفرنسي . عقب زخرفة من المبالغات للقصة ، تروي القصة ان سلطان البالغ من العمر واحد وثلاثين سنة شخصيا قام بقطع راس الفرنسي تعس الحظ بضربة واحدة من سيفه . هذه كانت مقدمة التعارف الدموية بين فرنسا وسلطان أطرش ، الرجل الذي سيرهقهم في السنوات الخمس القادمة .

كان سلطان مصدر تهديد للفرنسيين حتى بعد عشرين سنة . عندما التقى المستكشف والجندي البريطاني ويلفريد ثيسيغر بسلطان أيقظ فيه» بطل صباه» سنة ١٩٤١ ، كان مسرورا برؤيته حتى في منتصف العمر قد فاق سلطان توقعاته . «وجهه ، مطوق بوشاح للراس ابيض اللون ، كان قاسيا حاسما ؛ جسمه ملفوف بثوب اسود من أجود انواع الأنسجة ، كان هزيلا ومنتصبا» ، كما تذكر ثيسيغر . تظهر صورة من فترة العشرينيات سلطان .

في ذلك الوقت عندما كان مطاردا حذرا ، يحدق بقلق في الكاميرا . متباهيا بشنبه الظريف الذي يلائم مكانته في ذلك الوقت كهارب لم يحلق ذقنه لعدة ايام .

اعدم الاتراك والد سلطان الأطرش عندما تمرد الدروز اخر مرة سنة ١٩٠٩ ، وفي اوج الثورة العربية انضم الى فيصل ولورانس لطرد العثمانيين من دمشق .

لكن الدروز والبدو لم يكونوا ذات يوم حلفاء بالطبيعة ، وبعد ان دخل سلطان دمشق مع العرب في اليوم الاول من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ في الحال بدا قتال مع احد مؤيدي فيصل الرئيسيين من البدو ، عودة ابو تايه ؛ كان لورانس هو الذي فرق الطرفين ، لكن ليس قبل ان يصفع سلطان عودة على وجهه . أعاد لورانس سلطان الى الجبل خارج المدينة قبل ان يتسبب بضرر اكبر .

بعد ثلاث سنوات ، بقيت عائلة الأطرش الاكبر والاكثر قوة في جبل الدروز ، السهل المرتفع والخصيب جنوب شرق دمشق اسمه مستوحى من الشعب الذي يعيش فيه المستقل المعتمد على نفسه بتعنت هناك منذ اكثر من ستين سنة . بطريقة تخدع يبدو جبل الدروز غير مثير للاهتمام عن بعد ، «جبل الدروز كان في الحقيقة قلعة طبيعية . بركاني بالأصل ، يدين بأمنه من الجانب الشمالي الى حقل الحمم البركانية المتناثرة وتدعى «لاجا» ، شبكة من الممرات المعقدة من المنحدرات والمغارات التي تزود بعدد لا متناهي من الفرص لمباغتة المتطفلين غير المرحب بهم ، كذلك كمخبا للرجال المطلوبين . الى جهة الجنوب تحميه هنا الحدود الضبابية مع الأردن ، والتي لا يستطيع الفرنسيون الوصول لها من دون تخطي المنطقة البريطانية وإثارة مشكلة ديبلوماسية مع جيرانهم . درجة حرارة ضارة جداً في الصيف وشتاء رطب قاسي يزودان بحماية إضافية ضد المعتدين . استفاد الدروز من الجبل كملجأ بسبب طبيعته الحجرية المعتمة القاسية . وكما يعتقد ضابط فرنسي انه ما من احد افضل من الدروز «في الاختباء بين الصخور ، الشجيرات ، واستخدام الارض لمفاجأة عدوهم والقضاء عليه بضربة قاضية» .

تم تسمية الدروز على اسم رجل يدعى درازي ، مبشر جاء الى لبنان قبل حوالى الف سنة لينشر كلمة ان الخليفة الفاطمي الشيعي في ذلك الوقت ، الحكيم ، هو الله . نظر اليه المسلمون الآخرون على انه مهرطق . بقي وجود الدروز منعزلا في جبل لبنان حتى فترة ١٨٦٠ ، عندما فروا للأراضي الداخلية

للجبل بعد مجزرة المارونيين المسيحيين خوفا من ان ينتقم الفرنسيون. بالرغم من انهم بعد ذلك طلبوا حماية البريطانيين، الا انهم يتمتعون بسمعة قوية انهم ولدوا محاربين ورماة ممتازين. منذ اكثر من الف عام وهم يراكمون سلسلة من المعتقدات السرية، اكثرها لفتا للنظر، على الاقل ما يراه من هم من الخارج، الاعتقاد بالتقمص الذي منحهم شهامة عدم الاكتراث بالموت. قال احد الناجين من هجوم الدروز بانه هجوم «مثل الارض تنزلق بحد ذاتها كانها تنهال، خمسة آلاف منهم على الأحصنة وعلى الأقدام... يلوحون بأسلحتهم وأصواتهم تهدر وهم قادمون، وفي مقدمتهم اربعة رايات سوداء على طرفي الامير». عزز دين الدروز وعزلتهم الجغرافية بعضهما. المجتمع في الجبل كان إقطاعيا، واحد الأمراء الدروز بقي يذهب الى المعركة مرتديا السترة المعدنية (مثل العصور الوسطى)، بالرغم من ان اتباعه المتمسكين اكثر منه بالأعراف والتقاليد مسلحين بالبنادق الحديثة والقنابل اليدوية.

كان العثمانيون يحترمون سمعة الدروز المهيبة، واعفوهم من الضرائب والخدمة العسكرية، والفرنسيون في البداية فعلوا مثلهم، ولكن عندما مات سليم أطرش في شهر أيلول سنة ١٩٢٣، لم يقاوم الفرنسيون محاولة وضع الجبل تحت سيطرة اكثر أحكاما، ليس فقط لأنهم يعرفون ان الدروز يحافظون على اتصال وثيق مع البريطانيين. عندما فشلت اسرة الأطرش بالاتفاق على خلف لسليم، ادخل الفرنسيون حاكمهم، ضابط شاب ذو مظهر صارم اسمه غابرييل كاربيليه الذي خدم في السابق غرب افريقيا الفرنسية.

وصف بأنه «روبسبيير من دون المقصلة». اتجه بحماس كاربيليه لإضعاف قبضة عائلة الأطرش في الجبل من خلال شق الطرقات، بناء المدارس، أنظمة الري، ومحكمة الاستئناف في بلدة الجبل الرئيسية السويداء. لتنفيذ هذا استخدم عمال الزاميين - حكم على احد افراد اسرة الأطرش بتكسير الحجارة. بعد مدة سنة من الاعمار وسط جو من اللهو

والمرح ، وحتى الان ما زال لا يتمتع بشعبية بعمق ، أخذ إجازة ممددة في وقت مبكر من سنة ١٩٢٥ . فاختار سلطان أطرش تلك اللحظة ليقدم شكوى شديدة ضد الرجل الفرنسي الذي نشاطه مفرط وقدمها للمندوب السامي في بيروت .

المندوب السامي ، البالغ من العمر تسعة وستين جنرال سابق اسمه موريس ساراي كان رجلا وجهه بلون القرميد وطبع يتطابق معه . وصل الى بيروت في بداية شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٥ ، في وقت كانت السياسة الفرنسية المحلية في وضع مضطرب . حيث قاد في اخر الامر تضاعف ديون الحكومة الفرنسية في السنوات الخمس منذ نهاية الحرب الى طلب ملح ومستمر للفرانك سنة ١٩٢٤ .

هذه المشكلة المالية ساعدت على الإطاحة بحكومة ريموند بوانكاريه الصارمة بكلامها ، التي احتلت الروهر ، عندما أثبتت المانيا انها غير قادرة على تسديد تكاليف الاصلاح المطلوبة منها في مؤتمر باريس للسلام . فاز بالانتخابات أدوارد هاريوتس كارتل دي غوش في شهر ايار / مايومن تلك السنة مع شعارات تتضمن «مع السلام» و«ضد سلطة المال» ، لكن محاضر الجامعة السابق فشل في إيقاف هبوط الفرنك .

على نحو غير اعتيادي بالنسبة لضابط جيش كبير ، أيد ساراي جهارة الجناح المتطرف هاريوت ، وادعى العديد من أعدائه ان تعيينه في بيروت كان مكافأة لدعمه . لكن هذا ليس عدلا أبدا . لطالما كان ساراي ناقدا صارما لسياسة الحكومة القومية في سورية لانها فادت فقط «حفنة من المموليين والتجار» واعتمدت على دعم الكنيسة الكاثوليكية ، المحفل الذي كان يستخف به ، مثل العديد من الاشتراكيين» . لا ابه بك او بقداسك ، «اخبر رئيس النظام الرهباني الرئيسي لدى وصوله ، عندما تم دعوته الى الصلاة العامة ليمنح بركة الكنيسة» .

ارسل هاريوت ساراي الى بيروت ليعكس السياسة التي يستنكرها الجنرال ، وليتقرب من الغالبية المسلمة . المشكلة كانت انها كانت تغيير كامل للتوجه مفعم بالخطر» . التخلي عن الدعم المسيحي المتين والذي استغرق منهم سنين ليبنوه لصالح دعم المسلمين البعيد الاحتمال بشدة في الحقيقة والغير مضمون ، بالكاد يبدو بانه حركة حكيمة» ، كما كتب ضابط اتصالات بريطاني مع الجيش الفرنسي ، غاي ساليسبري- جونز . وصول ساراي الفظ جعل المهمة اطول . اعتقد ساليسبري ان ساراي قد فقد ثقة اغلب رفاقه أبناء بلده وكل المسيحيين «قبل ان يمضي من الوقت في البلد اربع وعشرين ساعة» .

بسرعة تعثر ساراي عندما حاول منع توظيف جنرال كاثوليكي من المحافظين ليصبح حاكم لبنان . لانه اقترح ان مجلس النواب اللبناني الهيئة من دون سلطة حقيقية التي أنشاها غورو ، يجب ان يختار ثلاثة مرشحين آخرين كبديل لهذا الوضع ، اعترض على قائمة المرشحين التي اقترحت في ذلك الحين . عندما رفض احد الثلاثة ، محامي ذكي من بيروت اسمه اميل اده الذي شعر بانه مقرب جداً من الكنيسة ، توقف المجلس عن التعاون معه وكان مضطرا لفرض حاكم فرنسي عوضا عن ذلك . خطته لإرضاء القوميين من خلال عرضه عليهم انتخابات مباشرة في ذلك الوقت انهارت عندما ، هناك من باريس ، رفض هاريوت الموافقة عليها ، ومع الوقت زار دمشق في شهر شباط حيث قوبل بصمت مدقع . لم يكن هنالك ترحيب ، ولا ابتسامة ، ولا حتى تهليل من الحشد «الذي شهد وصوله ، حسب احد شهود العيان . عندما في ذلك الحين انهارت من الداخل حكومة هاريوت ، فجأة اصبح عرضة للخطر . لا ينقصه فقط الان دعم باريس ، لكنه كان في موقف مثير للبغض لانه مكروه من قبل كل من المسيحيين والمسلمين ، والأهم من هذا وذلك من قبل موظفيه ، الذين آراءهم كانت مختلفة جداً عن آرائه ؛ وهذا هو

الشيء الذي سوف يسقطه في النهاية .

كان اعتقاد سلطان أطرش ان ساراي في ورطة ، هو الذي جعله يفكر ان هذه اللحظة المناسبة ليقدم الشكوى ضد سلوك كاربيليه . ولكن عندما وصلت جماعة من الدروز الى بيروت ، رفض المندوب السامي مقابلة المجموعة . مع سلطته في انحسار ، ربما اعتقد الجنرال انه اختار قتالا سهلا سيساعد على ترميم وضعه . فضلا عن ذلك ، السكرتير الرئيسي المصروف في نهاية خدمته دو كيبيه وصف الجبل بانه «ذو اهمية ضئيلة» ووطن «لحوالى فقط خمسين الف قاطن» . ما لم يعرفه بعد الفرنسيون انه حوالى العشرة آلاف منهم قد يكونوا مسلحين .

عندما في بداية شهر تموز / يوليو سنة ١٩٢٥ تم اطلاق النار اثناء احتفال للدروز في السويداء في الجبل ، امر ساراي رئيس المخابرات في دمشق ، تومي مارتن ، بتولي المسالة . عندما اكد مارتن ان هنالك ثورة على الأبواب ، أمره ساراي دعوة الزعماء الاربعة الدروز الرئيسيين الى دمشق . ثلاثة من الاربعة قبلوا الدعوة ، ووجدوا انفسهم مسجونين لدى وصولهم الى العاصمة . الرجل الوحيد الذي لم يقع بالفخ الذي نصبه ساراي كان سلطان أطرش : خضع أبوه لنفس الخدعة بالضبط ، وكلفته حياته .

في رأي ساليسبري ، الخدعة التي قام بها ساراي «خدمت فقط في تكويم الفحم على النار» . بعد تسعة ايام ، في حالة انتقام ، استولى سلطان أطرش على قرية صلخد جنوب جبل الدروز . مرة ثانية ، استخف ساراي بمعارضيه . عكس نصيحة كاربيليه امر ضابطا حديثا اسمه نورماند ان ينطلق من السويداء ، مع فقط مئة وستين رجل ، لاستعادة صلخد . لكن نورماند لم يصل الى هناك أبدا . لانه تجاهل تحذيرا من شيخ ودود ان هجوما سيقع في وقت قريب ، تم مباغتهم في منتصف الطريق الى صلخد من قبل سلطان .

انصدم الفرنسيون بالتحديد ان بين الموتى طبيب فرنسي معروف جيدا من قبل الدروز ، الذي كان يعالجهم بشكل منتظم . رجل اخر كان قليل الحظ نورماند . اقل من نصف رجاله نجا من الموت . استفاد سلطان من نصره ، مستعجلا الى الشمال الى السويداء ، التي طوقها في اليوم الثامن والعشرين من شهر تموز / يوليو .

الأسوأ كان أتيا على فرنسا . بعد خمسة ايام قوة فرنسية ثانية ، تحت قيادة الجنرال روجر ميشو ، بدات رحلتها من سكة الحديد جنوب دمشق لفك الحصار . تتألف من حوالى ثلاثة آلاف رجل ، هذه القوة اكبر من الاولى ، لكن هذه القوة الكبيرة تم تشكيلها على عجل نتيجة تلك الظروف التي أدت الى جمع الجند مع بعضهم من دون تعارف : احد وحداتها قامت فقط بالنزول في بيروت . حجمها أيضاً اثبت انه ضعف . لان تلك السنة كانت حارة الى اقصى درجة ، اجبر الجنود على أخذ المياه معهم بالشاحنة ، الى الاعلى من خلال الطريق الوحيد القابل لعبور الحافلات الى الجبل . نتيجة لذلك قافلة القوة العسكرية لم تكن فقط بطيئة ؛ كل طريقها كان متوقعا . قدم عاملون في سكة الحديد متعاطفون مع الدروز نصيحة لهم بان يباغتوا ويطلقوا العيارات النارية على شاحنات المياه .

قال ميشو لاحقا انه أبدا لم يرى في كل حياته المهنية ، جيوشا تعاني لهذه الدرجة من الحرارة . خاف عندما رأى رجاله يطلق عليهم الرصاصة وهم بعطش يشربون المياه المنبثقة من الثقوب التي سببها الرصاص في الشاحنات ، بدلا من القتال ، قرر العودة على بعد اقل من ستة أميال من السويداء ، لكن قوته كانت حينها قد تم مباغتتها مرة ثانية وتحول التراجع المنظم بسرعة الى هزيمة نكراء . قتل اكثر من ستمائة فرنسي . بينما على نفس المستوى من الاهمية ، ربح الدروز حوالى ألفي بندقية ، مدافع رشاشة وذخيرة . فقط حتى وقت متأخر من السنة حتى تمكن الفرنسيون من الوصول

الى الموقع» . كان منظر كارثة» ، كما نقل الصورة احد الضباط . في كل مكان كان هنالك عظام وجثث متفسخة نتيجة تراب المشرق الجاف . هنا سيارات ملتوية مع دواليب مثقوبة ، هناك شاحنات محترقة انسحقت حتى اصبحت هياكلا ، بالاضافة الى سيارات مدرعة مخربة ، والى جانبهم ، أجساد فريق العمل» .

استدعى الامر محاولة ثالثة من اجل تحرير السويداء . بقيادة جنرال بديل عن ميشو اسمه موريس غاmولين الذي يتسم برصانة عقله . غامولين ، رجل معتدل متقاعد الذي يتمتع بدرجة فائقة من الجدارة والخبرة ، صنع اسمه في معركة في مدينة المارن سنة ١٩١٤ التي أوقف فيها الفرنسيون الألمان من التقدم الى باريس . وصل في منتصف شهر أيلول / سبتمبر ، وأقام مركز قيادته قرب سكة الحديد غرب جبل الدروز يوم الثاني والعشرين . بعد يوم واحد بدا رحلته مع قوة ضخمة تتألف من سبعة آلاف جندي ، متضمنة فرقة فيلق الخارجية ، في الجبل .

حرروا الحامية الفرنسية في السويداء من دون صعوبة في بعد ظهر اليوم التالي . بسبب نقص الطعام والماء لم يكن امام غامولين من خيار سوى الانسحاب بعد ان هدم القرية . هبوط الشتاء القارس باكرا جعل من المستحيل اعادة تعزيز الوجود الفرنسي في قلب الجبل . لن يعود الفرنسيون الى الجبل حتى الربيع التالي .

شجع الضعف الفرنسي الظاهر للعيان انشقاقيين آخرين .

بدأت الان المشاكل في حماه ، سوق تجارية على نهر العاصي مئة وسبعين ميلا جهة الجنوب . زعيمها فوزي القاوقجي ، درك سوري اشقر متوهج حارب في الجيش العربي الذي هزمه الفرنسيون في ميسلون خارج دمشق سنة ١٩٢٠ . الان متأثرا بالمتمردين العرب الذين احتلوا المنطقة الفرنسية في

المغرب والان يقومون بمقاومة عنيفة للفرنسيين في جبال الريف ، رتب القاوقجي لقاء مع سلطان أطرش ، في اليوم الرابع من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٥ بدأ تمردا ضمن درك حماه . بالرغم من ان هذا التمرد اخفق بسرعة تحت المدفعية الفرنسية والقصف الجوي الذي قتل اربعمئة مدني ، عاش ليقاتل يوما آخراً ، والمثال الذي جسده سيثبت انه مثير للعدوى .

لم يكن القاوقجي هو الوطني الوحيد الذي استمد القوة من مثال الدروز : كذلك أيضاً فعل عبد الرحمن الشهبندر . طالب نجم في الجامعة الاميركية في بيروت ، تخرج الشهبندر الاول بشهاده في الطب ، لكن البلاغة والخطابة هي التي كانت حينها سبب علامته . لانه هرب من سورية وأمضى الكثير من الحرب العالمية الاولى في مصر حيث نال عطف البريطانيين ، عاد الى سورية عقب الهدنة ؛ عمل مترجما للمندوب الأميركي شارلس كرين ، ومن ثم ولفترة قصيرة وزيرا للخارجية ايام فيصل . عندما عاد كرين الى سورية سنة ١٩٢٢ وألقى خطابه في دمشق ، ترجم الشهبندر ترجمة فورية ، محولا فيها كلام الأميركي غير المؤذي الى انتقاد قوي للحكم الفرنسي . اتهم بالتهييج ، تم سجن الشهبندر وارسل للمنفى قبل ان يتم العفو عنه سنة ١٩٢٤ . لكنه لم يفقد تصميمه حتى يرى الفرنسيين مطرودين من وطنه ، وعندما قامت ثورة الدروز رأى فرصته . ولانه التقى بالدروز اعلن سلطان أطرش ملكا على سورية ومن ثم أخذ الى الغوطة القوميين الذين هربوا من التطهير الفرنسي ذاك الصيف ، الغوطة هي أدغال واسعة من البساتين المزروعة بكثافة جنوب شرق دمشق والتي كان من السهل ان تختبئ وتعيش بها العصابات .

بعد ان بدأ هؤلاء المطاردون جعل السفر الى ومن دمشق فيه مخاطرة ، حاول الفرنسيون طردهم من خلال حرق وقصف القرى في البساتين . في محاولة أخطأت التقدير بشكل مذهل والتي كانوا يريدون من ورائها البرهنة على انه بامكانهم النجاح ، ولتثبيط همة ثوار آخرين محتملين في دمشق ،

احضروا جثث هؤلاء الذين قتلوهم الى المدينة وعرضوهم في الساحة الرئيسية . فرنسية مغتربة تعيش هناك ، أليس بولو ، روعت من منظر الخط المرتب من الأجساد المحاطة بالجنود ، درك ، ورئيس الشرطة مع سوطه . للحظات ضاعت منها الكلمات ، لقبت في النهاية ما رأته «نظام الجزمة» .

أدت هذه الحركة الى فشل في تحقيق الغاية المرجوة منها ، والتي زادت من التعاطف في المدينة مع المعارضين للفرنسيين . كتبت بولو ، انه كان هناك زيادة مربكة في عدد السوريين الذين رأوا انه «اذا كنت ستموت بكل الأحوال ، يمكنك أيضاً ان تموت وانت تقاتل» .

ازدادت الهجمات على الجنود الفرنسيين . بعد بضعة ايام القي جثث اثني عشر جندي خارج باب المدينة الشرقي . في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الاول ظهر مجددا الدروز في الميدان ، الضاحية التي تدب بها الفوضى الواقعة في جنوب المدينة الى جانب سكة حديد الحجاز . هذه الساحة الرئيسية الفقيرة جدا كانت متوترة اصلا : باكرا من ذلك اليوم قتل جنديان فرنسيان دمشقي مسلم بعد شجار ، وهناك قامت مظاهرة منفصلة بعد ان تم دهس طفل بالترام . أنباء ظهور الدروز سببت هيستيريا . الصياح ، «أغلقوا المحلات ، الدروز قادمون» ، انتشرت في المدينة . تم مساعدتهم من قبل المتعاطفين الوطنيين من بينهم حارس ليلي سابق للمدينة حسن خراط ، تأمل الدروز خطف ساراي من مقر إقامته في بيت دمشقي كبير ، قصر العظم ، لكن المندوب السامي ترك باكرا من ذاك اليوم . مع حلول الظلام كان القصر مشتعلا ، ارسل الفرنسيون دبابات الى الاسواق في الحارات الشعبية ، وهدير اطلاق النار المكثف كان يتضارب مع نداء الصلاة عبر المدينة .

غير مستعد للمخاطرة بجنده في قتال مهلك من شارع الى شارع ، في اليوم التالي لجا غامولين الى قوة المدفعية لاسترجاع المدينة القديمة من يد المتمردين . في الأربع وعشرين الساعة التالية قذائف فرنسية مكثفة دمرت

اغلب الحي التجاري القديم ، سببت خرابا في الميدان جنوب جدار المدينة . على الصعيد الرسمي ، وضع الفرنسيون ان معدل الوفيات مئة وخمسين ،لكن اعتقدت الصحيفة الفرنسية الاشتراكية ان الرقم كان قريب من الف وأربعمائة قتيل . زعم الفرنسيون ان اغلب الاضرار قد تسبب بها المتمردون المسلحون ، لكن روايتهم للاحداث سرعان ما تناقضت مع رواية مراسل «التايمز» ، الذي خاطر بذهابه الى قلب المدينة فيما بعد بفترة قصيرة . الاضرار «بيت تلو الاخر ودكان تلو الاخر «كما كتب لاحقا «من دون مجال للشك بفعل القذائف» . فيما بعد بفترة قصيرة رسوم كرتونية بدات تنتشر في دمشق تصور ساراي عملاقا يقتل النساء والاطفال محاولة منه لطرد خراط من مخبئه ، حيث اصبح حاميها حراميها ما ساعد الثوار على التسرب الى المدينة .

علاقة فرنسا مع السوريين التي سعى ساراي الى تحسينها ، كانت متضررة بطريقة يصعب معها الاصلاح او التعويض . كما وضعها نائب القنصل البريطاني في دمشق جون فوغان راشل ، من الصعب رؤية كيف هيئة الانتداب الحاكمة ، بعد كل البغض والمرارة التي أثارتها ، يمكن لعدة سنوات ان تجد أي سوري مسؤول يتعاون من قلبه معهم في مهمة حكم البلد .

بسبب الفشل الواضح ، كان ساراي حتى الان في موقف مقلقل للغاية . سرب ضباط مخابرات في طاقمه وثائقا الى هنري دو كيريليس وهو مراسل أرستقراطي في الصحيفة القومية «أيكو دو باريس»الذي كان في سورية في ذلك الوقت . في اليوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الأول / اكتوبركتب كيريليس ان المندوب السامي قد تجاهل التحذيرات ان المشاكل تتخمر في جبل الدروز . ألقى لوم مشكلة فرنسا على ١ ساراي ٢ ساراي ٣ ساراي» .

بعد التسريبات طرد المندوب السامي المحاصر اغلب طاقم المخابرات العامل لديه ، لكن محاولته ، نتيجة مخاوفه وإحساسه بالاضطهاد ، لتجنب وصول اوروبا أنباء سيئة ، كانت غير فعالة كما هو متوقع . عندما أبلغت التايمز

قصة القصف في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأول / اكتوبر ، بعد عدة ايام من توقيع الحكومة الفرنسية الجديدة معاهدة لوكارنو ـ «المصممة لتأكد تعزيز السلام» ـ بعد ان أتم ساراي مهمته . في اليوم الثلاثين تم استدعاءه الى باريس بعد ان فقد الثقة الممنوحة له .

كان ساراي كبش فداء مفيد للكوارث الفرنسية ، لكن سلوكه لا يمكنه الاجابة على عدة أسئلة جوهرية . هي كيف كان الدروز منظمين جيدا؟ من اين حصلوا على المعلومات والاسلحة التي مكنتهم من مباغتة الفرنسيين ، والطعام الذي ابقاهم في ساحة المعركة؟ وكيف كانت التايمز على اطلاع جيد جداً بما كان يحدث؟ الرجال الفرنسيون الذين تأملوا مليا بتلك الأحاجي ، وجهوا اصبع الاتهام الى اتجاه واحد : الجنوب ، الى بريطانيا .

الفصل الحادي عشر

القضاء على الدروز

ما ان بدات الثورة في شهر تموزيوليو سنة ١٩٢٠ في سورية ، حتى أخذت تتناقل إشاعات غامضة عن ايدي خفية وراء ثورة الدروز . حتى شهر آب / أغسطس انتشر كلام ان تلك اليد بريطانية . «قيل علنا» ، كما كتبت أليس بولو ، الفرنسية المغتربة التي تعيش في دمشق ، «ان الإنكليز أعادوا إمداد الدروز ، واعطوهم ، مقابل كل ليرة ذهب ، بندقية ، مئة رصاصة وكيس طحين» .

بطريقة ما حصل الفرنسيون على مذكرة كتبتها جيرترود بيل ، علقت فيها : «انه الدرزي هو من سيمكن أخوتهم السوريين من طرد الفرنسيين» . ولانهم كانوا مقتنعين ان أولوية بريطانيا هي طردهم ، تبع ذلك من تقييم بيل ان البريطانيين منطقيا هم من كانوا يزودون الدروز بالمساعدة .

»بريطانيا» قدمت تفسيرا سهلا للضربات التي كان يعطيها الدروز المنظمون جيدا للقوات الفرنسية في الجبل . المندوب السامي المصاب بعقدة الاضطهاد بشكل متزايد موريس ساراي ، كان مقتنعا ان سلطان أطرش قد ذهب ليلتقي بالوكيل السياسي البريطاني في عمان بعد فترة قصيرة من

بداية الثورة . اخبر صديقا ان لديه دليلا عن التورط البريطاني وبناء على ذلك توصل الى قرار ، مفسرا تودد ضابط الاتصالات البريطاني ، غاي ساليسبري - جونس ، بانه دليل على الإحساس بالذنب . حتى ضابط فرنسي رصين مثل كولونيل اندريه ، يد غامولين اليمنى في دمشق ، كان يعتقد ان بريطانيا كانت تمول الثورة التي ارسل لقمعها . «لم ينقص العصيان المسلح المال» ، أشار اندريه بخبث في مذكراته عن الثورة . «جاءت بكميات كبيرة عبر الحدود ، مع تشجيع ونصيحة هؤلاء الذين دائماً يتأملون ان تترك فرنسا سورية» .

قنصل بريطانيا في دمشق ، ولتر سمارت ، كان على دراية كافية «بازدياد هام لشدة الشعور المعادي للبريطانيين في ذلك الوقت . سمارت رجل طويل نحيل بشعر يميل للطول وبطبع خجول وآراء طليعية - كان ديبلوماسيا مظهره لا يوحي بانه ديبلوماسي ، لكن هذه الملكات المصقولة أخفت مضاء اكثر صلابة بالكامل . يتمتع كما وضع العبارة بنحو رائع احد أصدقائه ، «بأناقة السرعوف (نوع من انواع الجراد) الى اقصى درجة» ، ووصف اخر بانه رجل مع» إدراك تام وإرادة حديدية «الذي سيصبح في النهاية «اخر كاهن رفيع المستوى للقوة البريطانية في الشرق الاوسط» . تعامل سمارت مع عدوانيته على انها لا قيمة لها ، وألقى اللوم على الطريقة التي ولد بها عدم استقرار فرنسا السياسي والاقتصادي «إدراكا غامضا عاما لعجز فرنسا في عالم اليوم و . . . الإدراك الحانق لهذا التقدم الذي لايمكن تجنبه للهيمنة الإنكلو - ساكسونية» . جزئيا بسبب فشل علاقات سمارت مع الفرنسيين ما دفعه بازدياد الى الاعتماد على الدروز للحصول على المعلومات ، وبالسر كان على اتصال مع القوميين الذين ينظمون الثورة . الاتصال مع الثوار لم يكن على وجه التحديد مهمة صعبة ، لان احد القوميين الرئيسيين كان يعيش في بيت مجاور للقنصلية ، لكن رغم ذلك ساليسبري جونس كان متفاجئا عندما اطلعه سمارت على «وثيقة ذات اهمية الى أبعد حد وصلت له ، تعطي الدروز

أمرا بخوض المعركة» . حتى لم يحاول مفوض سمارت فوغان راشل إخفاء تعاطفه مع المتمردين ، واصفا «كفاحهم القاسي والشهم ضد الاحتمالات التي لا امل منها» . ضابط بريطاني اخر ميال للفرنسيين اتهم الديبلوماسيين البريطانيين الاثنين انهما توحدا في «بغضهما للفرنسيين» .

لذلك ليست مفاجأة عندما اعتقد الفرنسيون ان سمارت متحالف مع الدروز ، وبالرغم من عدم صحة ذلك حاول القنصل البريطاني خلق مشاكل للفرنسيين في سورية . لان أولوياته إيقاف انتشار الاضطراب جهة الجنوب جهة فلسطين وترانس الاردن ، كان مصمما على رسم صورة ثورة الدروز على انها ردة فعل ضد الحكومة الفرنسية السيئة . فسر فوغان راشل التفكير داخل القنصلية بدقة ان خوفه الأعظم «اذا أعطي اهمية كبيرة لعبارة «التعاون الإنكلو ـ فرنسي في الشرق الأدنى» ـ العبارة التي يحب الاعلام الفرنسي تكرارها في كل فرصة ـ هذا الكره المعادي للفرنسيين قد ينتشر وفي النهاية يرتبط بالمسلمين الذين هم تحت مناطق انتدابنا ، ويتطور الى شعور معاد للاستعمار (من ثم معاد للبريطانيين)» . بناء على ذلك كان من الضروري ان لا تظهر العلاقات بين البريطانيين والفرنسيين حميمية جداً .

ربما كان سمارت اصل القصص المكتوبة في التايمز من قبل المراسل أرثر ميرتون مصممة لإظهار ان شرخا قد حصل بين الحكومتين البريطانية والفرنسية . ميرتون ، الذي وصل من القاهرة ليرى نتائج القصف في دمشق بنفسه ، كتب تقريرا في حينه ان سمارت قد رفع دعوى بالأضرار مع السلطات الفرنسية في أعقاب القصف ، الدعوى التي جعلتها واضحة بثقة ان القنصل يرفض الادعاء الفرنسي ان الدروز هم من يلام على الأضرار . بعد ثلاثة ايام قدم تحية حارة» للطريقة الشجاعة» التي اطمئن بها سمارت على سلامة الشعب المسيحي في المدينة من خلال التفاوض مع «رجال مسلمين اصحاب نفوذ معينين» ، بعد ان فر الجنود الفرنسيون الذين كانوا يحرسون الحي المسيحي

لكنهم فروا لينقذوا حياتهم . بعد ثلاثة ايام ، نشرت الصحيفة صورة فتوغرافية اتخذها ميرتون من مئذنة على جانب المدينة القديمة تظهر درجة الضرر الذي احدثه القصف الفرنسي .

كره الفرنسيون «الدعاية المذلة» التي كانت تعطيهم إياها التايمز ،واصبحت تنتابهم الهواجس من سمارت بازدياد . تم طرد الديبلوماسي من طهران سنة ١٩٢١ ، ما اقنع الفرنسيون انه كان متورطا في انقلاب جلب رزا شاه للسلطة وانه ربما ما زال متورطا بعمل سري . في سورية اعتقدوا انه وراء اقامة مجتمع القبضة الحديدية الوطنية ، ثمة إحساس بالاضطهاد كانوا مصابين به حول نفوذه حتى اعتقدوا ان هدف المجتمع طرد» كل النفوذ الاجنبي» ، وحتى بنفس الوقت تمكين «الاستيلاء البريطاني على اجهزة الدولة العسكرية ، المالية والادارية» .

في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ ، وصل المندوب السامي الفرنسي الجديد الى لندن ليطرح موضوع نشاطات سمارت مع الحكومة البريطانية . بيرتراند هنري ليون روبرت دو جوفونيل دي اورسان ، ذلك لنعطي اسم هنري دو جوفونيل بالكامل ، كان سياسيا ، على عكس أسلافه العسكريين . ولد سنة ١٨٧٦ ، السيناتور البالغ من العمر تسعة وأربعين بالأصل درس القانون ، لكن بعدها اختار مهنة الصحافة في»لو ماتان» . الان متوفي ، كانت الصحيفة مشهورة بتقاريرها الجريئة : دو جوفونيل ، بأسلوبه المثالي اللاذع ، ناسبها واصبح في النهاية محررا . في ذلك الوقت طلق زوجته ، واشتهر بعلاقته مع الكاتبة كوليت المثيرة للفضائح . ثم قاتل في الحرب ، لكن قدرته على الكلام بلغة يفهمها المراسلون جعلته اكثر فائدة في باريس . استاجره وزير المواصلات كمستشار ثم شجعه بعد ذلك على خوض غمار السياسة .

بعد ان تم انتخابه عضوا في مجلس العموم لمنطقة كورييز الواقعة في مركز

فرنسا الريفي سنة ١٩٢١ ، تم اختيار دو جوفونيل ليمثل بلاده كمندوب في عصبة الامم . يتمتع بخبرة في الدفاع عن السياسة الفرنسية الاستعمارية ، ولانه ربح ثقة المندوبيين الاخرين في العصبة ، كان الخيار البديهي لاستبدال ساراي الذي فقد مصداقيته نهاية سنة ١٩٢٥ ، في وقت عندما كانت فيه الادارة الفرنسية في سورية تلفت لها إمعان نظر على الصعيد الدولي . بالرغم من ان دو جوفونيل ربما كان سعيدا لأخذه على عاتقه تعيينا في الخارج - كان قد طلق كوليت للتو ، بعد ان انكشفت علاقتها مع ابنه من زواجه الاول - رأى الوظيفة السورية طريقا لا مفر منه . عوضا عن ان يحل محل ساراي بشكل دائم ، وافق على فقط قيادة «مهمة استطلاعية» الى سورية ليعيد تقييم الوضع ، وليكون بمثابة المندوب السامي بينما هو هناك .

دو جوفونيل كان يعرف جيدا بان مساعدة البريطانيين هي المفتاح للتعامل مع الدروز ، لان إمدادات الدروز جاءت من ترانس الاردن . قبل البدء برحلته الى بيروت ، بناء على ذلك ، احتاج الى تصفية الأجواء مع نظرائه البريطانيين . لكنه عندما وصل الى لندن ، بدا من الواضح بسرعة ان الدعم البريطاني له ثمن : المساعدة الفرنسية في نزاعهم الطويل الأمد مع الاتراك حول ملكية الموصل . حديثاً احالت بريطانيا «مسالة الموصل «الى عصبة الامم من اجل التحكيم عقب عدة سنوات من مشاكل متقطعة في شمال العراق ، حيث كان الاتراك يدعمون الانفصاليين الأكراد الذين يتمنون اقامة دولة مستقلة . لتعقيد الامور اكثر كان الفرنسيون الى جانب الاتراك ، في محاولة لكسب حصة اكبر من نفط الموصل مما ربح كليمانصو بعد نهاية الحرب . الان ، عندما قام دو جوفونيل بادعاءات حول نشاطات سمارت ، واجهته الحكومة البريطانية بحقيقة ان الفرنسيين قد سمحوا للأتراك باستعمال سكة الحديد التي تشكل الحدود بين سورية وتركية لينقلوا الجنود الى الشرق الى الحدود العراقية .

في الحال فهم دو جوفونيل الصلة التي أراد البريطانيون توضيحها . وافق على إيقاف حركة الجند الاتراك نحو الموصل عارفا انه اذا لم يقم بذلك لا يمكنه ان يتوقع مساعدة من البريطانيين للتعامل مع خطوط إمداد الدروز التي تجري عبر ترانس الاردن . كما علق ساليسبري ، لحظة ربط البريطانيون مشاكل الموصل والدروز معا ، ثورة الدروز كانت مفيدة للغاية ، «لانها» أنهت أي تفكير من الممكن كان يجول في أذهان الفرنسيين للعمل ضد البريطانيين» . تم حل مسالة الموصل ، لصالح بريطانيا ، في شهر آذار سنة ١٩٢٦ . حتى ذلك الوقت ، تركت بريطانيا فرنسا تتعامل مع الثورة وحدها .

وصل دو جوفونيل الى سورية باكرا من شهر كانون الاول سنة ١٩٢٥ وفي الحال ترك انطباعا افضل من سلفه . بينما كان ساراييل يلقي بالقنابل ، قدم قنابلا من الأيس كريم ، لينشر مزحة رخوة في ذلك الوقت . لان اول مهمة لديه كانت منع تدفق التقارير العدائية ، لذلك دعا كل المراسلين الأجانب الى مقر إقامته على غداء يوم الأحد ، وانتهز الفرصة ليلفت الانتباه الى دعوته «لكل السوريين المسالمين ، لكل الوطنيين المؤمنين «للعمل معه لوضع دستور للبنان وعقد الانتخابات في تلك المناطق من سورية غير المتضررة من العنف في الجنوب . إشارة خفيفة ، فيما بعد بفترة قصيرة ذهب ليرى المراسل البريطاني الذي لم يتمكن من الحضور ، من الظاهر لانه كان مريضا . وخلف الكواليس ، أيضاً اخبر الدروز انه كان مستعدا للتفاوض .

بينما بدا دو جوفونيل بإعطاء الانتداب الفرنسي في سورية واجهة اكثر ليبرالية ، بدا قائد غامولين في دمشق ، شارلس اندريه ، بتعزيز سيطرة كاملة على المدينة مستخدما أساليب مألوفة اكثر الى حد ما . بعد اربعة ايام من لقاء دو جوفونيل بالصحافيين ، اندريه ـ الذي وصفه ساليسبري جونز «اظرف رجل فرنسي التقيت به على الاطلاق» ـ جمع زعماء المدينة واعلن انه ينوي اعادة بناء شارع عريض يحيط بالمدينة ، مشروع لطالما تم تأجيله عندما

كانت الادارة الفرنسية على وشك الإفلاس قبل بضع سنوات . شعر السوريون بريبة من ذلك ، لكن اندريه كان مصرا . يمكنه ان يدفع تعويضا لهؤلاء الذين تدمرت بيوتهم ، ورواتب الف وخمسمائة عامل ، كما قال . لان السوريون ، وبدا العمل مباشرة .

ما ان تم إكمال البولفار الشارع العريض باكرا من سنة ١٩٢٦ حتى انكشفت النوايا الحقيقة من ورائه بوضوح ، عندما وصل المهندسون الفرنسيون ليمدوا أسلاكا شائكة للحماية على امتداده . أراد اندريه ان يخلق حلقة من الفولاذ حول المدينة القديمة التي ستفصل مركزها التجاري عن المنطقة المكتظة بالسكان في الضواحي التي تؤمن للثوار عددا من اماكن الاختباء وطرقا الى قلب المدينة . كان تحت ضغط من كلا القنصلين البريطاني والأميركي في المدينة الذين كانا يهددان بأخبار مواطنيهم ، علانية ، حتى يرحل .

مع مركز دمشق الان اكثر آمان ، يمكن لأندريه ان يوجه انتباهه الى المنطقة الخارجة عن القانون الى بساتين الغوطة بدا بإرسال فرق سريعة تتالف من جنود غير نظاميين جركس أرمن وأكراد ، بقيادة ضابط مخابرات حديث اسمه اليساندري ، الذي حارب الثوار مستخدما تكتيكات العصابات انفسهم . أساليبهم كانت إجرامية ، عنيفة واعتباطية : سلبوا «اي شيء يمكن حمله او بإمكانه المشي» حرقوا المنازل التي يعتقدون انها تاوي الثوار ؛ المشتبه بهم الذين تم القبض عليهم «اطلق عليهم النار وهم يحاولون الهرب» .

لان كلاهما كان يتنافس على السيطرة على أطراف دمشق ساء القتال اكثر . كتب نائب القنصل فوغان راشل «لا يمر يوم او نهار من دون ان تدوي دمشق بصوت هدير سلاح المدفعية وانفجار القنابل والقذائف في جوار او خارج المدينة»» . في اليوم الثاني عشر من شهر شباط / فبراير كتب زميله سمارت ان الطلق الناري طوال الليل أسوا ما يتذكر منذ قصف شهر تشرين الاول الفائت ، لكن لم يقتل احد . هذه التبادلات الوحشية حققت القليل .

الشهر التالي لاحظ فوغان راشل انه بالرغم من ان سيطرة الفرنسيين على مركز المدينة الان شيء مسلم به ، لم تصل قبضتهم الى الريف المطوق أبعد من صف سلاح المدفعية . لذلك لم يكن الدروز تحت ضغط كبير حتى يتنازلوا عن كفاحهم ، وعندما ناشدهم دو جوفونيل بشكل مباشر رفض سلطان أطرش عرضه . ردا على ذلك ، طالب سلطان أطرش باستقلال سورية : كان على اطلاع على التطورات في باريس ، حيث سلسلة من الحكومات القصيرة العمر كانت تساهم في استمرار الفوضى السياسية ، وكان هنالك الان احتمالية ان يستلم الاشتراكيون السلطة الذين كانوا بشكل تقليدي معادين للإمبريالية ، . رفض دو جوفونيل طلب سلطان عن قصد من دون ان ياخذه بعين الاعتبار .

قدم الطقس الاكثر دفئا في الربيع الفرصة لاندريه حتى يعود بشكل دائم الى جبل الدروز . على امتداد فصل الشتاء رسم خطة لإعادة الاستيلاء على السويداء ، حينها وسع اهتمامه جهة الشمال ليطلب عقد اتفاق من عشيرة عامر منافسة الأطرش . أخيرا نوى على تركيز كامل جنده ضد حصن الأطرش في جنوب الجبل .

في شهر نيسان وضع اندريه تلك الخطة موضع التطبيق . عرف سلطان بالهجوم الفرنسي مرة ثانية والذي على وشك الوقوع في وقت قريب قام بسلسلة من المحاولات لقطع سكة الحديد جنوب دمشق ، رغم ذلك فشل في إيقاف تقدم الجند الفرنسي الممنهج والذي كان يتم على مراحل . بدات قوات اندريه رحلتها المتقدمة في اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان / أبريل ، وبعد معركة طاحنة مع الدروز خارج السويداء ، استرجع الفرنسيون البلدة بعد ثلاثة ايام . بدا اندريه باكرا باستلام رسائل الاستسلام من الدروز في القرى جهة الشمال . بدا مهندسوه بتحصين السويداء حتى يمكنها ان تخدم كقاعدة للمرحلة التالية من العمليات .

في تلك الأثناء ، حققت عمليات اليساندري المتألفة من تشكيل عصابات

في الغوطة إنجازا هاما ـ احمد مريود ، الرجل المطلوب منذ محاولة اغتيال غورو سنة ١٩٢١ . وجدت رسالة من فوزي القاوقجي على جسم مريود ، تشتكي من «إطالة الصمت والكسل الحالي» للثوار ، وهنالك خبر أكد انه حتى الان يوجد انقسامات جادة بين الدروز ، الذين يريدون مفاوضة هدنة ، والقوميون لا يريدون . في محاولة لتعميق هذا الانقسام اكثر عرض دو جوفونيل بشكل سابق لأوانه تنازلا سياسيا كبيرا . بعد يومين من الاستيلاء على السويداء فجأة اعلن انه سيبدل المفوض الفرنسي في دمشق برئيس وزراء جديد اسمه احمد نامي بيه أرستقراطي متزوج من ابنة السلطان العثماني والذي كان من الواضح انه ليس بجيبة فرنسا .

بالرغم من ان هذه التجربة في الحكم الذاتي قد بدت في البداية انها واعدة ، كان احمد نامي بيه بسرعة يواجه نفس الضغوطات التي أنهت فيصل قبل ستة سنوات . بسرعة بدا القوميون الثلاثة الذي عينهم في مجلس الوزراء بالمطالبة ـ بالتحديد ، باصدار عفو عام وباعادة توحيد سورية ولبنان ـ الشيء الذي لا يقبل به دو جوفونيل . في اعادة تشكيل وزاري شهر حزيران / يونيو احمد نامي بيه جلب أناس معتدلين بدلا عن القوميين (الذين تم نفيهم الى مناطق داخلية في سورية) ، لكنه لم يستطع إقناع الثوار بالاستسلام ولا الفرنسيين حتى يعتدلوا في نهجهم . عاد دو جوفونيل الى فرنسا ليعلن إنجازه بغض النظر عما كان يجري ، لكن في الحقيقة خطته ادت الى مفعول عكسي . عندما كتب غامولين تقريرا بطريقة محزنة في شهر تموز ، «بعيدا عن نيل النتيجة المرغوب بها ، هذه السياسة تم رؤيتها على انها علامة عن ضعفنا العميق» . في تلك الأثناء ، استمرت الهجمات على القوات الفرنسية التي تقوم بعملياتها خارج دمشق ولم تخمد .

على كل حال ، انه كان نصر فرنسا على الثوار في المغرب هو الذي قدم للفرنسيين في سورية مساعدة كبيرة . حتى تلك الفترة كانت فرنسا تقاتل

على الجبهتين ، والأولوية كانت للمغرب . بعد ان اجبر زعيم الثوار عبد الكريم على الاستسلام في شهر ايار / مايو سنة ١٩٢٦ ، الحكومة المحتاجة حاجة ماسة الى العملة كانت قادرة على تحريك عدد كبير من جيوش المعارك التي جعلتها التجربة اكثر خبرة وقسوة ، نقلتهم فرنسا وتجهيزاتهم ايضا الى الشرق لتعيد احتلال سورية . مع خمسة وتسعين الف رجل تحت تصرفه ـ من خمسة عشر آلاف عندما بدأت الثورة ـ أخيرا غامولين لديه القوة البشرية الكافية ليحارب على عدة جبهات في سورية وبنفس الوقت . في الغوطة في اليوم العشرين من شهر تموز / يوليو شن قصفا مدفعيا ضخما لمدة عشر ساعات قتل جراءه أربعمائة ثائر وترك الفرنسيين أسيادا من دون خلاف على المنطقة الخضراء المتمردة : فقط طلقة واحدة أطلقت عليهم عندما مسحوا البساتين فيما بعد . بنى الجيش خط سكة حديد ضيق في جبل الدروز ، ما مكنهم من إمداد عملية عسكرية موسعة اكثر في الجبل ، تشمل ايضا إرسالية الى حقل الحمم البركانية اللاجا المتعرجة والوعره . قدما تجاه اجتماع اخر لعصبة الامم والذي فيه سيتم النظر في الوضع في سورية ، ارسل غامولين تقريرا متفائلا الى باريس قائلا به ان الوضع «اختلف كليا» اثناء الشهر السابق . سبب التحول ، كما شرح ، بانه لم يعد هنالك دعما محليا للثورة له اهمية .

هذا كان صحيحا ، لكنه لم يعكس الوضع كليا . المشكلة كما شرحها شارلس اندريه الجنرال المشرف على العمليات في الجبل ، كانت انه حتى لو ان الدروز قد ضجروا من الثورة ، بقي لدى الثوار دعما كبيرا بالجوار . «كان من الممكن ان تنتهي الثورة منذ أمد طويل اذا لم يجد زعماء الثورة المال ، الاسلحة والذخيرة في عبر (ترانس) الاردن حتى يستمروا بالثورة واذا لم يكونوا يتمتعون بالحرية الكاملة في حبك الخطط ودعم الاضطراب في بلد الدروز وحوران» ، كما كتب لاحقا .

مسبقا غامولين كان قد التقى بالمندوب السامي البريطاني في فلسطين ، اللورد بلومر ، في شهر حزيران / يونيو ليلح عليه حتى يتوقف الثوار عن لعب لعبة القط والفار عبر الحدود . رغم ان بلومر المحرج وعد انه سيفعل ما باستطاعته ليساعد ، حتى لمح ان يعبر الفرنسيون الحدود بالسر ليطاردوا الثوار ، لم يسفر اللقاء عن تحسينات في الوضع . في عيون الفرنسيين ، بدا البريطانيون بانهم لا يبذلون ما بوسعهم لمساعدتهم . قال موظفو بلومر انهم لا يملكون القوة البشرية ليحرسوا الحدود جيدا ، ولإثارة السخط الفرنسي ، أصر على معاملة الدروز الذين عبروا الحدود الى ترانس الأردن معاملة اللاجئين السياسيين .

نزعة فرنسا في السابق للوقوف الى جانب الاتراك ما زالت تعني ان البريطانيين ينظرون الى مشاكل جارتهم من دون تعاطف . وصف خلف ساليسبري جونس ضابط الاتصالات البريطاني مع الجيش الفرنسي ، جون كودرينغتون ، كيف «من المندوب السامي ، اللورد بلومر للأسفل الى الضباط الطيارين في عمان ، كان هناك كره للفرنسيين . يعتبرون الفرنسيين٥٦

أوغادا ؛ لم يلعبوا الكريكيت (كما لاحظ ذات مرة سعادته قائلا لي)» . ادعى ان الموظفين البريطانيين استساغوا أنباء تراجع أحوال الفرنسيين . «قالوا» عرض جيد جداً ، «هل ترغب برؤية بعض من العرب الغلاظ يتغلبون على فرنسا - لا بد انهم يتمتعون بروح رياضية» .

نمت بشكل فعال شكوك بان البريطانيين كانوا يساعدون الثوار عندما قبض الفرنسيون في شهر تموز / يوليو سنة ١٩٢٦ ، على ثائر رئيسي والذي قام بادعاءات مفزعة . تحت الاستجواب ادعى سجينهم ان البريطانيين قاموا بتزويد الدروز بالمعلومات التي مكنتهم من إنزال الهزيمة المروعة بميشو السنة الفائتة ، ومن ثم ارسلوا ضابط مخابرات متنكرا على اساس انه صحافي الى الجبل ليصور جثث الجنود الفرنسيين . قال أيضاً انه تم تامين

المواصلات للامدادات الى الدروز الى الاعلى الى سكة الحديد من عمان الى مفرق ، حيث ، تحت المراقبة البريطانية ، كانوا يحملون على الجمال والبغال ويصطحبون الى الحدود الى الجبل والى ازرق الصحراء المخبا التي استخدمت من قبل لورانس اثناء الحرب ، حيث يخيم الان الف وخمسمائة درزي» . قلت انه اذا أراد الإنكليز إيقاف المرور ، يستطيعون؟» كرر السؤال الضابط الفرنسي الذي يقود الاستجواب . «قطعا» ، رد الدرزي .

في الحقيقة ، السجين الدرزي كان فقط يروي إشاعات طبخت من قبل سلطان والشهبندر ليشدوا عزم مؤيديهم ويشعلوا فتيل التوترات بين البريطانيين والفرنسيين . لكن ما يهم كان ان الفرنسيين صدقوه . في شهر أيلول / سبتمبر واجه ضباط مخابرات فرنسيون مباشرة ضابط بريطاني بتلك المزاعم ، الذي رفض تلك الادعاءات . مساعد غورو السابق ، جورج كاترو ، الذي تم إعادته الى سورية ليدير خدمة المخابرات الفرنسية هناك ، بدا رحلته الى القدس لاحقا ليبحث الامر مع سكرتير بلومر الرئيسي ستيوارت سيمس . متوسلا» روح التضامن الاوروبي» ، طلب من البريطانيين إثبات انهم لم يدعموا الثورة من خلال طردهم للدروز من ازرق . رفض سيمس القيام بذلك . «هذه البلاد مضطربة كثيرا . . . حتى من جهتي ارتكب هذه الغلطة بإثارتها» ، اخبر كاترو . «لا استطيع إغضاب هؤلاء الناس من خلال اتخاذ إجراءات ضد الدروز النساء والاطفال» . عودة الى بيروت قدم كاترو تقريرا مظلما عن مقابلته . حذر باريس : «لو لم يتم الاستيلاء على هذه القاعدة المخيم من الثوار ، سنتعرض لخطورة رؤية سلطان أطرش يسترجع بلد الدروز اثناء الشتاء ما سيمنعنا من المقاومة» .

لكن تنبؤ كاترو لم يتحقق . بالرغم من ان ازرق بقيت في أيدي الدروز اثناء الشتاء سنة ١٩٢٦ و١٩٢٧ فشل سلطان باسترجاع السيطرة على الجبل . نقص المال والإمدادات الطبية لدى الثوار ، ومخيمهم في ازرق قذر وبوضع

رديء ، رغم انه بعيد عن متناول الفرنسيين ، اثبت بكامله انه مكان غير صحي للعيش فيه . حتى نهاية شهر تشرين الثاني ، كتب القنصل البريطاني في دمشق ان الثورة على شفير الانهيار . اخبر لندن «كل القوميين الذين التقيت بهم ثبطت عزيمتهم بالكامل» مضيفا : «خيبت آمالهم في ان تدافع عن قضيتهم انكلترا او عصبة الامم» .

عندما ، في شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩٢٧ ، قرر البريطانيون انه أخيرا قد حان الوقت لإفراغ المخيم في ازرق ، كان هناك سببان لهذا التغير العميق في الموقف . من الجنوب القوة الناهضة في شبه الجزيرة العربية ، ابن سعود ، حتى الان قد طرد الشريف حسين من الحجاز ، وقلق البريطانيون من انه يطمح بإضافة ترانس الاردن الى مملكته أيضاً . كانوا أيضاً قلقين بشكل متزايد من ان يتنازل الفرنسيون عن الانتداب ، بسبب فشلهم في التوصل الى اتفاق مع السوريين حول المخطط المبدئي المتعلق «بالقانون العضوي» لمدة الثلاث سنوات التي قررتها عصبة الامم . هذه الاحتمالية لقيت قبولا عندما اقترح الديبلوماسي الفرنسي كومت دو فيل ، علانية تسليم سورية الى البريطانيين . تساءل : ما هي الفائدة ، بعد جمع تكلفة انتداب فرنسا» ، ان تكون مدان دائماً . . . ان تحرس الحدود السورية بتكلفة عالية وبخطورة ، من اجل فائدة بلاد اخرى»؟

احتمالية انسحاب فرنسا من سورية تركت البريطانيين مربوطي الأيدي . حتى الان أرادوا تجنب تحريض هذا الرد الفرنسي الشرس على الثورة السورية .

نتيجة لذلك ، كان الفرنسيون مضطرين للمغادرة ، سيكونون مضطرين للأخذ على عاتقهم الانتداب السوري المكلف بأنفسهم أو قبول حكومة القوميين العرب التي من دون شك ستعمل على تحريض المطالب العربية لتحقيق الحكم الذاتي عبر الحدود في الانتدابات المجاورة التي يحكمونها . بشكل ممتاز عمل والتر سمارت على تلخيص الحيرة : «من غير الملائم لنا

للغاية ان نظهر مناصرين للحملة الصليبية الحديثة . مع ذلك ، من الواضح انه من مصلحتنا بطريقة ما او باخرى ان تبقى فرنسا في سورية» .

وفي شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٢٧ اكد بلومر في النهاية انه ينوي التعامل مع مخيم الدروز في ازرق ، كان راغبا جداً لان يتم تقديم الخطة «ليس كنتيجة لخطة تعاون عسكري انكلو ـ فرنسي ـ الشيء الذي قد يحرض الكثير من النقاد ـ لكن كإجراء محلي لحفظ النظام جعل ضروريا بسبب إخفاق زعماء الدروز المتكرر في الحفاظ على وعودهم التي وعدوا بها السلطات البريطانية» . العملية البريطانية لطرد الدروز من ازرق بشكل نهائي بدات في منتصف شهر حزيران / يونيو . في نهاية الشهر بول بينيت ، ضابط المخابرات الفرنسي التحق بالبريطانيين في تلك الفترة ، كتب برضى ان من الألف وخمسمائة درزي بالأصل في ازرق فقط ثمانية وأربعين رجل ، بقي لديهم فقط ستة عشرة بندقية .

الآخرون اما استسلموا ، حتى يتمكنوا من العودة الى الجبل ، او تم سوقهم على بعد كفاية الى صحراء لا ماء فيها حيث لا يشكلون خطرا بعد الان . بالرغم من الأنباء الجيدة هذه ، استمر بينيت بالشك بولاء البريطانيين الحقيقي ، الذين ، كما لاحظ ، «لم يتوقفوا إطلاقا عن الاهتمام برؤساء الدروز الكبار» .

رغم ان العمليات العسكرية ما زالت مستمرة في سورية خلال السنة التالية ، بعد شهر واحد من إفراغ ازرق ، في اليوم السادس والعشرين من شهر تموز سنة ١٩٢٧ ، دعى جورج كاترو الى مؤتمر صحافي الذي حدد بشكل فعال نهاية الثورة . لانه اعلن ان فرنسا ستضم جبل الدروز الى دولة سورية ، أيضاً استغل الفرصة لينكر إشاعات ان فرنسا قد تتنازل عن الانتداب . كما اكد «لانني استلمت المهمة لتسهيل التطور المتنامي لسورية ولبنان كدولتين

مستقلتين ولضمان الحماية والحقوق لكل المواطنين ، الحكومة المنتدبة لن تخفق في مهمتها» ، محذرا ان نفاذ الصبر والعنف سيؤديان فقط الى إبطاء التقدم .

في شهر آب / أغسطس اشاد موريس غامولين ، القائد العام الفرنسي ، «بعمل السلطات الفرنسية والبريطانية الموحد» لإنهاء الثورة . لكن كان هنالك غضبا عميقا بين الضباط ، بالتحديد هؤلاء الذين عملوا في عملية الاستخبارات الفرنسية الضخمة في سورية ، والذين كانوا مقتنعين ان البريطانيين بذلوا قصارى جهدهم لإطالة التمرد كمحاولة لإجبار فرنسا على الخروج من سورية . بعد نظرة تحليلية لاسباب ما حدث وماذا كان الافضل ان يحصل ، ضابط بريطانيا للاتصال مع القوات الفرنسية والذي رأى الضرر الذي حدث . لمح الى كاترو في الفترة الاخيرة من الثورة كمحاولة تجريبية ، ان العلاقات تتحسن بين البلدين ، زم كاترو شفتيه وأعطاه نظرة تذكره «بريتشيليو الحقود البارد» . كلا ، رد الضابط الفرنسي ، بشكل مشدد ، «بالتأكيد الاشياء لن تصبح افضل» .

الفصل الثاني عشر

خط الانابيب

عندما تم في النهاية اكتشاف النفط في شمال العراق في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٢٧ في بابا كركر ، قتلت النافورة السوداء حفارين كانا قد أطلقاها ، أفرغت النافورة تسعين الف برميل في الهواء في الأربع وعشرين ساعة التي تلت . تقع بابا كركر على سهل واسع على بعد عشرة أميال شمال غرب كركوك ، بدى مكانا جيدا للبدء عندما بدا الاكتشاف قبل ستة اشهر ، لانه كان منطقة مشهورة لآلاف السنين كموقع لشعلة أزلية ، ضوء متوهج من الغاز الطبيعي يتسرب باتجاه الاعلى على شكل نافورة من فوهة غير عميقة في الارض . لكنه فقط بعد فترة قصيرة من اكتشاف النفط في بابا كركر حتى شعر رئيس مجلس إدارة الشركة التركية للبترول التي تتمتع بحقوق حصرية للاكتشاف انه يستطيع كتابة تقريرا بثقة انه تم تاكيد وجود كميات نفط قابلة للاستخدام على المستوى التجاري . وتم هنالك التعهد بوجود حقل واحد ، او من المحتمل عدة حقول ، بغزارة كبيرة» . اثار هذا الاكتشاف خلافا اخرا بين اثنين من اصحاب الأسهم الرئيسيين في الشركة ، الحكومتين البريطانية والفرنسية ، حول الطريق الذي من خلاله سيتم نقل النفط الى الاسواق .

لم يكن هنالك شيء تركي بخصوص شركة البترول التركية ، كما يكشف اسم وجنسية رئيس مجلس إدارتها . السير جون كادمان ، أكاديمي بريطاني تحول الى رجل اعمال ، كان الشخص النموذجي ليدير الشركة في الوقت عندما كان تركيزها المباشر منصبا على الاكتشاف والاستخراج . ولد في قرية مناجم ، وكان مهندس مناجم فحم بالتدريب ـ تماماً مثلما كان أبوه من قبله ـ قد يكون كادمان أمضى حياته في وحول مقالع الفحم في المنطقة الوسطى من بريطانيا فلم يجد لنفسه الوقت ليتابع اهتماماته في استخراج البترول من الطين الصفحي بينما كان استاذا في الفحم لدى جامعة بيرمنغهام .

رفضه الأكاديميون الآخرون على اعتبار ان مهنته محدودة النجاح ، لكن حماس كادمان الخارج عن القاعدة على ما هو ظاهر كان سيغير مجرى حياته . سنة ١٩١٣ دعي لينضم الى لجنة الأميرالية للنفط التي امر ويلسون تشرشل تشكيلها «للبحث عن النفط «الذي سيمكن بريطانيا من تحويل اعتماد أسطولها على الفحم الى النفط . ذهب كادمان الى ايران ليحقق في الامر ، وشكل قرار اللجنة (ان إمداد ايران يكفي للاعتماد عليه) اساس قرار الحكومة الهام جداً للتحويل الى النفط والحصول على عدد اسهم مسيطر في شركة الإنكلو- إيرانية . كانت هذه الحركة قد قادت الجيش البريطاني الى احتلال البصرة ومعامل تكرير النفط القريبة عندما نشبت الحرب بعد ذلك بسنة ، ثم بغداد والموصل في النهاية .

حتى نهاية الحرب كان كادمان يدير اللجنة التنفيذية ، التي كانت مسؤولة عن المصادر وإمداد النفط لتزود الحرب بالطاقة . مثل العديد من اقسام الحكومة ، في شهر كانون الاول سنة ١٩١٨ عرضت أراءها في مؤتمر السلام . واصفة اعتماد بريطانيا «المقلق للغاية» على النفط الأميركي ، وحثت الحكومة على السيطرة على مناطق بغداد والموصل وأصرت انه في «أية تعديلات على المناطق في سورية او اي مكان اخر يتم اخذ الموافقة عليه للسماح لنا بإمداد

خطوط الأنابيب الخ من بلاد الرافدين ومن ايران الى البحر المتوسط يجب ان يتم ضمانتها من اجل المصالح البريطانية» .

في باريس اتبع المفاوضون البريطانيون هذه النصيحة على نطاق واسع . مصممون على ان يجري خط الأنابيب من حقول النفط شمال بغداد الى ساحل المتوسط عبر أراض تابعة لسيطرة البريطانيين ، طالبوا بواحة تدمر ، مثيرين خلافا مع الفرنسيين . تم حل المازق سنة ١٩١٩ عندما استولى في ذلك الوقت رجال قبائل موالون لفيصل (ومن المحتمل تم تشجيعهم من قبل الفرنسيين) على بلدتين على الفرات وهما دير الزور والبوكمال من البريطانيين ، الذين احتلوهما في نهاية الحرب العالمية الاولى . تركت معركة رجال القبائل سورية بحدود محدودبة الشكل جهة الشرق ما يعني ان اغلب الطرق المباشرة من شمال العراق الى البحر تجري عبر الاراضي الخاضعة للسيطرة الفرنسية .

مما أدى الى تعقيدات هامة عندما وضعت مسالة طريق خط الانابيب من ابار النفط الى البحر المتوسط موضع البحث عقب اكتشاف بابا كركر سنة ١٩٢٧ .

في البداية تأمل البريطانيون ايضا ان أية اكتشافات نفطية تحت السهل القاحل في شمال العراق ان تكون لهم لوحدهم ، لكن ثمن استعداد فرنسا للتنازل عن الموصل كان حصة في اي اكتشاف نفطي . لإرضاء الفرنسيين ، على هامش مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ فاوض كادمان اتفاقا مع فيليب بيرثلوت من وزارة الخارجية الفرنسيه ليقسما فيما بينهما حصة العدو في الشركة التي لديها حقوق الاكتشاف في شمال العراق . هذه كانت الشركة التركية للبترول ، أداة لتحقيق غاية محددة ، فيها جنسيات متعددة من بينها شركات بريطانية وألمانية ، التي قبل الحرب احتفظت برسالة من رئيس الوزراء العثماني الصدر الأعظم ، التي تمنح حقوق الحفر قرب الموصل . لدى

الحكومة البريطانية مسبقا اهتماما كبيرا في الشركة من خلال اسهمها في الإنكلو - إيرانية ، والتي كانت احد موجدي الشركة التركية للبترول . ونتيجة لاتفاق كادمان في سان ريمو ، اصبح للفرنسيين الان اهتماما جوهريا أيضاً بالشركة .

بعد ذلك بفترة قصيرة ، دخل الأميركيون على الخط ، والذين كانوا حينها اكبر منتجين للنفط في العالم . وبسبب اقتناعهم ان اسهمهم تتناقص ، خافوا من ان يهدد النفط العراقي مكانتهم الهامة في السوق . ذكر السفير الأميركي في لندن البريطانيين ان حكومته تتوقع من انتداب بريطانيا الجديد «ان يتم ويحكم بثمة طريقة لتضمن معاملة متساوية في القانون وفي الحقيقة في تجارة كل الامم» . بدا أيضاً الأميركيون علنا بالتساؤل حول شرعية رسالة الصدر الأعظم .

في البداية واجه البريطانيون الضغط الأميركي بشجاعة ، لكن النزاع المستمر حول ملكية الموصل الذي دام خلال بداية سنة ١٩٢٠ اجبرهم على تغيير مسارهم . بناء على قوة تقارير استخباراتية ان الفرنسيين والأميركيين كانا سرا يشجعان الاتراك على استرجاع الموصل بالقوة ، استنتج تشرشل باكرا سنة ١٩٢٢ ا نه «طالما الأميركيون مستبعدون من المشاركة في نفط العراق ، لن نرى نهاية أبدا لمصاعبنا في الشرق الاوسط» .

ما ان قررت الحكومة البريطانية ان السيطرة على شمال العراق اهم بكثير من مسألة من سيكون مسموحا له الانضمام الى الشركة التركية للنفط ، ذهب كادمان الى الولايات المتحدة فيما بعد سنة ١٩٢٢ حتى يتوصل الى اتفاق مؤقت يعرض فيه على الأميركيين المشاركة في الشركة . هذا تم إنجازه ، تلاشى الانتقاد الأميركي بشكل سحري ، خلاف الموصل في النهاية تم حله سنة ١٩٢٦ وتم توقيع الاتفاق في شهر تموز / يوليو سنة ١٩٢٨ . شروطه ، اربع شركات - انكلو - إيرانية ، شركة شيل الهولندية الملكية ، الشركة الفرنسية

للبترول الحكومية شركة الشرق الادنى للتنمية (التي تمثل مصالح شركات الولايات المتحدة المتعددة) ـ كل شركة لها اسهم متساوية من ٢٣ . ٧٥ في المئة في الشركة التركية للبترول . «سيد نسبة الخمسة بالمئة» ، كالوستي غولبينكيان ، الذي انشأ الشركة ، احتفظ بالباقي .

كادمان ، مسبقا رئيس مجلس إدارة الإنكلو ـ إيرانية ، اصبح رئيس مجلس إدارة الشركة التركية للبترول ، التي استفادت من عقد اتفاق مفيد مع الحكومة العراقية سنة ١٩٢٥ . من شروط الشركة التركية للبترول اختيار اربع وعشرين موقعا تريد فيهم اجراء عمليات الحفر حتى شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٢٨ ، وبناء خط أنابيب عبر الصحراء الى المتوسط . يستطيع العراقيون حينها دعوة شركات اخرى ليحاولوا اختيار مواقع اخرى لهم .

المشكلة كانت ان الشركة التركية للبترول كانت وسيلة لاصطياد الامتيازات لأربع مصالح متنافسة ، وليست عملا تجاريا مستقلا مع استراتيجية خاصة بها . وسرعان ما ظهرت اختلافات بين اصحاب الأسهم . بينما الشركة الفرنسية للبترول أرادت من الشركة التركية للبترول ان تبدأ ضخ النفط بأسرع وقت ممكن لتعوض نقص الوقود في فرنسا ، الشركات الثلاثة الأخريات لا تريد . وضع الإنكلو ـ إيراني كان يمثل كل أولئك الثلاثة الذين اختلفوا في الراي . لها مسبقا حقوق الحفر في البلد المجاور ايران ، وصدرت النفط من هناك عبر البحر الى اوروبا ـ مما جعلها تدفع تكاليف الشحن وجباية ضرائب قناة السويس بسبب القيام بذلك . ضخ النفط نحو الأسفل عبر خط الأنابيب من شمال العراق الى المتوسط سيكون أرخص بأحد عشر شلينغ كل طن ، مدمرا السوق الاوروبية المعتمد على نفط الشركة في ايران . ولا هي أرادت فيضا من النفط العراقي حتى تخفض السعر العالمي . لان رئيس كلا الإنكلو ـ إيرانية والشركة التركية للبترول ، كادمان لديه مصالح كثيرة متشابكة .

اقنعت حفريات البحث عن النفط التي كان يتم تنفيذها لصالح الشركة

التركية للبترول الشركات الثلاثة التي تختلف بالرأي مع الشركة الفرنسية انه كان هنالك أيضاً خللا في اتفاق سنة ١٩٢٥ الذي اتفقت عليه الشركة التركية للبترول مع الحكومة العراقية . اعتقد الجيولوجيون العاملون فيها ان حقل النفط العراقي من المحتمل انه وحدة كاملة ، لذلك أية شركة اخرى تم العرض عليها امتيازات لاحقا من قبل العراقيين ستقوم بالحفر في نفس الخزان وتتنافس على نفس الإمداد المعين . السباق سيكون على انتزاع حصة الاسد ، والفيض الذي سينجم بعد ذلك للنفط في السوق سيحدد سعر النفط ، وأرباحهم ستنخفض . هذا كان من المحتمل السبب الحقيقي لماذا ، في شهر آذار / مارس سنة ١٩٢٨ ، وصف كادمان تركيب خط الأنابيب بانه» سابق لاوانه» .

أراد كادمان تأجيل قرار تحديد طريق خط الأنابيب لمدة ثمانية عشر شهرا ، لكن ما ان يكتشف النفط بكميات قابلة للاستخدام سيصبح من المستحيل تجنب الامر . ناسبت الحقائق بقوة مصالح الفرنسيين . من الموانئ الأربعة المحتملة حيث سيصب خط الانابيب ، ثلاثة ، بيروت ، طرابلس والإسكندرونة ، كانوا تحت الحكم الفرنسي . كلهم اقرب الى حقول النفط شمال العراق وبناء على ذلك هي خيارات أرخص من حيفا ، المدينة البريطانية الوحيدة المنافسة لهذه الخيارات .

ناقش الفرنسيون الناحية الاقتصادي اذا اختير الطريق عبر أراضيهم ، وناقش البريطانيون الجانب الامني اذا تم اختيار طريق حيفا . لكن جوهريا دوافع كلا الأمتين كانت بالمجمل استراتيجية . في وقت مبكر من سنة ١٩٢٨ ناقش موظفون في وزارة الدفاع الفرنسية سراً ان السيطرة على «خط الانابيب» ومصبه تقريبا بانه جيد مثل السيطرة على حقول النفط بانفسهم . اذا . . . اعلنت انكلترا علينا الحرب ، نستطيع ، لبعض الوقت على الاقل ، منع أمدادهم من بترول العراق ، وفي اخر محاولة ، نجعل مصب خط الأنابيب وطول لا باس

فيه من الخط يجري عبر سورية غير صالح للاستعمال» . عندما حذروا في شهر آذار / مارس رئيس الوزراء الفرنسي ان قرارا حول طريق خط الأنابيب سيتم اتخاذه في وقت قريب ، ذكروه بانه ، اذا تم اختيار طريق حيفا ، سيحرم البلاد من «المصدر الوحيد للنفط الذي فرنسا لها فيه حقوق الملكية» .

عكست مخاوف الموظفين البريطانيين حول مسالة طريق خط الأنابيب المخاوف الفرنسية ذاتها . طلب رئيس الوزراء منهم في نهاية شهر شباط / فبراير التحقيق في الامر فكتبوا تقريرا في شهر حزيران / يونيو انه ، من وجهة نظر رؤساء الادارة ، انه «ذو اهمية استراتيجية كبرى» اختيار طريق حيفا ، لان هذا سينقل النفط مسافة اقرب بآلاف الأميال الى بريطانيا ويعطي الامة «سيطرة حقيقية على نتاج ما يمكن ان يثبت ان يكون احد أثرى حقول النفط في العالم» . من ناحية اخرى ، حذروا ، اذا تم اختيار طريق خط الأنابيب الى ميناء سوري ، ستضع بريطانيا العظمى نفسها «تحت رحمة الفرنسيين» . من وجهة نظر الفائدة الاقتصادية للبدائل ذات التمويل الفرنسي ، استنتج الموظفون ان الطريق الوحيد لتأكيد ان خط الأنابيب يمتد عبر الاراضي الخاضعة للسيطرة البريطانية بان يوازي تركيب سكة حديد عبر الصحراء ما سيخفض تكلفة تركيب خط الأنابيب ، بالتعاون مع الشركة التركية للبترول .

لتجنب إفشال الاتفاق حول ملكية الشركة التركية للبترول ، الذي كان على وشك الاكتمال ، بقي البريطانيون والفرنسيون صامتين بخصوص موضوع خط الأنابيب . نتيجة لذلك ، عندما زار الديبلوماسي الفرنسي فيليب بيرثولوت لندن في شهر تموز / يوليو سنة ١٩٢٨ ، تشكل لديه انطباع غير صحيح ان البريطانيين استبعدوا طريق حيفا لانه سبب «عوائقا اكثر مما هي ايجابيات» . بشكل مماثل ، اعتقد كادمان على نحو خاطئ ان الفرنسيين يتكتمون على احتمالية ان حيفا ستكون مصب خط الأنابيب ، لكن ببساطة أرادوا إبقاء القرار الاخير هادئا قدر المستطاع . سوء التفاهم اصبح فقط واضحا في شهر

تشرين الأول / اكتوبر ذاك ، عندما طلبت الشركة التركية للبترول تمديدا اخرا للمهلة الاخيرة التي منحت لها لاختيار المكان الذي ترغب فيه للقيام بعمليات الحفر للحصول على النفط . وافقت حكومة فيصل على مضض على التمديد لمدة سنتين ، على شرط ان تأخذ على عاتقها الشركة التركية للبترول دراسة طريقها المفضل لخط الأنابيب ـ والذي كان طريق حيفا . دعم العراقيون هذا الخيار الاكثر كلفة حتى يقاوموا التهديد القادم من السعوديين المنافسين جهة الجنوب . شعروا ان خط الأنابيب هذا ، وسكة الحديد التي من المفترض ان ترافقه ، سيكونان طريقة جيدة لبناء روابط سياسية وتجارية قوية مع فلسطين وترانس الأردن

أدرك بسرعة كادمان ان المبدأ الذي قامت به الحكومة العراقية بان تستفيد وتفيد سيؤجج الفرنسيين . عندما التقى الوزيرالبريطاني المختص بالمستعمرات ليو أميري ليناقش جوابه مع العراقيين ، شرح انه مراعاة للحساسية الفرنسية سيعترف بطلب الحكومة العراقية فقط في ملحق بالاتفاق الاساسي ، الذي أشار فقط الى ان تقييما للطريق المفضل من قبل العراقيين كان» ضمن الدراسات التي ستتم» . رغم ذلك ، لم يحبذ اميري عدم الصراحة في تلك الصيغة . طلب من كادمان اعادة تنقيح الرسالة حتى تشير فقط الى دراسة طريق حيفا ؛ في النهاية وافق كادمان .

عندما مرر كادمان مسودة الصيغة المنقحة على الفرنسيين في بداية شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، شارحا ان التغيير كان ضروريا لكسب الدعم البريطاني كونها سلطة منتدبة ، غضب الفرنسيون كما هو متوقع . كان فقط قادرا على فرض هذه الصيغة المنقحة عن طريق غالبية التصويت : دعمه الأميركيون والهولنديون ، الذين بالنسبة لهم أية مناقشة حول خط الأنابيب مفيدة اذا كانت تؤجل تصدير النفط .

نظير كادمان في مفاوضات سان ريمو قبل ثماني سنوات ، فيليب بيرثلوت ،

الذي كان في الوقت الحالي وزير الخارجية الفرنسي ، ذهب ليرى السفير البريطاني في باريس . في لقاء عاصف اتهم البريطانيين «بالتدخل الخطير» ، ولمح ان الفرنسيين يوطدون حلفا مع الأميركيين حول مسالة حرية الشركة في التصرف ، والذي قال ان كادمان قد وافق عليه في سان ريمو .

سبب قلقا عميقا في وزارة الخارجية احتمالية ان يشكل الفرنسيون والأميركيون صفا واحدا . في شهر شباط / فبراير سنة ١٩٢٩ حذر اعلى موظف في وزارة المستعمرات ان خلافا جادا مع الفرنسيين قد يقلل من فرص بريطانيا لضمان طريق حيفا . ما سبب زجرا سريعا من وزارة المستعمرات التي اتهمت أقرباءها الديبلوماسيين بالتفكير «باستسلام قاطع» للفرنسيين . مشيرة الى ان المصالح البريطانية والفرنسية «على طرفي نقيض» ، معتقدة ان خلافا ليس فقط لا يمكن تجنبه لكن الافضل القيام به الان ، قبل ان يقوى الحلف الفرنسي ـ الأميركي اكثر مما هو عليه . عندما ناقش مجلس الوزراء الامر بعد أسابيع ، لم يظهر أية شهية للمواجهة التي تحبذها وزارة المستعمرات . بدلا عن ذلك ، فضل ان يبتعد عن الامر قدر المستطاع ، معطيا السفير في باريس تعليمات للقيام بما في استطاعته ليبدد الانطباع ان الحكومة البريطانية قد اتكأت بثقل على العراقيين . لذلك ، في نهاية شهر نيسان / أبريل اخبر السفير الفرنسيين بشكل يصعب تصديقه انه ما من شيء تستطيع بريطانيا فعله لتغير قرار الشركة التركية للبترول او رأي العراقيين .

على طول الأشهر القليلة التالية بدا البريطانيون كانهم يخسرون المعركة . مع الانتخابات العامة في شهر ايار / مايو ، رفض المحافظون استثمار مال الحكومة في سكة حديد على طول طريق حيفا حتى لو كانت ستجعل بناء خط الأنابيب أقل تكلفة على نحو جدير بالاعتبار .

لكن الفرنسيين لم يسكتوا . في شهر شباط سنة ١٩٢٩ اخبر المندوب السامي الفرنسي البريطانيين ،لجعل الطريق السوري اكثر جاذبية ، ان حكومته

تخطط لبناء سكة حديد عبر سورية الى الفرات . سيتم تمويلها من قبل رابطة تتألف من الحكومتين السورية واللبنانية بضمانة فرنسية . انزعج البريطانيون ليعلموا انه طمأن أيضاً الشركة التركية للبترول ان فرنسا ستبني ميناء «درجة اولى» في طرابلس - «مهما كانت التكلفة ، ومهما كانت احتمالية السلبيات الطبيعية» . في تلك الأثناء ، فشل ادعاء البريطانيين ان امتداد خط الأنابيب عبر فلسطين «المسالمة» سيكون اكثر أمانا ، وفي شهر آب / أغسطس سنة ١٩٢٩ ، نشبت عمليات شغب في القدس سببت مجزرة عرب يهودية في الخليل وهجمات انتقام في الدولة المنتدبة أسفرت عن مقتل مئتي واحد وسبعين ، وخمسمائة وثمانين جريحا . بعد اقل من ثلاثة أسابيع كتب ضابط اتصالات بريطاني في مركز القيادة الفرنسي في بيروت تقريرا ان شركة العراق للبترول - كما غيرت الشركة التركية للبترول اسمها فيما بعد - طلبت إذنا لإجراء دراسة عن الطريق الذي اقترحه الفرنسيون .

عندما خسر المحافظون الانتخابات العامة في نهاية شهر ايار / مايو ، بعد فترة قصيرة درست الموضوع حكومة حزب العمال التي حلت محلهم . القلق الرئيسي لتلك الفترة كان البطالة حتى قبل حادثة الوول ستريت ،لذلك بسبب البطالة ناقش وزير المستعمرات الجديد اللورد باسفيلد انه يجب على مجلس الوزراء دعم سكة الحديد في حيفا لان تكلفة المليون والنصف جنيه تفوقها اهمية الثلاثة ملايين جنيه الناتجة عن تشغيل الاموال التي من المتوقع ان يولدها بناء سكة الحديد في بريطانيا . آخرون في مجلس الوزراء كانوا اقل تأكدا . احد زملاء باسفيلد شعر انه يجب ان لا يتم شيء حتى يصبح واضحا ان الفرنسيين قد بداوا بانفاق المال فعليا . واخر أشار الى رفضه دعم «مقامرة والتي ما من سلطة يمكنها ان تضمن لنا عوائد تجارية» . بالمجمل ، شاركه مجلس الوزراء في شكوكه ، وتم تأجيل القرار مرة اخرى .

عاد الامر الى السطح مجددا عندما استلمت الحكومة البريطانية رسالة

من كادمان في اليوم العشرين من شهر آذار / مارس سنة ١٩٣٠ . حذر فيها كادمان الحكومة بانه اذا لم يكن بإمكانها عرض «تسهيلات مالية وتسهيلات اخرى» ، ستختار شركة العراق للبترول الطريق السوري الشمالي ، الذي سيكون تكلفة بنائه وإدارته أرخص . اقترح انه يجب على الحكومة البريطانية ان تفتح مباشرة مفاوضات مع الفرنسيين لتتوصل الى الشروط الافضل قدر المستطاع وتتصرف ككفيل للشركة الدولية الجديدة التي ستبني سكة الحديد وخط الأنابيب عبر الاراضي الفرنسية . بعد ايام كشفت معلومات سرية استخباراتية الى مجلس الوزراء توحي ان كادمان لم يكن يبالغ : كان الفرنسيون قطعا يفكرون في بناء سكة حديد في محاولة لاستمالة مجلس شركة العراق للبترول .

في البداية شعر مجلس الوزراء انه ما من خيار أمامه سوى اتباع نصيحة كادمان . في اليوم الاول من شهر ايار / مايو تم تقديم النصيحة له ان الفرنسيين سيتخذون «موقفا سخيا» في أية مفاوضات حول منفذ سكة الحديد وبناء مصب النفط لأنهم يحتاجون مساعدة الحكومة البريطانية لإقناع العراقيين . لكن عندما صرحت الأميرالية ان اتباع نصيحة كادمان كارثة ، كان هنالك تغير في الموقف . وافق مجلس الوزراء على عدم اتخاذ قرار حتى يتم معرفة رأي الحكومة العراقية .

تجنبت الحكومة البريطانية مسالة خط الأنابيب في تعاملها مع الحكومة العراقية تقريب السنة ، عندما في اليوم الثالث عشر من شهر ايار / مايو ، التقى المندوب السامي البريطاني في بغداد بفيصل ، ورئيس الوزراء العراقي نوري سعيد ووزير الدفاع جعفر باشا ، وكشف عما كان يجري . مسرورون من العرض البريطاني بدعم استقلال العراق ، جوابهم كان متوقعا بالكامل ، وتماما ما كان يريده البريطانيون . الثلاثة كلهم كانوا معارضين للطريق السوري بكامله ، ووصلوا الى درجة إيقاف المفاوضات حول تغيير الامتيازات التي

كانت تحتاجها شركة العراق للبترول . وقالوا انه ما من شيء تستطيع الحكومة الفرنسية فعله لاغرائهم حتى يوافقوا على عرض طرابلس . شكل جواب بغداد غير القابل للمساومة اساسا لاتفاق . عندما التقى كادمان الحكومة البريطانية ذاك الصيف لاجراء المحادثات ، اصبح من الواضح ان أولوياته تعديل اتفاق سنة ١٩٢٥ حتى لا تواجه الشركة منافسة من الشركات الاخرى التي كانت تقنص الامتيازات في شمال العراق . أيضاً اعترف سرا انه شخصيا يفضل طريق حيفا الجنوبي ، ربما لانه ، طريق العراقيين المفضل أيضاً ، دعمه في وجه إثارة الجدل الفرنسي المثير للاهمية حول الفائدة الاقتصادية من ورائه يمثل افضل طريقة لإقناع العراقيين تعديل الامتياز الاصلي . اذا عرض العراقيون مفاوضة الاتفاق الاول مقابل دعم شركة العراق للبترول لطريق حيفا ، توقع ان يوافق مجلس شركة العراق للبترول على ذلك .

شكلت التسوية اساس المحادثات مع فيصل ، الذي وصل الى لندن بعد فترة قصيرة ليتفاوض مع كادمان . بعد وساطة سرية ومن دون اذن او علم احد من قبل المندوب السامي البريطاني في بغداد ، الذي جاء ايضا الى لندن بنفس الوقت ، قدم كادمان الاتفاق الى مجلس شركة العراق للبترول في اجتماع في اليوم الثالث عشر من شهر آب / أغسطس . لكن تم تأجيل المناقشة ، عندما اعلن ممثل الشركة الاميركية للتنمية في الشرق الأدنى انه يحتاج الى اخذ التعليمات من نيويورك .

غاضبون بسبب تراجع نجاحاتهم ، أدرك الفرنسيون ان الأميركيين لم يقرروا بعد فيما اذا سيدعمون مبادرة كادمان . من قبل الكاي دورسيه في اليوم السادس عشر من شهر آب / أغسطس مصرفي فرنسي كبير اسمه هوراس فاينلي دعى للغداء رئيس «الستاندرد أويل نيوجرسي» والتر تيغل ، الذي كان يعبر من باريس في ذلك الوقت ، كان عماد الشركة الاميركية للتنمية في الشرق الأدنى - كان ينظر الى الشركة على انها طريقة لكسب دعم وزارة

الخارجية قبل تسع سنوات . مصرف فاينلي ٦١ «بارىباس» زود «جيرسي ستاندارد» بدعم سياسي ومالي عندما أنشأ معونة مالية قبل عدة سنوات ، لكنه بالغ في تقدير نفوذه عندما أشار بخبث لتيغل «كم هو مفيد ان تتجنب «استاندرد» تبني موقف غير ودي مع فرنسا في شان خط الأنابيب هذا» . في السنتين الماضيتين قدمت الحكومة الفرنسية حصص الاستيراد وانشات شركة مصفاة جديدة التي أجبرت على استعمالها شركات النفط الاجنبية الموجودة مسبقا على الاراضي الفرنسية . كان هدفها حماية صناعة النفط الفرنسية التي ما زالت في طور التكوين وخلق سوق محلي محدد لأسهمهم في النفط العراقي ، لكنهم نجحوا في إزعاج الشركات الاميركية التي تدير أعمالها في فرنسا . لذلك جاء جواب تيغارت لفاينلي فظا . لا تستطيع فرنسا ان تتوقع من الشركات الاميركية الضخمة «ان تقدم دعما وديا في لندن اذا كانت ترهقهم في بلدها» .

ذهب تيغارت من باريس الى لندن ، حيث التقى بكادمان ليناقش خط الأنابيب . كان كلا الرجلين يعرف عمق الشعور الفرنسي تجاه الموضوع– ادعى رئيس الوزراء اندريه تارديو بخصوص خط الانابيب انه «ما من حكومة فرنسية تتنازل عن هذه البطاقة وتستمر»– لذلك عليهم ان يتوصلوا الى تسوية . اثيرت مناقشات في الوايتهول قبل أسابيع عن احتمالية وصول خط أنابيب مقسوم الى فرعين يصل الى كل من حيفا وطرابلس ، واتفق الرجلان على متابعة هذا اكثر الان . اتصل تيغل بماسح الاراضي الذي قيم وضع الطريق السوري باكرا من تلك السنة ليثمن هذا الخيار ، ألغى كادمان لقاءه مع الحكومة البريطانية لإعطاء تيغل الوقت ليعود الى فرنسا ليتكلم مع تارديو . اخبر تيغل تارديو ان دعما لهذا الحل الجديد يعتمد على تخفيف التقييدات التي يواجهها الان في فرنسا . لم يكن امام تارديو الكثير من الخيارات سوى الموافقة .

كان الفرنسيون منزعجين لانه تم التفوق عليهم بالمناورات . في اجتماع

في وزارة الخارجية الفرنسيى في الكاي دورسيه اشتكى فيليب بيرثلوت من الطريقة التي تمكن بها من الربط بنجاح الحاجة الى تنقيح الامتياز مع مسالة طريق خط الأنابيب . هدد الفرنسيون باللجوء الى اتخاذ اجراء قانوني ، والتغطية الإعلامية العدوانية المفضلة لديهم منذ القديم . حتى انهم بسرعة قدموا عروضا لفيصل ، ليروا اذا كان مهتما في ان يكون ملكا على سورية . لكنهم فشلوا في إيقاف خط الأنابيب المقسوم الى فرعين من المضي قدما . تم الاتفاق على هذا المبدا في شهر تشرين الأول / اكتوبر ذاك . معاهدة منقحة تقلب فيها الرأي وفي النهاية تم التوصل الى اتفاق في شهر آذار / مارس سنة ١٩٣١ . تم تهدئة الأميركيين : عندما اعلنت فرنسا حصص الاستيراد الجديدة تلك السنة ، استلمت شركة تيغل ثلاثة أضعاف ما كان مخصصا للشركة الإنكلو ـ إيرانية . وأخيرا وضع خط الأنابيب موضع الخدمة سنة ١٩٣٤ . قال احد جيولوجي النفط انه كان»احد أضخم الانجازات الجيولوجية الهندسية في السنوات الحديثة» .

وصل تصميم بريطانيا على تعزيز السيطرة على نفط العراق الى خاتمة موفقة ، لكن الثمن كان تفاقم العلاقات اكثر مع الفرنسيين . كما لاحظ وزير المستعمرات اللورد باسفيلد ، «إيماننا بعدم التدخل والحيادية الكاملة ترك الحكومة الفرنسية غير مقتنعة وغير متأثرة بالكامل . لا يصدقون ان إصرار الحكومة العراقية على ان مخطط حيفا كان شيئا اخر غير التأثر المباشر بحكومة جلالته لكنهم كانوا «لطفاء جداً ليكتبوا هذا على الورق» .

المشاجرة كانت بالتأكيد تستاهل ، لانه حتى سنة ١٩٤٠ انتجت حقول النفط العراقية اربعة ملايين طنا من النفط في السنة ؛ لبت حصة بريطانيا من الانتاج المجمل خمسة بالمئة من الاحتياجات المحلية ، لكنها غطت كل الاحتياجات لأسطولها في البحر المتوسط . تعجب قليل ، في ذلك الوقت ، لقبت مجلة «التايمز» خط الأنابيب بانه «الشريان السباتي للامبراطورية

البريطانية» . حصلت عليه بريطانيا سنة ١٩٢٠ ليكون بمثابة حصن شرقي لقناة السويس ، فلسطين الان حصلت على اهمية استراتيجية جديدة كمنفذ لنفط العراق . ما جعل البريطانيين مصممين على التشبث بتلك المنطقة ـ وسط المعارضة المتصاعدة لوجودهم ـ على ما يبدو تقريبا باي ثمن .

الفصل الثالث عشر

انتقام !انتقام !

في يوم الاثنين الثالث من شهر آب / أغسطس سنة ١٩٣٦ ، عرف قراء الصحف البريطانية بتجدد اعمال العنف في عطل الاسبوع شمال فلسطين . جرح اربعة جنود بريطانيين اثناء هجمات قامت بها عصابة عربية في منطقة العفولة وهي قرية تقع على الهضاب تماماً جنوب الناصرة . في ميناء حيفا جهة الغرب ، قتل محقق عربي في شرطة فلسطين بإطلاق النار عليه ، واخر جرح وهو شرطي عربي كنستبل(أدنى الرتب العسكرية) . قتل حارسين يهود في قرية الريحانية ، القريبة من الحدود اللبنانية وجرح يهودي اخر في حيفا . وتماما على حدود ترانس الأردن ، وفي محاولتين تم فتح اكثر من ثقب في خط الأنابيب الجديد والذي يصل شمال العراق بحيفا مما أدى الى اشتعال النفط . قالت»التايمز» انه كان يمكن رؤية النار المشتعله على بعد عشرين ميلا ، والقت اللوم على عصابة عربية اخرى . الوضع الذي تطور في السنوات الثلاث التالية سيعكس نفس ما حدث في جبل الدروز قبل عقد من الزمن . لكن هذه المرة معارضون عرب للحكم الأجنبي سيستخدمون سورية كملجأ آمن لشن هجماتهم على فلسطين المجاورة . رفض فرنسا مساعدة البريطانيين سيشكل بعمق الطريقة التي حاول البريطانيون التعامل فيها مع الإرهاب . ما

هو معروف الان بالثورة العربية قد بدا قبل اربعة اشهر عندما في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٣٦ ، على الطريق بين طولكرم ونابلس ، باغت قطاع طرق عرب باصا لسرقة ركابه العرب واليهود . قتلوا احد اليهود وأصابوا بجروح خطرة اثنين آخرين ، احدهما مات في وقتها . قرر يهوديان الانتقام في اليوم التالي ، ذهبا الى كوخ مزارع عربي في منطقة نائية قرب بيت تقوى وقتلا اثنين كانا يسكنان فيه . أنباء هذا الانتقام أشعلت فتيل الشغب في يافا ، المرفأ الرئيسي في فلسطين . كتب ضابط بريطاني كان حاضرا في ذلك الوقت : «سرعان ما انتشر في المكانين سيارات مخربة وباصات محروقة وسط التمرغ بالدم ، حجارة وزجاج محطم» . نظم العرب انفسهم بسرعة لم يسبق لها مثيل ، مشكلين اللجنة العربية العليا لينسقوا إضرابات عبر الدولة المنتدبة ، احتجاجا على دعم الادارة البريطانية المستمر لهجرة اليهود .

لم تكن هجرة اليهود الى فلسطين مشكلة سياسية ، حتى وقت قريب . العمل الذي يتطلبه جعل البلد مستعمرة لم يكن جذابا ، مثل تكسير الحجارة وتصريف المستنقعات التي تنقل الملاريا ، وفي بداية فترة العشرينيات لم يختار الانتقال الى فلسطين الا عدد قليل من اليهود . في سنة ١٩٢٧ ، كان هنالك بالفعل هجرة يهود صرفة من الدولة المنتدبة ؛ وصلت بطالة اليهود الى ستة آلاف تلك السنة : تقريبا عشرة بالمئة من الفئة العاملة .

سياسات هجرة اكثر تشددا جلبت من قبل الولايات المتحدة ودول غربية اخرى في فترة العشرينيات بدات تغير هذا الوضع من خلال تضييق الخيارات لهجرة اليهود . وصول اليهود من اوروبا الشرقية مع طموح لإقامة دولة مستقلة أدى الى توترات متنامية مع العرب ، بالتحديد في القدس عند حائط «المبكى»- جهة الغرب والذي هو كل ما تبقى من المعبد . اليوم ، هنالك رواق كبير امام الحائط ، لكن في فترة العشرينيات لم يكن موجودا . كانت المنطقة مزدحمة ببيوت المسلمين ، والحائط نفسه ببساطة كان يشكل جانبا

واحدا من ممر ضيق . منفذ اليهود الوحيد للحائط اصبح مصدر احتكاك . اشتكى المسلمون سنة ١٩٢٨ عندما نصب اليهود ستارا كبيرا عبر الممر ليفصلوا المصلين الرجال عن النساء . مظاهرة عند حائط البراق في شهر آب / أغسطس سنة ١٩٢٩ من قبل يهود شباب راديكاليين أسفرت عن عمليات شغب امتدت الى البلدات المجاورة في الخليل وصفد . قتل فيها مائتين وواحد وسبعين بين يهودي وعربي ، وجرح خمسمائة وثمانين آخرين . كان ممكن ليهود اكثر ان يموتوا في الخليل لولا لم يخباهم عرب متعاطفون معهم .

البريطانيون الذين بداوا مهمتهم واثقين من انفسهم جداً من انه بإمكانهم حل التوترات العربية ـ اليهودية بنجاح ، لم يستطيعوا إيقاف العنف واضعف الانتقاد المضني والمنهك ثقتهم بنفسهم . كتب احد الجنرالات «ان عرق النبلاء واصحاب الأنساب الرفيعة لا يخضعون للمبشرين أبدا ، اشك في هذا كثيرا» . بدا يتضح لهم انهم ليسوا فقط لن يتمكنوا من إصلاح هذا الصدع ، بل أيضاً سياستهم كانت تفاقم الوضع سوءا .

في شهر ايار / مايو سنة ١٩٣٠اخبر المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، السير جون شانسلر ، بصراحة الحكومة البريطانية ان سياستها في دعم التطلعات الصهيونية «خطا فادح» . معتقدا ان الأسباب الغير مباشرة للشغب هجرة اليهود المستمرة وشراء الاراضي من الفقراء والمزارعين العرب المثقلين بالديون ، ناقش انه يجب على الحكومة التدخل حتى تحد من كلا هذين السببين . اذا لم يفعلوا هذا ، تنبأ باضطراب اكثر في فلسطين . «سيكون هنالك عودة للاضطرابات» ، حذر بالأخص ، «سيكونون في المناسبة التالية اكثر هولا من تلك المرات في شهر اب الاخير ؛ لان كلا الطرفين الان يهرب الاسلحة الى البلد ، ستصبح الثورات منظمة ، وسيحصل العرب الفلسطينون على دعم العرب المادي تقريبا بشكل لا يمكن تجنبه من المناطق المجاورة وبالتأكيد الدعم المعنوي من كل العالم الاسلامي» .

عودة الى لندن ، في البداية اتبعت حكومة حزب العمال نصيحة تشانسلر ، لكن بسرعة تراجعت بعد ذلك . لانها نشرت الكتاب الابيض التي تعرض الحد من هجرة اليهود ، وجدت نفسها تحت هجوم مؤيدي الحركة الصهيونية الذين اتهموا الحكومة بخرق شروط الانتداب . تم رشق وزير المستعمرات اللورد باسفيلد بالحجارة ، عندما زار تل أبيب في شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٣٠ . الحكومة التي لم تحصل على اغلبية في البرلمان ، خافت . رئيس الوزراء رامزي ماكدونالد ، كتب الى وايزمان ليؤكد له ان الحكومة لا تنوي الان تحويل الورقة البيضاء الى قانون . قرات بصوت عال في البرلمان شهر شباط / فبراير سنة ١٩٣١ ، هذه «الرسالة السوداء» (كما لقبها العرب) أكدت ان الهجرة ستستمر حسب «قدرة فلسطين الاقتصادية على الاستيعاب» ، صيغة علميا لها وقع على الاذان لكنها بلا معنى ابتكرها تشرشل عندما كان مسؤولا عن فلسطين قبل عقد من الزمن .

بناء على ذلك ، عززت بريطانيا دعمها هجرة اليهود بطريقة مترددة ـ ما كان سببا رئيسيا لثورة العرب التي تلت في سنة ١٩٣٦ ـ في حقبة عندما ، عقب استيلاء هتلر على السلطة سنة ١٩٣٣ ، ارتفع فجاة عدد طالبي اللجوء الى فلسطين . بينما في سنة ١٩٣٢ وصل فقط تسعة آلاف وخمسمائة يهودي الى فلسطين ، جاء السنة التي تلت بكثرة ثلاثة أضعاف القادمين . كان هنالك خمسين بالمائة اخرى زيادة في الهجرة سنة ١٩٣٤ ، وقفزة اخرى مماثلة من حيث الحجم السنة التي تلت ، عندما تم تطبيق قوانين نورمبورغ المعادية للسامية في المانيا . وصول اكثر من واحد وستين الف يهودي الى فلسطين تلك السنة أوصل الشعب اليهودي في الانتداب الى ثلاثمائة وخمسة وخمسين الف – وصل الى مجموع عدد في سرعة لم يتصورها البريطانيون أبدا . يشكل اليهود الان اكثر من ربع سكان فلسطين ، نسبة كانت تصل الى تسعة بالمئة قبل خمسة عشرة سنة .

خلقت هجرة اليهود طلبا للأرض التي كان الشعب العربي الفقير تحت ضغط متصاعد حتى يشطبوا على كل شيء وبثمن رخيص . بينما ، في السنوات المبكرة من الانتداب ، اشترى اليهود أراضي من ملاك الاراضي العرب الأثرياء يعيشون في سورية ولبنان الذين أرادوا التخلص من عقاراتهم في فلسطين التي تم اقتطاعها مع رسم الحدود ، حتى اواخر فترة العشرينيات كانوا يشترون من العرب الفلاحين والقرويين . «فقراء بشكل مؤلم و . . . مثقلين بالديون من مال الربا من الدائنين» ، حسب المندوب السامي تشانسلر ، لم يكن أمامهم» أي بديل سوى بيع أراضيهم حتى يبرؤا ذمتهم من الديون» . العرب الذين باعوا البيوت او من كان يستأجر تلك البيوت ، كانوا عادة يتم جعلهم إخلاء المكان من قبل المشترين اليهود . «لسوء الحظ كان جزءا من عملنا ان نتأكد انهم رحلوا» ، هذا ما قاله شرطي اسمه روبن كيتسون الذي انتسب الى القوة بسبب قوة الاعلان الذي رآه في بريطانيا . اعتقد انه» سيكون شيئا حسنا الذهاب الى فلسطين ، من دون ان اعرف شيئا اكثر من ذلك» .

تركيب خط الأنابيب عبر شمال فلسطين فاقم وضعا كان بطبيعة الحال متوترا . حسب اتفاق كان حصيلة مفاوضات مع الحكومة البريطانية ، بامكان شركة العراق للبترول الاعتماد مجانا على إمدادات المياه المحلية حسب احتياجاتها الخاصة ، واضعا إياها في موقع مضاربة مع المزارعين المحليين . بشكل يبعث الحيرة ، لم يتم تعويض اصحاب الاراضي بسبب التعطيل الذي سببه خط الأنابيب الذي يجري عبر أراضيهم . احد محللي الاتفاق الذي عقدته الحكومة البريطانية كان انتقاده لاذعا للغاية حيث كتب سنة ١٩٣٢ «السلطة الاكثر اهمية في شركة العراق للبترول سمحت لهذه الشركة بالحق الهام جدا بالعبور من فلسطين من دون تقديم تعويضات كافية في المقابل ، ومن دون الأخذ بعين الاعتبار مصالح السكان بشكل كاف ، وبينما عملوا على حد الكثير من حقوق السكان التي لها الأولوية عندهم» .

الرجل الذي استغل الان الغضب الذي سببته هجرة اليهود الحاج محمد امين الحسيني ، مفتي القدس الاكبر . رجل قصير حذر ناعم الملامح الى حد ما شعره احمر وعينين زرق ولثغة في النطق ، يدين امين بمكانته كمفتي رئيسي للشريعة الى ولادته في اسرة فلسطينية من بين اكبر العائلات نفوذا في فلسطين . بعد الدراسة في جامعة الازهر في القاهرة حيث أسس ناديا للمعارضين للهجرة اليهودية الى فلسطين ، خدم في الجيش العثماني اثناء الحرب ، انشق للبريطانيين عقب الاستيلاء على القدس سنة ١٩١٧ ، وحينها ايد فيصل ليصبح ملكا على سورية وفلسطين الموحدتين في فترة بعد الحرب المضطربة مهمة كرين ـ كينغ والكونغرس السوري العام بعد الحرب تلك الفترة التي كانت مضطربة . في اليوم الرابع من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٢٠ ، عندما انفجرت حالات الشغب في القدس في مهرجان النبي موسى ، هو الذي كان واقفا على شرفة النادي العربي ، حاملا صورة فيصل وبشكل استفزازي صائحا للحشد الهائج في الأسفل : «هذا هو ملككم» .

لم يقضي امين في السجن حكم العشر سنوات بتهمة التحريض بسبب هذا الاعلان ، لانه هرب عبر الأردن وبعد فترة قصيرة تم العفو عنه من قبل المندوب السامي البريطاني في فلسطين تلك الفترة ، السير هربرت صاموئيل . في وقت ، بدا فيه هذا التصرف مثل إيماءة لتقوية وتمتين النفوذ البريطاني في ترانس الاردن ، ما كان ثمنا بسيطا يجب دفعه .

ليس بعد مدة طويلة من عودة امين الى القدس عقب العفو ، حتى بدا من الواضح ان أخاه الكبير كمال ، المفتي في ذلك الوقت ، يحتضر على فراش الموت . بالرغم من ان أباهما كان يحمل اللقب قبل كمال ، لم تكن هذه الوظيفة وراثية . ولانه كان يتوقع حصول خلاف على الوراثة مع عائلة النشاشيبي المنافسة لهم ، قرر امين تغيير غطاء الرأس ليثبت ولاءه للعرب . لانه بدل الطربوش التركي التقليدي بعمامة ، وكان لديه المتسع من الوقت

ليرخي لحية مقنعة في مظهرها قبل ان يموت اخوه في شهر آذار / مارس السنة التالية .

حاول البريطانيون الموازنة بين الحسينيين والنشاشيبيين من خلال تقسيم الوظائف الحكومية الرئيسية في فلسطين بينهما . عقب حالات الشغب في احتفالات النبي موسى طردوا الحسيني محافظ القدس واستبدلوه بواحد من عائلة النشاشيبي . جزئيا لانه جاء الان دور الحسيني مجددا ، وجزئيا لان البريطانيين تاملوا ان المسؤولية المضافة قد تجعل امين اكثر تعقلا ، وافقوا على جعل مثير الغوغاء السابق المفتي الاكبر على المدينة المقدسة في شهر ايار / مايو سنة ١٩٢١ . السنة التالية ساعدوه ليضمن رئاسة المجلس الاسلامي الاعلى الجديد ، والذي كان مسؤولا فيه عن نفقة محاكم الشريعة والأوقاف التي تشكل عشرة بالمئة من النفقة .

أعطت الرئاسة امين سلطة مالية قوية . وقتها كان يسيطر على ميزانية تبلغ خمسين الف جنيها ، التي انفقها بحذر بطرق تعزز مكانته لدى مقارنتها بالنشاشيبي . رفع مبلغا اخر يبلغ ثمانين الف جنيها من خلال مناشدته العالم الاسلامي بطريقة داهية من اجل تمويل ترميم قبة الصخرة والمسجد الأقصى فوق رابية المعبد ، كلاهما كان يحتاج بشكل ملح الى إصلاحات . في ذلك كان وقته رائعا . في الوقت الذي ابطل فيه الاتراك الخليفة وطرد السعوديون الشريف حسين من مكة ، طالب امين الحسيني بطريقة فعالة ومؤثرة بقيادة العالم الاسلامي . عندما ثار الدروز ضد الفرنسيين ، أسس جمعية إغاثة لجمع التبرعات وتنظيم إرسال الطعام والمواد الطبية عبر الحدود الى الثوار ؛ اعتقد الفرنسيون ان المال من دعوة المسجد كان يتم تحويلها لشراء أسلحة لمعارضيهم في سورية .

دور تنظيم مقاومة ضد الفرنسيين قرب المفتي من الوطنيين ، لكنه أيضاً وضعه في موقف يبعث على الغضب منه حيث عليه ان يخدم سيدين . من

ناحية واحدة البريطانيين ، الذين كانوا يدفعون له ليوجه العرب ؛ من ناحية اخرى القوميين ، الذين سيدعمونه مقابل المال . حادثة في سنة ١٩٣٥ أجبرته على الاختيار بينهما ، ما عجل وقوع المشاكل التي تلت .

في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٣٥ واعظ سوري حاد الطباع اسمه الشيخ عز الدين القسام قتل بإطلاق النار عليه في مناوشة مع القوات البريطانية في هضاب الجليل . لان القسام قد جذب عددا كبيرا من الاتباع العرب الشباب المخيب أملهم في حيفا ، سببت أنباء مقتله اضطرابات في البلدة . صحافي عربي شهد عودة جثمان القسام واتباعه كتب كيف ، عندما كانت الأجساد محمولة في الشوارع ، «صاح صوت : الثأر! الثأر! «الحشد الذي تجمهر لحضور الجنازة «أجاب بصوت واحد مثل هدير الرعد» . هتفوا وراءه «الثأر! الثأر» .!

موت القسام كان نقطة تحول لانها أجبرت المفتي على اختيار اي السيدين سيخدم . لان وضعه في الحركة العربية كان مهددا من قبل النشاشيبين ، قرر انه من الحكمة اكثر اتخاذ خطا أقسى مع البريطانيين . بعد اطلاق نار في حادثة الباص شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٣٦ سأله زعماء مختلف الفصائل الوطنية فيما اذا أراد ان يكون رئيساً للجنة العربية العليا المتأسسة حديثاً ، وافق المفتي .

بقيادة المفتي دعت اللجنة العربية العليا الى إضراب عام ما عطل فلسطين ذاك الصيف . أيضاً أباحت العنف . فوزي القاوقجي ، الرجل الذي سبب الكثير من المشاكل للفرنسيين في حماه قبل عشر سنوات ، ظهر في فلسطين مع قوة تتألف من مئتي عربي من سورية والعراق وترانس الاردن لمهاجمة أهداف بريطانية ويهودية . بنوا حواجزا ، قطعوا أسلاك التيليغراف ، القوا القنابل في الاسواق المكتظة وهاجموا خط أنابيب الشركة العراقية للبترول الجديد . شجع التمرد على القانون الذي نتج عن ذلك سلسلة من رجال آخرين محليين

ليستغلوا هذا الوضع . هؤلاء كانوا قطاع طرق ، وليسوا اصحاب أيديولوجيات الذين رأوا من وراء هذه الظروف احتمال تعظيم الواحد منهم لنفسه . احدهم الشيخ يوسف ابو درة ، في السابق كان بائع ليموناضة جوال في سوق حيفا . «ليس لعائلته تاريخ في الزعامة ، ولقب شيخ من دون شك هو منحه لنفسه» ، كما قال رجل شرطة بريطاني .

لان البريطانيين لم يعطوا اهمية لمعارضيهم العرب ، اتخذوا في البداية موقفا متساهلا من هذا العنف ، جزئيا لان ابطالها بدوا شغل هواة ، وجزئيا لانها قبل كل شيء تستهدف اليهود . «كله كان لهوا محضا» ، تذكر احدهم وهو رجل شرطة كبير . «طاردناهم وهم يبذلون جهدهم ليبتعدوا عن الطريق . . . كنت تطارد عدوا يمكنك رؤيته ، الذي يقف ويطلق النار عليك ، وانت تطلق النار عليه . لم تكن مسالة ارض تخفي ألغاما او قتل عن طريق المباغتة . كما حصل لاحقا» .

لم يستغرق الكثير من الوقت من قبل العصابات لتحويل» قلق شديد على سلامة جلدهم «(كما وضعها احد البريطانيين) الى صالحهم . عارفين انه ليس بإمكانهم ربح مواجهة مع الجند البريطاني المسلح جيدا في وضح النهار ، لجأوا الى تكتيكات العصابات ، زارعين ألغاما في الليل لإفشال الجهود البريطانية باقتفاء أثرهم . روى احد الجنود»يتركون لغما في منطقة داخلية على منعطف جبل على الطريق» ، مضيفا «حتى عندما تتعثر حافلة التي تعبر الطريق في السلك الممدود على الارض ردة فعل السائق الغريزية ان يدير العجلة بعيدا عن صوت الفرقعة الى حافة الطريق . . . وتقع بعد ذلك السيارة» . عندما انفجرت شاحنة اخرى على الحافة بظروف مماثلة ، وجد السائق قليل البخت داخل صندوق السيارة بعمق قدم واحد . استغرق في التفكير «لورانس العرب بالتأكيد علم العرب كيف يصنعون القنابل» .

ما أثبته أيضاً لورانس ان من الجهل الاستخفاف بحرب العصابات ، لا

يهم كم يبدون همجيين وغير منظمين ، وهذا كان حقيقة ان البريطانيين الان اجبروا على ان يتعلموا من ذلك . ضبط عصيان مسلح يتطلب عددا كبيرا من الجند المتنقل ، لكن البريطانيين لا يملكون القوة البشرية ولا التنقل الذي يحتاجه ذلك لينجحوا . بملابسهم الرسمية الزرقاء الثقيلة المصنوعة من القماش الصوفي الخشن ، يمكن رؤية الشرطة على بعد ميلا . يصلون الى مسرح الجريمة «و هم يتصببون عرقا وبشكل لا يستهان به ملطخين بالوحل» . الجنود مثقلون بأسلحتهم مثل مدافع الهاون ، والبرين (و هو سلاح رشاش خفيف الوزن يعتمد على الغاز ليعمل) يعلق بالرمل ، لذلك يبقون بطيئين . مع الوقت بداوا يلحقون بهم ، كما لاحظ احد ضباط المخابرات في الجيش ، «الرجال الذين كنت تطلق عليهم النار قبل ساعة تراهم بإمان الان جالسين في المقاهي او تراهم في الحقول ، بينما القرويون من رجل او امرأة مستعدين بالكامل للتستر عليهم» .

بالتأكيد بعض العرب يدعمون المتمردين ، لكن سببا آخراً لماذا يرفضون التعاون مع البريطانيين لأنهم كانوا مذعورين مما سيحدث لهم اذا فعلوا ذلك . عندما نجا بصعوبة زعيم العصابة وبائع الليموناضة السابق ابو درة من القوات البريطانية ، الذي شك ان ذلك كان نتيجة وشاية ما ، عاد للقرية حيث كاد يتم إلقاء القبض عليه ، وجد المختار وقتله امام أسرته . أجبرت العصابات العرب المحليين على ان يبرهنوا عن ولاءهم بطرق اخرى ماكرة . حرمت العصابات الرجال من لبس الطرابيش ومن الحلاقة ، وحذرت النساء من «الكشف عن صدورهن واذرعتهن ـ فساتينهن يجب ان تكون متواضعة للغاية ويجب ان تغطي الركبة» .

البريطانيون ، لا تصلهم المعلومات كما يجب ، ليسوا أقوياء كفاية ، غير مجهزين جيدا وخائفين من تهديد الألغام ، كانوا مجبرين على الدفاع . توقفت الحراسة بعد حلول الظلام ، وما ان يسيطر الثوار في الليل ، تترك

الشرطة مخافرها البعيدة لانها اصبحت أفخاخ الموت . وجد الموظفون البريطانيون بعد زيارتهم لثكنات الشرطة ، ان «قدرا كبيرا من الوقت والطاقة «كان يتم الان» هدره على «التنظيف والتلميع» ، عمل المكاتب الخ من قبل رجال الشرطة الذين لم يعودوا بعد الان يجرؤن على المخاطرة بالخروج خلف الجدران . وهذا التخفيض له عاقبة هامة : سمحت للثوار بالتحرك جيئة وذهابا عبر الحدود مع سورية ولبنان والافلات من العقوبة .

كان البريطانيون يناقشون فيما بينهم حول كيف سيتعاملون مع المشاكل حتى نهاية سنة ١٩٣٦ . القائد الجديد للقوات البريطانية في فلسطين ، السير جون ديل ، الذي وصل في شهر أيلول ليقود قوة بريطانية موسعة تتألف من عشرين الف رجل ، أراد فرض الأحكام العسكرية ، بينما قاومه المندوب السامي البريطاني ، السير أرثر ووشوب ، لانه لم يريد الاعتراف بالفشل . ووشوب ، الذي أعطى الانطباع بصدق «انه لوحده كان قادر على . . . تحقيق استتباب الأمن في المدينة المقدسة» ، بدلا من ذلك تقرب من المفتي عارضا عليه مهمة ملكية للتحري من الشكاوي العربية اذا ألغى الإضراب والعنف . منذ ان أثبت الإضراب انه فقط هزم نفسه بنفسه لانه جعل الوضع الاقتصادي العربي أسوا ، وبسبب اقتراب موعد حصاد الحمضيات ، في اليوم التاسع من شهر تشرين الأول / اكتوبر وافق المفتي . كمقياس الى أية درجة فقدت بريطانيا السيطرة على فلسطين ، اقترح المندوب السامي وقف اطلاق النار لمدة سبعة ايام ليسمح للرسالة ان تصل الى البلد . ثمة سيطرة على الوضع كان يتمتع بها المفتي ، على كل حال انتهى العنف فورا .

في السنة التي كانت قد رات مسبقا هتلر يعيد تسليح الراينلاند ووصل جند موسوليني الى أديس أبابا ، اشترت الهدنة للبريطانيين وقتا للتنفس . لكن الجنرال ديل أدرك ان السرعة التي جاءت مع الهدنة كانت نحس . «قد تبدو لك غريبة» ، كتب الى زميل له في لندن ، «لكنني انظر الى الجانب

المزعج الى اقصى درجة في هذا الوضع بانه دليل على السلطة التي تمتلكها اللجنة العربية العليا التي استطاعت إيقاف الثورة بالكامل وبسرعة - بكلمة واحدة» . وصلت اللجنة الملكية الموعود بها الى القدس في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٣٦ . بقيادة اللورد بيل ، قرر أعضاؤها بسرعة ان الصراع بين اليهود والعرب «لا يمكن قمعه» .

في نهاية تقريرهم الشامل المتألف من أربعمائة صفحة ، نشر في شهر تموز / يوليو السنة التالية ، بحذر شديد رجحوا تقسيم الدولة المنتدبة الى منطقتين منفصلتين يهودية وعربية . هذا العرض سيكون غير مرغوب به ، اعترفوا بذلك بسرعة ، لانه «ما من احد بينهما سيحصل على ما يريد» . لكنهم تاملوا ، بالمقابل ، ان يعترف كلا الطرفين بهذا الجواب . لان التقسيم كان الخيار الوحيد الذي يؤمن «الشيء المأمول منه والمتوقع منه . . . إحراز نعمة السلام التي لا تقدر بشيء» .

«نعتمد على اللجنة - ربما الى حد ما على نحو متفائل - لتحل صعوباتنا السياسية . يبدو كانها فقط جعلتها أسوا» ، كما كتب لاحقا ديبلوماسي بريطاني في لندن . لان اللجنه لم تقترح فقط التقسيم ، لكن رجحت بشكل تجريبي كيف يمكن تطبيقها ، في خريطة ملحقة في اخر تقريرها . قضت الخريطة على الاختلاف الموجود في التقرير الذي كان مدروسا بأناة ، لانه بشكل واضح خصص الكثير من شمال وساحل فلسطين ، على طول مع شعبه العربي ، لليهود . وبصفحة واحدة ، مهمة بيل على الفور جعلت ربع مليون عدو لبريطانيا .

اداء الجيش البريطاني البائس سنة ١٩٣٦ أعطى العرب الحافز حتى لا يقبلوا بقرار لجنة بيل ، واستأنفت العصابات حملة العنف . تجربة السنة الماضية جعلتهم واثقون من انفسهم - اكثر من واثقين من انفسهم ، من النجاح كما اتضح من تلك التجربة . كما لاحظ ديل ، القتال لمدة ستة اشهر

جعلهم «منظمين اكثر ليقاوموا اكثر من اي وقت مضى «و زعماؤهم ، خصوصا المفتي ، متمتعا «بوضع اكثر صلابة و . . . مكانة مرموقة» .

ليس فقط العرب من اعجب بالمفتي . في بريطانيا ، وسط المخاوف المتصاعدة من التهديد الالماني ، اعرب رئيس أركان الحرب عن تعاطفه المتزايد مع العرب ، الذين «كانوا فقط يحاربون للحفاظ على الارض التي يعتبرونها انها لهم» . في نهاية شهر تموز / يوليو ، قامت «الديلي تيليغراف» بتقديم الرأس المدبر للثورة العربية الى قرائها بعبارات متعاطفة بشكل واضح . «بعيون فاتحة ، التي تخترق بين فينة وأخرى بوميض مجيد ، المفتي ، في مظهره ، لا يوحي بانه مهييج سياسي او حتى بانه كاهن محارب» ، كما كتبت الصحيفة . «بل هو حارس لتمويل كبير ، مدير كل الدساتير الاسلامية ، ومعين من قبل كل قضاة الدين ، الذي اصبح قوة حركة العرب السياسية المحفزة . انه قوة فلسطين العربية الحقيقية» .

لكن الموقف السخي تجاه المفتي لم يدم طويلا . في يوم الأحد السادس والعشرين من شهر أيلول / سبتمبر قتلة عرب اطلقوا النار على معاون المندوب المركزي في فلسطين ، لويس أندراوس ، وحارسه الشخصي عندما كانا يمشيان الى الكنيسة في الناصرة . تلك كانت نقطة التحول في نهج الحكومة البريطانية في فلسطين . سابقا غير راغبة للسماح باستعمال القوة الساحقة ، كانت مضطرة ان تكون اكثر قسوة عقب الاغتيالين . بعد ثلاثة ايام أبطلت اللجنة العربية العليا ، حتى يتمكنوا من اعتقال أعضائها . اغلبهم تم احتجازهم في الصباح التالي لكن المفتي ، لبس ملابس امرأة وهرب .

ظهور المفتي مجددا في لبنان بعد ثلاثة أسابيع قدم دليلا قطعيا ان العرب الان يستخدمون سورية ولبنان كقاعدة بعيدا عن متناول البريطانيين . بعد الهدنة السنة الفائتة ، كل من فوزي القاوقجي ومتمرد اخر سيء السمعة ، محمد الأشمر ، أستقبلا بحفاوة لدى وصولهما الى دمشق . في تلك المدينة

الرجل الذي استلم مكان القسام ، الشيخ خليل محمد عيسى ، خطط لعمل جمع التبرعات وشراء الاسلحة . لم ينقص عيسى التمويل ، هذا ما اشتكى منه موظف بريطاني ، مضيفا ان بيع الاسلحة والترتيبات لمواصلاتهم الى الحدود الفلسطينية كان «يتم توليها عالمكشوف» .

الان لجا البريطانيون الى الفرنسيين طلبا للمساعدة ، لكنهم قوبلوا بالصد . عندما حث القنصل البريطاني في دمشق ، غابرييل ماكيريث ، المفوض الفرنسي في المدينة على اعتقال الأشمر ، رفض الرجل الفرنسي القيام بذلك . اخبر ماكيريث انه قلق من ان اعتقال ثمة شخصية فذة ذات شعبية قد تسبب اضطرابات . مفاتحة مماثلة قام بها السفير البريطاني في باريس الى رينيه دوينل دو سانت كوينتين في الكاي دورسيه كانت أيضاً بالمثل غير موفقة . في نهاية سنة ١٩٣٦ كانت الحكومة الفرنسية مضطرة على توقيع معاهدة تعطي السوريين حكما ذاتيا اكثر ، عقب حركة بريطانية مماثلة في مصر . بالرغم من ان البرلمان الفرنسي لم يقر على الميثاق ـ في الحقيقة لن يفعل ذلك أبدا ـ الذي اشار اليه دوينل دو سانت كوينتين رفض وقال ان فرنسا لا تستطيع القيام بشيء كثير حيال ذلك . قبل عقدين من الزمن ، كان هو من انخدع بلورانس حول المطامع البريطانية في الشرق الاوسط . لم يكن ميالا لمساعدة البريطانيين الان .

تفهم ماكيريث ذلك . يدرك ان ثمة ذكريات وليست المعاهدة ما يفسر اللامبالاة الفرنسية بالمشاكل البريطانية . تذكر انه عندما تم الحكم على الأشمر غيابيا بجريمة قتل خمسة جنود فرنسيين سنة ١٩٢٥ رفض البريطانيون تسليمه ، على أرضية انه كان لاجئا سياسيا . كتب : «فشلنا سنة ١٩٢٦ بإظهار تعاطف كاف مع الصعوبات التي عانى منها الفرنسيون هم انفسهم في سورية في ذلك الوقت» . «السلطات البريطانية في فلسطين وبالتحديد في ترانس الاردن أظهرت حسن الضيافة لقطاع طرق سوريين والمتمردين ما

علينا الان برثاء ان نتاسف على ذلك» . هذه السياسة قد عادت الان لتلسع البريطانيين ، استنتج هذا ، لانه «اغلب هؤلاء الرجال الذين استفادوا من اللجوء الان يخططون للذهاب ، او قد ذهبوا مسبقا ، الى فلسطين ، ليتابعوا أعمالهم الإرهابية ، هذه المرة موجهة الى الادارة البريطانية» .

تماماً كما كان الفرنسيون اثناء ثورة الدروز قبل عشر سنوات ، كان البريطانيون مقتنعين ان سبب قوة الثوار انهم يتمتعون بدعم ومأوى عبر الحدود . في اخر سنة ١٩٣٧ ، قام بتقييم المشكلة موظف بريطاني في فلسطين مستاء : «اذا استمرت دمشق وبيروت بتقديم قاعدة آمنة للنشاطات الإرهابية واذا كانت التقارير صحيحة ان الزعماء المنفيين يتمتعون بموارد مالية كبيرة انه من الصعب رؤية كيفية التخلص من الإرهاب في فلسطين» . بغياب مساعدة الفرنسيين ، شعر انه قد حان الوقت ان يأخذ زملاؤه الامور على عاتقهم بأيديهم . لانه ، كما وضعها هو ، «حتى يتم ايجاد طريقة لنقل الحرب الى مخيم المتمردين حتى ذلك الحين لا استطيع ان ارى اي امل في استتباب السلام بشكل كامل» .

الفصل الرابع عشر

حارب الارهاب بالارهاب

«قصير ، أصلع ، مظهره لا يؤثر في النفس» هكذا وصف الرجل من قبل احد معاصريه ، الرجل الذي في غياب المساعدة الفرنسية ، كان على وشك شن حرب خاصة ضد الثوار العرب الذين يقومون بعملياتهم من داخل سورية . لكن جيلبرت ماكيريث قنصل بريطانيا في دمشق ، اثبت ان المظاهر يمكن ان تخدع ، لانه كان رجلا داهية شجاع بطريقة تفوق العادة . كقائد كتيبة شاب في الحرب الكبرى عرف عنه بانه اخبر جنرالا انه غير مستعد لتنفيذ الهجوم الذي كلف بالقيام به لانه سيكون كارثة . ثمة تمرد كان يمكن ان يقود الى مجلس عسكري وفرقة الاعدام ، لكن ماكيريث لم يكن جبانا . في مدة ثمانية عشر شهر ترقى من رتبة ملازم الى رتبة مقدم ونال الصليب العسكري - تم وصفه بالكلمة التي ألقيت في مناسبة تكريمه بفضل شجاعته ، كيف ذهب مئة مترفي ارض مكشوفة تحت نار كثيفة ليساعد حارسا اصبح معزولا عن الاخرين . كما من الظاهر انه اخبر الجنرال ان اساس رأيه غير الملائم في خطة المعركة الاخيرة تلك مبني على استطلاع شخصي لأرض حيادية غير محتلة تقع وسط عدوين فترة الليل .

مثل العديد من ابطال الحرب ، ماكيريث كان مواجها بسؤال مقلق . ماذا سيفعل عندما تنتهي الحرب؟ ولانه التحق بخدمة القنصلية ، سنحت الفرصة له للعمل في الامبراطورية الفرنسية على نطاق واسع ضمن العالم العربي قبل ان يتم تعيينه في دمشق سنة ١٩٣٣ . هناك حيث بسرعة مقت «النفاق المطلق القاسي «لنظام الانتداب ، وليفضفض ، سخر من الموظفين الذين ارسلتهم الحكومة الفرنسية ليديروا الانتداب في سلسلة من التقارير المضحكة لكن بجفاء الى لندن . في احد الرسائل التي تستحق الذكر يصور وصول مندوب سامي فرنسي جديد ، دامين دو مارتيل ، في ملابس رسمية وصفه بانه مثل مروض الاسود «ما يشير الى تصميم الملابس» . بطريقة طريفة ، وصف موظفين اثنين فرنسيين اخرين «يجمعان عدم الخبرة والديناميكية ؛ شراكة خطرة» .

ثمة سخرية لاذعة لم تتماشى مع الوايتهول . بسرعة اتهم ماكيريث بانه معاد للفرنسيين ، لكنه رد بسيل من الكلمات على الاتهام بانه يحتقر الادارة الفرنسية . «اعلم جيدا والعب البريدج مع العديد من أعضائها» ، أجاب ، بعد فشله في مقاومة الالحاح ليضيف» ، ومثل اغلبهم» .

قبل فترة قصيرة من الكشف عن عرض لجنة بيل بالتقسيم الذي لم يلقى شعبية ، ذهب ماكيريث ليرى رئيس الوزراء السوري جميل مردم ، ليعرف ماذا يمكن ان تفعل حكومة مردم لإيقاف العصابات عن تنفيذ عملياتها عبر الحدود . المفاوض الرئيسي في معاهدة ١٩٣٦ مع الفرنسيين ، مردم كان القومي السوري الاكثر تأثيرا على الاطلاق . مظهره لطيف ، كان رجلا بعقل مثل السيف ، الذي كان يصفه الفرنسيون بدقة «كاذب لا تنتابه الحيرة» . بسرعة أدرك ماكيريث انه لن يكون من السهولة إقناعه تقديم مساعدة ، ليس فقط لانه أمضى سنة في السجن بعد ان سلمه البريطانيون من يافا اثناء ثورة الدروز . عندما سمى ماكيريث نشاط العصابات «اعمال قطاع الطرق» رد مردم

بمكر انه يفضل تسميتها «وطنية عربية» .

ولان الفرنسيين على نحو مماثل غير مستعدين لتقديم المساعدة ، قرر ماكيريث ان يأخذ على عاتقه مهمة التعامل مع الثوار . من الان فصاعدا ، كما وضعها لاحقا مع عبارة تختصر الوضع بطريقة تستحق الأخذ بعين الاعتبار ، «اغلب عملي كان ذو طبيعة استثنائية» .

سبب قناعة ماكيريث انه باستطاعته شخصيا تغيير الوضع من حقيقة انه كان يستلم معلومات دقيقة عن الثوار . في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، حضر جاسوس ، كان قد وظفه ، اجتماع الكونغرس للقوميين العرب في فندق بلودان الكبير قرب دمشق . هذا الاجتماع غير الرسمي لمدة ثلاثة ايام كان فكرة المفتي : أراد ان ينظم تظاهرة الرابطة العربية احتجاجا على قرارات لجنة بيل ، ودفع تكاليف سفر ومعيشة المبعوثين الذين التقى بهم في المنتجع . ارسل ماكيريث تقريرا عارما عن محضر الجلسة الى لندن ، حاول جعله اقل سماجة بوصفه للحظات عندما الناشطين المغادرين كانوا مضطرين لتسديد حساباتهم . «كان هناك بعض المشاهد المؤلمة عندما عدد من الزوار ، قد أنفقوا مسبقا مدخراتهم ، كانوا غير قادرين على دفع فواتير الفندق» .

اكتشف مخبر ماكيريث ان حوالى مائة من مبعوثي بلودان ، الذين كانوا مستائين من محضر جلسة الكونغرس ، اتفقوا على الاجتماع في دمشق لاحقا ليناقشوا استخدام العنف ضد البريطانيين . ارسل ماكيريث جاسوسا آخراً ليسرب اجتماعاتهم التي تجري في وقت متأخر من الليل . عندما وصلت المشروبات الى المبعوثين ، هذا العميل وجد فرصته «ليتنكر على انه متعهد المؤن» . ماكيريث ، الذي كان يمعن النظر حتى يلتقط اي تصرف غير مألوف كتب تقريرا عن كيف ، من خلال» حيلة انه يساعد في ادخال لوح الثلج لتبريد الشربات» ، تمكن رجله شهود النقاش الذي بدا أخيرا في الساعة الواحدة في صباح اليوم التالي . اكتشف الجاسوس انه يتم تخزين اسلحة بكميات كبيرة

لاستعمالها في المستقبل في مناطق نابلس وطولكرم وانه تم الاتفاق على ان العرب الذين على صلة بالبريطانيين يجب ان يكونوا مستهدفين من قبل الموجة الجديدة «للهجمات المنظمة التي تستهدف أشخاصا معينين» . اصل هذه المعلومات صحيح ، رغم ان التفاصيل المتقاطعة معها بالمستهدفين لم تكن صحيحة . بعد أسبوعين من كتابة ماكيريث لتلك التقارير عن هذه المعلومات الى لندن ، قتل المأمور المركزي أندروس بإطلاق النار عليه في الناصرة .

بعد مقتل أندروس بفترة قصيرة كتب ماكيريث ان استئنافا عاما للأعمال العدوانية على الأبواب .

اخبر لندن انه تأكد «من دون شك» من وجود عصابات صغيرة من السوريين شكلها قادة مجموعات ، وقد استلمت تلك العصابات كمية كبيرة من المال تتراوح بين جنيهين واربع جنيهات فلسطينية ، بندقية ، جولة من الذخائر ، وجلباب ، وزجاجة ماء» . كانوا ينتظرون إشارة ليذهبوا الى الموعد في الهضاب في الضفة الغربية .

استأجر ماكيريث الان قاتلا ماجورا من العرب ليعترض طريق العصابات في منطقة الحدود . احد عملياته قتلت ثلاثة مهربي أسلحة والقت القبض على حوالي أربعين سلاح وصندوقي ديناميت . أيضاً ماكيريث نظم اقتحاما لبيوت دمشق لاثنين من زعماء لعصابات الثوار العرب ، الشخص المسؤول عن تنظيم جمع التبرعات ومشتري الاسلحة خليل عيسى ومنظم كونغرس بلودان ، نبيه الاصمع ، الذي كان اخوه وزير الداخلية السوري . يحتوي منزل الاصمع على دفتر مذكرات ، الذي تم أخذه ، تصويره ومن ثم إعادته الى مكانه . اما بيت عيسى فقد تم ـ اقتحامه بينما كان صاحبه في الصلاة ـ مقدما قائمة من الأدلة التي تربط مهرب السلاح هذا بمقتل أندراوس من خلال إظهار موافقته على قتل شرطي عربي فلسطيني الذي اطلق النار عليه

من نفس السلاح الذي استخدم حينها لقتل أندروس .

تأمل ماكيريث ان يحرج مردم حتى يتصرف اذا استطاع تقديم دليل يربط القوميين بالاغتيالات التي تحصل في فلسطين ، لكن رغم ان رئيس الوزراء السوري قد قام في النهاية بالسماح باعتقال زعيم العصيان المسلح محمد الأشمر ، اصبح من الواضح ان دعم الثوار قد وصل الى اعلى المستويات في الحكومة السورية . عندما تصرف ماكيريث بناء على تسرب معلومات له من قبل مخبره حول شاحنة محملة بالأسلحة التي تم إرسالها للتو تجاه الحدود ، تم اعتقال مخبره ، استجوب من قبل وزير الداخلية شخصيا ، وتم ضربه بشراسة في مخفر الشرطة بدمشق .

حتى هذا لم يعيق ماكيريث ، رغم ان لديه فقط خمسة وأربعين جنيها من مال الخدمة السرية لينفق في السنة ، يبدو انه قد وجه بعضها للضابط الفرنسي الملحق بالدرك السوري . سرعان ما كان قادرا على كتابة تقرير ان الحافز المالي كان له تأثيرا ملحوظا على امن الحدود . في نهاية شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٣٧ ، اخبر لندن ان» الوصف العجيب «للأسبوع الماضي لما كان فيه من سهولة نسبيا حيث تمكن به الدرك السوري من القبض على . . . حوالى ثلاثين شاب حاولوا الدخول الى فلسطين للانضمام الى الثوار هناك بينما ، في الشهر الماضي ، لم يتم القبض ولا حتى على احد» .

حتى ذلك الحين كان من الواضح لماكيريث انه لدى السوريين تصورا عما ينوي هو فعله . نفس الشهر كتب الى وزارة الخارجية مرفقا محاولة التهديد الثالثة التي استلمها تلك السنة ، موقعة هذه المرة من قبل شخص سمى نفسه «اليد السوداء الملطخة بالدم» . قد يكون ماكيريث شجاعا ، لكن ان يكون غبيا ، لم يكن كذلك . بعد عدة ايام كتب مرة ثانية الى رؤسائه طالبا منهم إرسال «سترة واقية للرصاص» .

لم يكن ماكيريث مرغوبا به من قبل رئيس الدائرة الشرقية في وزارة

الخارجية في لندن ، جورج ريندل ، الذي خالفه الرأي بحدة بان الثورة هي عمل عصابة صغيرة من الإرهابيين . ريندل ، الذي كان متعاطفا مع العرب وقلقا على علاقات بريطانيا مع العالم العربي ، رأى العنف «جزء من حركة قومية واسعة الانتشار وجذورها المترسخة ممتدة في كل البلاد الناطقة بالعربية ضد سياستنا في فلسطين» . رأى في تهديد الموت الذي استلمه ماكيريث فرصة ذهبية ليناقش فكرة استدعائه بدلا من إرسال طقما مدرعا بالصفيح . حتى لو كان ماكيريث» سيضمن اعتقال واعدام كل الإرهابين الفلسطينين وسيخسر حياته لقاء القيام بذلك ـ الشيء الذي ايضا من المحتمل ان يقوم به كله بكل الأحوال» ، كتب انه «كان مقتنعا ان المشاكل ستستمر من دون ان تنقص وفي الواقع ربما بقوة متزايدة» . في رأيه ماكيريث لم» يضع يده على الجرح» ، والتي كانت سياسة هجرة اليهود البريطانية .

لكن ماكيريث تفادى بنجاح محاولة ريندل الفظة لإسكاته . متجاوزا ريندل ، كتب مباشرة الى السكرتير الدائم في وزارة الخارجية ، مطمئنا إياه بخفة ظل ان تهديدات الموت» ليست موجهة ضدي شخصيا «و ان من سياتي مكانه سيتعرض لنفس الخطورة ، غير قادر على الدفاع عن نفسه ، مع نقص بالاتصالات الذي هو نفسه تطلبت منه السنين حتى حصل عليها . دعمه الموظفون البريطانيون في فلسطين» . جمع ماكيريث كما كبيرا من المعلومات في دمشق ولديه من الواضح الكثير من الاتصالات الجيدة ، «كتب السير تشارلز تيغارت ، ضابط شرطة كبير الذي تم إحضاره لتقييم الوضع في فلسطين . «أيضاً مما لا شك فيه انه فعل كل شيء يستطيع عليه ، بمبادرة منه ، ليضغط على الفرنسيين ، الحكومة السورية ، وزارة الخارجية ، والحكومة الفلسطينية ليعالج الوضع» . أدى ذلك الى بقاء ماكيريث مكانه . وقعت عمليتا هجوم كبيرتان في شمال فلسطين ، في شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٣٧ وكانون الثاني / يناير سنة ١٩٣٨ ، ما اقنع تيغارت بان يتقرب من

الفرنسيين مجددا ليطلب منهم المساعدة لاعتقال زعيم العصابة ، رجل اسمه الشيخ محمد عطيه ، الذي كان مقره سورية . كل خمس او ست أسابيع يشكل عطيه عصابة ، يعبر الحدود ، يبدأ معركة مصممة لإنزال العقوبات البريطانية على القرى العربية التي لم تدعمه بعد ، ثم بسرعة ينسحب الى أمان دمشق . بعد ان فشل ماكيريث بإقناع الفرنسيين باتخاذ إجراءات ، تيغارت ، الذي وصف الوضع بانه»لا يطاق» ، قرر انه قد حان الوقت لزيارة بيروت على امل انه قد يستطيع إقناع نظرائه هناك ليضعوا عطية «في الحبس الوقائي» . لكنها كانت رحلة مخيبة للآمال .

في منتصف الخمسينيات من عمره كان تيغارت قد تقاعد حديثا حيث كان مأمور شرطة في كالكوتا ، حتى ينشر الثناء والشكر . اصله من لندنديري ، تم إرساله الى الهند بعد ان تم مهاجمتها من قبل سلسلة من عمليات الاغتيال ذات دوافع سياسية على افتراض ان أيرلنديته تمنحه بعض نفاذ البصيرة المميزة الى عقلية الإرهابي . في الحقيقة ، دور تيغارت الطاولة من خلال مزيج من الغرائز ورباطة الجاش والحظ والاستعدادية لخرق القوانين . بالرغم من انه طويل وذو عضلات ، مع عينين زرقاوين غامقتين وبشرة مائلة للحمرة سلتية (نسبة الى سكان غرب اوروبا الاقدمين ، سلت) اثبت بأعجوبة قدرته على التنكر ، مقدما نفسه على انه سائق تاكسي سيخ ، او من كابول او انه أفغاني ، وفي وقت المساء يقوم بمهمات جمع ٦٨ المعلومات . بالرغم من تهديد حياته من قبل رماة القنابل ، ذات يوم كان يقود سيارة مكشوفة حول المدينة ؛ كلبه ، كلب صغير من صنف الترير من ستافوردشير ، متواريا خلفه في غطاء محرك السيارة .

الهم موقف تيغارت الطائش زملاءه ، الذين اصبحوا مقتنعين انه «بطريقة او باخرى لن يفشل» ، شعور تعزز بسبب نجاته اكثر من مرة من محاولات غير ناجحة لقتله ـ وموقف حرج اخر كان بلية جلبها هو لنفسه . لانه لفترة

من الوقت استعمل قنبلة حديدية كثقالة للورق ، معتقدا انها كانت هامدة ، ذات يوم على سبيل المزاح رمى بها على خريطة في مكتبه . «فورا» ، حسب احد معاصريه ، «كان هنالك انفجارا مبددا ، نسف جراءه جزء من الحائط ، غبار وانقاض أوسخت الغرفة ، وجاء اعضاء الكادر راكضين مقتنعين ان ثمة اغتيال اخر قد حدث . «نجى تيغارت ليتقبل رتبة شرف منحت له سنة ١٩٢٦ ، بعد ان قمعت قواته الحملة الثورية وأنزلت الى النصف عدد الجرائم الغير عنيفة في كالكوتا . في محاضرة سنة ١٩٣٢ حدد فلسفته . «عندما تخدش وحشا مثل الإرهاب بدلا من ان تقتله ، يكون تاثير سلاحك بالكاد مثل تأثير المهماز» .

في تحقيقه عن قتل هذا الوحش ، لدى تيغارت بعض الخبرة في العمل بنجاح مع الفرنسيين . في مرحلة احتفالية اثناء مهنته في الهند ، سنة ١٩٣٠ سال السلطات الفرنسية اذا كان بإمكانه مهاجمة الثوار الذين احتموا في اراضي شنداقار(مدينة في الهند كانت وقتها مستعمرة فرنسية) الفرنسية ، معتقدين انهم بعيدين عن متناول تيغارت . بعد ان سمح له الفرنسيون بالدخول الى هذا المتبقى من امبراطوريتهم الهندية ، قاد تيغارت شخصيا الهجوم التالي : رجال الشرطة البريطانيون كانوا مسلحين ببنادق رشاشة(و التي تصميمها بشكل يكون فيه ماسورة البنادق قصيرة حتى يكون حملها اكثر سهولة) ، قتلوا هنديا وجرحوا واعتقلوا اربعة آخرين بعد معركة اطلاق نار في عتمة الليل . لذلك عندما وصل الى بيروت كان من المحتمل انه متأمل ان يضمن دعما فرنسيا من اجل القتال ضد المتمردين العرب ، الذين كانوا بنفس الأسلوب يتنقلون جيئة وذهابا عبر الحدود .

لكن لقاءات تيغارت مع الموظفين الفرنسيين في المشرق أثبتت ان توقعاته لم تكن بمكانها . في بيروت رئيس السورتيه العام ، غامض اصله من كورسيكية(مدينة تقع على الساحل الايطالي تشكل حدود فرنسا) اسمه

كولومباني ، قال انه غير قادر على المساعدة ووجهه الى زميل اسمه بيريسه في دمشق . كانت السورتيه مسؤولة عن عمل الشرطة السري ، وكذلك بيريسه ، الذي وجده تيغارت بشكل خارق متحفظ ويتكلم باختصار» ، قال انه ليس لديه ملفات عن أي من المتمردين الفلسطينين المطلوبين من قبل بريطانيا .

في دمشق فقط رئيس الخدمات الخاصة ، التي مهامها الامن القومي وتنسيق عمليات لإيقاف الاعمال التجسسية الموجهة ضد الفرنسيين ، عرض عليه بصيصا من الأمل . حيث تطوع بان يحاول إبقاء الثائر الرئيسي تحت المراقبة ، وشرح لماذا زملاؤه في السورتيه كانوا متكتمين كثيرا . اخبر تيغارت انه خطر شديد عليهم الدخول الى الميدان ، الضواحي الفقيرة في دمشق حيث يعيش العديد من الثوار ، والتي كانت منطقة لا يدخلها احد منذ القصف الفرنسي اثناء ثورة الدروز قبل عقد من الزمن . عندما سال تيغارت فيما اذا يمكن القيام بمحاولة تفتيش بيوت الثوار ، الجاسوس الفرنسي الرئيسي كان صريحا . اجابه «لا» . «سيكون تماماً غير مجد القيام بذلك» ، لانه قد يقام بتفويض الشرطة السورية المتعاطفة مع الثوار للقيام بذلك العمل . المندوب السامي دومين دو مارتل كان رافضا القيام بذلك أيضاً . «اذا حاولنا لمس هؤلاء الناس في ساحة الميدان ستهب الثورة» ، شرح هذا عندما حثه تيغارت على اعتقال المحرضين الرئيسيين . لأسباب مماثلة ، كان غير مستعد أيضاً للضغط على المفتي ، الذي كان يعيش تحت مراقبة السورتيه في منتجع على الساحل اللبناني في جونيه ، لان القائد العربي ، كما وضعها رجل فرنسي بطريقة لطيفة ، «لم يعد بعد الان رجلا ولكن علما» ، من جانبه ، لعب المفتي ببراعة في شكوك الفرنسيين بجارتهم . اخبر الفرنسيين ان البريطانيين تقربوا منه واقترحوا ان يشكل العرب وحدة «سورية الكبرى» ، تتألف من عرب فلسطين ، ترانس الأردن وكامل سورية .

«سورية الكبرى» في الحقيقة بالأصل كانت فكرة الشباب العرب الذين

بداوا بتحريك الراي العام من اجل استقلال عربي قبل الحرب العالمية الاولى ؛ لكن من السهل رؤية لماذا اتجه تفكير الفرنسيين الى عكس ذلك ، لان العديد من الموظفين البريطانيين من لورانس والى من جاء بعده على التوالي قد دعموا تلك الفكرة . بعد موت فيصل سنة ١٩٣٣ ، اخوه عبد الله ورئيس الوزراء في السابق نوري السعيد ، كل واحد على حده بدا بالحث على الوحدة العربية ، بالرغم من ان كل واحد منهما له شروطه المختلفة . أراد عبد الله توحيد- وحكم- فلسطين ، ترانس الاردن وسورية . بينماأراد نوري ضم فلسطين الى ترانس الاردن والعراق . كلا الرجلين كان مرتبط بلندن ، بالرغم من ان الحكومة البريطانية قد أنكرت ذلك مرارا وتكرارا ، وحقيقة ان برنامجهما كلاهما ستكون مؤذية للفرنسيين ، على الفور أوحت بتطلعات بريطانية . خاف الفرنسيون ان خطة تقسيم لجنة بيل سينجم عنها توحيد المناطق العربية من فلسطين مع الأردن ، ما سيولد زخم لوحدة عربية تشمل سورية . اذا تم تنفيذ التقسيم ، ربما لن يتبقى لهم سوى قاعدة عسكرية لقواتهم في لبنان . في اجتماعهما ، تكلم مارتل عن مخاوفه مع تيغارت . شارحا انه سمع عن أفكار نوري سعيد ، وسأل رجل الشرطة البريطاني ما هو حل بريطانيا للمسألة الفلسطينية . تيغارت ، بالطبع ، لم يكن عنده جوابا . ترك دمشق من دون نتيجة . عقب هذه الرحلة المخيبة للآمال الى لبنان وسورية ، في اليوم التاسع عشر من شهر شباط / فبراير سنة ١٩٣٨ كتب تيغارت الى السكرتير الرئيسي للحكومة الفلسطينية ليباشر في اجرائين اثنين جديدين مصممين لإيقاف هجمات العصابة من سورية . احدهما كان سورا على طول خمسين ميلا على طول الحدود الفلسطينية مع لبنان وسورية ، وان يتم تفتيشه من خلال النور الكشاف وحراسته من قبل الشرطة ، والذي سيصبح معروفا باسم جدار تيغارت . الخيار الاخر كان التدني بمستوى التجنيد . حيث ناقش ان «عصابات قطاع الطرق ، مسلحون بالبنادق ، لا يمكن التعامل معهم من قبل رجال الشرطة ودفتر المفكرة» .

أراد إذنا لتجنيد رجالا قساة، ليس بالضرورة متعلمين» ، الذين هم «قادرون على التعامل مع أبناء الريف الخارجين عن القانون باساليبهم هم انفسهم» . سيسعى البريطانيون للتعامل مع الثوار بلا رحمة بتلك الوسائل التي أثارت الخلاف ، لان الديبلوماسية قد فشلت ـ حتى صنف ماكيريث المتمرد – قد فشل .

في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٣٧ منذ ان وصل تيغارت الى فلسطين وهو يفكر بهاتين الفكرتين من دون ان يتمكن من الوصول الى قرار ، الا ان لقاءاته في بيروت ودمشق هي التي أقنعته انه حان الوقت حتى يتصرف وفقا لذلك . آليك كيركبرايد ، مامور الناحية الجديد الذي جاء فقط للتو مكان المغدور لويس أندروس ، فلم تكن مفاجأة ان يكون متحمسا لفكرة السور . سجل ديغارت «عددا من المقاولين اليهود الذين كانوا عمليا مفلسين سيرحبون بثمة عرض كانه هدية من السماء وفكر انه من المحتمل انهم سيعطون أرخص الأسعار» . حينها ذهب كيركبرايد للهاتف واتصل بحيفا ووجد لتيغارت شركة مهتمة تدعى «سوليل بونيه» .

لقاء غريب في الهواء الطلق تبع ذلك بوقت قصير . الى جانب تيغارت وكيركبرايد ، مفتش الشرطة العام والقائد العسكري البريطاني المحلي كانا حاضران . كذلك أيضاً مدير «السوليل بونيه» ، ديفيد هاكوهين . وقف امامهم مجموعة من المهندسين من الخدمة الملكية ، وثلاث مقاطع عينات للسور ، التي بنتها شركة هاكوهين . تم تحدي المهندسين لاختراق كل عينة بأسرع وقت ممكن . اثبت اخر مقطع انه اكثر مقاومة ويتالف هذا المقطع من سورين متوازيين بارتفاع ستة أقدام ، موصولين مع سور بارتفاع ثلاثة أقدام بالاضافة الى الأسلاك الشائكة ـ التي أثبتت انها الاكثر لدونة ، لكن بالرغم من ذلك استغرق لعبوره فقط دقيقتين وعشرين ثانية لاختراقه من قبل العسكر الذين يشتغلون بأعمال العمار . بالرغم من ذلك ، شكل اساس التصميم الذي ستبنيه

شركة «سوليل بونيه» في النهاية ، وللطريقة التي سيتم حراسته بها بواسطة السيارات المركب عليها النور الكشاف . حسب هذا البرنامج لن يكون ولا جزء من هذا السور في الظلام لوقت أطول مما استغرق من قبل المهندسين لاختراقه في وضح النهار . مثل العديد من الإجراءات الأمنية ، السور كان اولا وقبل كل شيء وسيلة مسرحية ، مفيدة بسبب «تأثيره المعنوي» ، كما وضعها تيغارت ، بقدر قدرته على إبقاء العصابات عند الخليج ، والشرطي الذي له خبرة كبيرة في السابق في المجال العسكري ، لم يفكر للحظة واحدة ان هذا سيحل المشكلة . وكما ناقش في وقت مسبق في بداية تلك السنة ، انه بالاصح «العلاج الحقيقي يجب ان يكون في الهجوم» . وهذا التصور في ذهنه وجه انتباهه وقتها الى الشرطة .

اقترح تيغارت ثورة كاملة في نهج الشرطة ، مصممة لسحب المبادرة من قطاع الطرق . تم التساهل بمستوى التجنيد ، حيث تم جلب العمال المزارعين الأميين الذين يعرفون المنطقة و»اللعبة بقدر ما يعرفها الطرف الاخر» هؤلاء تم جلبهم الى التجنيد . رجال خدمة سابقون من بريطانيا كانوا أيضاً قد تم تشجيعهم للانضمام . الملابس الرسمية ذات النسيج الصوفي باللون الأزرق المعروفة تم استبدالها «بكسوة للجنود خشنة للامساك بالمتمردين كسوة الجند هذه لشخصيات غير معروفة هويتها» . وزع على حراس الليل بنادق رشاشة . كلاب دوبيرمان، سعر الواحد خمسمائة جنيه ، تم جلبهم من جنوب افريقيا عندما يرفض القرويون التكلم . تركيب كل هذه التكتيكات ذكر الضباط الذين خدموا في ايرلندا في فترة مبكرة من حياتهم المهنية . كان هناك بالتأكيد في عمل الشرطة درجة معينة من أساليب الاسود والأسمر (هذا التعبير يعني في الحقيقة قوة من الكونستابل المؤقت تم تجنيده ليعاون الكونستابل الإيرلندي الملكي فترة حرب ايرلندا من اجل الاستقلال ليحاربوا الجيش الجمهوري الإيرلندي . ظهر هذا الاسم المستعار اسود واسمر من

لون ملابسهم الكاكي واصبح هذا الاسم مرتبطا بالهجمات على المدنيين وأملاكهم)» ، كما كتب احدهم . عندما لعبت الشرطة في فريق لواء الحرس في لعبة كرة الركبي (مثل كرة القدم لكن مسموح بها حمل الكرة باليد) هزموهم ، خمسين نقطة مقابل لا شيء .

« وصلت الامور الى مرحلة حيث اصبح هذا المسمى الإرهاب خطيرا وحتى نحارب الإرهاب ، اصبحنا إرهابيين اكثر او اقل» ، هذا ما اعترف به الشرطي روبين كيتسون ، فيما بعد بسنوات . جند بريطانيون خائفون تعاملوا مع تهديد قنابل على جانب الطرقات بان أخذوا العرب أسرى وجعلوهم يجلسون على مقدمة السيارة التي تسير في المقدمة ، وهذه السياسة قد تم منعها من الاعلى . في مقابلة بعد خمسين سنة ، جندي سابق مع فرقة مانشستر العسكرية ، أرثر لين ، استطاع بشكل حي تذكر ما حصل لهؤلاء «جالبي الحظ» او يمكن تسميتهم «ملتقطي الالغام» ، ما ان يؤدي الواحد منهم الغاية المطلوبة منه . «يحرك السائق العجلات الى الامام والخلف ، حتى يجعل الشاحنة تهتز ، والرجل اسمر البشرة المسكين في المقدمة يتدحرج على ظهر الشاحنة . حسنا اذا كان محظوظا سينجو بساق مكسورة ، لكن اذا كان غير محظوظ وجاءت الشاحنة من خلفه ستصدمه . لكن ما من احد سيزعج نفسه بالذهاب والتقاط البقايا» . ضابط لين الذي كان يستلم القيادة اوقف في النهاية هذه الممارسة ، لكن السبب كان فقط : «قبل ان ينفذ عدد الثوار الملعونين المتوفرين حتى يجلسوا على مقدمة السيارة» .

بسبب انتقاد كل من مأمورية بيل وعصبة الامم الحكومة البريطانية لفشلها وضع القانون العسكري سنة ١٩٣٦ ، كان هنالك انتقادا قليلا لتكتيكات بريطانيا الصلفة . ايضا ، بعد اعادة احتلال هتلر لاراضي الراين والحاق النمسا ، الانتباه الدولي كان مركزا في مكان اخر . سنة ١٩٣٨ جعلت الحكومة البريطانية القانون الفلسطيني اكثر قساوة . امتلاك أسلحة

نارية ، تخريب السور وارتداء ملابس عسكرية او ملابس الشرطة الرسمية من دون ترخيص تم إضافتها الى قائمة عقوبة الاعدام التي كانت مسبقا تشمل إحراق المباني وغيرها عمدا ، التخريب والتخويف . ازدادت فرص اقامة دعاوى ناجحة . الإفادة الشفهية خارج المحكمة وقتها كانت تعتبر مقبولة كدليل .

الان الموت بات عقوبة القبض على شخص لديه مسدس ، بدات من جديد بجدية عمليات «طوق وفتش» عندما تدفق الجيش البريطاني الى شمال فلسطين في شهر ايار سنة ١٩٣٨ . بينما كانت قوة تحاصر قرية ، تذهب اخرى لتطارد المشتبه بهم وأسلحتهم . هذه المهمة «بالكامل مثيرة الغثيان ، جسديا ونفسيا» ، كما كتب احد الجنود اثناء بحث تم فيه قتل خمس عرب . الرائحة ، غبار وحرارة مخيفة للغاية ولا يستطيع الواحد منا منع نفسه من الشعور كل الوقت بان الواحد الى حد ما يستاسد على نسبيا أناس أبرياء من اجل بضعة أوغاد الذين ربما يفرضون انفسهم عليهم بالقوة» .

اعتقل جنود بريطانيون هؤلاء المشتبه بهم بتهمة مساعدة المتمردين المسلحين ، وفجروا بالديناميت او بالبلدوزر بيوتهم . كانت تفرض عقوبات جماعية على القرى حيث المتهمين لا يمكن تمييزهم عن الاخرين . ذهب أرثر لين الى احد القرى المشتبه بها مساعدة الثورة مع جندي اخر ليفرض مخالفة من المختار . بعد ان صفق المختار الباب الأمامي في وجه لين ، ومن ثم زوجته الغاضبة خرجت تلوح بملعقة خشبية لتطرد زميل لين ، يتذكر لين ما حدث بعد ذلك : «احرقنا منزلها بالكامل» .

«لقد عبثنا حقيقة بالقرى بالطبع هذا خلق عداوة كبيرة بين الناس في الأرياف» ، كما قال كيتسون ، الذي كان واحد من العديدين الذين لاحظوا ان نهج البريطانيين يجعل الامور أسوا . ولد من الإحباط والخوف الذي سببه المتمردون المسلحون ، هذا النهج الصلف والذي لا يميز بين البريء

والمتهم ، قاد البريطانيين الى الحلقة المفرغة . ولدت العقوبات الجماعية تضامنا مع الثوار الذي لم يكن موجودا في السابق ، وحولت من كانوا قطاع طرق متمردين مفككين وغير منظمين الى عصيان مسلح عام . هذا الأسلوب أيضاً جعل الحصول على معلومات دقيقة اكثر صعوبة وعزل الكانستبل (أدنى الرتب) العرب في شرطة فلسطين ، مشجعا إياهم على تسريب المعلومات للثوار او حتى العمل بشكل غير نظامي مع العصابات . قادت قلة المعلومات البريطانيين الى ان يبقوا اقل قدرة على التمييز .

سرعان ما قدر البريطانيون ان الشرطة العرب كانوا في «موقف محرج للغاية» ، وقرروا إقصاء قدر المستطاع الشرطة العرب من الوظائف التي فيها حمل سلاح في الصف الأمامي ، لكن لم يعمل على عزلهم بالجملة لأنهم أدركوا بان ذلك سيشجعهم الى الانضمام بدوام كامل الى المتمردين . لكن ، لان العرب يشكلون تقريبا ستين بالمئة من مجمل قوة الشرطة ، تضمن القرار معنى كبيرا . يحتاج البريطانيون الى تجنيد رجال شرطة بريطانيين ويهود لتعويض الفرق . هؤلاء اليهود سيكونون من النوع الذي يعتمد عليه ، كما اعتقد سكرتير المستعمرات . المشكلة الوحيدة ، كما قال ، انهم في القتال «ميالين جداً الى اطلاق كل ذخائرهم بسرعة كبيرة» .

ضابط جيش شاب له علاقات واسعة ومختل بشكل طفيف كان مقتنعا ان لديه الجواب . احد اقارب المندوب السامي في مصر السابق أورد وينغيت وصل الى فلسطين سنة ١٩٣٦ في وقت عندما كانت الادارة البريطانية ، بجهد يائس لتجنب تأجيج العصيان المسلح العربي ، كانت تجعل سياستها اكثر قسوة تجاه هجرة اليهود . بعد ان تجرد اليهود الألمان من حقوقهم الوطنية سنة ١٩٣٥ شدد البريطانيون على هجرة اليهود الى فلسطين ، مستشهدين «بالاضطراب العام في البلاد وتردي الصناعة والتجارة والاتصالات» ليبرروا حركتهم . شروط مالية مشددة كانت مرفقة بإذن الدخول ، ونتيجة لذلك ،

عدد اليهود الذين دخلوا فلسطين سنة ١٩٣٦ كان نصف الرقم المسجل في السنة التي سبقت .

«كرمال الشفقة ، دعونا نقوم بشيء شريف ومنصف «كتب وينغيت . «دعونا نوفي بوعدنا لليهود ونخزي شيطان النازية ، الفاشية وإجحافنا» . كان معجبا بالصناعة اليهودية (كان يعتقد بان يهوديا واحدا يساوي عشرين ، ثلاثين او حتى مئة عربي) وبالفطرة كان متعاطفا مع أزمتهم لانه كان منبوذا كل حياته . ابن بليموث بريثرن ، كان منفيا في مدرسة داخلية حيث ، كان كتلميذ ات من الخارج يكره الرياضة الجماعية ، واكتسب اسما مستعارا «البغيض» . فقط عندما شق طريقه بصعوبة ليصبح ضابطا حتى أدرك انه يستطيع تحويل مظهره الذي يوحي بالضياع والذي يشبه الجيفة الى إيجابية - عندما تم تحديه ليحتمل عذاب تهكم رفاقه تلاميذ الحربية وهو عار ، مشى وينغيت الى كل واحد فيهم بدوره وتحداهم ان يضربوه ، هكذا مر بينهم من دون ان يلمسه احد . «عيناه متقدتان ثاقبتان عابستان - بشكل خارق عميقتان تسبران أعماقك بثمة طريقة حيث لا يمكنك إخفاء أية حركة طفيفة من وجهك او قول أية كلمة واحدة زائدة» ، هذا ما قاله ديفيد هاكوهين ، الرجل الذي بنى سور تيغارت . كان «متعصبا بحماس «هذا ما تذكره الرجل الذي شاركه مكتبا في القدس . «يعجبني كثيرا . انسجمت معه . لكن يجب ان اعترف كان متعصبا» .

جادل وينغيت انه حتى يتم تدوير الطاولة امام المتمردين ، يجب على البريطانيين اقامة «سرايا ليلية خاصة» (السرية الواحدة عادة تتالف من اثني عشر جندي) تتألف من الجنود البريطانيين وكمالة عدد اليهود الذين يعرفون اللغة العربية والمناطق المحلية ، الذين يستطيعون انتزاع المبادرة من الثوار العرب . مناسبين للقتال ، يعملون في الصمت ومدربين على تكتيكات المباغتة ، حاولوا «إقناع العصابات انه في مداهماتهم المتوحشة هناك كل

فرصة ليديروا عصابة بمثابة حكومة بحد ذاتها مصممة لتدميرهم ، لكن ليس بتبادل اطلاق النار عن بعد ، لكن بالاعتداء الجسدي بالحربة والقنبلة» .

لم يفكر وينغيت انه سيستغرق الكثير من الوقت لحمل زعماء العصابات العرب البقاء في الداخل فترة الليل . «الواحد منهم ضعيف وواهن وكامل نظريتهم عن الحرب هي اقطع واهرب . مثل كل بدائي وغبي وجاهل هم عرضة للفزع» . لحظة زوال تهديد العصابات ، لم يعد امام القرويون من حجة للصمت . في تلك المرحلة ، جادل وينغيت انه يجب على البريطانيين وضع القرويين تحت الضغط بشكل مسؤول ، لان عدم التعاون يعني اشتراك في الجريمة مع العصابات .

ساعدت الاحداث وينغيت . الوضع الغير مستقر في اوروبا ، حيث اثار ضم المانيا للنمسا مطالب مشابهة لضم شمل الشعب الالماني في تشيكوسلوفاكيا ، ما عنى انه لا يمكن ارسال جند لفلسطين بنفس القدر مثل سنة ١٩٣٨ ، بينما بدت مشكلة التشيك كانها ستثير حربا اخرى . في تلك الظروف بدت الناحية الاقتصادية لخطة وينغيت مرغوبا بها لدى السلطات ، واستلم إذنا لإنشاء ثلاث سرايا للقضاء على قطاع الطرق وحماية خط أنبوب النفط في مرج ابن عامر شمال فلسطين .

لتقليل فرص تسريب المعلومات عن مكانهم ، اختار وينغيت ثلاثة مستوطنات يهودية جنوب الوادي كقاعدة لهم ، وأقام مركز القيادة في عين حانوت . المكان الذي اختير عن عمد لما له من وقع في النفس ، حسب الإنجيل عين حانوت المكان الذي اختار فيه جدعون (قاضي الاسرائيلين في التوراة) الثلاثمائة رجل الذين سيغرقون المديانيين . وينغيت ، الذي كان في ذلك الحين يعلم نفسه العبرية مستخدما الإنجيل ، بالأصل أراد تسمية تجهيزاته «قوة جدعون «لكن سلطات اعلى تدخلت .

احد الرجال الذين جندهم وينغيت كان موشي دايان ، الذي سيصبح

جنرالا إسرائيليا في المستقبل . دايان حينها في اوائل العشرينيات من عمره ، كان بالأصل عضوا في الهاغانا ، منظمة ممنوعة يهودية للدفاع عن النفس ، ورجل شرطة احتياطي رخص له البريطانيون حمل بندقية ، لكن رغم انه اعترف بانه تفاجأ بما اقترحه وينغيت في ذلك الوقت . كتب لاحقا : «كنا دائماً نقوم بالمباغتة قرب المستوطنات اليهودية حتى يتم الدفاع عنها وليس قرب مخرج لقرية عربية التي هي قاعدة للإرهابيين» . داخل دايان كان يسري شعوران كان متأثرا بوينغيت وبنفس الوقت مفزوعا منه ، الذي في البداية خاطب المجندين بلغة عبرية مكسورة ، يحمل مسدس من نوع ريفولفر بيد واحدة ، والتوراة بالأخرى . «بعد فترة من الزمن طلبنا منه ان يحول الى الانكليزية» ، قال دايان ، «منذ ان بدأنا نواجه صعوبة في فهم لهجته العبرية الغريبة واستطعنا فقط فهم الجمل المعروفة الموجودة في التوراة في لغتنا» .

عندما بدات سرايا الليل الخاصة بمداهماتها في شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٣٨ ، اثبت وينغيت انه قائد متطلب ومتوحش . صفع احد اعضاء السرية على وجهه بعصا عندما فشل الرجل بإصابة خيال عربي كان ظله منعكسا على أشعة الشمس . في حادثة ثانية استجوب واحد من اربعة عرب مقبوض عليهم من خلال خنقه بخفنة من الحصى والرمل كورها بيده من الارض . عندما بقي سجينه يرفض الكلام ، استدار الى احد المجندين اليهود . «اطلق النار على هذا الرجل» ، أمرا إياه ، لكن المجند تردد . «هل سمعت؟ اطلق النار عليه . «قام المجند بتنفيذ ما امر به . استدار وينغيت الى الثلاثة المحتجزين المتبقين . «الان تكلموا!» صرخ بصوت عال . عندما كان رجال وينغيت يعودون الى المخيم ، كانوا يشعرون بالدوار من تصرفاته . كان يجلس في خيمته عاريا ، يقرا التوراة ويحك نفسه بالفرشاة ، او يأكل بصلة نيئة وكانها تفاحة .

فشل عدد من الهجمات على خط الأنابيب ، لكن تجربة سرايا الليل الخاصة لم تدم طويلا . باكرا من شهر تموز / يوليو ، فشل وينغيت من فرط حرصه ولانه اراد تحقيق الكثير ولانه ضلل نفسه بذكائه عندما قرر مهاجمة عصابة عربية احتلت الناصرة ، مع قوة تتألف من اكثر من ثمانين رجل من كل السرايا الثلاثة . بدات العملية تسير بالاتجاه الخطأ عندما نفذ وينغيت مباغتات حول القرية الخطأ . ولانه أدرك خطاه ، قاد هجوما على مستوطنة حيث كانت العصابة ترتاح ، لكن في هجوم ليلي مشوش بدا بنار من دون الضرر بأحد . قال زميل له : «كان فشلا من الدرجة الاولى» ، كتب وينغيت تقريره عن العملية من المستشفى . اعترف : «يتطلب الامر تأن واهتمام اكثر» .

بالرغم من ان وينغيت قد تعافى وعاد ليقود سرايا الليل بعمليات مداهمة اكثر ، السرايا تم انهاءها لاحقا من تلك السنة . حتى ذلك الحين ، رفض وينغيت مشاركة تفاصيل خططه ـ للمحافظة على امن العمليات- ما ازعج الضباط البريطانيين الاخرين . وينغيت كان كبش فداء سهل لاخفاقات عامة اخرى للسياسة البريطانية . وصفه رجل شرطة كبير بانه «عائق واضح» قال ان وينغيت «لم يقم على الاطلاق ، بأية محاولة ليوفق فيما قام به مع قوات الحكومة لتطبيق النظام والقانون ، وقوات الشرطة» . واعتقد موظف اخر ان تكتيكات سرايا الليل جعلتنا نخسر سمعتنا فيما يتعلق بالقتال المتكافئ» . في الحقيقة ، ضحى البريطانيون بذلك منذ مدة طويلة قبل ذلك .

في شهر آب / أغسطس سنة ١٩٣٨ لاحظ باحكام المندوب السامي في فلسطين ، السير هارولد ماكمايكل ، كيف ان اسلوب البطش الذي اتبعته بريطانيا في الدولة المنتدبة قد ادى الى مفعول عكسي بالكامل . قبل سنتين لاحظ ان الاضطراب «بقي متاججا بشكل رئيسي بسبب المتطوعين الأجانب الذين كان يتم مساعدتهم من قبل الفلسطينين . الموقف الان انعكس»ادرك

البريطانيون في وقت متأخر انه اذا اندلعت الحرب في اوروبا ، يحتاجون الى ان تكون فلسطين مستقرة . والطريقة الوحيدة لضمان تلك النتيجة كان من خلال السبل السياسية لا العسكرية .

الفصل الخامس عشر

ارضاء العرب

لم يؤدِّ فقط نهج بريطانيا العقيم لمقاومة العصيان المسلح في فلسطين الى ابعاد الشعب العربي ولكن أيضاً فشل في وقف تصعيد العنف العام ، الذي كان سببه ازدياد رغبة اليهود أخذ الامور بأيديهم . حتى بداية سنة ١٩٣٨ قامت جماعة يهودية تدعى «اليشوف» باتباع سياسة ضبط النفس اطلقوا عليها اسم هافلاغا . لكن ما ان بدا واضحا ان البريطانيين غير قادرين على حمايتهم ، اصبح هذا النهج مثيرا للخلافات . اسحاق شامير الذي سيصبح في المستقبل رئيس الوزراء الاسرائيلي ، وصف لاحقا الهافلاغا بانها «كارثية» . كانت «قليلة الروية ، مخدوعة بنفسها وقائمة على اعتقاد يتعذر تفسيره وغير مبرر انه ، آجلا ام عاجلا ، اذا امتنعنا عن أغضاب البريطانيين ، سيحفظون وعودهم لنا» ، هذا ما اعتقده شامير شارحا انه لهذا سبب شن حربا على البريطانيين .

جاءت اول إشارة تدل على ان هذا الإجماع الذي عزز الهافلاغا قد تداعى في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٣٨ ، عندما مات شرطيان بريطانيان في محاولة شجاعة ولكن سخيفة لفك قنبلة وجدت في

قطار يستخدمه عمال عرب في البناء الذي يتم استخدامه كمنفذ للنفط في حيفا . انهارت الهافلاغا في شهر حزيران / يونيو من تلك السنة بعد ان تم الحكم على يهوديين شابين بالموت من قبل محكمة عسكرية بريطانية بتهمة اطلاق النار على باص عربي ، بالرغم من انه لم يكن هنالك اصابات .

احد الحكمين بالموت تم استبداله بعقوبة اخف ، لكن الاخرى تم تنفيذها . اعدام البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة شلومو يوسف في اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران / يونيو أدى الى اثارة فوضى لانه كان اليهودي الاول الذي يتم إعدامه من قبل البريطانيين في فلسطين ، ولانه ، حتى تلك المرحلة ، كان البريطانيون يتغاضون عن الجهود اليهودية للدفاع عن انفسهم من خلال اعتمادهم على منظمتهم الدفاعية الهاغانا . اثار الاعدام موجة من هجمات الانتقام من قبل الاورغان زفاي لومي(منظمة عسكرية قومية) ، حزب يميني يشكل جزءا صغيرا من الهاغانا ، والذي كان يوسف عضوا فيه .

في اليوم السادس من شهر تموز / يوليو تم إلقاء قنبلتين في سوق حيفا ، ما اسفر عن قتل واحد وعشرين عربي وستة يهود ، وجرح مئة وستة أشخاص اخرين . في اليوم الخامس عشر من شهر تموز / يوليو قنبلة اخرى ، في شارع ديفيد في القدس ، أدت الى مقتل عشرة من العرب وجرح ثلاثين آخرين مذبحة اخرى تم تفاديها عندما تم رؤية يهوديا يترك سلة تحتوي على قنبلة بوزن خمسة عشر باوندا مغطاة بالخضار ، والتي تم توقيتها لتنفجر الساعة الثامنة من ذلك الصباح . انفجرت قنبلة اخرى في سوق حيفا في اليوم الخامس والعشرين من نفس الشهر . أسفرت عن مقتل ثلاثة وخمسين عربيا وجرح سبعة وثلاثين . بسرعة طوقت الشرطة والجيش المنطقة ،لكن ، حسب تقرير بريطاني ، كانوا» غير قادرين على تجنب موجة من الانتقامات العربية التي أدت الى مقتل اربعة يهود وجرح ثلاثة عشر آخرين برمي الحجارة ، الضرب

والطعن وتدمير كم لا باس به من بيوت اليهود بإشعال الحرائق ، التخريب والنهب» . تفجير اخر في سوق حيفا في نهاية شهر آب / أغسطس أدى الى مقتل اربعة وعشرين عربيا وجرح خمسة وثلاثين . وصف نفس التقرير كيف ، نتيجة لذلك ، صوت مفاجئ مثل صوت محرك السيارة او سقوط كتاب في سينما مكتظة «الان يسببوا ذعرا . «اي بريد مرمي في مكان ما هو موضع شك وان ترمي علبة سجائر خارج السيارة هو دعوة الى مطاردة» .

هذا الأسلوب الصاع بصاع المتصاعد بين العرب واليهود ترك البريطانيين في وضع مستحيل . «التايمز» ، التي تنبأت وقت دخول اللنبي الى القدس قبل عقدين من الزمن ان بريطانيا ستاسس «نظاما جديدا» في فلسطين ، «محقق من قيم العدالة والاستقامة المثلى» ، الان وصفت كابوسا فيه الشرطة يجب ان يحموا انفسهم من القتلة ، المعتدلين العرب والمتطرفين ، اليهود ضد العرب ، والان ، أبرياء عرب من اعتداءات على درجة عالية من التنظيم والتي تقريبا كل احد يعتقد بانها انتقامات يهودية» . حتى بداية شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٣٨ شعر المندوب السامي انه من الضروري تحذير لندن ان الوضع يتدهور بسرعة وقد وصل الى مرحلة القادة الثوار فيها» لهم هيبة وجديرون بالاحترام اكثر منا» .

في لندن سكرتير المستعمرات مالكولم ماكدونالد ، واجه صعوبتين . الاولى بينما جعلت أزمة التشيك حول السادنلاند(بلد سكانها من التشيك يتكلمون اللغة الالمانية) الحرب في اوروبا على الأبواب ، ما أدى الى عدم امكانية ارسال الحكومة البريطانية جند اكثر لتعزز الحامية في فلسطين . الصعوبة الثانية كانت انه حتى اذا انتهت مشكلة بلد السادنلاند ، والجند الاكسترا يمكن الان إرسالهم ، التعزيزات وحدها لا يمكن ان تحل المشكلة . كما وضعها لاحقا في تلك السنة ، «المشكلة الحقيقية في فلسطين ليست مشكلة عسكرية ولكن مشكلة سياسية . يمكن لجندنا تعزيز النظام ؛ ولكنهم

لا يستطيعون تعزيز السلام» .

وهذه «المشكلة السياسية» سببها وعد بيلفور وفي محاولة لتصليحها جعلت لجنه بيل فقط الامور أكثر سوء . طالما عرض بيل بالتقسيم على الطاولة ، حتى العرب المعتدلين رفضوا التفاوض مع البريطانيين . اختبر ماكدونالد ذلك عن قرب عندما قام بزيارة سرية الى القدس في شهر آب / أغسطس سنة ١٩٣٨ . تأمل ، لدى وصوله ، لقاء كل من القادة العرب واليهود ، لكن المندوب السامي اخبره انه ما من داع للقيام بذلك . شارحا له انه طالما بريطانيا تدعم التقسيم ، ما من عربي سيكون مستعد للتكلم معه لانه يخاف من ان يتم اغتياله لاعتباره خائنا . أراد أيضاً المندوب السامي درء انطباع الضعف الذي لا يقبل ان يظهره والذي ستولده الحوارات في تلك الأجواء الحالية .

أرسلت الحكومة لجنة تحقيق ثانية ، بقيادة الموظف الحكومي الممتاز ، السير جون وودهيد ، ليخلص الحكومة من الفوضى التي سببتها لجنة بيل . بمهمة لتقييم فيما اذا كانت عروض بيل قابلة للتطبيق ، أمضى أعضاؤها ثلاثة اشهر يجولون في فلسطين ، بينما كان العنف من حولهم مستمرا وعلى نحو أسوا . أعطى وودهيد بنفسه صبيا عربيا قطعة شوكولاته عندما زار مدرسة في منطقة بئر السبع . رماها الصبي على الارض ، قائلا انه لن يأخذ أبدا اي شيء من رجل جاء ليقسم فلسطين ويعطي افضل أراضيها الى اليهود . الحقيقة كانت ، في عدة حالات ، ان اليهود حولوا الهضاب الصخرية والمستنقعات التي تنقل الملاريا الى أراض افضل من خلال الكد والعمل . لكن ، كما أدرك البريطانيون ، هذا التحول لم يجعل العرب يتعاطفون مع اليهود . لم تكن مفاجأة عندما قدم وودهيد في النهاية تقريره الى الحكومة في شهر تشرين الاول ، بان يرفض عرض التقسيم الذي قدمته لجنة بيل لكنه كشف عن انه قد لا يتفق زملاؤه على أية بدائل محتملة قد تكون افضل . هذا أعطى

الحكومة البريطانية الحجة التي تحتاجها حتى تتخلى عن تقرير بيل . لكنها لم تكشف عن هذا القرار مباشرة . في محاولة لا جدوى منها لتجنب إعطاء العرب الانطباع ان حملة العنف التي قامت بها العصابات قد أجبرتهم على القيام بذلك ، قرروا تأجيل اعلان انه تم التخلي عن التقسيم «حتى يشير الوضع العسكري الى اننا نحن نسيطر على الثوار» .

اتفاق ميونيخ في نهاية شهر أيلول / سبتمبر ، بعد ان اعلن تشامبرلين على نحو مشين وفاضح «السلام في وقتنا» ، أعطى الحكومة البريطانية فرصة التنفس التي تحتاجها . قرر مجلس الوزراء في شهر تشرين الأول / اكتوبر ارسال جند اكثر الى فلسطين واعلان ما توصل اليه حكم لجنه وودهيد باكرا من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . كانت مهمة التعزيزات الاولى اعادة توطيد السيطرة البريطانية على القدس ، حيث يسيطر الثوار العرب بشكل تام على المدينة القديمة ، قبل الانتقال الى يافا .

من كان يقود تلك العملية الذي لم يكن معروفا كثيرا حتى ذلك الحين اللواء بايرنارد مونتغومري . الذي نظر الى الامور ، مثل ماكيريث ، تيغارت ووينغيت من قبله ، ان مجموعة صغيرة نسبيا من مثيري الشغب هي المسؤولة عن العنف . كان يعتقد ان مهمة الجيش البريطاني» اولا وقبل كل شيء «مطاردة وسحق تلك العصابات المسلحة . يجب ان يتم قنصهم بلا رحمة ؛ عندما ندخل معهم في معركة يجب ان نطلق النار لنقتل» . على امتداد الأشهر الثلاثة التالية ، أخمدت الثورة بشراسة . التقييم الأحدث انه بين سنتي١٩٣٦ و١٩٣٩ قتل حوالى خمسة آلاف رجل عربي وجرح عشرة آلاف . حتى نهاية الثورة ، قتل او جرح عشرة بالمئة من الفلسطينين الذكور البالغين ، او تم سجنهم او إرسالهم الى المنفى . لاحظ ضباط بريطانيون كبار برضى ان الطربوش ـ الذي تم تحريمه من قبل الثوار ـ قد بدا بالظهور من جديد .

تهديد الحرب في اوروبا اجبر الفرنسيين الان على ترميم علاقاتهم مع

البريطانيين . في باريس قدمت الحكومة عروضا الى لندن ، ساعية الى محادثات عسكرية عالية المستوى لانها كانت تتوقع وقوع نزاع . الحكومة الفرنسية كانت حتى ذلك الحين قد ركنت جانبا المصادقة البرلمانية على معاهدة سنة ١٩٣٦ بين الفرنسيين والسوريين ، المعاهدة التي تعطي سورية حكم ذاتي اكثر ، على أساس انه «اذا كان عتق سورية مسموحا به هكذا بشكل مفاجئ ، هذه البلاد قد تقع تحت تأثير النفوذ الالماني» . للتعامل مع مصدر اخر قد يؤدي الى النزاع ، بدا أيضاً الفرنسيون بمفاوضات سرية تعمل على تحويل ميناء سورية الشمالي الإسكندرونة الى الاتراك . عندما قام وزير الخارجية البريطاني ، اللورد هاليفاكس ، بطرح مسالة المفتي في اجتماع في باريس في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، طمأنه الفرنسيون ان المفتي «الان تحت مراقبة محكمة جداً» و«لا يرى أحدا له اهمية» . شك البريطانيون بان هذه الكلمات يمكن ترجمتها الى أفعال ، لكن في دمشق لاحظ ماكيريث تحسنا كبيرا في رغبة فرنسا باتخاذ إجراءات فعلية ضد عمليات الثوار في سورية .

أيضاً ساعد البريطانيين غضب القوميين السوريين الشديد من رفض فرنسا أعطاءهم حكم ذاتي اكبر ورغبتها في التنازل عن الإسكندرونة الى الاتراك . مقتنعين ان الضغط البريطاني كان مسؤولا عن موقف فرنسا القاسي تجاههم ، ومعتقدين انه ، مع مساعدة البريطانيين يستطيعون الحصول على الاستقلال عن الفرنسيين ، الان سحب القوميون دعمهم للثوار الفلسطينين . بالضبط لماذا اعتقدوا ان بريطانيا قد تقوم على مساعدتهم في النهاية تم تفسيره من خلال مذكرة في الأرشيف البريطاني التي أوضحت انه لبعض الوقت ، كان ماكيريث يدفع معونة مالية شهرية سرية لرئيس الوزراء السوري ، جميل مردم . هذا الدفع توقف فقط عندما بدات الحرب تلوح في الأفق وقررت لندن انه من الضروري انهاء «كل هذه النشاطات القنصلية الاكسترا والتي قد تثير الشبهات في عقول الفرنسيين» .

في تلك الأثناء ، درس مجلس الوزراء الراي من كل الجوانب حتى يتوصل الى سياسة جديدة لفلسطين ، مع معرفة كاملة ان احتمالية نشوب الحرب قد جعلت الأولوية للاعتبارات الاستراتيجية . سابقا قلق المجلس من ان سياسة فيها تحامل على اليهود قد تقود الى نفور حكومة الولايات المتحدة لاحتمال تاليب الشعب اليهودي الموجود في أميركا الرأي العام هناك . لكن من ناحية ثانية ثمة إلحاح في الوضع حيث التخوف من القوة العددية للعرب التي تفوق قيمة المخاوف المتعلقة بنفوذ اليهود السياسي . «اذا في أزمة ثانية وجدنا خلفنا عالم عربي عدائي في الشرق الاوسط» ، قائلا ذلك احد وزراء المجلس محذرا زملاءه «حينها موقفنا العسكري سيكون الى حد ما لا يمكن حمايته او تأييده» . قناة السويس وتدفق النفط من دون مشاكل من العراق الى حيفا هما الان كلاهما اكثر اهمية من تعهد عمره اثنين وعشرين سنة الى الصهيونين من قبل رجل مات منذ عشر سنوات تقريبا . كذلك أيضاً الحاجة الى حل جند الخط الأمامي البالغ عدده عشرين الف الذي تم أخذه ليهزم المتمردين الفلسطينين .

في اليوم العشرين من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٣٩ بناء على ذلك ناقش مجلس الوزراء كتابا ابيضا تحقق تغييرات في سياسة الحكومة في فلسطين . قدم ماكدونالد الاقتراحات ، واعترف ان الوثيقة تتضمن «نقاطا محددة لم يفترض ان تكون موجودة هنا اذا كان مسموح لنا توجيه انتباهنا بالكامل لابتكار الخطة الافضل لحكومة جيدة لفلسطين في المستقبل» . عرضت الورقة الحد من هجرة اليهود الى خمسة عشر الف في السنة للسنوات الخمس القادمة والحد من قدرة اليهود على شراء أراض عربية . في اجتماع سري اخر لمجلس الوزراء يتعلق بنفس الموضوع كان ماكدونالد صريحا حول ضرورة هذين الاجرائين ، السبب كما اعترف هو ، «لإرضاء العرب» .

عمل رئيس الوزراء نيفيل تشامبرلين على مآزرة ماكدونالد ، دافعا زملاءه

الى النظر الى مشكلة فلسطين بشكل رئيسي من وجهة تأثيراتها على الوضع الدولي» ، وبالتحديد «الأهمية الضخمة» في إبقاء العالم الاسلامي على جنب . مكررا نفس الصيغة ولكن بمعنى مختلف كلام سلفه أرثر بيلفور الذي اعلن قبل عقدين من الزمن انه ، اذا كانت هنالك مشاجرة لا يمكن تجنبها ، من «المفضل مشاجرة العرب لا الفرنسيين» ، تشامبرلين الان عرض على زملائه خيارا صريحا مشابها . «اذا كان يجب علينا ان نزعج جانبا واحدا» ، أنهى «دعونا نزعج اليهود بدلا من العرب» .

عقب جهود غير مثمرة للإصلاح بين الممثلين اليهود والعرب في مؤتمر في لندن ، تم في النهاية نشر الورقة البيضاء في اليوم السابع عشر من شهر ايار / مايو . في شهر تموزيوليو ، اعلن ماكدونالد تعليق الهجرة لمدة ستة اشهر بالكامل . لكن بعد ثلاثة اشهر ، عندما وضع مجلس عصبة الامم الدائم تغير سياسة بريطانيا للتصويت ، حينها تقرر من خلال اربعة أصوات مقابل ثلاثة ان شروط الورقة البيضاء تنقض الانتداب . بناء على ذلك كانت الورقة البيضاء غير قانونية ، لكن عصبة الامم منذ ذلك الحين أوقفت الامر . بعد خمسة عشر يوم ، احتل هتلر بولندا .

قرار بريطانيا الضمني لدعم العرب كان حسابات بسيطة . بينما ـ كما في الحرب العالمية الماضية ـ كان العرب مستبعدين بشكل خطير . بغض هتلر الواضح ترك اليهود من دون خيار . «اليهود؟»يسال السفير البريطاني في مصر بشكل هجائي» . دعونا نكون عمليين . انهم لعبة كل احد هذه الايام . ولكن يجب ان لا نتخلى عنهم . انتظروا «وطنهم» ألفي سنة . يستطيعون الانتظار قليلا حتى نكون قادرين بشكل افضل على مساعدتهم إنقاذ اخر باوند من أجسادهم . . . لم يسيؤوا لنا حتى الان ويجب ان يدركوا ان البكاء على القمر لن يوصلهم الى اي مكان ـ خصوصا اذا كنا الأصدقاء الوحيدين الذين بقيوا لهم في هذا العالم» .

اندلاع الحرب في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٣٩ ترك اليهود من دون بديل سوى الانتظار . في تلك الأثناء سيكونون أصدقاء جديدين ، ويستوعبوا الدرس الاكثر اهمية من السنوات الثلاث الاخيرة : انه عندما تتعامل مع البريطانيين ، العنف يوصل الى نتيجة .

الجزء الثالث

الحرب السرية ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥

الفصل السادس عشر

ملك في المنفى

في مساء الثامن عشر من شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٠ ـ بعد اليوم الذي قالت فيه الحكومة الفرنسية انها تسعى الى هدنة مع الجيش الالماني المحتل- أذاعت البي بي سي رسالة تحد من جنرال فرنسي نجا بأعجوبة الى لندن» . هل الكلمة الاخيرة قيلت؟ هل تبدد الأمل؟ هل الهزيمة نهائية؟» سال بطريقة هجائية ، بنغمة صوت ثقيلة التي بسببها اصبح مشهورا فيما بعد» . كلا! . . . لان فرنسا ليست وحدها! ليست وحيدة! لديها امبراطورية واسعة وراءها يمكنها ان تشكل قضية مشتركة مع الامبراطورية البريطانية التي تقود البحار وتتابع الكفاح . . . هذه الحرب لم تقرر من خلال معركة فرنسا . انها حرب عالمية . . . مصير العالم في خطر . . . مهما حصل شعلة مقاومة فرنسا يجب ان لا ولن تنطفئ» . مع ثلثي فرنسا الان محتل من قبل الألمان والثلث الاخر بقيادة حكومة بيتان الفيتشي التي أوضحت استعدادها للاشتراك مع هتلر مقابل بعض الحكم الذاتي ، الامبراطورية الفرنسية الواسعة ستكون مركزا للرد على القتال بالقتال متجسدا من خلال المتكلم ، شارل ديغول . في قلب تلك الاستراتيجية يقع المشرق .

طويل ومترفع ، شارل اندريه جوزيف ماري ديغول ولد قبل تسعة وأربعين

سنة في عائلة عانت وكدت حتى تميز نفسها عن البورجوازيين العاديين . عائلة ديغول كانت أرستقراطية أقلية : والداه ، هنري وجوان ، أقارب ، وعاشا حياة رثة لكن بكبرياء . مؤيدان للملكية غيوران كاثوليك ورعان ، لا يغنيان المارسيلييز ولا يحتفلان بيوم الباستيل .

حارب هنري ديغول في الحرب الفرنكو ـ بروسية لكنه لم يتمكن من ان يصبح ضابطا . لانه تم استبعاده ابتداء من الوقت الذي عمل فيه في وزارة الداخلية ، الى تيار سياسة الحكومة المعادية للدين . منذ ذلك الحين وصاعدا اصبح مدير مدرستين يسوعيتين في باريس ، اللتين نجتا من تطهير المؤسسات الكهنوتية من خلال انتقالهما الى القطاع الخاص . قارئ تواق للصحيفة اليومية اليسارية الجديدة «اكسيون فرانسيز» ، التي نادت الى بعث الملكية وكانت تشن حملة ضد تاثير الاجانب ، اليهود ، البروتستانت والماسونيين في الحياة الفرنسية ، كان فخورا بأجزاء الأفلام الصامتة التي قام بها أجداده الأرستقراطيون في عدة مراحل من تاريخ بلده ، ويتكلم بصراحة عن علامات تراجع قوميته التي كان يساهم في تدبير شؤونها لذلك ، اول ذكريات ديغول السياسية كانت عن «استسلام الفاشودا» . ولد ديغول في كنف اسرة يجري في عروقها الشك بعدوة فرنسا القديمة . «خونة؟» هذا ما كان معروفا عما كان يقوله هنري ديغول ، عن البريطانيين . «بالكاد تبدو هذه الصفة معبرة كفاية» .

بسبب هذه التربية ،لم تكن مفاجأة ان ينتسب شارل ديغول الى الجيش . سنة ١٩١٢التحق بالفرقة العسكرية الثالثة والثلاثين ، وحدة العساكر المشاة بقيادة الكولونيل المتهكم والذي يتكلم بفظاظة ، فيليبب بيتان . أيضاً ، لم تكن مفاجأة عندما جرح بعد فترة قصيرة من نشوب الحرب سنة ١٩١٤ ان يلقي اللوم بسبب إصابته على فشل الحكومة البريطانية بعدم انضمامها للمعركة بوقت اسرع . تم وصفه اثناء تخرجه من الأكاديمية العسكرية «سانت

سير» بانه» طالب عسكري موهوب جدا» كانت فرص ديغول محدودة ليبرهن عن مقدرته فترة الحرب . لانه أمضى اغلب تلك الفترة في الأسر بعد ان جرح مجددا واتخذ سجينا في الفيردان سنة ١٩١٦ . وفشلت كل المحاولات الخمسة التي قام بها للهرب . بعد الهدنة حارب ديغول لفترة قصيرة مع البولنديين ضد ورسيا السوفيتية قبل العودة الى الأكاديمية العسكرية «سانت سير» حيث اصبح أستاذا لمادة التاريخ ، وتابع تدريبه في الكلية . من هناك خرج بتقرير لخص جانبين من شخصيته .

كان» ضابطا ذكيا ، قارئا جيدا» مع «صفات رائعة وداهية» ، لكن الذي افسد تلك المواهب «ثقته الزائدة ، احتقاره لآراء الاخرين ، وتصرفاته كانه ملك في المنفى» . ما كان مناسبا بشكل سحري للدور الذي اختاره لنفسه سنة ١٩٤٠ .

دعمه باتان الذي كان وقتذاك برتبة مارشال ، والذي وصفه بانه اذكى ضابط في الجيش الفرنسي ، تجاهل ديغول النقاد . وذكر في كتاب نشر سنة ١٩٣٢ : «رجل المعركة بثبات يتمتع بقدر كبير من الغرور ، الكبرياء ، الصلابة والمكر» . أيضاً : «اشتكى في السر هؤلاء الذين تحت قيادته من عجرفته وطلباته . لكن ، لحظة العمل ، يسكت كل الهمس . رغبتهم ، آمالهم ، تنجذب اليه مثل الحديد الى المغناطيس» .

في كتاب ثاني اقترح ديغول انه يجب على الجيش الفرنسي ان يتحول الى قوة مدرعة متنقلة ومركبة ميكانيكيا ، جدل أكسبه اسما مستعارا «كولونيل موتورس» . لم تتبع الحكومة الفرنسية نصيحته ، عوضا عن ذلك اعتمدت بقوة على الدفاع الميكانيكي الساكن : خط دفاع ماجينو . لكن تماما كما توقع ديغول فشلت هذه السلسلة من الحصون التي من المفترض انها منيعة الواقعة في شرق فرنسا في إعاقة او صد الألمان ، وعندما ذهب للمعركة في شهر ايار / مايو سنة ١٩٤٠ قائدا فرقة فرنسا الرابعة المدرعة إعاقته الكبرى

كانت نقص في الوقود. المرارة العميقة التي شعر بها لحظة إخفاق فرنسا المتوقع خففه قليلا انه وجد المبرر لهذا الإخفاق.

في اليوم السادس من شهر حزيران / يونيو سحب رئيس الوزراء الفرنسي بول رينو ديغول من خط الجبهة وجعله وزير بمرتبة متدنية، ثم تم إرسال ديغول الى لندن بعد ثلاثة ايام ليطلب مساعدة اكثر من وينستون تشرشل، الذي كان قد استلم للتو منصب رئاسة الوزراء، منذ حوالى شهر واحد. بعد سنوات في براري السياسة في فترة الثلاثينيات، أخيرا اثبت تشرشل ان ابيه كان على خطا عندما تنبا انه لن ينجح، لكن في ظروف لا تتمتع بكثير من التوفيق. تم إخلاء الدنكيرك، ولانه اخبر بلاده ان تكون مستعدة بضراوة «لتحارب على الشواطئ «كان الان يفكر قدما في معركة فوق بريطانيا من اجل السيادة في الجو التي ستسبق الغزو الذي سيتم تنفيذه في البحر في السفن من قبل الوارماشت الألمان (اي القوات الالمانية الجيش والبحرية واللوفتوافا الجوية معا فترة ١٨٧٠ - ١٩١٨ و١٩٣٥ - ١٩٤٦.

كانت زيارة ديغول الاولى الى بريطانيا، وعندما طلب من تشرشل طائرات ثمينة اكثر لقي رفضا بالمختصر المفيد ومن دون تعاطف. لكنه فهم السبب، وبهدوء اخبر رئيس الوزراء انه اتخذ القرار الصحيح - اعتراف لن ينساه تشرشل. بعد ان عاد الى فرنسا، استقال رينو، وعندما اصبح من الواضح انه ما من شيء سيوقف خلف رينو معلمه السابق المارشال بيتان، من الاستسلام واقامة ما سيعرف بحكومة «فيشي» المخجلة، نظم له تشرشل هربه. عندما اصطحب ديغول صديق تشرشل وعضو في البرلمان اسمه أدوارد لويس سبيرس، الى رصيف مطار بوردو متظاهرا انه يودعه، كان يتم نقله على متن طائرة من قبل سبيرس عندما بدات تقلع. «شعرت بأنني تجردت من ملابسي واصبحت عاريا، مثل رجل على الشاطئ يخطط لسباحة المحيط»، كما اعترف ديغول لاحقا، في اعتراف نادر بالضعف.

أخذ سبيرس يتذكر صورة كيف كان ديغول في ذلك الوقت : «رجل مستقيم ، مباشر ، حتى الى حد ما قاسي . . . ذو مظهر غريب الذي «يسيطر على كل احد اخر بطوله» والذي ، كما أدرك ، كان «لاذعا جدا» . دعم سبيرس ديغول في لندن في تلك الايام التي لم تكن تتمتع بالاستقرار ، بينما ناقش صديقه تشرشل ان الرجل الفرنسي يجب ان يتحول الى رمز للمقاومة . لمح لاحقا رئيس الوزراء انه اختار ديغول بسبب سماته الشخصية ـ «كان شابا حيويا وترك عندي انطباعا مشجعا جداً» ، كما كتب ـ لكن الحقيقة انه في ذلك الوقت ، لم يكن عندي خيارات كثيرة . لم يكن هنالك احد متوفر معروف افضل منه . عقب سقوط فرنسا السريع المثير للغثيان احتاج تشرشل الى رجل فرنسي يستطيع طمأنة البريطانيين انهم ليسوا لوحدهم كما يشعرون . كان قبل كل شيء ولهذا السبب أصر ـ رغم معارضة اعضاء مجلس الوزراء ـ على ان يسمح لديغول إذاعة رسالة في الراديو في يوم الثامن عشر من شهر حزيران / يونيو . نجحت استراتيجية تشرشل . دراسة في بريطانيا في شهر أيلول / سبتمبر ذاك صنفت ديغول على انه اكثر شخصية أجنبية ذات شعبية . رغم ان المنافسة كانت شديدة جداً . وهو ما زال نسبيا غير معروف في بلده .

تابع ديغول إذاعته في الراديو بارسال برقيات الى الموظفين الكبار في كل مستعمرات فرنسا ، داعيا إياهم الى الانضمام اليه . لكن هذه النداءات الباردة فشلت تقريبا بالكامل . كان ديغول يحاول إقناع رجال العديد منهم على وشك التقاعد وأسرهم في فرنسا . لاحظ سبيرس ان ثمة رجال كانوا «غير مستعدين للتضحية بثمار جنوها على امتداد حياتهم من الخدمة الى ما يظهر على انه مغامرة ، مهما كانت تستحق الإعجاب والاحترام .

يمثل الانضمام الى الفرنسيين الاحرار خطرا كبيرا ، حتى بالنسبة الى ضباط رتبهم متدنية . «هل فكرت ماذا يعني لي القيام بذلك؟»سال احدهم عندما اقترح عليه ذلك نظيره البريطاني . «سيحكم علي بالموت ويطلق علي

النار اذا أمسكوا بي ؛ سيتم مصادرة عقاراتي في فرنسا وسانكث بالقسم الذي حلفت به عندما اصبحت ضابطا ، لخدمة حكومة فرنسا بإخلاص . لا أوافق على حكومة فرنسا الحالية ، لكن الحقيقة انه الى جانب هذه النقطة ، لم اقسم على إطاعة الحكومة التي أوافق عليها» . اخيرا ، أضاف ، اثنين من أبنائه يخدمون في الجيش الفرنسي ؛ انشقاقه سيدمر حياتهما المهنية .

تم صد ديغول عندما ارسل الى بيروت برقية ، يخبر فيها المندوب السامي والجنرال الذي يقود السبعة وثلاثين الف جندي قوي في جيش المشرق انه «من واجبهما الدفاع عن شرف ووحدة اراضي امبراطورية فرنسا» . قائد الجيش لم يحب ان يتم اخباره بالبديهيات من قبل «ضابط مبتدئ لدى مقارنته به الذي من الظاهر انه في جيبة بريطانيا ، كل من الجنرال والمندوب السامي بسرعة انضما الى صفوف حكومة فيتشي عندما اتهامهما بيتان بالخيانة . شعرا ان ما قاما به مبرر عندما ، بعد ايام ، اتخذ تشرشل خطوة عنيفة متطرفة فقد امر إغراق الاسطول الفرنسي الراسي في البحر الكبير في الجزائر الفرنسية ، حتى لا يحصل الألمان على الاسطول .

القصف ، الذي قتل الف وثلاثمائة بحار فرنسي ، هذا القرار أيقظ واكد الشكوك التقليدية وسط الفرنسيين في المشرق حول حقيقة مطامع منافستهم بريطانيا . أيضاً جعلت مهمة ديغول اكثر صعوبة . فقط جورج كاترو ، المعاون السابق للجنرال ذي الذراع الواحدة غورو الان المندوب السامي في الهند الصينية الفرنسية ، استجاب بحماس . أيضاً عرف كاترو ديغول شخصيا من وقتهما معا في مخيم السجن اثناء الحرب السابقة .

كان تشرشل غير مهيئ عندما كتب ديغول تقريرا عن نتيجة دعوته للتسلح التي خيبت أملهم . «هل كلكم وحدكم؟» يتساءل بشيء من الشك ، قبل ان يتمالك نفسه : «حسنا ، إذن أنا اعترف بانكم لوحدكم» . سبب هذا القرار الصارم الغير متوقع ذعرا بين بعض زملائه ، الذين أرادوا تجنب معارضة

حكومة فيتشي لاعتقادهم الخاطئ بانه ما زال هنالك احتمال استمالتها الى صفهم . لذلك ، عندما أكدت الحكومة البريطانية دعمها لديغول اليوم التالي بعناية . اعترفت بديغول (العميد «البادئة التي حتى الان اختفت) ليس رئيس الحكومة الفرنسية في المنفى ، ولكن «قائد الفرنسيين الاحرار ، أينما كانوا ، الذين يناصروه لدعم قضية الحلفاء» .

اعجب البريطانيون بعنجهية ديغول التي تظهر عندما يرفض الاعتراف بالهزيمة ، لكنهم كانوا اقل إعجابا بها عندما يظهرها الرجل الفرنسي لهم . كما وضعها كاترو بطريقة لخص فيها الحالة ، بينما تصور البريطانيون ان فرنسا الحرة هي «أداة في خدمة سياستها» ، رأى الفرنسيون الاحرار انفسهم بشكل مختلف الى حد ما بانهم «انبعاث فرنسا» . اعتقد ديغول انه فرض سلطة الوكيل عن بلد اصبح قائدها بيتان «مجنونا» . أنا ، الجنرال ديغول ، جندي وقائد فرنسي ، على علم انني أتكلم باسم فرنسا» ، اعلن في اليوم التاسع عشر من شهر حزيران / يونيو ، اليوم بعد إذاعته الاولى . لكن مع ذلك وبشكل استفزازي ، عندما طلب منه تشرشل لاحقا ان يمنح سورية ولبنان الاستقلال ، كان تماماً جاهزا ليستشهد بالتعريف البريطاني لسلطاته المحدودة ليجادل انه لا سلطة له للقيام بذلك .

كان سقوط فرنسا ذلا كفاية ، لكن تماماً بنفس مستوى الرداءة ، على حد علم ديغول هو الاعتماد المفاجئ على بلد تعلم منذ صباه ان لا يثق به . لذلك قرر انه افضل طريقة لإخفاء ضعفه التظاهر ان فرنسا ، رغم نكستها الحالية ، هي دولة عظمى كما كانت دائماً ، وان يكون عنيفا وعدوانيا مع اي احد يجرؤ على مخالفته بهذا الرأي . كتب فيما بعد ، فقط لو انه اتخذ موقف «المؤيد المرن للبلد والدولة «كان بإمكانه ان يربح «دعم الفرنسيين واحترام الأجانب» .

عندما فشل اغلب نظرائه بالتصدي لتلك التكتيكات المخيفة ، ما شجع

ديغول محاولة القيام بها كل مرة . «يجب ان تخبط على الطاولة» ، كما توهم ، في التعامل مع البريطانيين ؛ «يتراجعون» . حتى سبيرس ، مؤيده الوفي ، لاحظ كيف «انه سرعان ما ربى كره ان يكون محبوبا وكان ذلك علامة ضعف» . في مذكراته تذكر ديغول باستساغة كيف سأله وزير الخارجية أنتوني أيدن ذات مرة اذا كان يدرك انه سبب مشاكل اكثر من «كل الحلفاء الأوروبيين الاخرين مجتمعين» . «لا اشك في هذا» ، أجاب ديغول . «فرنسا قوة عظمى» .

حلم ديغول عندما كان طفلا قيادة جيش من مئتي الف رجل ، واواخر صيف سنة ١٩٤٠ شرع الى تحويل طموحه الى حقيقة . الفال بدا جيدا . حاكم تشاد الاسود ذو شان كبير اعلن دعمه لديغول ، مندفعين بقرارات مماثلة في الكونغو الفرنسية وغابون . نمت ثقة ديغول اكثر من اللازم . اتجه في بعثة الى داكار على ساحل افريقيا الغربي وقد تم رؤيته يشتري ملابس رسمية استوائية من متجر لندني ، مرة من بين العديد من المرات التي اخترق فيها الأمن وقد تم كشفها بعد ان تحول النجاح الى إخفاق . بالرغم من انه عند حدوث ذلك فكر ولو لوهلة ان يفجر عقله ، لم يفقد ثقة البريطانيين . عودة سريعة للوراء ، وجه انتباهه الى سورية مرة اخرى . اذا استطاع كسب جيش المشرق الى صفه ، يمكنه ان يصبح قوة حقيقية لا يمكن للبريطانيين تجاهلها .

دعم البريطانيون طموح ديغول . ما ان وقف الفرنسيون في المشرق الى جانب حكومة فيتشي ، حتى عرفوا انهم يواجهون مشكلة . على الاقل ، المشرق يقدم قاعدة عسكرية للألمان في فلسطين للتجسس والتخريب ، فلسطين التي منذ وقت قريب جدا تدمرت اثناء ثلاث سنوات من الثورة . قد تصبح أيضاً قاعدة لاعتداءات المحور الجوية على السويس او على منشآت النفط في العراق . مذكرة سرية تم أعدادها في الوايتهول ذاك الصيف تحذر ان وضع بريطانيا في الشرق الاوسط «سيتعذر حمايته» الا اذا أخضعت سورية

ولبنان الى سيطرة بريطانية ودية او مباشرة . قبل هذه الفترة ، كانت الصحف البريطانية لمدة طويلة تكتب تقاريرا ان لبنان تشهد تدفقا مفاجئا من السواح ، الذين كانوا يسافرون بجوازات سفر هنغارية او بلغارية لكن يتكلمون اللغة الألمانية من دون أخطاء .

أيضاً أدرك البريطانيون ان الوضع في المشرق سيكون من الصعب عليهم حل مشاكله ، لأنهم يعلمون جيدا انهم اذا حاولوا السيطرة على سورية ولبنان بشكل مباشر سيعملون فقط على إيقاظ الخوف القديم ان طموحهم الحقيقي طرد فرنسا من المنطقة . الحسابات السياسية عززتها حقيقة عسكرية . بعد ان بدا الإيطاليون بالتقدم من ليبيا باتجاه مصر في منتصف شهر أيلول / سبتمبر ، لن يستطيع البريطانيون ارسال جند للسيطرة على سورية ولبنان بالقوة . لأنهم لفترة ما كانوا قد عززوا علاقات سرية مع الفرنسيين الفيشي في لبنان وسورية في محاولة منهم لكسبهم لصفهم . لكن فشل هذا النهج لتحقيق أية نتائج ملموسة أعطى ذخيرة الى هؤلاء ضمن الحكومة البريطانية الذين كانوا يحثون على التصرف بقساوة اكثر . باتجاه نهاية شهر آب / أغسطس سنة ١٩٤٠ قررت الحكومة البريطانية ان تترك الفرنسيين الاحرار القيام بانقلاب يطيح بحكومة فيتشي في المشرق . اختارت جورج كاترو ، بسبب مهنته الطويلة في المشرق ، ليكون الرجل الذي يتصدر المحاولة .

من خبرته بالخلافات بين البريطانيين والفرنسيين في المنطقة ، اتفق كاترو مع البريطانيين في الرأي انه من المهم رؤية الفرنسيين الاحرار يربحون سورية ولبنان من دون اللجوء الى مساعدة بريطانيا . لكن لسوء الحظ ، تصميمه هذا اثر على تقييمه للفرص التي بين يديه .

عندما وصل الى القاهرة في فصل الخريف اعتقد ان الانقلاب سيقع كل ما يتطلبه هو مجرد مسالة وقت . اخبر ديغول مطمئنا إياه : «لن أتردد في السيطرة على سورية في اقرب وقت اكون فيه متأكدا من انني سآخذ معي ثلثي الجيش

واغلبية قوى الجوية» ، كما اخبر ديغول ان العملية «سيتم تنفيذها من دون دعم القوات البريطانية التي سيتم تجنبها لأسباب سيكولوجية» .

تفاؤل كاترو لم يكن بمكانه . لانه «بالغ لدرجة كبيرة بتقييمه «حسب وصف القنصل البريطاني في بيروت لمستوى دعم فرنسا الحرة في المشرق ، لم يتوقع الخطوات القمعية التي سيتخذها الفرنسيون الفيتشي في سورية ضد الحلفاء . كولومباني ، رئيس السورتيه (مديرية الأمن) الذي فتش بشكل فاشل في ملفاته من اجل الحصول على تفاصيل عن عرب متمردين عندما زاره تيغارت سنة ١٩٣٨ ، الى حد ما اطلع على الكثير من المعلومات عن رفاق بلده . عندما عرض عليه عميل من الفرنسيين الاحرار رشوة ليسقط الحكومة ، كولومباني ذهب الى رؤسائه وخانه في تلك المؤامرة مقابل عرض اعلى . ضباط فرنسيون مشتبه بتعاطفهم مع الديغوليين بسرعة تم اعادتهم الى فرنسا ، شبكة تجسس الفرنسيين الاحرار التي عرضت عليه المال تم محاصرتها فيما بعد بمدة قصيرة . وتم ثم القبض عليها لاحقا . كل من المندوب السامي والجنرال قائد جيش المشرق تم استدعاءهما واستبدالهما بهنري دينتز ، الذي خدم سابقا في المشرق اثناء ثورة الدروز كرئيس للمخابرات تحت قيادة ساراي . دينتز الذي تم استدعاءه الى باريس مع ساراي ، كون رأيه بوضوح . حيث كان يعتقد ان «البريطانيين» كما كان يرى»يمثلون تلك الاشياء التي تقريبا تدمرنا : سياسة ديمقراطية الماسونية ومالية اليهودية -الساكسونية . يمثلون الماضي ما من شيء بناء» .

حتى حلول شهر كانون الاول تقبل كاترو فكرة انه لن يحدث انقلاب في المشرق . في برقية الى ديغول وصف سورية «ثمرة مرة المذاق التي تستمر بعدم استعدادها بان تصل لمرحلة النضج» ، نتيجة لذلك «ربما يجب علينا الحصول عليها بالقوة» . المشكلة ، كما يعرف كلا الرجلين ، انهما ليس لديهما رجال كفاية للقيام بهذه المهمة لوحدهم .

ولا البريطانيين في تلك المرحلة كانوا مهيئين لتعويض هذا النقص . في مصر القائد العام للقوات البريطانية الذي كان تحت ضغط كبير ارشيبولد ويفل . «ينقصه كل شيء الا الشجاعة» ، لا يفكر ويفل بفتح جبهة جديدة بينما هو يحارب الإيطاليين ، الذين كانوا يهددون مصر من ليبيا وبلاد الحبشة . وحتى بعد ان هزم الإيطاليين على الجبهتين ، ما زال معارضا للقتال في سورية . في الحقيقة ، حتى انه جادل ان هزيمته للإيطاليين قد تشجع «حركة الفرنسيين الاحرار التي كانت تنمو بثبات وسط القوات المسلحة برتب عسكرية متدنية «في سورية ، على تبرير المماطلة والتسويف .

ديغول ، الذي بدا يقلق من ان يغتصب كاترو المنصب منه ، وصل الى القاهرة في الاول من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤١ ليقييم الوضع ويدافع عن نفسه . كان معه ضابط الاتصالات البريطاني والداعم الرئيسي له سبيرس . قرر سبيرس بسرعة ان وافيل كان» يعيش في جنة حمقاء «لانه أخذ كلمة حكومة فيتشي في سورية على محمل الجد على انها لن تساعد الألمان . خشي سبيرس وديغول على نحو صحيح من ان ينهار فيتشي الفرنسيين ويذعنون تحت الضغط لأي طلب ألماني بان يسمحوا للطائرات الالمانية (اللوفتوافا) باستخدام الميناء الجوي في المشرق .

حتى ذلك الوقت ارسل سبيرس برقية عن تقييمه المؤلم عن ويفل الى لندن ، جرت سلسلة احداث جعلت دعوته للقتال إكراهية . في العراق في اليوم الثاني من شهر نيسان / أبريل ضابط جيش قومي اسمه رشيد عالي الكيلاني استولى على السلطة في بغداد ، بعد اشهر من البروباغندا الالمانية في البلاد . استولى في اليوم التالي جنرال هتلر الرائع ايروين روميل على بنغازي على الساحل الليبي ، وفي اليوم السادس غزا الجنود الألمان اليونان ويوغوسلافيا . استسلمت يوغوسلافيا في اسبوع واحد ، وعندما استسلمت اليونان بشروط في اليوم الرابع والعشرين تقريبا ربع الخمس وخمسين الف قوة

بريطانية القوية التي تم إرسالها لتمد البلد بالجنود تم أخذهم سجناء .

تأمل سبيرس ان انعقاد مؤتمر في القاهرة في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان / أبريل ليناقش الوضع السوري قد يؤدي الى حصار أقوى على الساحل السوري ، لكن الامور سارت على نحو خاطئ بشكل مؤلم ، عرض كاترو ، من ذعره ، ارسال فرقتين عسكريتين بريطانيتين للاستيلاء على بيروت ودمشق . جاء هذا الطلب في وقت كان فيه البريطانيون منتشرون بالكامل في مكان اخر ، فبدا هذا الطلب بانه وكما وصفه احد الحاضرين : «ما من المستحيل الحصول عليه بان يحقق ما لا يتحقق» ، ما جعل الفرنسيين يبدون بالكامل لا علاقة لهم بما يجري حولهم . وأعطى مركز قيادة وافيل السبب حتى يتجاهل سورية لمدة أطول قليلا .

أيضاً ، الاحداث في العراق كانت مقلقة بشكل مباشر اكثر . بعد انقلاب الكيلاني ، حوصرت السفارة البريطانية في بغداد الان بشكل كان له اثر كبير ووقفت قاعدة القوات الجوية الملكية في الحبانية بين العاصمة العراقية وخط أنبوب النفط المتجه الى حيفا ، وقد تم الإحاطة بها من قبل القوات العراقية العدائية . أراد وافل من الحكومة ان تصل الى اتفاق مع الكيلاني حتى لا يضطر الى ارسال جنوده ، لكن عندما نشب القتال حول القاعدة الجوية للطائرات العسكرية فرضت على بوافل قواعد اللعبة . «لن نقدم تنازلات» ، هذا ما أخبرته اياه لندن في اليوم الرابع من شهر ايار / مايو ، امرة إياه بارسال تعزيزات . تم تشكيل وحدة الحبانية البريطانية على عجل من اجل فك حصار الحبانية ـ شمل مواصلاتها الباصات التي تم الحصول عليها من شوارع القدس وحيفا ـ وبدأت رحلتها عبر الصحراء فيما بعد بقليل . اهم شيء في ذهن تشرشل كان الحاجة الى «ان نفعل كل ما بوسعنا للحفاظ على الحبانية والسيطرة على خط الأنابيب حتى المتوسط» .

أدرك الألمان اهمية العراق عند البريطانيين أيضاً . بعد ان طلب منهم

الكيلاني المساعدة ، أجبرت برلين حكومة فيتشي السماح لطائرات اللوفتوافا بالهبوط والتزود بالوقود في سورية بطريقها الى العراق . عندما اعاقت المخابرات البريطانية الأوامر التي اعطتها حكومة فيتشي الى دينتز التي تعطيه أوامر بالسماح للطائرات الالمانية بالهبوط ، أجراس بدات تقرع في لندن . تشرشل ، الذي لم يمارس الضغط على وافيل حتى الان ليشرح له الوضع ، بدا بالقلق من ان الألمان قد يستولوا على سورية والعراق من خلال «قوات جوية صغيرة ، سواح وثورات محلية» .

وفي ذهنه تصور ان تلك النتيجة يمكن تفاديها من خلال ما وصفه «طرق داخلية سياسية مسلحة «الى داخل سورية ، بناء على ذلك التصور ، اخبر وافيل في اليوم التاسع من شهر ايار / مايو ان يزود كاترو بالمواصلات ليشن ثمة عملية ، وان يامر القوات الجوية الملكية بقصف موانئ سورية الجوية . لكن اعتقد أركان جيش وافيل ، كما حصل فعلا ، ان هنالك احتمال بعيد جداً ان يشن الألمان هجوما ساحقا على كريت قبل الاستيلاء على سورية ، وركزوا على التهديد الاكثر مباشرة . ايضا كانوا قلقين جداً حتى لا يقودوا الفرنسيين الفيتشي ضمن جيش دول المحور عن طريق القصف المصمم لتدمير قوة الخصم الهجومية حتى قبل ان يستخدموها ، حسب رغبة تشرشل . كان فقط اليوم الثاني عشر من شهر ايار / مايو ، عندما كتب القنصل البريطاني في بيروت تقريرا انه سمع هدير قنابل يسقطها الالمان جهة الشرق فوق رؤوسهم ذاك الصباح حتى أخيرا تقبلوا حقيقة ان المواجهة مع الفرنسيين الفيتشي لا يمكن تأجيلها اكثر من ذلك . في اليوم الخامس عشر من شهر ايار / مايو قصف البريطانيون مهبط الطائرات الرئيسي في سورية مدمرين عدة طائرات ألمانية ما زالت على الارض .

حتى يوم العشرين من شهر ايار ـ مايو اليوم الذي اسقط فيه الألمان مناطيد الى كريت- كان هنالك ضغطا كبيرا عليهم حتى يلجاوا الى الحرب . ارسل

سبيرس برقية الى لندن مع إشاعات ان دينتز يسحب قواته من سورية الى لبنان ، تاركين فراغا قد يملأه القوميون العرب والألمان . «اذا كان الجند الوحيدون المتوفرون هم الفرنسيون الاحرار ، لماذا لا نستخدمهم؟»هذا ما اقترحه . وهم مواجهون بالاختيار بين رجال بلادهم او بين الاحتلال الالماني ، كان سبيرس يعتقد ان هنالك احتمال ضعيف ان يحارب الفرنسيين الفيتشي .

الوقت مهم جداً ، هذا ما قاله ضابط بحري فرنسي بعد ان هرب من بيروت . حث البريطانيين على الاستفادة من الفوضى التي تسبب بها القصف الذي قاموا به . وقال انه «في غضون أسبوعين» ، سيكون «الاوان قد فات» . القادة في لندن التقطوا هذا الحس المعدي بضرورة العجلة الملحة . واعتقدوا ان الفرصة» جيدة جداً لا يجب تفويتها» ، اخبروا وافيل ان يسمح للفرنسيين الاحرار بالتحرك الى داخل سورية اذا كان الوضع مشجعا . «يجب ان ينظر الى التقدم على انه انقلاب سياسي ، الذي عنصر التوقيت فيه مهم جداً ، اكثر مما هو عملية عسكرية» . لكن بسبب نقص القوة البشرية الضرورية التي يحتاج اليها الفرنسيون الاحرار ، جعلهم يلجاوا الى فكرة عرض بيان رسمي لتحقيق تغييرات جذرية بدلا عن الانقلاب .

الفصل السابع عشر

مرحلة قذرة

انه كان جورج كاترو الذي جاء بفكرة ان يعرض الفرنسيون الاحرار الاستقلال على سورية ولبنان لجعل غزو المشرق اكثر سهولة . تماماً مثلما في الحرب العالمية الاولى عندما حول البريطانيون العرب الى ضد الاتراك مع تعهد عظيم ، تأمل ان يدير هذا الوعد عرب سورية ولبنان ضد الفيتشي . لكنه أدرك ان عرضه خطر . حذر كاترو ديغول : «بالتأكيد سيثير الإزعاج وربما المشاكل في المشرق ، مشاكل التي يجب ان لا نكون في موقع حتى نهدئها» . كان محقا تماما : فكرته هذه ستلازم العلاقات الفرنسية مع البريطانيين لمدة الخمس سنوات القادمة .

ضابط الاتصالات مع ديغول سبيرس ، اعتقد ان فكرة كاترو «الضمانة الجادة النزيهة لاستقلال سورية التام من دون قيد او شرط مهما كان «فكرة رائعة ، لانه كان قلقا من احتمالية ان يواجه الفرنسيون الاحرار معارضة شديدة من السوريين عندما يعبرون الحدود . مع دعمه اخبر كاترو ديغول في اليوم التاسع عشر من شهر ايار / مايو انه لدى دخوله الى سورية سيعلن انهاء الانتداب وقدوم الاستقلال» .

فقط في مسودة التصريح التي اشتغل عليها كاترو بنفس ذاك اليوم في المساء ، قدم التعويض (من مبدا فاد واستفاد) الذي تعمد هو وديغول على جعله ملحقا بهذا المخطط . في تلك المسودة أيضاً ذكر بشكل مفصل ان الفرنسيين الاحرار سوف «يحملون على عاتقهم المسؤوليات التي تكفلت بها فرنسا» في المشرق وانه يتوقع ان سورية ولبنان «ستنتميان» الى فرنسا من خلال معاهدة تحالف . من الواضح ان سبيرس كره تلك المسودة ، لانه بعد قراءتها بحماوة طبخ نسخة من صنعه ارسلها الى لندن في الساعة الثانية عشر وخمسة وأربعين دقيقة صباحا . في يوم العشرين من شهر ايارمايو ، بعد ثلاثين دقيقة من كاترو .

كما حدث لماكماهون في لحظة حاسمة من مراسلاته مع الشريف حسين قبل خمسة وعشرين سنة ، معلومات متعددة ظهرت الان أقنعت البريطانيين والفرنسيين انهم سيحتاجون الى تقديم عرضهم للعرب . اخر يوم عشرين من شهر ايار / مايو ذهب كاترو الى الحدود السورية من اجل عقد لقاء سري مع الضابط الفرنسي المتعاطف الذي كان يخطط للانشقاق عن الفيتشي لينضم الى الفرنسيين الاحرار . لكن الكابتن فيليبرت كوليت ، الذي بدا كانه «خارج للتو من بوغيستو (فيلم سنة ١٩٦٦ مأخوذ عن رواية فرنسية)» ، احضر له أنباء مخيبة للآمال . على عكس توقعات كاترو ، كوليت كان متأكدا من ان الفرنسيين الفيتشي سيحاربون بضراوة . حذر كاترو ديغول ان البروبغندا لوحدها لا تكفي ومساعدة من القوات البريطانية بالتأكيد ستكون ضرورية الان .

في البداية لم يثق سبيرس بمعلومات كوليت ، لكنه غير رايه عندما التقى بالضابط الذي له خبرة كبيرة في الحرب بسبب مدة خدمته الطويلة ، والذي انشق مع مئتي رجل فيما بعد بفترة قصيرة . علم من كوليت ان الفرنسيين الاحرار يتمتعون «بشعبية» في سورية وانه من المحتمل ان يلقى البريطانيون

ترحيبا حارا . اخبره أيضاً كوليت ان كاترو ليس له هذه المكانة وسط الجنود والموظفين الفرنسيين . توصل سبيرس الى نتيجة ان كلام كاترو لوحده غير كاف .

بدا يتبلور وضع كابوسي في ذهن سبيرس . يحتاج البريطانيون الى السماح للفرنسيين الاحرار الى قيادة استلام السلطة في سورية لتجنب الانطباع انهم يحاولون اغتصاب الحكم من الفرنسيين .

لكنها بدت من المعلومات التي حصلوا عليها ان قيام الفرنسيين الاحرار بذلك سيقلق كل من السوريين ، الذين يريدون من البريطانيين تحريرهم ، وكذلك سيسبب القلق للفيتشي الفرنسيين ، الذين رأوا الفرنسيين الاحرار واجهة بريطانية . أيضاً ، تناقلت اشاعات عن «خطر وشيك» ان السوريين قد يتوحدوا مع العراقيين ليشكلوا فيدرالية عربية بتمويل ألماني . وبدت كلمات كاترو وحدها كانها ليست كافية لإيقاف ذلك .

عندما وصل لندن هذا المزيج من المعلومات المربكة ، طلب تشرشل من وزير الخارجية الجذاب والواثق من نفسه أنتوني أيدن اعادة النظر بشكل عاجل في السياسة البريطانية في العالم العربي . في اليوم السابع والعشرين من شهر ايار / مايو وزع على زملائه في مجلس الوزراء مذكرة قصيرة لكنها حاسمة . اعترف فيها ان السبب الحقيقي لعدم الرضا العربي «مشكلة فلسطين» ، لكنه جادل انه يمكن تهداتها بسهولة من خلال وعد بريطاني ان السوريين واللبنانيين سيحصلون على استقلالهم ، اذا رفض الفرنسيون عرض ثمة ضمانة او عرضوها ولكن من دون ان تنجح . اقترح ايدن «يجب ان نعتبر انفسنا أحرارا في التحول من الفرنسيين الاحرار الى السوريين العرب» . أيضاً دعم فكرة انه على الحكومة البريطانية علنا دعوة العرب للتوحد ، رغم انه شخصيا لا يعتقد ان الوحدة العربية ممكنة . بعد ان وافق مجلس الوزراء بعد يومين ، اعلن دعم الحكومة للتطلعات العربية ، في خطاب في المانشن هاوس .

بذلك قامت الحكومة البريطانية للتو باتخاذ عهد على نفسها متابعة سياسة دعم استقلال لبنان وسورية مصممة لتنفيس الغضب العربي الذي سبب به حكمهم في فلسطين .

قدر مباشرة ديغول ان الحكومة البريطانية كانت مستعدة لتحقيق الوحدة العربية على حساب فرنسا ، ولم يحب ذلك إطلاقا . لكنه أدرك انه ليس أمامه خيار سوى قبول التصريح الذي عرضه كاترو ، لانه اذا وعد البريطانيون باستقلال المشرق ، سيؤدي الى انجذاب العرب لهم ، اذا لم يعرض نفس الجزرة اولا . لكنه حاول تلميع التصريح قبل ان يصبح علنا . في اليوم الواحد والثلاثين من شهر ايار / مايو كتب الى مؤيديه الفرنسيين الاحرار ، مناقشا انه ربما تصبح سورية ساحة معركة وليس لديهم السلطة الشرعية «للإعلان ببساطة وبشكل بحت الغاء الانتداب» ، هنا يجب ان يكون هنالك «مرحلة انتقالية في تحويل السلطات» في المشرق عوضا عن ذلك . يجب ان نقول فحسب اننا قادمون لوضع نهاية لنظام الانتداب ولإقرار معاهدة تضمن الاستقلال والسيادة» . وعندما تصل الامور الى تنفيذ وعد الاستقلال ، كان من الواضح ان ديغول كان يفكر بمهلة أطول مدة الى حد ما من البريطانيين . قبل سنة ، قال الجنرال الفرنسي انه يعتقد «قد يأتي الخطر الاكبر والاكثر مباشرة من الرابطة الاسلامية التي تمتد من طنجة الى الهند» .

توقع سبيرس مسبقا ان يبدأ ديغول بالتنصل ، واقترح ان تضمن بريطانيا تصريح الفرنسيين الأحرار حتى تمنع هذا التخطيط من ان يتحقق . حتى انه تمكن من تمرير تلك الفكرة الى ديغول من خلال تقديمها له على انها ترويج لقيادته للفرنسيين الاحرار . لانه اقترح ان العرض الفرنسي بالاستقلال سيعزز مكانة ديغول ، عندما تساءل ديغول حينذاك فيما اذا ثمة وعد سيبدو الى حد ما واهيا ، بسرعة أجاب سبيرس : «اذا كان الامر كذلك . . ألن تكون ضمانة بريطانية التي نتكفل بها وافية بالغرض؟» حينذاك كتب تشرشل الى

ديغول ليطمئنه انه «ليس عندي نية للاستفادة من وضع فرنسا المأساوي من اجل مكاسبنا» ، وسعيا لالزام الجنرال بوعده بتحقيق الاستقلال «اتفق على اننا يجب ان لا نعرض للخطر باية تسوية للمسألة السورية استقرار الشرق الاوسط . لكن فيما يتعلق بذلك يجب علينا كلانا ان نقوم باي شيء ممكن لتحقيق تطلعات العرب ومراعاة مشاعرهم» .

وكذلك ، في اليوم الثامن من شهر حزيران / يونيو ، عندما عبرت قوات بريطانية والفرنسيين الاحرار الحدود واعلن كاترو انه قادم لإنهاء الانتداب «و ليعلن حرية واستقلال لبنان وسورية ، أيضاً أصدرت الحكومة البريطانية بيانا ينص على انها تدعم وتشرك نفسها بضمان الاستقلال الممنوح من قبل الجنرال كاترو . كلمة «ضمانة» لم تستخدم ، لكن المضمون كان بالطبع واضحا - بالفعل ، هكذا كان كيف تم كتابة البيان في الصحف . وضعت الحكومة البريطانية نفسها بموقف مثير للبغض بسبب هذا الآعلان . ما ان انتهت الحملة ، كان عليها ان تتأكد ان الفرنسيين الاحرار سيلتزمون بكلمتهم .

تماماً بعد فجر اليوم التاسع من شهر حزيران / يونيو ثلاث مجموعات من الكوماندو (الجنود المتدربين على الاغارة) البريطاني المسلح بشكل جيد- خمسمائة رجل ، لطخوا وجوههم بقشور الفلين المحروقة - هبطوا على ساحل جنوب لبنان ، قرب مصب نهر الليطاني . النهر ذو ضفاف شديدة الانحدار يجري حوالى العشرين ميلا شمال الحدود الاعتباطية بين فلسطين ولبنان الحدود التي اتفق عليها البريطانيون والفرنسيون قبل عقدين من الزمن . وهي حدود طبيعية استولى عليها الفرنسيون الفيتشي .

قوة ذات اسم شيفرة (z عادة اسم مختصر وسري) ، كانت مهمة الكوماندو الاستيلاء على جسر القاسمية الرئيسي الذي يعبر الليطاني قرب الساحل ، والإمساك به حتى قدوم الفرقة الأسترالية السابعة المتقدمة . خطتهم الاصلية الهبوط شمال النهر حتى يتمكنوا من مهاجمة دفاع الفيتشي الفرنسيين من

الخلف . لكن تم التخطيط لهذه العملية على عجل ، والصور الفوتوغرافية المأخوذة من الجو التي بحوذتهم والتي تصور أهدافهم لم تشمل الشريط الساحلي . نتيجة لذلك ، هبط القسم الجنوبي من المجموعات الثلاث في الجانب الخطأ من الليطاني امام وليس خلف المواقع الفرنسية ـ وجاؤوا تحت اطلاق نار كثيف .

الفرقة المركزية التابعة لقوة z بقيادة الكولونيل ريتشارد بيدار ، أيضاً قوبلت بمعارضة شديدة . كشف وصول ديغول الى حيفا قبل ايام ما كان على وشك ان يحصل ، لذلك عندما هبط الكوماندو على الشاطئ والرصاص يهدر فوق رؤوسهم . بعد إلقاء القبض على عدة رجال فرنسيين ما زالوا بالبيجامات ، بداوا الهبوط في المناطق الداخلية حيث توجد الثكنات الفرنسية المحلية ومدفعياتها . استولوا على اول مدفعية وأداروها على الأخريات ، لكن بينما كانوا يهربون جهة الجنوب اطلق النار على بيدار ومات وضابط اخر أصيب بجروح قاضية قام بها قناصة مختبئين بين الأشجار . في النهاية كان اغلب القسم الشمالي هو الذي تمكن من شق طريقه الى الجنوب ليجبر المعقل الفرنسي على الليطاني على الاستسلام . بالمجمل خسر الكومندو ربع عددهم ، بين قتيل وجريح . في اليوم التالي حرر الأستراليون من بقي على قيد الحياة والذين ما زالوا في الاسر .

كان الأستراليون جزء من «أوبيريشن اكسبورتر» ، وهي عملية تتالف من شعبتي تقدم اختراعهما وافيل للاستيلاء على بيروت ودمشق بنفس الوقت ، متجنبين المرور بسلسلة الجبال التي تشكل حافة المشرق الحادة . في الأسابيع السابقة شكل وافيل بشكل فوضوي قوة غزو مختلطة تتألف من جند أستراليين ، بريطانيين ، هنود وفرنسيين أحرار ، واضعا إياهم تحت قيادة «جامبو» ويلسون قائد ميتلاند ، وهو جنرال يتمتع بشعبية الذي جسمه الضخم عليه على ما يبدو فقط حزام سام براوني ضاغطا على قوام جسمه

الخارجي(حزام سام براوني من الجلد من زي الجيش السوفياتي له امتداد من على الخاصرة جهة اليسار ليلتف على الكتف الأيمن) . «المزيد من المشاكل يا رجال ، هذا ما أخشاه!» اعلن جامبو بحماس عندما وصل الى القدس ليستلم القيادة ، مبتسما مثل قط تشيشير (وهو قط من الرسوم المتحركة وجهه دائما باسم موجود بالاصل في قصة أليس في بلاد العجائب) . ثمة رباطة جاش رجحت جامبو ويلسون لقيادة هذه العملية التي تكاليفها جداً منخفضة .

بيروت ، عاصمة نظام الفيتشي في الشرق الاوسط الفرنسي ، كانت هدف الشعبة الأسترالية التي تشكل الجناح الشمالي ، الشعبة التابعة لجيش ويلسون والذي تم تشكيله بشكل رديء ، بينما دمشق كانت هدف القوة التي تشكل القسم اليميني الذي يتالف من فرقتي جيش من الهنود ، جزء من فرقة الحرس الاولى ، وستة كتائب من الفرنسيين الاحرار تحت قيادة الجدير بلقبه الجنرال ليجنتيلهوم . والقائد الثاني الذي تحت اشرافه كان بيير كونيغ ، كان معروفا بعبارته ، «الإنكليز الملطختين بالدماء «- الكلمتين الوحيدين اللتين يتكلمهما . لم يعنيها بشكل جدي أبدا ، لكن بقيت الحقيقة ان الفرنسيين الاحرار كانوا فقط قادرين على استخدام نصف الجند الذين يريدونه بسبب نقص المواصلات البريطانية .

لم يتوقع البريطانيون اية مقاومة . اخبرهم ديغول ان يتوقعوا معارضة خفيفة من الفيتشي الفرنسيين الذين «ستهمد رغبتهم بالقتال بسرعة» . للتأكد من ولاء الشعب ، لم يكفل البريطانيون فقط تصريح كاترو بالاستقلال ولكن أيضاً وقعوا على ذلك سرا مع دفع مئتي الف جنيه لزعماء الدروز والبدو داخل سورية . لذلك عندما تبدأ الشعبتان التابعتان لقوة الحلفاء تلك بالتوجه شمالا الى داخل المنطقة الفرنسية في اليوم الثامن من شهر حزيران / يونيو ، نفذوا بذلك محاولين قدر الإمكان إخفاء نواياهم حيث تظاهروا بانهم يوزعون البريد على طول الشارع» . تم امر الأستراليين بتبديل خوذاتهم الفولاذية بقبعات خفيفة .

يوحي ما حصل مع قوات الغزو في البداية ان ما قاله ديغول صحيح . عندما عبر الأستراليون الحدود اول رجل فرنسي التقوا به ، في مخفر الشرطة على الحدود ، كان ما زال في السرير . جهة اليمين ، وصل البريطانيون الى بلدة درعا فترة الغداء في اليوم الاول من تقدمهم . تماماً كما تمنوا ، عرض بسرعة الدروز دعمهم ، وانشق بسرعة الضابط الفرنسي الذي كان مسؤولا عن مفرق سكة الحديد المغبر . شرح الرجل الفرنسي كيف ، عندما كان يحاول الهرب جهة الشمال كيف انفصل دولاب سيارته الأمامي عن محور العجلات ، الخيار كان بسيط جداً . «اصبحنا من الفرنسيين الأحرار على الفور»!

في مذكرات المؤلف رولد داهل ، الذي كان في تلك الغزوة طيارا لطائرة هاريكان (نوع من الطائرات استخدمت فترة الحرب العالمية الثانية وتتميز عن غيرها من الطائرات ان لها شفرات مروحة تماما عند مقدمتها) ، اكد الانطباع ان الفيتشي الفرنسيين كانوا غير مستعدين . تم إرساله الى مطار الرياق حتى يكتسح مطار الفيتشي بالطلقات النارية والذي تذكر لحظة دنوه من الارض فوق مهبط الطائرات ، انه دهش لرؤيته «مجموعة من الفتيات يلبسن فساتين قطنية بألوان فاتحة يقفن في الخارج الى جانب الطائرات مع كؤوس بأيديهن يشربن مع الطيارين الفرنسيين ، وأتذكر زجاجات النبيذ الواقفة على جناح احد الطائرات عندما قمنا بالدوران مسرعين وعن قرب» . كان صباح يوم احد و«كان من الواضح ان الرجال الفرنسيين كانوا يرفهون عن صديقاتهم ويتباهون أمامهن بطائراتهم ، ما كان شيء فرنسي جداً للقيام به في وسط الحرب على الخط الأمامي من المطار . كل واحد منا عندما اخذنا وضعية اطلاق النار في اول مرور فوق حقل الطيران وكان منظرا مضحكا بشكل رائع ان ترى كل الفتيات يرمين بكؤوس النبيذ ويهرولن بكعوبهن العالية الى باب اقرب مبنى . . . حطمنا خمسة من طائراتهم على الارض» .

لكن الأمل بان يكون الغزو نصرا سهلا قد تبخر عندما بدات كل من

شعبتي ويلسون بمواجهة مقاومة شديدة . عندما شقت قوات الجانب الايسر الأسترالية طريقها باتجاه الاعلى الى الوادي الواسع المؤدي الى مرج عيون - البلدة الداخلية الاكبر جنوب الليطاني - قوبلوا بإطلاق نار كثيف . قاتلوا باستماتة لضمان السيطرة على الوادي . في احد القرى كان يتم «إلقاء القنابل اليدوية ثم ردها مجددا «اما جهة اليمين ، واجه البريطانيون مقاومة عنيفة مماثلة على طول الطريق حتى وصلوا الى دمشق . كتب ضابط بريطاني كبير : «حاربت سيارات الفيتشي المدرعة كل يارد من تقدمنا» .

هذا جاء مفاجأة غير سارة . بينما توقع سبيرس ان الفيتشي الفرنسي سيسمح بأذعان للألمان ان يستخدموا مطاراتهم ، لم يتضح له انهم قد يقاوموا بضراوة تقدم البريطانيين والفرنسيين الاحرار . لكن حكومة فيتشي قد أمرت جنودها بالمقاومة ، وحثت صحافة الحكومة الفيتشي أبناء بلدها على قتال «العدو الموروث» والى إنقاذ سمعة وطنهم العسكرية الممزقة .

«كل انش من الاراضي السورية المدافع عنها هو جزء من فرنسا العاصمية المصان . كل قطرة دم فرنسية تراق في سورية هي جزء من الشرف الوطني المسترد» ، هذا ما اعلنه صحافي فيتشي في مقال الافتتاحية فقد اججتهم نار البروباغندا التي لعبت دورها في الدونكيرك والبحر الكبير ، قاتل الفرنسيون بضراوة في المشرق .

اثبت ضم الفرنسيين الاحرار الى قوات الغزو انه خطا فادح ، لانه جعل النزاع حربا ضروسا . لان الفيتشي كانوا يرون الديغوليين «شيطانا متجسدا ، كبش فداء لكل الغضب ، الغيظ ، والضعف الذي كان يتوارى في الاماكن المظلمة من وعيهم لمدة سنة» ، هذا ما اعتقده ضابط فرنسي حر . في اي شيء يضعون يدهم فيه ، يكون القتال بشكل خاص وحشيا . في ضيعة خربة جنوب لبنان أطلقت قوات فيتشي الرصاص على جندي فرنسي حر من الخلف عندما كان عائدا الى الجبهة ، بعد ان فشل بإقناع ابن بلده على

الاستسلام . عندما ، في حادثة اخرى ، ركن ضابط فرنسي حر دراجته النارية الى جانب ضابط مثله فيتشي ودعاه للانضمام اليه ضد عدوهم الالماني المشترك ، سحب الرجل الفيتشي مسدسه وقتله . كتب جامبو ويلسون في مذكراته ان هذا الغزو «أبغض حملة عرفها» .

شن القائد الفيتشي دينتز هجوما معاكسا مدبرا متفق عليه في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران / يونيو ، بعد اسبوع من غزو الحلفاء . غرب انحناءة الجبل ، أخضعت قوات فيتشي مرج عيون وجزين الى قصف مكثف بالمدفعية ما اجبر الأستراليين على الانسحاب . شرق الجبال ، هاجموا المواقع البريطانية جنوب دمشق ، مسببين حالات اسعافية كبيرة ، وأعادوا الاستيلاء على القنيطرة في مرتفعات الجولان . جرح ليجنتيلهوم عندما تمكن الطيارون الفيتشي من رؤية المراكز القيادية المؤقتة من العربات المركونة في الخارج من دون ان يتم إخفاءها ، وقصفوها .

خلال اربع وعشرين ساعة قاتل البريطانيون في طريق عودتهم الى القنيطرة ، حيث دبابة فرنسية مغمورة كانت مازالت حمراء من وهج الحرارة وشاحنات مقلوبة سيارات محطمة وأحصنة ميتة بقيت محترقة دليل على الصراع الشرس . لكنهم لم يكن لديهم القوة البشرية او الاعداد لإزاحة القوات الفرنسية الى جهة الغرب اكثر . اكتشف البريطانيون ان مدفعياتهم المضادة للدبابات لم تتمكن من اختراق الدبابات الفرنسية ، لكن الارض القاسية الصخرية قد سببت للمدفعية الفرنسية الكثير من الحالات الاسعافية . القتال في درجة حرارة الصيف كان شيئا قاسيا . اطلاق النار «الدقيق جدا» من قبل فيلق الفيتشي الأجنبي بشكل متكرر ، ابقاهم منبطحين على الارض خلال ساعات طويلة من وضح النهار . ما أدى الى حالات ضربة شمس كثيرة ، بينما جعل ضباب الصيف تحديد هوية الأعداء وتصويب الاهداف عليهم صعبا جداً . فقط عندما استلم الأستراليون جهاز تحديد المسافات حتى

اكتشفوا ان بعدهم عن مواقع العدو عبر الوادي كان فقط نصف ما قدروه . بعد منتصف الليل بعشر دقائق من يوم الثامن عشر من شهر حزيران / يونيو ، اتصل قائدهم بمركز القيادة ليطلب تعزيزات .

وافيل الان عين وحدات جيش هندية اكثر من العراق كذلك الفيلق العربي الاردني في محاولة لإجبار دينتز على نشر قواته جهة الشرق . تبع الهنود الفرات باتجاه حلب بينما الفيلق العربي ، بقيادة البريطاني جون غلوب ، تقدم باتجاه تدمر عقب ارسالية من قبل عبد الله ، الذي شعر بما يرمز اليه لجوء وافيل الى الجند العرب لتحرير سورية . عرض غلوب المال على القبائل على طول الفرات حتى اذا أرادوا إزعاج الفيتشي الفرنسيين . استجاب عدة قبائل عرب الى عرض غلوب ، الذين أخذوا يتصيدون الفيتشي في مراكزهم ، واطلقوا النار على إمدادات الكتائب وقطعوا أعمدة التيليغراف والطرقات ـ علق غلوب على ذلك : «ربما من اجل النهب اكثر مما هو محبة لنا» . احد هؤلاء الذين استجابوا لدعوته رجل قبيلة اسمه زعل . وقتها بمنتصف العمر شعره رمادي ، يعرف زعل نفسه بانه صياد مجلجل عندما رافق لورانس الى العقبة قبل ربع قرن .

توسع الحملة جهة الشرق ساعد . بعد قتال مكثف اخر ، سلك البريطانيون والفرنسيون الاحرار طريقهم الى دمشق في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران / يونيو . ريتشارد ديمبلبي ، حينها كان مراسلا صحافيا شابا ، شهد اللحظة التي سلم فيها ضابط فيتشي كبير مفاتيح المدينة لمعارضه الفرنسي الحر . كان الاحتفال «اخرقا» نقل الخبر الى البي بي سي ، «لان الكولونيلين درسا معا في الأكاديمية العسكرية الفرنسية «سانت سير» وبالطبع يعرفان بعضهما جيدا» . في محاولة لإيقاف البريطانيين من الاستفادة من الوضع ، مباشرة عمل ديغول على منح كاترو لقبا منمقا «المفوض العام والمبعوث السياسي المطلق الصلاحية والقائد العام في المشرق» ، وأمره بان يبدأ

مفاوضات معاهدة مع السوريين واللبنانيين ، بينما في الوقت الحالي «عمل فرنسا يجب ان يستمر» . نشر قراره على افتراض ان البريطانيين لن يجرؤوا على انتقاده علنا .

لبنان الان كانت محور التركيز ، وهنا واجه الأستراليون معارضة صارمة في بساتين الموز الكثيفة التي تنمو على طول الساحل . بينما تقدم البريطانيون الى اعلى الطريق من دمشق الى بيروت ، حاول الأستراليون تذليل اخر عقبة جنوب العاصمة اللبنانية ، وهي نهر الدامور ، الذي تم السيطرة عليه بقوة مثل الليطاني باتجاه الجنوب اكثر . بعد ان أمضى الخفر اربعة ليالي يبحثون عن نقطة تقاطع ، باكرا من اليوم السادس من شهر تموز / يوليو شقت كتيبتان أستراليتان طريقهما للأسفل الى النهر في الظلام ، عبرتا النهر تحت قصف ناري مكثف ، وبعد صعوبة كبيرة تمكنتا من شق طريقهما الى اعلى الضفة الشمالية الهائلة . بعد يومين توسل دينتز السلام .

مر شهر منذ بداية الحملة وفي ذلك الوقت تغير العالم ، لان هتلر احتل روسيا السوفيتية . عكس سياسي سوري الشعور المؤيد لألمانيا العام في بلاده ، قائلا ملاحظة ساخرة ان قائد النازية سيكون في موسكو قبل ان يصل البريطانيون الى بيروت . لحسن الحظ ، اتضح انه على خطا . وصلت القوات البريطانية الى المدينة اليوم الثاني عشر . حتى ذلك الحين فقد البريطانيون والفرنسيون الاحرار اربعة آلاف وخمسمائة رجل ؛ خسارة الفيتشي حتى كانت اكبر ، وصلت الى حوالى الستة آلاف .

حاول ديغول وضع افضل تأويل قدر الامكان للوضع من خلال الادعاء ان مدة القتال كانت» دليلا آخراً على جسارة أبناء بلدي ، مهما كانت القضية التي يخدمونها» ، لكن سرا لام «بطريقة ما مصادر بريطانيا الضعيفة والتي لم تقدر جيدا» كم سيستغرق من الوقت هزيمة العدو . من ناحية اخرى اعتقد البريطانيون انه كان بإمكانهم التعامل مع قوات دينتز بسرعة اكبر اذا لم يكن

الفرنسيون الاحرار معهم بالمرة . اما تقييم احد الديبلوماسيين الذي جاء بشكل فظ «على الصعيد العسكري اثبتوا انهم كمن في سباق العدل السباق الذي يتم التساهل فيه مع الضعيف وتفرض أعباءه على القوي» .

فيما بعد بفترة قصيرة ، ضابط بريطاني اسمه جون هاكييت والذي أصيب بجروح اثناء التقدم الى دمشق ، التقى بضابط فيتشي كان يعرف انه أصيب بنفس الواقعة . وعندما كانا يحللان المعركة اثناء الغداء في فندق سان جورج في بيروت ، ادعى الرجل الفرنسي ان جانبه كان الافضل من بين الطرفين» . حسنا جاك في النهاية نحن ربحنا ، لقد ربحنا» ، رد هاكييت . «نعم» ، «قالها نظيره عابسا وكانه مشمئز» ، هذا كان اقل تصور مرض في هذه المرحلة القذرة» .

مع سيطرة الألمان على كريت والرودس (جزيرة في اليونان) احتاج البريطانيون الى موافقة على هدنة مع دينتز بأسرع وقت ممكن حتى يتمكنوا من نشر قواتهم في مكان اخر ليواجهوا التهديد الالماني . لكن دينتز رفض التفاوض مع جامبو ويلسون بينما في نفس الغرفة الفرنسيون الاحرار . مواجها باحتمال وقوع قتال من جديد اذا لم يتمكن من الموافقة على شروط الهدنة ، ثمن ويلسون حياة الانسان بثمن اعلى من تقييم ديغول لنفسه . ودعمه تشرشل ، الذي كان منزعجا من محاولة ديغول إقحام كاترو كمندوب سامي وشعر بقوة ان المفاوضات يجب ان لا تفشل «فقط حول نقطة الى من سيستسلم دينتز» ، قرر ويلسون استبعاد الفرنسيين الاحرار من محادثات الهدنة ، بينما يتم إبقاء كاترو على علم بما يجري .

لذلك تمكن الجنرال البريطاني من التوصل الى اتفاق مع دينتز في عكا في يوم الباستيل الرابع عشر من شهر تموز / يوليو . شملت الهدنة بروتوكولا سريا إضافيا يمنع الفرنسيين الاحرار من الاتصال مع جماعة الموظفين الفيتشي ، الشيء الذي وافق عليه كاترو . كتب ويلسون في اليوم التالي» وقت التوقيع

كان الفرنسيون كلهم عيونهم مغروروقة بالدموع» ، لكن «كأسا من الشامبانيا ابهجهم كلهم فيما بعد» . لكن التأثير كان لفترة قصيرة . لانه سرعان ما سببت شروط السلام غثيان الإسراف في الشرب .

الفصل الثامن عشر

عنيد بالكامل، وقح جداً

لان محور استراتيجية ديغول كسب جيش المشرق الفرنسي الى صفه ، حتى يجدد مكانته في المشرق ، لذلك غضب عندما عرف بوجود ملحق اتفاق الهدنة السري في شهر تموز / يوليو سنة ١٩٤١ . قال سبيرس عن ديغول انه وصل الى القاهرة في اليوم الواحد والعشرين من شهر تموز / يوليو - «في أسوا مزاج عرفته فيه» - وهدد بنشر شروط الاتفاق التي توصل لها ويلسون من دينتز . عندما بنفس اليوم التقى باوليفر ليتلتون ، الذي سلمه تشرشل مسؤولية تنسيق العلاقات مع الفرنسيين الاحرار ، سلم ليتلتون رسالة تنص على ان الفرنسيين الاحرار لن يرضخوا بعد الان الى القيادة البريطانية من اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز / يوليو ، لان كل من المعاهدة وبروكولها السري غير مقبولين . كان تهديده سحب امتيازات هامة من البريطانيين .

ليتلتون نقيض ديغول . رجل اعمال جمع ثروته من تجارة المعادن قبل الحرب ، كان معروفا برصانة عقله وروح الفكاهة الحاضرة بسرعة . أخذ الرسالة من الجنرال وبثقة كبيرة فيها شيء من الانفة ، ومزقها امامه أربا أربا . في لقاء اخر من نفس اليوم عندما هدا ديغول ، تقرب الواحد من الاخر .

اعترف ديغول بالحاجة الى تحويل السلطة الحالية في سورية ، الشيء الذي كان الهم البريطاني الرئيسي ، ولمح ليتلتون ان البروتوكول السري يحرم على الفرنسيين الاحرار الاتصال بسجناء الحرب الفيتشي سيكون باطلا اذا اخترق دينتز اي شرط من شروط الهدنة .

تكلم ليتلتون مع سبيرس حتى يخفف عن نفسه حول مائدة العشاء من ذلك المساء . اخبره قصة طريفة عن كيف كانت ردة فعله لحظة استلم الرسالة من الرجل والتي انتهت بالعبارة الكلاسيكية : «ليس أمامي اي خيار سوى ان أضع المسالة بين يدي محامي» . وقال عارضا ان ليس لديه مانع على «وضعك إياها في اي جزء منه يسمح به ذكاؤك او رضاه» . لكن ، بقدر ما كان يتفق كلا الرجلين سرا على اين يمكن ان يزج ديغول إنذاره ، لم يشعر كلا الرجلين بالجرأة الكافية حتى يقومان بتحديه بشكل علني . لانه طالما يبقى غزو الألمان لسورية تهديدا ، الأمن كان أولوية بريطانيا ؛ والأمن يتطلب الاستقرار . شهد مسبقا سبيرس عمق الكره السوري للفرنسيين في دمشق ، واقلقته تركيبة هذا الجو المسموم بالاضافة الى احتمالية ان يقوم القائد الفرنسي بفعل ما سماه «قوة شمشون الجبار» . في وقت مبكر من ذاك اليوم ، ثبط عزيمته تصرف ديغول «العنيد بالمرة والوقح جداً في اكثر الاحيان» ، وخشي من اذا اعطي القائد الفرنسيين الاحرار «مطلق الصلاحية في سورية في المزاج الذي هو فيه الان ، سيتم فقدان السيطرة على البلد في اسبوعين» .

لذلك اتفق ليتلتون مع سبيرس انه ما من خيار أمامهم سوى تهدئة الجنرال . وفي محاولة من اجل تفادي وقوع أزمة عرض «اتفاقا تفسيريا» الذي يعمل بهدوء على اعادة كتابة شروط هدنة ويلسون . أعطى هذا الفرنسيين الاحرار الفرصة لتحويل الفيتشي الفرنسيين قبل ان يتم اعادتهم الى فرنسا ، وحدد تقسيم المسؤوليات في سورية ولبنان التي سيتم توليها في المستقبل .

بموجب ذلك ، ومن منطلق ان قوات البريطانيين تفوق عددا قوات الفرنسيين ، اتخذ البريطانيون على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن المنطقة ضد التهديد الالماني الخارجي ، بينما يسيطر الفرنسيون على اعضاء الأمن الداخلي في المشرق : الجند الخاص من اهل البلد ، السورتيه (مديرية الامن) والشرطة . رسائل تم تبادلها في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من شهر تموز / يوليو تؤكد هذه الترتيبات والتي اصبحت معروفة باتفاق ليتلتون ـ ديغول . لتهدئة مخاوف الفرنسيين ، كرر ليتلتون قول ما قاله سابقا ان بريطانيا» ليس لها مصالح في سورية او لبنان سوى الفوز في الحرب» .

من دون شك ان ديغول كان مسرورا مما حققه انفجاره . فيما بعد بأيام ، لم يستطع مقاومة القاء التحية على ليتلتون شاكرا إياه من دون شك ان ديغول كان مسرورا مما حققه انفجاره . فيما بعد بأيام ،لم يستطع مقاومة القاء التحية على ليتلتون شاكرا إياه على اعترافه «بمكانة فرنسا المسيطرة والمرموقة في المشرق عندما تحصل تلك الدول على استقلالها» . وشكراً لاعتمادهم في توزيع المسؤوليات الخاصة بكل طرف على التفوق العددي ، لان الرسائل تركت بشكل مفتوح احتمالية انه في مرحلة معينة ما في المستقبل ، اذا فاق عدد الجند الفرنسيين البريطانيين ، قد يتولون مهمة الدفاع في سورية أيضاً .

عندما فيما بعد بفترة قصيرة زار ليتلتون لبنان ليرى الوضع بنفسه ، أدرك ان تقسيم المسؤوليات الذي اقترحه قد فشل بشكل عميق . حيث اعترف انه على ارض الواقع «ليس من الممكن بشكل دقيق تحديد الحدود التي تفصل المتطلبات العسكرية عن الادارة المدنية «بسبب تعقيدات الوضع . اخبر تشرشل ان ما رآه يشبه مشهدا من تأليف الكاتب البوليسي الشهير ا . فيليب أوبنهيم . كان بهو فندقه في بيروت «مليئا بالجنرالات ، الحكومة السورية ، موظفين من الفيتشي ، فرنسيين أحرار ، عرب ، بعض من الكتيبة الخامسة ، وأميرة درزية وفقط حتى تكتمل الصورة يتطلب المشهد حضور السير باسل

زعروف (تاجر سلاح سيء السمعة مات سنة ١٩٣٦ ولد في اليونان وكنيته روسية لان اسرته من دون سبب محدد غيرت كنيتها عندما كانت في روسيا لذلك الاسم عربي والكنية روسية) .

يدين موظفو الفيتشي باستمرار وجودهم في المشرق الى ديغول . ولانه كان بالاصل غاضبا من الطريقة التي عامله بها البريطانيون اثناء مفاوضات الهدنة ، لذلك كان قائد فرنسا الحرة مصمما على ان لا يطلب من حلفائه المساعدة في إدارة أملاك فرنسا الحرة الجديدة . عندما فشلت دعوته لانضمام جيش المشرق اليه في ذلك الوقت بشكل مزر ، ترك من دون خيار سوى اعادة تعيين اغلبية الموظفين السابقين في مناصبهم والذين خدموا في إدارة الفيتشي ، بالرغم من حقيقة ان اغلبهم رفض القسم بالولاء لقضية الفرنسيين الاحرار .

كان البريطانيون مندهشين من حركة ديغول غير المتوقعة . لن يكونوا الان فقط مضطرين للعمل مع الموظفين الفرنسيين الذين كانوا «حتى حاليا معادين للبريطانيين جهارة» لكن ، من خلال ضمان تصريح كاترو ، جعلوا انفسهم مسؤولين عن تصرفات الفرنسيين . مباشرة توقعوا النتائج . «عملنا على حث العرب على مساعدتنا ضد الفيتشيين . الان فجأة نثبت الفيتشي في مناصبهم ، ونعهد بمستقبل هؤلاء العرب الى رحمتهم المحبة ، العرب الذين للتو اطلقوا الرصاص عليهم بناء على طلبنا . هذا كابوس!!» تنهد غلوب ، قائد الفيلق العربي .

بعد عودتهم الى مناصبهم ، تصرف موظفو الفيتشي تماماً كما خشي غلوب ان يحدث ، تابعوا الثأر ضد العرب الذين تعاونوا مع البريطانيين . حاكم درعا الفرنسي ـ الرجل الذي انضم الى الفرنسيين الاحرار فقط عندما تعطلت سيارته التي كان هاربا بها ـ عاد الى عمله القديم وطرد من دون إبطاء المحافظ العربي ، الذي أدرك الان انه عميل بريطاني . في دير الزور ، البلدة

الرئيسية في شرق سورية ، اول فعل قام به ضابط سياسي فرنسي حر جديد ، بناء على إرشادات رئيس الشرطة الفيتشي ، كان معاقبة القبائل التي عملت بتحريض من غلوب على مهاجمة قوات فيتشي في الصحراء . قال ضابط فرنسي سياسي : «برهنوا عن انهم خائنين بشكل مخز للحكومة الفرنسية ومن دون شك سيكونون بنفس القدر غير مخلصين لحكومة غيرها» .

بعد ان تحطمت آمال السوريين بالتخلص من الفرنسين للابد ، بدأوا بسرعة في حث البريطانيين حتى يتدخلوا ، لانه كما كان واضحا لهم ان الفرنسيين قد عملوا على اعادة توطيد انفسهم في سورية بمساعدة البريطانيين . دعت القبائل الغاضبة في دير الزور الضابط السياسي البريطاني الى اجتماع ، القوا فيه خطابا اخبروه فيه اذا لم تكن بريطانيا مستعدة للسيطرة ، حينها يريدون «استقلالهم كما تم وعدهم به» . توقع انه قريبا سيضطر ليقوم بالاختيار الغير سار» فيما اما ان يقف جانبا ويشاهد الفرنسيين تقطع أعناقهم ، او يطلق النار على العرب دفاعا عن الادارة الفرنسية الكريهة .

ثبطت عزيمة البريطانيين نتيجة احتمال نشوب ثورة القبائل ضد الفرنسيين في شرق سورية . علاقات جيدة مع البدو ، على ما يعتقدون ، هي مفتاح السيادة في الصحراء . وبالمناوبة ، السيطرة على الصحراء هي العامل الحاسم للدفاع عن سورية ، لانه عبر هذا المنحدر الحاد الحجري المسطح لشرق سورية ، يتوقع البريطانيون ان يأتي منه الهجوم الألماني لحظة استسلام الاتحاد السوفيتي وعبور الجيش الالماني لبحر القوقاز ، لهذا السبب جادل الضابط البريطاني في دير الزور : «يجب ان نسيطر على الصحراء ، ليس فقط من اجل سلامة اتصالاتها العسكرية ، لكن لانه من يسيطر على الصحراء أيضاً ، في النهاية ، يسيطر على الفتن» كان يعتقد ان الجائزة من وراء ذلك تبرر هذه التكتيكات القاسية . «قلما يلعب الفرنسيون هذه «اللعبة» وبالتأكيد لا يعتقدون أبدا اننا نفعل ذلك . اقترح ان نميل ولو لمرة ونتحمل رأيهم فينا ،

ولاجل سلامة جيشنا ، ان نتحايل بعزيمة قوية لابقائهم خارج الصحراء» .

وافق غلوب . هرع الى دير الزور وتأهب ليحاول ترميم العلاقات مع القبائل الغاضبة . وزع مالا اكثر لتهدئتم وفسر اتفاق ليتلتون - ديغول ، مطمئنا إياهم ان البريطانيين سيتولون مسؤولية منطقة الصحراء لانها مهمة من الناحية الاستراتيجية . كان يعرف جيدا ان هذا العمل بين الشيوخ «ربما سيزعج الفرنسيين» ، لكنه لم يأبه كثيرا . اخبر زميلا له «الشيء الوحيد الذي يقلقني بعمق ، «هو» ما هو الموقف الذي سيتخـذه هـؤلاء الناس عندما يأتي الألمان» .

لم يستغرق الكثير من الوقت حتى وصلت لاذان ديغول تقارير عن نشاطات غلوب . أنباء عن «الرائد غررب» ، كما تعمد الفرنسيون تسميته ، انه يطوف في الصحراء ، يمطر رجال القبائل بالمال وتوقعوا ان يأخذ البريطانيون منهم مكانهم ، ما اكد الشبهات الفرنسية انه يحاول طردهم . كان ديغول يعتقد ان غلوب واحد من «الجماعات البريطانية المتعصبة الميالة للعرب «الذي «يرى في العلاقات السورية فرصة لإخراج فرنسا» ، وأصر على رحيله ، وفيلقه العربي وضابطين بريطانيين آخرين ، كينيث بوس وجيرالد دو غوري ، الذين كانت تتضمن مهامهم الغامضة بتصميم أثناء «أوبيريشن ايكسبورتر» كسب دعم الدروز . رغم ان ليتلتون قد خمن بشكل صحيح ان ديغول كان «يرفع أسعار مطالبه حتى يضمن السعر الذي يريده» ، فشل العلاقات بين الضباط البريطانيين والفرنسيين على المستوى المحلي جعله يرى انه ما من خيار أمامه سوى ان يستسلم ويستبعد الرجال الثلاثة ، معا مع الفيلق العربي . «يجب ان نتخلص من الشكوك المتغلغلة التي منذ ثلاثة أسابيع ماضية جعلت من المستحيل الاتفاق على خطط أساسية حساسة تتعلق بالأمن ، البروباغندا وأمور اخرى جوهرية» ، هذا ما كتبه في اليوم الثامن والعشرين من شهر آب / أغسطس ، ليبرر قراره .

بنفس الوقت وزع الوزير البريطاني مذكرة من اعلى مستو على الضباط البريطانيين الذين يخدمون في سورية ، مشجعا إياهم على ان يكونوا اكثر تعاطفا مع الوضع الديغولي . مذكرا إياهم ان «لا تنسوا أبدا ان الفرنسيين الاحرار هم اكثر من حلفاء الذين قاتلوا الى جانبنا» ، هم «رجال قاوموا تحطم الروح المعنوية وهزيمة بلادهم ، رجال خاطروا بالثأر ضد عوائلهم واقربائهم رجال تم مصادرة أملاكهم ، رجال محكوم عليهم بالسجن واحيانا الموت» . وأنهى بطريقة متفائلة : «اسلوب جيد وادراك جيد سنرى انفسنا من خلالهما» .

لكن ديغول توصل الى عكس هذه النتيجة . اسلوب سيء ومزاج شرير انتزع امتيازات هامة من البريطانيين . عندما ترك الشرق الاوسط ليبدأ جولة على المستعمرات الفرنسية الاخرى الواقعة تحت حكم الفرنسيين الاحرار ، اخبر كاترو ان يرفض التعامل مع كل من ليتلتون او سبيرس الممثل البريطاني في أية محادثات تتعلق بالمعاهدة بين الفرنسيين والعرب . اختفى كل امتنان شعر به ديغول للرجل الذي ساعده على الهروب من فرنسا . الان يعتقد ان سبيرس ، مثل الكثير من نظرائه البريطانيين ، يلعب دورا «خبيثا ومشوشا» في سياسات الشرق الاوسط . في طريقه الى لندن أعطى مقابلة الى «الديلي شيكاغو نيوز» اتهم فيها البريطانيين بالخوف من فرنسا الفيتشي وادعى انهم كانوا يستخدمون حكومة فيتشي كقناة للاتصال مع هتلر .

عندما سمع تشرشل عن اللقاء غضب غضبا عظيما . امر ان لا يلتقي احد بديغول عندما يصل الجنرال الى لندن ـ «يجب ان يطبخ بمرقه» ، هذا ما حكم به رئيس الوزراء ـ وبدا بتحضير بيان عام عن سياسة بريطانيا في سورية والذي سيلقيه في مجلس العموم قبل ان يلتقي بقائد فرنسا الحرة .

ما عقد هذه المهمة هو الضغوطات المتزايدة على تشرشل حتى ينجح في تحقيق اهدافه . قبل اربعة أسابيع ، سافر الى الولايات المتحدة الارض المكتشفة حديثا على اعتبار ان جزء من حملته جر الولايات المتحدة الى

الحرب ، سافر ليلتقي بالرئيس الأميركي فرانكلين د . روزفلت ووافق على نص ميثاق الاطلسي . الميثاق الذي يشبه التعهدات التي قام بها وودرو ويلسون والحلفاء في الحرب السابقة ـ تلزم كلا البلدين «بعدم السعي للتوسع ، الإقليمي او اي شكل اخر من اشكال التوسع» وينص على «احترام حقوق الشعوب باختيار شكل الحكومة التي يريدون العيش بكنفها» . نهج بريطانيا في سورية سيكون الامتحان المبكر لتدشين تشرشل لهذا الميثاق ، والذي سيحمل اهمية كبرى عندما تدخل الولايات المتحدة الحرب الى جانب بريطانيا بعد الاعتداء الياباني على ميناء «بيرل» لاحقا من تلك السنة .

تعهد صريح بالاستقلال السوري سيكون مطابقا لميثاق الاطلسي ، لكن مع بداية شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٤١ تقارير عن ازدياد شعبية ديغول في فرنسا بدات تصل بريطانيا ،ولا يستطيع تشرشل قطع العلاقات مع ديغول الذي قد يتسبب به ثمة تصريح صريح . لذلك عندما خاطب مجلس العموم في اليوم التاسع من شهر أيلول / سبتمبر ، السياسة التي أعلنها كانت متناقضة . بالرغم من انه أشار الى ان «يتم تسليم سورية للسوريين ، الذين سيفرضون في اقرب لحظة ممكنة حقوقهم بالاستقلال عن السلطات الاجنبية» ، أيضاً اعترف انه عندما تنتهي الحرب ، «من بين كل الدول الأوربية مكانة فرنسا في سورية ستكون واحدة من الامتيازات الخاصة ، وانه طالما أي بلد أوروبي يتمتع بنفوذ في سورية ، ستكون فرنسا هي البارزة» . «لماذا؟» سال العديد من اعضاء البرلمان . «لان» ، أجاب تشرشل ، «هذه هي السياسة التي قررنا ان نتبنى» .

عندما التقى تشرشل ديغول سرا بعد ثلاثة ايام ، في اليوم الثاني عشر من شهر أيلول / سبتمبر ، كان بإمكانه ان يتخذ أسلوبا فيه وعيد اكثر من هذا : مشيرا الى إشاعات ان «بعض الشخصيات البريطانية البارزة «تعتقد ان قائد الفرنسيين الاحرار «يتجه الى بعض الآراء الفاشية» ، متهما ديغول بانه يخلف

وراءه اثار كره لكل شيء يتعلق بالبريطانيين ، وهدد ان يمشي كل واحد منهما بطريقه اذا استمرت عدوانيته . بعد ان اجبر الجنرال على الانبطاح بسبب مقابلته المهيجة في «الشيكاغو ديلي نيوز» ، اتجه تشرشل مباشرة الى سورية . جعلها واضحة انه لن تقبل بريطانيا الامتداد المحتمل لعدم الرضى العربي في المشرق الى فلسطين المجاورة . حتى «نعطي العالم العربي درجة حقيقية من الإرضاء» ، تابع رئيس الوزراء ، يجب ان يكون هناك «تحويل في العديد من الوظائف التي كان يقوم بها الفرنسيون في السابق في سورية الى السوريين» . لم يكن امام ديغول من خيار سوى الموافقة .

لكن ما ان ترك ديغول رقم عشرة حتى غير خطة سيره . كان يعلم انه ما ان ينجز معاهدات تحالف مع سورية ولبنان سينتهي الانتداب الذي يخول فرنسا حكم كلا البلدين ، ولذلك كان مستميتا حتى يؤجل ذلك قدر المستطاع . لحسن حظه ، رفض القوميون خوض محادثات معه ، لأنهم لن يعترفوا بشرعيته . ما عكس مكر ديغول لانه بدلا من ان يستاء من هذا التصغير لقيمته ، رأى فرصته التي منحه إياه هذا الرفض . عندما التقى في الاول من شهر تشرين الأول / اكتوبر بتشرشل مجددا ، اخبره انه من المستحيل ان يفاوض معاهدة لان الحركة الفرنسية الحرة ليس لديها «وضع دولي ولا سلطة حتى تفاوض انهاء الانتداب» .

تغيير المبدا المفاجئ هذا ، من قبل رجل يطالب بشكل طبيعي انه تجسيد لفرنسا والذي بعد فترة قصيرة جداً ، يشتكي من «ذل» غمر ضباطه في المشرق من قبل الموظفين البريطانيين ، لم يسر تشرشل على إطلاقا - ليس فقط لان ديغول كان على حق ، من الناحية القانونية . بالرغم من ذلك أصر رئيس الوزراء انه ما من «اعتبارات قانونية» يجب ان يسمح بها لتأخير منح الاستقلال الى دول المشرق ، الشيء الذي اخبره لديغول انه يتوقع منه ان يتبعه بسرعة .

في محاولة لتفادي التدخل البريطاني ، اعلن كاترو استقلال سورية ولبنان ذاك الخريف ، لكن عمليا لم يتمتع اي من البلدين باي حكم ذاتي اكثر من السابق . لان الفرنسيين اختاروا رجالا عن عمد يستطيعون السيطرة عليهم . في غضون ذلك الوقت تدهور الوضع في شرق سورية بشكل حاد بعد استبعاد غلوب . بدات المشاكل عندما قام الجند الفرنسيون في مهمة جباية الضرائب في المنطقة بقتل شيخ من القرية بإطلاق النار عليه . ثارت قبيلة الرجل الميت وقتل نتيجة معركة اطلاق النار بعض منهم وحوالى ثلاثين جندي فرنسي . عندما ادعى كاترو على الفور ان ضابط سياسي بريطاني كان يشجع الناس المحليين على دفع ربع الضرائب التي يطالب بها الفرنسيون ، تم إرسال ضابطين واحد بريطاني وواحد فرنسي الى دير الزور ليتحققوا مما حصل . كتب الضابط البريطاني ان القبــائل في المنطقة «على وشك العصيان المسلح» .

في بداية شهر تشرين الأول / اكتوبر في عمان ، استقبل غلوب وفدا من الشيوخ من دير الزور الذين اكدوا التقرير المقلق من شرق سورية . اخبره احد الشيوخ انه اذا دعم البدو بريطانيا في حالة الغزو الالماني ، سيحصل الجيش البريطاني «على اتصالات آمنة كأننا نقاتل في الجزر البريطانية» . وتابع ومن ناحية اخرى اذا أصر البريطانيون على «إعطاء الفرنسيين الاحرار مطلق الصلاحية لتدمير سورية» حينها خطوط اتصالات الجيش البريطاني ستجري في بلد عدو» .

تم في القاهرة استبدال وايفل القائد العام في الشرق الاوسط بكلود اوشنليك ، الذي كان قلقا كفاية من التقارير القادمة من سورية مما دفعه الى تحويل انتباهه من التخطيط لهجوم بريطاني جديد ضد روميل الى الذهاب الى بيروت للقاء كاترو في اليوم السادس من شهر تشرين الأول / اكتوبر . خلال ساعتين من المحادثات اتهم كاترو البريطانيين بتشجيع

شيخ على تأليب المشاكل وعن عمد محاولة استغلال الأخطاء التي قام بها ضباط فرنسيون ذوي خبرة قليلة تم تعيينهم في المنطقة . رفض اوشنليك الساخط بشكل واضح كلا الادعاءين . كتب الى لندن تقريرا فيه «لقد اعطي الفرنسيين كل فرصة» ، وأضاف «فشلوا مع اهل البلد ، فشلوا في التعاون معنا ، لديهم نقص كبير في الموظفين فلم يكن أمامهم خيار سوى تعيين ضباط من نوعية رديئة جداً» . نفاذ صبر البريطانيين مع الفرنسيين ، الذي كان يجيش ببطء ذاك الصيف ، الان وصل مرحلة الغليان . كان من الواضح ان أولويات الفرنسيين وأولوياتهم لا يمكن ان يتم التوفيق بينهما ، وانه من الداخل من القلب ، كان هناك فرق قليل او لا يوجد فرق بين رجال كان يتم سابقا تمييزهم بانهم فرنسيون «أحرار» و«الفيتشي» . كلاهما ، كما وضعها غلوب بشكل لاذع ، «يميلان الى نسيان ان الحرب ضد المانيا ، رغبة منهم لاستبعاد التدخل البريطاني في سورية» . بسبب تصاعد الغضب العربي من الحكومة الفرنسية ، بدا الموظفون البريطانيون بازدياد بالشعور بعدم الراحة من دورهم بإبقاء الفرنسيين في السلطة في المشرق . كتب احدهم» يشعر الواحد منا كأننا نمسك لبنان حتى يتم اغتصابها من قبل فرنسا الحرة» ، في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ذاك ، كتب غلوب تقييما مطولا عن الوضع يناقش فيه : لان نهج البريطانيين والفرنسيين لحكم امبريالي مختلف الواحد عن الاخر جداً ، الجهود «لضمان تعاون متبادل بين الفرنسيين والبريطانيين في حكم وإدارة العرب ستقود الى الفشل» .

بينما الحكومة البريطانية لم تتمكن من التوصل الى قرار حاسم حول كيفية التعامل مع الوضع ، في نهاية سنة ١٩٤١ استلم ضباط بريطانيون يخدمون في المشرق مذكرة تزودهم باجابات سهلة على أسئلة صعبة او حرجة هم عرضة لمواجهتها من قبل السكان المحليين . اذا انتقد السوريون أنظمة حكم الاراكوز السورية واللبنانية التي وضعها الفرنسيون لحكمهم ، نصح البريطانيين

بقول ان «الحكومات ليست خالدة وانه في الوقت المناسب ما من شك وزارات اكثر ملائمة لهم ستحل محل الوزارات الحالية» . اذا جادل العرب ان الاستقلال المعروض عليهم ليس حقيقيا ، سيجيبون : «استلموا تأكيدات من الجنرال كاترو انه ينوي جعل الاستقلال حقيقيا» ، ومن ثم التحذير ، «بقدر ما تسمح الظروف» .

لكن حتى ذلك الوقت كان البريطانيون قد بدأوا بالتساؤل فيما اذا حقاً كاترو سيتصدى لديغول ، كتب ليتلتون الى وزير الخارجية في نهاية شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، مستشهدا بانطباع سبيرس بانه كان هنالك «تغيرا ملحوظا في موقف الجنرال كاترو مؤخراً «لان البريطانيين خذلوه لانه لم يقف في وجه ديغول . استنتج سبيرس ان كاترو «تنازل عن الصراع» وان «موقفه الان خنوع تام» .

كما اصبح واضحا وبعيدا عن تحويل وتنفيس الغضب العربي ، ان السياسة الفرنسية في المشرق تجعل الامور أكثر سوءا ، أدرك البريطانيون ان إيمانا بسيطا في جورج كاترو لم يعد بعد الان كافيا ؛ ضغط متواصل عليه لينفذ وعده ضروري الان . الرجل الذي اختارته الحكومة ليتولى دور مراقب سير تطبيق الالتزام كان ضابط الاتصالات مع ديغول ، سبيرس نفسه .

بالرغم من تحذير ليتلتون ان كاترو سيجد تعيين سبيرس «لا يطاق» ، اخبر سبيرس ان يهيئ نفسه للعودة الى بيروت ليكون وزيرا لدول المشرق . ستكون وظيفته «رعاية استقلال الجمهوريتين بينما يقوم بترميم واجهة الفرنسيين الاحرار» ، وقد اخبر زميل له الذي بدأ قبله العمل في بيروت . «سنمرح كثيرا عندما أعود» .

الفصل التاسع عشر

مبعوث فوق العادة

تم تعيينه حديثاً بارونيت متألق في ملابس الديبلوماسيين الرسمية البيضاء الناصعة ، مبعوث بريطانيا فوق العادة الجديد ووزير مطلق الصلاحيات وطأت قدمه ساحل بيروت في اليوم الواحد والعشرين من شهر آذار / مارس سنة ١٩٤٢ . خشي السير أدوارد لويس سبيرس ان لا يأخذ بجدية بسبب لقب وظيفته المنمق . لكن في الحقيقة المسؤوليات الممنوحة له من خلال لقبه كانت واضحة لا لبس فيها . ولانه مبعوث فقد تابع العمل لدى وزارة الدولة في القاهرة بمنصب ضابط اتصالات مع الفرنسيين الاحرار ، بينما كوزير كان مسؤولا عن تنفيذ قرارات وزارة الخارجية في لندن ، كان بشكل رسمي اول سفير بريطاني لدول لبنان وسوريا ، اللتين كان مصمما بشكل جدي على ان يجعلهما مستقلتين عن الفرنسيين . كيف خطط لذلك ، من خلال السلطة الكبيرة الإضافية التي هو طلب الحصول عليها فترة عمله في لندن ، وهي بان يقرر اين يقع الخط الفاصل بين مسؤوليات البريطانيين والفرنسيين ، وان يلفت انتباه السلطات العسكرية في القاهرة الى اي امر من وجهة نظره يجب التعامل معه من قبلهم . لكن ، في بيروت في فصل الربيع من صباح ذاك اليوم ، سيصبح واضحا تحمسه الذي سيبدء به مهمته تلك ؛ بدا ـ بطريقة

مضللة ـ وكانه خارج من مسرحية أوبرا كوميدية .

«لويس» لأصدقائه» ، ادوارد» لأعدائه ، كان سبيرس رجل مكتنز بدين وقصير قوي البنية . . . مع شعر اشقر متناثر مع لمسة رمادية ، انف قوي وفم يشبه مصيدة الفئران «عمره خمسة وخمسين ، يفضل ان لا يستخدم كلمة «اتصال» لوصف دوره . فقد كان يكره المعنى الثاني له «العلاقات الحرام بين الجنسين» (ربما لانه كان على علاقة مع سكرتيرته في ذلك الوقت) ، وحقيقة ان الكلمة ترمز الى» فقط . . . نوع من موزعي البريد «في العالم العسكري . لكن خلال الحرب العالمية الاولى ، سبيرس المولود في باريس والذي يتكلم لغتين كان ضابط اتصالات بين الجيشين البريطاني والفرنسي . ربما هو من انقذ قوات الحملة البريطانية في وقت مبكر جداً من الحرب ، عندما نبه قائدها الى الخطر ان الفرنسيين كانوا ينسحبون الى جناح جيشه . جرح اربع مرات في الجبهة ، لذلك سنة ١٩١٧ تم نقله الى وظيفة اكثر أمانا خلف الخطوط ، حيث اصبح رئيس البعثة البريطانية العسكرية لدى وزارة الحرب الفرنسية في باريس . وكما اظهر اتفاق سايكس ـ بيكو الذي تم حديثاً في ذلك الوقت ، ان الحكومة البريطانية قد نظرت الى تعزيز علاقات جيدة مع الفرنسيين على انه اهم من غيره اذا اراد الحلفاء الانتصار في الحرب .

حتى ذلك الحين كون سبيرس الصداقة التي ستشكل بقية مهنته . سنة ١٩١٥ ، في سن التاسعة والثلاثين ، التقى بوينستون تشرشل فترة دور تشرشل القصير في الجبهة بعد إخفاق غاليبولي . سبيرس ، الذي كان قد ربح للتو الصليب العسكري بسبب شجاعته ، اثر في السياسي الجموح الذي اقترح عليه عندما انتهت الحرب ان يتجه الى البرلمان . فعل سبيرس ذلك . كان لفترة قصيرة عضو برلمان ليبرالي لمنطقة لوبارا ولانه لحق تشرشل الى حزب المحافظين ، تم انتخابه حينها ليمثل منطقة كارلايل في شمال انكلترا سنة ١٩٣١ .

منذ ذلك الحين وبشكل دائم وهو يمثل «البوردر ماركت تاون» لكنه ، «بذهنه الرائع وذكائه الحاد لكن الصلف وعديم الشفقة» ، لم يحقق تقدما كبيرا في الويستمنيستر . كان يسخر منه على انه «عضوا لباريس» بسبب آرائه المؤيدة للفرنسيين ، أدى دعمه لمعارضة تشرشل للتهدئة ، الى تثبيت عضويته في الحزب الثقيل الأخرق . لم يتخلى عن هذه العقلية المولعة بالقتال ، حتى الان وهو وزير حكومة . قام احد الزملاء بتذكيره : «ما يزعج أنظمة الحكومة هو انه ما ان تقرر ان هذا المسلك صحيح تخوضه كله وسحقا للنتائج» . «ثمة اسلوب يخلق عدائية بالفطرة في الوايتهول» .

تبدأ المحطة الاخيرة من رحلة سبيرس الى المشرق سنة ١٩٤٠ عندما كافاه تشرشل على ولائه ، وقتذاك كان تشرشل رئيس الوزراء ، حيث جعله ضابط الاتصالات الشخصي له مع الحكومة الفرنسية المحاصرة . بدت المراهنات كبيرة بطريقة مستحيلة لانه كما شرح سبيرس لاحقا» ، تم إقناعي كما تقريبا كلنا قد تم إقناعه ، ان الحرب مع المانيا مستحيلة من دون فرنسا قوية وودية الى جانبنا» . انهيار فرنسا سوف يختبر نظرية الدمار تلك ، لكن في الوقت الحالي استمد سبيرس قوته من رفض ديغول الإعتراف بالعجز . انه كان سبيرس الذي اصعد ديغول الى متن طائرته في شهر حزيران / يونيو ، وكان ممكنا هروب الرجل الفرنسي الى لندن ، انه كان سبيرس الذي اصبح وقتها مؤيده المولع بالحرب الى اقصى حد عندما وصل الرجلان الى العاصمة البريطانية . ناقش في نهاية سنة ١٩٤٠ «مهما كانت البروباغندا التي سنتوصل لها يجب ان تهدف الى تقوية يد ديغول ، لان الفرنسيين لن يثقوا الا برجل فرنسي ابن بلدهم فقط» . كما وضعها تشرشل لاحقا ، «اذا لم يكن هناك الجنرال سبيرس ربما لم يكن هنالك أبدا الجنرال ديغول» .

الشعور بالأهمية والسلطة هذا الشعور المستساغ والغريب الذي انتاب سبيرس نتيجة دوره في دعم ديغول تبخر ، عندما بدا الرجل الفرنسي ببذل

جهود كبيرة . لانه حتى النصف الاول من سنة ١٩٤١ بقي سبيرس المؤيد القوي لقائد فرنسا الحرة ،لكن موقفه تغير بحدة عندما زار دمشق بعد استسلام الفرنسيين الفيتشي واختلف مع ديغول حول ادارة المشرق في المستقبل . «هل تعتقد انني مهتم في ربح انكلترا الحرب؟ لست كذلك ـ أنا مهتم فقط بنصر فرنسا» ، قالها ديغول بشكل استفزازي . «هما نفس الشيء» ، رد عليه سبيرس . «إطلاقا» ، اجاب ديغول . «حتى انني دهشت «اعترف سبيرس عندما كان يدون المحادثة المحبطة .

أوحت تصرفات ديغول التي جاءت بعد هذا اللقاء بانه كان جادا . سبيرس كان محبطا بسبب إدراكه ان كلا قائد الفرنسيين الاحرار والضابط كاترو ، يران «توطيد السيادة الفرنسية في سورية اكثر اهمية من اتخاذ إجراءات لربح الحرب» . استمر في توقعاته ، على نحو دقيق ، ان الفرنسيين الاحرار «سيقاتلون ، يتشاجرون ويعيقوننا في كل مرحلة قد يصطدم الأمن العسكري مع مكانة الفرنسيين حتى ولو لدرجة بسيطة» . عندما بدا تشرشل يتخذ موقفا عدوانيا من موقف ديغول ، شعر سبيرس بانه مسؤول ومعرض للخطر . حيث افضى بما في داخله الى زميل له مؤتمنا اياه على سره : «خلقت وحش فرانكشتاين «مضيفا «هل أشنقه ، او هل يشنقني»؟

عاد سبيرس الى بيروت مصمما على ربح الصراع . كتب احد اعضاء كادره انه «لم يعرف أبدا ما معنى ان تأكل الحيوانات أولادها حتى رأى . . . سبيرس يلتهم حركة الفرنسيين الاحرار» . عندما التقى سبيرس بكاترو في اليوم الثاني من شهر نيسان ، اخبره انه سيخبر الفريد نقاش ، الرجل الذي عينه كاترو رئيساً للبنان ، ان الحكومة البريطانية تدعم استقلال لبنان التام . مستفيدا من المدة التي قضاها حديثاً في لندن ومن صداقته التي تربطه برئيس الوزراء ، حاول تثبيط همة الرجل الفرنسي من خلال رسم انطباع مظلم على العلاقات بين البريطانيين وديغول . حسب كاترو ادعى ان «كل احد» «توقف عن الايمان

بجدوى وفعالية فرنسا الحرة» .

كاترو ، مسبقا منزعج من سبيرس لانه لم يأتي مباشرة ليراه بعد ان وصل الى بيروت ، رأى ما يحاول القيام به نظيره البريطاني . كتب تقريرا عن لقائه معه الى ديغول ، مخبرا رئيسه ان سبيرس «حاول هذه المناورة حتى يقلقني ويتركني افكر ان وضع الفرنسيين الاحرار يجعلني غير قادر على مقاومة الخطط التي يحيكها هنا» . لكنه اعترف في مذكراته الى اي درجة شوشه سبيرس . «خفنا من تأثيرات مزاجه الحقود والمولع بالقتال ، طبعه المتسرع ، تسلطه بطريقة وسواسية وأحكامه اللاذعة ، كل هذا خطر جداً لان تشرشل يصغي له» .

بسرعة طمأن ديغول كاترو ان ادعاءات سبيرس حول الفرنسيين الاحرار «كلها خطا ومحصورة بشخصه وموضع خلاف» ، وقال انه مقتنع ان دفع سبيرس من اجل تحقيق الاستقلال التام ليس مدعوما من الخارجية البريطانية . بالرغم من ان كلا الرجلين كان محتاطا من المخاطرة بإغضاب تشرشل اذا عملا على مزاحمة صديقه ، كانا يعلمان ان تعيين سبيرس ديبلوماسيا رئيسيا لبريطانيا في المشرق هو موضع خلاف في لندن . اذا أرادا عرقلة طريق معارضهما الجديد المصمم على موقفه ، سيحتاجون الى تقوية مخاوف وزارة الخارجية العميقة حول الرجل الذي دسه رئيس الوزراء بينهم . طلب ديغول من كاترو ان يبقيه «على علم بشكل دائم» بما يخبره إياه رجل بريطانيا في بيروت .

الان حاول سبيرس ممارسة الضغط على نقاش . ذهب ليرى الرئيس بعد فترة قصيرة من زيارة كاترو ورجع من خلال تجاوزه لصلاحياته الديبلوماسية ، ان الانتخابات يجب ان تنعقد قبل نهاية السنة . كتب نقاش تقريرا عن هذه المحادثة الى كاترو ، لكن لدى القائد الفرنسي جاسوسا داخل مكتب نقاش على أية حال ، ومن خلاله عرف أيضاً ان سبيرس اخبر نقاش ان بريطانيا قد

تضطر على التدخل اذا أفعال كاترو نقضت وعد الاستقلال الذي اتخذه على نفسه قبل سنة . طلب كاترو من ديغول ان يحاول ، من دون الكشف عن مصادره ، ان يتحقق ليعرف فيما اذا سياسة سبيرس «المصممة لطردنا» هي أيضاً سياسة الحكومة البريطانية . افتراضه كان ان هذا الكلام ليس صحيحا : امل انه قد يستطيع تقويض سبيرس من خلال لفت انتباه وزارة الخارجية الى سلوكه .

لكن ، سواء كان سبيرس يعصي أوامر الحكومة البريطانية ام لا ، مشكلة كاترو المباشرة كانت ان دعوة الوزير البريطاني لانتخابات ديمقراطية ستحرض المعارضين لحكومات الاراكوز التي أقامها في لبنان وسورية ليضفي «مظهرا ديمقراطيا على دساتير تلك البلاد . . . من دون اللجوء الى الانتخابات» . حتى ذلك الحين كان يعرف تماماً ان نقاش والرئيس السوري ، تاج الدين الحسني ، كلاهما لا يتمتع بشعبية ولن يفوزا بالانتخابات اذا اضطر الى دعوتهما .

تاج الدين ، بالتحديد ، كان تحت ضغط لان سعر الخبز كان يرتفع في سورية . قبل الحرب كانت البلد شبكة تصدير للقمح ، لكن منذ سنة ١٩٣٩ ملاك العقارات النصف إقطاعيين السوريين الكبار ، أدخروا الحبوب حتى يحققوا ربحا من ارتفاع الأسعار المتوقع الذي ستتسبب به الحرب . محاولة من قبل سبيرس السنة الماضية للقضاء على المضاربين من خلال إغراق السوق بالقمح الأسترالي فشلت بشكل مروع . امتص المدخرون ببساطة الزيادة كلها ، واستمر سعر القمح بالارتفاع .

عندما عاد سبيرس الى بيروت سنة ١٩٤٢ أدت حالات الشغب بسبب تهديد الخبز الى أفعال اكثر عنفا ضد ضغط المضاربين . حيث كتب «ربما ما من شيء سوى شنق القليل منهم سيحقق ذلك» ، بالرغم من انه امل «ان يكون قادرا على جعل الفرنسيين الاحرار مسؤولين عن هذا» .

اقترح كاترو انشاء احتكار السلع الفرنسي ليشتري محصول القمح بالجملة ويبيعه بسعر تعاوني ، لكن تاج الدين رفض التصديق على مغامرة سيعترض عليها ذوي الشان الذين ما زالوا يدعمونه . رأى سبيرس فرصته للتدخل . أستاسد على رئيس وزراء تاج الدين ، حسني البرازي ، حتى يدعم المشروع من خلال تهديده بالنفي الى جزيرة نائية معزولة في البحر الأحمر في الكاماران اذا لم يرضخ له . ثم اخبر كاترو ان البريطانيين بحاجة الى أخذ دور في إدارة المشروع لأنهم سوف يدعمونه ماليا ، ولانه في النهاية وكمحاولة أخيرة سيتم فرض ذلك عن طريق جيش جامبو ويلسون التاسع . في محادثات دامت لعدة ايام في شهر ايار في القاهرة ، اضطر كاترو الى قبول تسوية . كان تنازلا كبيرا . اضطر لقبول التدخل البريطاني في منطقة هي مسؤولية فرنسا وحدها حسب اتفاق ليتلتون ـ ديغول .

لكن حتى الان نجح ليتلتون كوزير دولة ، وكذلك كان رئيس سبيرس ، عن طريق ريتشارد كاسي ، سياسي أسترالي صريح حسن المظهر تراس محادثات القمح بعد وصوله الى القاهرة في اليوم الخامس من شهر ايار . بعد ان اشتكى ديغول من نشاطات سبيرس ، بغباوة حاولت وزارة الخارجية تقديم تعيين كاسي الى الفرنسيين كمحاولة لكبح جماح سبيرس ، لكن كاسي فشل بتحقيق هذه المهمة . انضم الى صف سبيرس ، الأسترالي الطريف «فعل الكثير حتى يخرب ما اصبح مبدا للسياسة الديغولية -انه دائماً يمكنك الاعتماد على ايجاد وزير او إدارة بريطانية مهيأة لتعارض الاخرى ، عند الحاجة خلال مهلة قصيرة» ، قالها سبيرس مقهقها بصوت عال . وكاسي دعمه بالكامل .

اثناء محادثات القمح ، تمسك سبيرس بالفرصة حتى يوظف مساعدة كاسي بمسألة الانتخابات . معا مارس كلا الرجلين الضغط على كاترو حتى يقوم بالتنازلات بانه من الممكن عقد الانتخابات في لبنان وسورية قبل نهاية

سنة ١٩٤٢ ، على أرضية ان هنالك خطط لعقد الانتخابات في كل من مصر والعراق لتنفيس الضغط عن القوميين العرب في كل بلد . تقريبا مر عشرة ايام قبل ان يستجمع كاترو قواه ليخبر ديغول انه قدم تنازلا آخراً هاما ، هذه المرة الى كاسي ، الرجل الذي ادعت وزارة الخارجية انه جاء ليحد من تصرفات سبيرس . «اتضح ان كاسي صلب تماماً» ، كتب سبيرس ممتنا ، في وقت ما لاحقا .

في لندن ، استقبل ديغول أنباء كاترو كما هو متوقع بسوء . رد انه تمنى لو ان كاترو لم يرضخ ، اخبره ان يحاول التأكد من دور البريطانيين في مسؤولية تحديد وقت اي اعلان يتعلق بخوض الانتخابات . أراد تأجيل الأنباء قدر المستطاع ، لانه كان يعلم انها ستدمر سلطة حكومتي كل من نقاش وتاج الدين ، «لانه ما من احد الا ويعلم انهما لن يستمرا» .

في غضون تلك الاحداث كان روميل هو الذي انقذ ديغول بشكل مؤقت . في اليوم السادس والعشرين من شهر ايار / مايو ، شن الجنرال الالماني هجوما في صحراء ليبيا بهدف الاستيلاء على طبروق ، الشيء الذي حققه تقريبا بعد شهر ، في اليوم الواحد والعشرين من شهر حزيران ، بعد ان اخفق البريطانيون بالهجوم المعاكس على نحو فعال . عندما تراجع البريطانيون الى مواقع دفاعهم المهيأة في نهاية نفس الشهر في العلمين ، جند روميل في افريقيا تحت اسم» روميل أفريكا كوربس» كانت على بعد ستين مايلا من الاسكندرية ومئة وخمسة وعشرين مايلا من القاهرة . «لديك اكثر من سبعمائة الف رجل في قوتك مع كامل امداداتها من رواتب وطعام للجند في الشرق الاوسط» ، ذكر تشرشل القائد العام اوشنليك . «كل رجل مناسب يجب ان يقاتل ويموت من اجل النصر» .

بينما كانت كارثة على تشرشل - الذي اكد بشكل متكرر انه مهما كانت نتائج المعركة ، يجب ان تبقى طبروق محفوظة مهما كلف الثمن حتى نوقف

روميل من التقدم بثقة الى مصر - مثل سقوط الميناء الليبي ضربة حظ لديغول . بعد يومين ، اخبر كاترو كاسي ان ديغول غير مستعد «لتعريض بلاد المشرق الى خطر تقلبات المعارك السياسية بينما الوضع العسكري لم يتألق ، نقطة اول السطر» . هذا يفترض انه المسار الذي سيعززه ديغول على طول ما بقي من السنة .

كان هنالك سببا اخر للقفزة الجديدة بخطى ديغول ذاك الصيف . ليس فقط قرب المانيا من مصر هو ما اخر موعد الانتخابات في لبنان وسورية بشكل نهائي ،لكن جنده تحت قياده («الإنكليز الملطختين بالدم») كونيغ ، أدوا اداء مؤثرا في معركة طبروق . من دون دفاعهم المتماسك على الطرف الجنوبي للخط البريطاني في بئر حكيم ، كان من الممكن ان يصل روميل الى طبروق بشكل أسرع مما حصل ، هكذا خسارة بريطانيا كانت من الممكن ان تكون اكبر مما هي عليه فيما بعد . جادل الفرنسيون الاحرار ان الألمان كان من الممكن حتى ان يخترقوا مصر . حتى قبل ان تنتهي الحرب ، وافق تشرشل على ان تعترف بريطانيا بالفرنسيين الاحرار على انهم «فرنسيون محاربون» ، للاعتراف بجهود كونيغ . كتب ديغول في مذكراته انه عندما سمع الأنباء ان كونيغ يقف في بئر حكيم ، ذهب الى مكتبه ، اغلق الباب وأقفل على نفسه ، وبكى .

لانه تخلص من شيطان واحد كان يلازمه منذ شهر ايار / مايو سنة ١٩٤٠ ، وصل ديغول الى الشرق الاوسط في بداية شهر اب ، مخططا لقضاء شهر هناك . في القاهرة التقى بتشرشل ، الذي سافر الى هناك حتى يقيم فيما اذا كان بحاجة الى استبدال اوشنليك بعد طبروق ، وطلب منه ان ينظر في وضع سورية . تشرشل ، الذي كان ذهنه مشغولا بأمور اكثر اهمية ، قال انه سيفعل . في اليوم التالي تفادى ديغول محاولة من قبل كاسي تعمل على إجباره ليؤكد انعقاد الانتخابات في المشرق . «سلطة الانتداب» ، قالها

للرجل الأسترالي بتعال ، «لا تنوي جعل الناس يقومون بالتصويت بينما رومل على أبواب الاسكندرية . هل هنالك انتخابات في مصر ، العراق او ترانس الأردن»؟ ثم ، بعد وصوله الى بيروت في اليوم الرابع عشر من شهر اب ، ارسل الى تشرشل شكوى رسمية عن «التدخلات المتواصلة من قبل ممثلي الحكومة البريطانية» في المشرق ، والتي كما قال «لا تنسجم مع النزاهة السياسية لبريطانيا العظمى في لبنان وسورية او مع الاحترام لمكانة فرنسا» .

كان هنالك بالتأكيد حقيقة في ادعاءات ديغول . منذ ان وصل سبيرس الى بيروت أخذت مهمته بالنمو بسرعة . تتألف الان من القطاعات السياسية ، الاقتصادية والمالية ، العسكرية ، البحرية وقوات الجوية ، وظائف الاعلام والبروباغندا ، وفي النهاية كان يدير شبكة يعمل فيها حوالى مئة وعشرون ضابط سياسي في كل المشرق . صورة فوتوغرافية لفريق العمل ـ احتفظ بها الفرنسيون ويعود تاريخها الى نهاية سنة ١٩٤٣ ـ تظهر سبيرس يرتدي طقما اخضر اللون وهو محاط بأكثر من سبعين رجل يرتدون الملابس الكاكي . اشتباه الفرنسيين كان بمكانه ان المهمة كانت تشكل غطاء لسلسلة من النشاطات السرية ، من تدريب المخربين (الذين كانت مهمتهم إفشال الغزو الالماني في البحر) ، الى التجسس التام . «كنت ملازما لسبيرس لبعض الوقت» ، هذا ما كان يقوله كل رجل حتى فترة ١٩٨٣ ، عندما يضطر للكلام عن دوره فترة الحرب .

بالرغم من ان سبيرس كان يشعر بانه معزول ، كان مصمما على اتقاء أية محاولة لتقليل قدر مبراطوريته . «ديغول من دون شك يريد ان ينتزع منا أيضاً وثيقة اخرى يمكنه تحويلها الى ضدنا» ، قال ذلك بعد ان وصلت شكوى الجنرال الى مصر . لم يتم الاجابة على رسالة ديغول لثمانية ايام عندما زار تشرشل بشكل سري موسكو ، والفترة القصيرة هذه أعطت سبيرس الفرصة ليتأكد ان جواب رئيس الوزراء هو رفض شكوى ديغول .

عندما عاد تشرشل الى القاهرة، دعم سبيرس. «لويس سبيرس لديه العديد من الأعداء»، أشار الى ذلك على الغداء في العاصمة المصرية؛ ثم، ضرب على صدره: «لكن لديه صديق واحد». جوابه لديغول رفض شكاوي الجنرال بقسوة وأعطى سبيرس حرية التصرف ليتابع تدخله. «همنا الاساسي في المجال السياسي»، اخبر تشرشل ديغول، «التأكد ان لا نتبنى سياسة يمكن ان تعرض امننا العسكري للخطر او تتدخل في متابعتنا الحرب التي دخلنا فيها. انه لهذا السبب نتوقع ان يتم استشارتنا بالكامل سلفا بالتطورات السياسية الكبرى».

شك ديغول كان في مكانه، ان تشرشل وسبيرس يتعمدان استخدام الأمن العسكري ونقص القمح كذريعة للتدخل في إدارة المشرق، حاول ديغول حيلة اخرى. اذا أعطى الأمن العسكري بريطانيا الحجة حتى تتدخل في ما لا يعنيها، إذن فرنسا ستأخذ على عاتقها السيطرة على الأمن العسكري في المشرق. حسب اتفاقه مع ليتلتون قبل سنة، بريطانيا اتخذت مسؤولية الدفاع عن سورية لان عدد قواتها يفوق عدد القوات الفرنسية. الان ديغول جمع القوات المختلفة في المشرق ومن خلال اعتبار الدرك السوري وجنود الضرائب المحليين (العشرين الف جندي قوي من الجند الخاص) انهم فرنسيون، وصلوا الى مجموع يوحي ان اغلبية الجند في المشرق فرنسيين. حينها كتب الى تشرشل مطالبا بتحويل القيادة العسكرية.

لم يتعامل في البداية البريطانيون مع طلب ديغول بجدية، لكنهم غيروا رأيهم عندما أزعجهم قائد الفرنسيين الاحرار بخطابه في لبنان الذي رفض فيه علنا الحاجة الى الانتخابات. سبيرس الذي استرد نشاطه بعد دعم تشرشل المفتوح له في القاهرة، انتهز فرصة اعلان ديغول بسرور. وكتب تقريرا الى وزارة الخارجية بان أنباء عن عدم انعقاد الانتخابات جعلت اللبنانيين «قانطين كليا»، وحذر كاسي ان ثمة حركة معادية للديمقراطية

تهدد بدفع الشعوب العربية في المنطقة الى جيش هتلر . لكنه كان مسبقا يشير الى تغيير سياسته : بالرغم من ان وزير الدولة قد بدا بالتساؤل فيما اذا التضحية بسبيرس قد تهدئ الوضع ، أدرك انه القيام بذلك الان فقط سيكون مثل مكافاة على رداءة طبع ديغول . كاسي كان قد اخبر مسبقا لندن ان وجود ديغول في المشرق «تهديد خطر» ، لان الجنرال الفرنسي كان يستفيد جهارة من تراجع بريطانيا في الصحراء الليبية من خلال «القول للكل من دون استثناء ان حكومة جلالته تريد عقد الانتخابات ، لكن من وجهة نظر الوضع العسكري في الصحراء الغربية ، ما من انتخابات هذه السنة» .

كان تشرشل مستميتا لإخراس ديغول قبل ان يستفز العرب اكثر ، قام بدعوته الى لندن للحوار . عندما رفض الجنرال على اساس انه مشغول جداً ، امر رئيس الوزراء بقطع المعونة المادية الشهرية التي تدعم الفرنسيين في سورية . قبل ان يترك ديغول بيروت على مضض الى لندن ، أعطى لقاء صحافيا الى صحافي أميركي اسمه ويندل ويلكي» . تكلمنا لساعات في غرفة الجنرال الخاصة ، حيث في كل زاوية ، كل جدار ، يوجد تمثال نصفي او كامل ولوحات لنابليون» ، كتب ويلكي الذي سال ديغول فيما اذا أدرك عمق المعارضة المحلية للانتداب الفرنسي . «نعم اعلم» ، اعترف ديغول . «لكنها أمانة احتفظ بها . لا استطيع انهاء الانتداب او ترك اي احد يقوم بذلك . يمكن القيام بذلك فقط عندما يكون هنالك حكومة مجددا في فرنسا» . سال ويلكي عن سورية . «لا استطيع التضحية او المساومة بمبادئي» ، رد قائد الفرنسيين الاحرار . «مثل جان دارك» ، أضاف معاونه بغرابة .

حتى كان لقاء ديغول مع تشرشل في اليوم الثامن والعشرين من شهر أيلول / سبتمبر في الداونيتغ ستريت عاصفا اكثر من لقائهما هناك قبل سنة . عندما طالب ديغول مجددا ان يمثل فرنسا ورفض بشكل قاطع قبول طلب تشرشل القيام بالانتخابات في لبنان وسورية ، بدأ رئيس الوزراء البريطاني

بالتحدث بصخب . «انت تدعي انك فرنسا! لست فرنسا! لا اعترف بك بانك فرنسا! فرنسا! اين فرنسا الان؟» .

«اذا ، بعينك ، أنا لا امثل فرنسا» ، عاد اليه ديغول ، بشكل رائع ، «لماذا وباي حق تتعامل معي معتبرا إياها مصالح على اتساع العالم؟» .

لم يكن لدى تشرشل جواب ، حسب ديغول . لكن القائد البريطاني لديه وسائل اخرى تجعل نظيره يذعن . قطعت ببساطة الحكومة البريطانية اتصالات التيليغراف التي تصل ديغول بقواعده حول العالم . بعد ان مضى اسبوع على انقطاع الاتصالات ، الممثل الفرنسي الديبلوماسي في لندن ، موريس ديجان ، أنبا وزارة الخارجية ان الفرنسيين الاحرار سيعلنون قبل نهاية السنة انعقاد الانتخابات الربيع المقبل . قاموا بذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر .

»فقط لو تحكم ديغول بنفسه» ، كتب موظف بريطاني في وزارة الخارجية ، «كنا قد اخرجنا سبيرس مع مرور الوقت شكراً للشكاوى التي استلمناها من كل الجهات . لكن ديغول لعب بيديه ووضع الحبل اكثر من اللازم حول عنقه ليشنق نفسه به» . صمد سبيرس امام كل جهود ديغول لاستبعاده . تم حمايته من أعدائه في وزارة الخارجية من قبل تشرشل . الان عليه ان يستعد لتصويت السنة التالية .

الفصل ٢٠

عمل قذر

كان هم سبيرس الاساسي التأكد من عدم تدخل الفرنسيين بطريقة تأثر في الانتخابات التي ستتم بوقت قريب في الربيع المقبل سنة ١٩٤٣ . في وقت مبكر من تلك السنة تبادل حديثاً يسبب الإحباط مع القنصل الأميركي المعين حديثاً في بيروت جورج ودسورث .

ودسورث محاضر سابق في الجامعة الاميركية في بيروت ، اخبره انه سمع ان الفرنسيين ستيلاعبون بالأصوات ومن ثم سيجبرون اعضاء البرلمان المنتخبين الجدد على المصادقة على معاهدات تربط لبنان وسورية بفرنسا . أقلقت الإشاعات سبيرس لانه سمعها هو أيضاً . والتي ناسبت التوقعات البريطانية ان الفرنسيين لن يتنازلوا عن نفوذهم من دون قتال . «الله يعلم العمل القذر الذي سيحصل» ، هذه كانت ردة فعل موظف اخر عندما سمع ان الانتخابات ستنعقد في وقت لاحق من تلك السنة .

كان هناك ضغطا كبيرا على سبيرس حتى ينجح لان رئيسه وزير الدولة ريتشارد كاسي رأى انتخابات الحكومات القومية في كلا دولتي المشرق مفتاحا لخطة اكثر كبرا لتهدئة الغضب العربي : ليس فقط في سورية ولبنان ،

لكن في فلسطين المجاورة ، حيث كان الوضع يتدهور بحدة . التوترات التي تم تهداتها بفعل تهديد الغزو الالماني عادت للظهور منذ ان انتصرت بريطانيا في العلمين في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ والغزو الانكلو - اميركي لشمال افريقيا الفرنسي الذي حدث بنفس الوقت . «كل مراقب تم إبلاغه . . . والذي كان على صلة بفلسطين اثناء الأشهر الإثني عشر الماضية هو الان مقتنع بشيء واحد» ، كتب كاسي في اليوم الواحد والعشرين من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٣ . «البلد مقبلة على انتشار الفوضى والعنف الاكثر خطورة الذي لم يشهد بعد و . . . توقيت الانفجار ما ان تنتهي الحرب في اوروبا ، او من المحتمل اقرب ببضعة اشهر» .

مع حلول ربيع سنة ١٩٤٣ كان من الواضح ان عدد اليهود المتزايد في فلسطين لم يعد يذعن بعد الان لقبول التحديدات الجائرة على الهجرة المفروضة من قبل البريطانيين لإرضاء الشعب العربي سنة ١٩٣٩ ، لكنهم كانوا يهيؤن انفسهم ليحاربوا من اجل الاعتراف بهم . جاءت اول العلامات في مؤتمر في فندق بلتامور في نيويورك في شهر ايار السنة الماضية . هناك ، هاجم ممثلون يهود تقييدات الهجرة على انها «قاسية ولا يمكن الدفاع عنها» ، وطالبوا بان تعطى الوكالة اليهودية ، (السلطة التي أقيمت سنة ١٩٢٩ لتمثل مصالح اليهود في فلسطين للبريطانيين) السيطرة على الهجرة الى فلسطين كمقدمة لتأسيس «كومونويلث يهودي يندمج في بناء العالم الديمقراطي الجديد» .

ثم باتجاه نهاية سنة ١٩٤٢ ، تقارير تؤكد إشاعات عن درجة الجهود الالمانية المخيفة لإبادة العرق اليهودي بدات تصل فلسطين . حرضوا الجهاد اليهودي ، تماماً عندما اضعف تراجع التهديد الالماني الخلاف حول ان المواجهة مع البريطانيين ستهزم نفسها بنفسها . لاحظ كاسي ان الوكالة اليهودية الان تنفق خمسة عشر بالمئة من ميزانية المليون جنيه على التدريب

وتجهيز منظمة دفاعها ، الهاغانا . واستشهد بعضو من اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية العمالية اليسارية الهيستادروت ، ليبرهن على ان ما كان ذات يوم آراء يمينية اصبح الان الرأي السائد «كلنا نعلم ان مشكلة الصهيونية يجب ان تحل في يوم من الايام بقوة السلاح» ، هذا ما أشار اليه «الياهو غولومب» في اجتماع سري قام البريطانيون باستراق السمع عليه . «لا يمكن أبدا حلها بالجدل السياسي ؛ فقط بالقتال . يجب ان نستعد معنويا وماديا من اجل هذا الصراع الحاسم» .

مستميتا لإيقاف«احياء لصراع اليهود ضد العرب في فلسطين» ، جاء كاسي وزملاؤه بفكرة جديدة . لكسب القبول العربي للوجود اليهودي من خلال تعويضهم بفيدرالية عربية ، التي وعدت الحكومة البريطانية بدعمها سنة ١٩٤١ . على ما يبدو متناسيين ازدياد المعارضة للوجود البريطاني في الشرق الاوسط ، اعتقدوا ان ثمة فيدرالية قد تشكل الجزء الخارجي لمنطقتين ـ سيشكل اليهود القسم الداخلي – ما سيحمي بعد الحرب موقع بريطانيا على جانبي قناة السويس ، مثل الدوائر المرسومة حول الهدف امام عيني القناص .

مجلس الحرب الخاص في الشرق الاوسط – الذي جر معه موظفي بريطانيا الرئيسيين في المنطقة ـ عمل على أعاد النظر بهذه الاستراتيجية في مؤتمر في القاهرة شهر ايار / مايو سنة ١٩٤٣ ، يترأسه مفوض كاسي اللورد موين الاكثر تأييدا لهذا المشروع . اعترف الجميع ان نجاح الخطة يعتمد على نتيجة الانتخابات في لبنان وسورية . لان «اية صيغة ترابط سياسي اكبر بين الدول العربية «هو «بالكاد ممكن طالما يعزز الفرنسيون أي نفوذ مباشر ، سياسي او عسكري ، في سورية ولبنان» ، انتخاب القوميين والحكومات المعادية للفرنسيين في كلا البلدين والتي يمكن الاعتماد عليها لرمي فرنسا خارجا كان مركز آمالهم لتحويل النظر عن الحريق الهائل في فلسطين .

كان كاترو في بيروت يبذل قصارى جهده ليضمن ان فكرة «سورية الكبرى»

لن تحصل أبدا . لانه أمضى سنة ١٩٤٢ يصر على ان التهديد الالماني جعل الانتخابات عملا غير صائب الان يحاول إثبات «ان الانتخابات اقل إلحاحا لان تهديد المحور بدا يزداد قدما» . عندما ادى ذلك الى احتجاج صاخب من سبيرس على نحو متوقع . كان مضطرا على ان يتقبل حقيقة ان الانتخابات الان لا يمكن إيقافها وان الحكومات المنتخبة من المحتمل انها قومية . الواقعي دائما ، قرر انه من الافضل عرض الدعم للحكومتين اللتين ستكونان مستعدتين لمفاوضة معاهدات تمنح فرنسا معاملة خاصة . كان واثقا انه ما ان يتم انتخابهما سيختلفون حول من سيقود الفيدرالية العربية في المستقبل -الشيء الذي كان ، كما كان البريطانيون يعلمون ذلك بشكل عميق ، ان هذا الحلم سيتصدع من أساسه .

الرجل الذي امل كاترو ان يعقد معه صفقة في سورية كان قائد حزب من الأكيد سيربح الانتخابات ، السياسي القومي المحنك الذي له تجربة كبيرة في السابق في مضمار السياسة هاشم بيك الأتاسي . رغم انه «معاد جداً للفرنسيين» عندما كان رئيس وزراء ايام مملكة فيصل القصيرة العمر سنة ١٩٢٠ ، منذ ذلك الحين أدرك الأتاسي الحاجة الى تسوية مع فرنسا . دعم المعاهدة الفاشلة سنة ١٩٣٦ ، واصفا يوم ترتيباتها «التاريخ الذي أعادت فيه سورية اكتشاف فرنسا» . تأمل كاترو ان يستطيع الأتاسي تأكيد ان الكتله الوطنية ستدعم اتفاقا جديدا مماثلا . «شخصية نبيلة ورجل شهم الذي موقفه المبجل يوحي بالاحترام» ، هذا رأي كاترو ، ووعد الأتاسي شخصيا بالقيام بذلك ، طالما لن يتدخل كاترو في الانتخابات السورية . قبل ان يستقيل كاترو من منصب المفوض العام في نهاية شهر آذار / مارس ، وافق على ان يبقى الفرنسيون بعيدين ، وتم تحديد موعد الانتخابات في شهر تموز / يوليو سنة ١٩٤٣ .

هذا القانون الذي ضحى فيه الفرنسيون لم يصل الى لبنان ، حيث أراد

الفرنسيون احكام قبضتهم. منذ بداية سنة ١٩٤٣ بذلوا جهودا لتعليق الانتخابات هناك، التي أراد كاترو عقدها بنفس الوقت مع التصويت السوري. وظف مرشحين يمكن التأثير عليهم للوقوف في الانتخابات وسحب قوائم المرشحين المؤيدين للبريطانيين والقوميين الذين خططوا لإيقافهم عن تقديم انفسهم. لاحقا سيدعي سبيرس ان الفرنسيين استخدموا «كل شكل من اشكال التخويف، من القمع بالطعام الى الاعتقال» حتى يدعموا فرص مرشحيهم. اول إشارة على الدرجة التي وصل اليها الفرنسيون، جاءت في شهر نيسان / أبريل في طرابلس، عندما كشفت الشرطة العسكرية البريطانية حلقة تهريب مخدرات يديرها رجل اسمه رشيد مخدم، الذي كان مرشحا «فرنسيا» لمنطقة المرفأ في الانتخابات القادمة. عندما سمع الفرنسيون عن هذا الاكتشاف حاولوا إقناع البريطانيين تأجيل اعتقال مخدم، «حتى لا يزعج ذلك امن البلدة»، لكن البريطانيين تجاهلوهم.

حسب آفاق ليتلتون - ديغول، الفرنسيون هم المسؤولون عن العدالة الجنائية، لذلك اضطر البريطانيون الى تسليم مخدم لهم. تمت محاكمة مخدم بطريقة فيها تهاون وهرب عندما ينفذ القانون بحذافيره بالرغم من توفر الأدلة بانه كان يرشي الجنود البريطانيين حتى ينقلوا له الأفيون الى مصر. في النهاية، تمكن البريطانيون من إقناع الفرنسيين بإبقاء مخدم تحت الحراسة في بيته، لكنه كان ما زال قادرا على الوقوف في الانتخابات. كان «مثالا ممتازا على الطريقة التي يعمل بها النظام السياسي الفرنسي في المشرق»، هذا ما قاله سبيرس، والذي حاول الاستفادة قدر المستطاع من هذا الامر.

لان سبيرس حكم على المفوض العام الفرنسي جون هيلو بانه «فتى حساس» الذي بدا «كانه من السهل التعامل معه»، لذلك توقع سبيرس على نحو خاطئ ان يقبل جون هيلو بسرعة عندما اشتكى له ان الادارة الفرنسية تسمح لمخدم بالوقوف في الانتخابات. لكن هيلو كان غير مستعد للقيام باي

شيء يتعلق بمخدم ، ليس فقط لانه شك ان توقيت الاعتقال كان محاولة متعمدة لتوجيه الشبهات الى مرشحه . سابقا سفير فيتشي في تركيا ، تقرب هيلو من الفرنسيين الاحرار بعد ان طردته حكومة فيتشي . السبب لماذا حكومة فيتشي تخلصت بكل سرور فجأة من رجلها في أنقرة اصبح واضحا فقط عندما تبين ، كما وضعها سبيرس ، ان هيلو كان «مدمنا للغاية على نوع من الكحول منذ فترة الصباح» ، ولديه نزعة للاختفاء في غرفة خشبية صغيرة في نهاية حديقة مكان إقامته ، متأبطا زجاجة ويسكي ، عندما تكون الأوقات عصيبة .

الولع المقيد هذا يهم ، لان وراء هيلو يوجد طاقم قوي من المستشارين . شك البريطانيون على وجه التحديد بثلاثة اعضاء يشكلون حكومة تتألف منهم هؤلاء الثلاثة والذين اسماءهم على نفس الوزن بوغنر ، بالين وبلانشيت ، وهم حسب رئيس مقاومة التجسسية في المشرق ، عملوا على «إحباطنا وخيانتنا . . . علنا وسرا» . مثل هيلو ، بوغنر وبالين انشقا عن السفارة التابعة للفتشي في أنقرة ، بينما بلانشت حارب مع الفيتشي اثناء الغزو وبقي «علنا يمقت كل شيء مرتبط بالانكليز «بطرق شنيعة حصل سبيرس على دليل ان بلانشت ما زال على صلة مع فيشي ، واعتقد ان زملاء بلانشت الاثنين وموظفين آخرين فرنسيين ربما كانوا كذلك أيضاً .

بسبب كثرة الادلة ان هذه «الشلة الصغيرة الطموحة المعادية للبريطانيين في الأساس» سيطرت على الشؤون السياسية من العاجز هيلو ، لذلك تدخل كاسي . في بداية شهر ايار / مايو ، استنتج مجلس الدفاع في الشرق الاوسط والذي يترأسه كاسي : السبب هو عدم تعاون الفرنسيين الذين لا يعتمد عليهم» ، وجودهم المستمر في المشرق «متعارض مع مصالحنا السياسية والعسكرية في الشرق الاوسط كذلك مع التطور السلمي وصالح البلاد العربية» . رجح المجلس ان تحاول بريطانيا بهمة إحباط الجهود الفرنسية

لتوقيع معاهدات مع سورية ولبنان .

كشف هذا الكلام الى اي حد تشعبت القاهرة عن خط وزارة الخارجية بان على بريطانيا دعم حكم الفرنسيين الاحرار في المشرق ، تطوع كاسي للذهاب الى لندن مع سبيرس من اجل خوض نقاشات اخرى . لدى وصولهم في نهاية شهر حزيران / يونيو حضر الرجلان اجتماعا محرجا في وزارة الخارجية (عندما اعرب رئيس الادارة الشرقية عن اسفه سرا لان كاسي «باع نفسه الى السير أدوارد سبيرس على طريقة الدكتور فوستوس») قبل الذهاب لرؤية رئيس الوزراء في «التشيكرس» وهو مقر اقامته . بقدر ما كان تشرشل يكره ديغول حينها ، لم يكن مستعدا ليصادق على استراتيجية مجلس الحرب في الشرق الاوسط ، بسبب التراجع السريع لمصالح الحكومة البريطانية مع العرب بعد نصر الحلفاء في شمال افريقيا . في اليوم بعد ان التقى بكاسي وسبيرس اصدر أوامر بانه ، بالرغم من انه أراد «مواجهة كاملة بخصوص سورية لحل النزاع» ، لا يريد» ان يسمع تحت أية ظروف اننا أخذنا مكان فرنسا في المشرق . . . يجب ان نكون قادرين على قول اننا حاربنا هذه الحرب من اجل الشرف وحده ولم نربح اي شيء من وراء ذلك على الاطلاق» .

رسالة تشرشل كانت مزدوجة ، لكن سبيرس كان فقط محبطا قليلا . في لقاء اخر في وزارة الخارجية تم دعوته ليكتب اتهاما ضد الفرنسيين ، تحد استجاب له بحيوية . في اليوم الخامس من شهر تموز / يوليو قدم مذكرة تصور الادارة الفرنسية في المشرق بانها «أثبتت نفسها كل يوم بانها ديكتاتورية ، تجاوزت بشكل كامل سجل الفيشي غير السار» ، وجادل ان قضية مخدم والتدخل الفرنسي في الانتخابات دليل ان هيلو «كان يسقط اكثر واكثر تحت تأثير المتطرفين في حاشيته» . لمح سبيرس ان المشكلة ان الفرنسيين الاحرار يرون محليا على انهم مدعومون من قبل بريطانيا . عارفا ان تشرشل سيقرأ المذكرة ، حاول إقناع رئيس الوزراء اتخاذ اجراء من خلال التلميح ان

سمعته على المحك . . طالب سبيرس ان مسالة فيما اذا سيجبر البريطانيون الفرنسيين على منح السوريين واللبنانيين الاستقلال هو الان «ينظر اليها على نطاق واسع على انها امتحان الى الاخلاص الى ميثاق الاطلسي» ، الذي بالطبع وقع عليه تشرشل .

«ليس لدي فكرة ان الفرنسيين كانوا يتصرفون بطريقة استبدادية ، «كتب تشرشل بعد ان قرا رد سبيرس العدائي على انتهاكات الفرنسيين . وبخ أيدن عندما حاول وزير الخارجية رفض جدل سبيرس . «أنا واضح تماماً اننا عوملنا بجفاء بهتانا وبشكل غير لبق من قبل الفرنسيين وانه سيتم التصرف معهم بقسوة اكثر في سورية . . . تعهداتنا للسوريين واللبنانيين جادة ويجب ان تتحقق بشكل جيد» .

أعطى التدخل كاسي وسبيرس الدعم الذي يحتاجان اليه للقاء رينيه ماسيغلي ، ممثل الفرنسيين الاحرار للشؤون الخارجية ، بعد يومين ، في اليوم السابع عشر من شهر تموز / يوليو . هناك ، اشتكا من كل من بوغنر وبلانشت ؛ أضاف سبيرس انه طالما بقي الرجلان في مكانهما لن يكون هنالك الا امل قليل لتحقيق تعاون جاد . ماسيغلي الذي كان يخطط لقول الكثير من نفس الشيء عن سبيرس ، ثبطت عزيمته بسبب دعم تشرشل الواضح للمبعوث البريطاني ، وبقي صامتا . انتهت المحادثات من دون حل باي شكل لمخاوف كلا الطرفين من موظفي الطرف الاخر .

اثناء غياب سبيرس في لندن ، كان هيلو منهمكا على غير عادته . على امل ان يأثر بنتيجة الانتخابات في نهاية شهر ايار / مايو ، وافق على عرض من الرئيس اللبناني المسيحي بزيادة عدد المقاعد البرلمانية في ثمة طريقة يكون فيها ممثلون مسيحيون اكثر من المسلمين في البرلمان الجديد . سيكون أيضاً مسموح لأغلبية الطائفة اللبنانية بالتصويت . اشتكى المسلمون كما هو متوقع وهددوا بمقاطعة الانتخابات ، ففشلت الخطة الفرنسية بعقد كلا الانتخابات

السورية واللبنانية بنفس الوقت .

اثناء محاولة هيلو حل الخلاف ، بدات سورية بالانتخابات . النتيجة كانت كما هو متوقع نصر للكتله الوطنية لكنها لم تمثل النتيجة الخارقة الذي أرادها الفرنسيون ، لانه في اخر لحظة وبطريقة غامضة قرر هاشم بيك الأتاسي عدم الخوض في الانتخابات ، ورئيس سورية الجديد ، شكري القوتلي ، فورا وضح انه لا يرى نفسه ملزما بالوعد الذي اتخذه على عاتقه من كان قبله . قام الموظفون الفرنسيون المحرجون عبثا بمحاولة تقديم النتائج على انها إيجابية ، مجادلين ان الوجود البرلماني العريض بشكل كبير للكتله الوطنية هو ضعف محتمل حدوثه ، لان العديد من الاعضاء المنتخبين حديثاً «من دون شك سيكونون بالتحديد حساسين من نفوذ يمكن ان يجهدهم من الخارج» .

في الحقيقة ، النتائج كانت نكسة حقيقية للفرنسيين ، وأيضاً دعمت المرشحين القوميين في لبنان ، حيث كان سيتم التصويت فيها . هناك ، في ما سماه الفرنسيون «مواجهة اقل بالأفكار مما هي بالشخصيات» ، رجلان كانا يتنافسان على المنصب . مرشح فرنسا المفضل-رجل كفؤ لتحقيق سياسة التهدئة والدفاع عن موقف فرنسا ضد المطامع الإنكلو-ساكسونية «- المحامي الذكي من بيروت اميل اده ، الذي كان رئيساً ذات مرة . تعود علاقته مع الفرنسيين الى عدة سنوات للوراء ، حيث كان عضوا في المفوضية التي لطالما حاولت بطريقة مملة التاثير بقرارات مؤتمر السلام بباريس سنة ١٩١٩ من اجل الانتداب الفرنسي على سورية ، ومن ثم مستشار فرانسوا جورج بيكو . معارض اده كان محام اخر والذي كان في السابق متدرب لديه بشارة الخوري ، هو نفسه كان رئيس وزراء . تمتع بدعم أوسع ، ليس فقط من المجتمع المسيحي الماروني ولكن وسط العديد من المسلمين السنة أيضاً . لانه مؤيد الوحدة العربية بشكل علني ، كان هو بوضوح من تفضله بريطانيا ، وللحكومة السورية الجديدة أيضاً .

اختلف الخوري مع اده عندما دعم الفرنسيون الاخير في الحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية سنة ١٩٣٦ . نتيجة تحريض سبيرس ، الان طرح سؤال فيما اذا كان مساعده السابق مؤهل للوقوف مرة اخرى في المعركة الانتخابية . حسب قانون سنة ١٩٣٧ الذي وضعه الفرنسيون ، على الرئيس المتقاعد ان ينتظر ستة سنوات قبل ان يتمكن من ترشيح نفسه مرة ثانية ، وجادل الخوري ان اده ، الذي كان رئيساً بين ١٩٣٦ و١٩٤١ ، ينقض هذا القانون بشكل واضح .

بمهارة قانونية تصدى اده لذلك حيث ، في ذلك الوقت ، تم تعليق الدستور اللبناني ، حتى لا يحسب حساب العمل في الوزارة بعد مدة اقصر مما هو مقرر ؛ لكن من خلال القيام بهذا ربما ذكر العديد من المصوتين كم كان مقربا من الفرنسيين . كما هو متوقع ، وافق المستشارون القانونيون الفرنسيون في إدارة هيلو على تبريره ، لكن سبيرس ختم الامر عندما وضح ان الخلاف المحيط بشرعية ترشيح اده كان ثمة امر لن تكون بريطانيا مستعدة للاعتراف به اذا تم انتخابه . من وجهة النظر هذه ، لم يكتب لحملة اده الاستمرار .

في تلك الأثناء في طرابلس بقي رشيد مقدم في بيته تحت الحراسة . عندما اصبح واضحا ، حتى في عالم السياسات اللبنانية القائم على البيع والشراء والرشاوي ، هذا الحجز كان يحد من مقدرته على التأثير بالمقترعين ، حاول الفرنسيون إقناعه بان يجعل زوج ابنته يخوض المعركة الانتخابية مكانه . على أية حال كان يرى مصطفى مسبقا كيف كانت الامور تسير . لذلك وجد لنفسه مكانا في قائمة منافس حماه السابق ، عبد الحميد كرامة ، الذي كان يجول لعدة اشهر مدعيا ان انتخابه مضمونا لانه حاصل على دعم البريطانيين . هذا يبدو معقولا كفاية ، لان كرامة كان معارضا منذ مدة طويلة للفرنسيين ومؤيدا لوحدة عربية واسعة الامتداد ، لكن سبيرس انكر ان لديه أية مصلحة بانتخابات كرامة زيادة على ذلك حقيقة انه ، لدى مقارنته بمخدم ،

يتمتع «نسبيا بسمعة جيدة» .

بالرغم من استحالة تكوين فكرة صحيحة عن حقيقة الادعاءات التي تاجر بها البريطانيون والفرنسيون وقتذاك ، كان واضحا ان التصويت بحد ذاته قد شوهه التخويف والرشوة المنتشرة على نطاق واسع . في الأرياف اعتاد المختار على جمع هويات القرويين ليذهب بهم الى محطة الاقتراع ويصوت لكل حزب دفعة واحدة» عدد لا باس به عمل على أخذهم الى المراهنين الذين يرفعون السعر اكثر ويجمعون المال «هذا ما تذكره شاهد بريطاني . سمع ان «بعض المرشحين كانوا . . . يدفعون الجنيه الانكليزي الذهب ليجعلوا المختار يعتقد انه تم الموافقة عليهم من قبل البريطانيين» . اتهم سبيرس السلطات الفرنسية بتوزيع الاوراق- والتي كانت جراية للجميع ـ فقط لتلك الصحف التي تصرفت فقط وفق حرفية اللوائح والقوانين . بجدية اكثر ، ادعى ان عملاء في السورتيه الفرنسي قتلوا مصوتا في غرفة الاقتراع . رفض الفرنسيون هذا التفسير ، مدعين ان «تدخلا مسلحا» كان ضروريا بعد ان حاول مؤيدي الخوري سرقة بعض صناديق الاقتراع . بدورهم اتهموا الموظفين البريطانيين في مهمة سبيرس بمساعدة مرشحيهم المفضلين عالمكشوف . كان هنالك بالتأكيد شيء من الحقيقة بادعاءاتهم ، لان كاسي اعترف لاحقا ان سبيرس كان مسؤولا بشكل كبير «عن نجاح القوميين» .

شكراً «لتدخل سبيرس السافر» ، لان هيلو أدرك أن اده ليس له حظ حتى يتم انتخابه . حاول الان عوضا عن ذلك تنسيق تسوية تجعله يبدو على انه صانع الملك عندما تم انتخاب الرئيس من قبل البرلمان الجديد . اقترح على كلا المرشحين ان يجدا رجلا ثالثا الذي يمكن ان يدعماه والذي يمكن ان يشكل حكومة مشكلة من اعضاء من حزب كل واحد منهما .

قد يقوم بذلك الخوري فقط على شرط ان يصبح المعروف بمعاداته للفرنسيين كميل شمعون رئيساً . لكن ما كان هنالك من طريقة تجعل هيلو

يقبل رجلا كان متأكدا من انه عميل بريطاني ومع رئاسة اده سدت من قبل سبيرس لم يكن أمامه من خيار سوى إقناع الخوري ، الان الشيطان الاقل شرا ، ان يدخل في الانتخابات من جديد . فعل ذلك الخوري ، في اليوم الواحد والعشرين من شهر أيلول تم انتخابه من قبل البرلمان ليكون رئيساً جديدا للبنان . صوت له كل الاعضاء الحاضرين ، بالرغم من ان اده وسبعة آخرين بقيوا بعيدا .

هذا لم يكن الكارثة تماماً للفرنسيين التي كان من الظاهر على انها كذلك . حاول هيلو اقناع قيادة الفرنسيين الاحرار ان انتخاب الخوري «من وجهة النظر الفرنسية . . . بعيدا عن ان تكون نكسة التي أناس محددون يريدون ان يرونها كذلك» ، والى حد ما وافق سبيرس . كان لدى الوزير البريطاني شكوكه حول بالضبط الى اي درجة سيكون الرئيس الجديد عازما على الدفاع عن استقلال لبنان ، أدرك انه اهم شيء ان يضمن ان يصبح مرشحه المفضل رئيس الوزراء . حسب ما ينص عليه الدستور المذهبي المركب الرئيس دائماً مسيحي ، بينما رئيس الوزراء دائماً مسلم سني . كان هناك اربع مرشحين متوقعين لرئاسة الوزراء . واحد منهم كرامة ، الذي هزم مقدم في طرابلس ؛ لكن الرجل الذي اثر بسبيرس الى اقصى حد هو رياض الصلح ، محامي رائع ثري من ميناء صيدا اللبناني الجنوبي . سبيرس كان مصمما على ان يتأكد من حصول الصلح على المنصب .

كان رياض الصلح يعمل بشكل مقرب من مهمة سبيرس منذ ان هدده البريطانيون بالسجن بسبب دعمه التدخل الالماني في انقلاب رشيد عالي الكيلاني في العراق سنة ١٩٤١ . سجنه العثمانيون سنة ١٩١٥ بعد ان اعتقل بينما كان يعمل كمرسال بين فيصل والقادة العرب في جنوب لبنان ، ربما نجا من المشنقة بسبب علاقات عائلته الجيدة . كانت سمعته انه «احد القادة الاكثر نفوذا في الحركة القومية العربية لهذا الحد كان معصوما عن

الخطأ . بطريقة واعدة ، وحتى يعطي البريطانيين الأمل بانه سيضم سورية الى لبنان ، تزوج قريبة سعد الله جبري ، رئيس وزراء سورية الجديد ، وكان معاد للفرنسيين بشكل مسموم . تواق لتجنب الدخول الى السجن مرة اخرى ، عرض عقد صفقة مع بريطانيا . «اذا قمتم بمساعدتنا على انهاء الانتداب الفرنسي ، نكون الى جانبكم» ، هذا ما اخبره الى مستشار سبيرس السياسي ، جفري فورلونغ .

في يوم انتخاب الخوري ، ذهب الصلح ليرى مجددا فيرلونغ ليخبره انه اذا وعندما تتشكل وزارته اول شيء سيقوم به استدعاء هيلو «ليخبره بالضبط متى عليه الرحيل» ، وليلتقي بسبيرس «ليطلب منه الإرشاد والدعم البريطاني» .

عندما لم يكن ولا احد من المرشحين المحتملين الثلاثة مستعد في البداية للمصادقة على الصلح ، تثاقل سبيرس متقدما للقيام بذلك . جامعا الرجال الاربعة معا وتمكن من اقناع الثلاثة الاخرين دعم الصلح كرئيس للوزراء . عند مغادرة الاجتماع ، التقى احد هؤلاء الثلاثة بصديق . اخبره «تم الامر ، كنا مضطرين لدعم الصلح ، بعد ان اخبرنا الجنرال سبيرس القيام بذلك بشكل صارم» .

كان سبيرس بقمة السعادة . تعيين الصلح ، مندفعا الى كاسي» ، يعني ان كل شيء قد انتهى للابد وبشكل مرض اكثر مما اجرؤ ان امل . شعرت طوال الوقت كأنني كنت ابني بيتا من ورق اللعب والورقة الإضافية من المحتمل ان تهدم كل البناء . ما من شيء يكون قد انجز حتى يتم وضع اخر طبقة منه» .

اتفق الصلح مع الخوري على العمل معا لإقامة وطن بواجهة عربية تسعى الى الاستفادة من ثقافة الغرب» . في اليوم السابع من شهر تشرين الاول شرع بخططه بإقامة روابط وثيقة مع الدول العربية الاخرى ، تنقيح الدستور ليعكس السيادة اللبنانية القومية الجديدة و - في حالة ان الاشارة الذكية الى انتهاء

الانتداب الفرنسي غير واضحة كفاية ـ تم الغاء اللغة الفرنسية كلغة رسمية . مسلم بها على انها عنصر الامبريالية الفرنسية الثقافي ، هذه كانت حركة مهيجة ، وبسببها سيعترض الفرنسيون عليها بطريقة عنيفة .

حتى الان عرف هيلو الى اي حد كان سبيرس يتدخل في تشكيل حكومة الصلح الجديدة . كان يعرف بوجود واسطة «مكوكية بين رئيس الجمهورية والجنرال سبيرس حتى تحقق رغبات سبيرس المتعلقة باختيار الوزراء والحصول على موافقته على تشكيل الوزارة النهائي» . مستجمعا قواه من قبل كادر المستشارين السياسيين والمشروب القوي ، قرر انه قد حان الوقت للتصدي والمواجهة . في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول / اكتوبر اصدر هيلو توجيها للإداريين الرئيسيين في لبنان وسورية ، مخبرا إياهم انه لن يكون من الممكن «الموافقة على مواصفات الاستقلال لدول حتى نكون نحن اكيدين بشكل مطلق ان منح هذا الاستقلال لن يتمكن من تعيين سلطة غير فرنسا في المشرق» . بعد ثمانية ايام ، كتب للرئيس خوري ليعلمه ان خطط حكومته متعارضة مع الانتداب الفرنسي .

وضح رياض الصلح بسرعة لهيلو انه ليس لديه نية بالاستسلام .

في اليوم الثامن والعشرين اخبر الفرنسيين في السر ان الحكومة اللبنانية ستستلم وظائف المفوضية العامة . بعد يومين اخبر هيلو بشكل رسمي ، مرة ثانية سرا ، ان ادعاء المفوضية الفرنسية العامة لا يتوافق مع التصريح الذي اعلنه جورج كاترو قبل سنتين ونصف . أيضاً هدد بنشر رفض هيلو قبول البيان الرسمي .

بينما هرع هيلو الى الجزائر ليحصل على توجيهات من ديغول ، الرجل الذي تركه مسؤولا مكانه ، إيف شاتينو ، قام بتقييمه للوضع . «ما من سؤال ، أتكلم بشكل دقيق ، عن تواطؤ بين البريطانيين والحكومة» ، كتب شاتينو الى

ماسيغلي ، الناطق الرسمي باسم الشؤون الخارجية للفرنسيين الاحرار ، مجادلا ان الحكومة اللبنانية كانت ببساطة «خدما مطيعين للسياسة الانكليزية ، التي يحصلون منها على مكاسب شخصية» . مستمدا القوة من هذا التحليل ، كان متفائلا انه لم يفت الوقت بعد لإيقاف الطرد الفرنسي من لبنان ، اذا اتخذ الفرنسيون موقفا قويا ضد هؤلاء الذين ولاءهم للبريطانيين ماديا فقط .

«كن من دون شك» ، أنهى شاتينو ، «ان عرض الصرامة في هذا البلد سيقابل بالحماس من قبل غالبية الرأي اللبناني» . ما حدث بعد ذلك سيثبت له انه كان على خطا بشكل فظيع .

الفصل الـ ٢١

ڤاشودا اخرى

انه كان ابن الرئيس اللبناني الذي تسيل منه الدماء هو من أيقظ لويس سبيرس قبل الفجر في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٣ ليخبره بما حدث اثناء الليل . اخبر خليل الخوري سبيرس ان عملاء من السورتيه الفرنسيين اقتحموا بيت أسرته الساعة الرابعة من صباح ذاك اليوم وخطفوا والده . وشرح ان سبب الجروح في راسه هو انه عندما ضربه السورتيه دافعين إياه الى القبو باخمص البندقية ، صائحين عليه «ابن الكلب ، ابن الرجل الانكليزي»!

بسرعة فهم سبيرس ان الخوري ليس وحده عندما تجمع عند باب بيته الأمامي أقارب وزراء آخرين . كذلك تم سحب رئيس الوزراء رياض الصلح من سريره ، الذي كان نائما فيه مع زوجته ، تم القبض على كل اعضاء مجلس الوزراء باستثناء اثنين . فيما بعد بفترة قصيرة ، ذهب هيلو الى الراديو . واعلن «بصوت جديد ، حاد ، قاس وعال» ، انه علق الدستور ، حل الحكومة وعين اميل اده رئيساً . اشعل هذا الانقلاب فتيل أزمة دامت احد عشر يوما لان البريطانيين كانوا يتساءلون فيما اذا عليهم ان يستسلموا لما فعله هيلو ، او ان

يهددوا بتعزيز الديمقراطية اللبنانية بالقوة اذا لم يستسلم . صدق تنبؤ رجل فرنسي «مع الوقت عند انتهاء هذه الحادثة اما مكانتنا او مكانتكم ستصبح صفر في سورية ولبنان » .

إشاعات كانت تتناقل لأيام ان الفرنسيين قد وصلوا الى مرحلة سيتخذون فيها موقفا عنيفا ضد الحكومة اللبنانية الجديدة . اول علامة للمشاكل جاءت من الجزائر حيث ذهب هيلو الى هناك طالبا الدعم من ديغول حتى يستعرض الحزم» .

في ذلك الوقت ، كان ديغول عالقا في معركة من اجل السيطرة على اللجنة الفرنسية من اجل التحرير الوطني ، لجنة قيادية لحركة الفرنسيين الاحرار والتي تم إنشاؤها مع تشجيع البريطانيين في محاولة لتخفيف نفوذ الجنرال . كان ديغول يتنافس مع مرشح الأميركيين المفضل ، الجنرال جيرود ، من اجل ترأس مجلس الهيئة . شجع الوضع سلوكا استعراضيا وفي ظروف كهذه لم يكن هنالك من مجال حتى يقبل ديغول بخنوع استقلال لبنان من دون قتال .

حتى تلك المرحلة التبادل بين الفرنسيين واللبنانيين كان في السر . لكن فيما بعد في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني / نوفمبر عملت اللجنة الفرنسية من اجل التحرير الوطني على جعل عدم موافقتها علنا من خلال اصدار بيانا رسميا يشدد على انه لا حق للبنانيين تغيير الدستور من جانب واحد ، لان الانتداب ما زال قائما . عندما رد اللبنانيون على هذا البيان القاسي بنفس اليوم ، مع الملاحظة ان مشروع الدستور قد تم مسبقا تقديمه للمناقشة في البرلمان في اليوم الثامن من ذاك الشهر ، كان واضحا ان الغلاقات بين الفرنسيين واللبنانيين قد جفت بشكل لا يمكن معه التراجع . المواجهة الان لا يمكن تجنبها .

فشلت محاولة فرنسية لتنظيم مقاطعة الجلسة البرلمانية . عمل اللبنانيون ، على تمرير قرار تنقيح الدستور بنفس اليوم بعد ان تجاهلوا رسالة من هيلو

يطلب بها التأجيل . عاد هيلو الى بيروت في اليوم التاسع تحت انطباع ان ديغول «يتمنى رؤيته يتصرف بنشاط اذا استدعت الحاجة» . في بيروت فرض مراقبة كاملة على الصحافة المحلية في محاولة يائسة لإيقاف قرار البرلمان من ان يصبح معروفا على نطاق واسع . اعلن أيضاً سحب الدعوات الاعتيادية التي كانت ترسل الى الحكومة اللبنانية من اجل حضور المسيرة السنوية ليوم الهدنة التي كان موعدها بعد يومين ، في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . عندما ، في مساء اليوم العاشر ، حاصره سبيرس بأسئلته عن الإشاعات المتواصلة التي كان يسمعها ، هيلو «بدا مصدوما باستنكار» . بالرغم من انه نطق سهوا نتيجة تأثير الكحول انه سيلقي كلمة في الاذاعة في صباح اليوم التالي ، أعطى سبيرس «كلمة شرف انه ما من شيء سيحصل ليخل بالنظام العام» .

لحظة استوعب سبيرس اخبار الانقلاب فجر اليوم التالي ، قرر ان دعاية لا مجاملة فيها افضل عصا لضرب الفرنسيين بها . في المشاجرات السابقة مع الفرنسيين الاحرار كانت الحكومة البريطانية تبقي انتقادها في السر ، لكن سبيرس شعر ان هذا ببساطة شجع سوء سلوك ديغول . في لندن ذاك الصيف عرض احتمالية جلب بعض مراسلي الصحف البريطانية الى المشرق «للحصول على قصة الأجرام الفرنسي . . . نشرها للعالم كأفضل وسيلة لايقافهم» ، وهذه كانت الفكرة التي سيعرضها مجددا على كاسي عندما اتصل هاتفيا بالوزير البريطاني في القاهرة . وافق كاسي على خطة سبيرس ، وأيضاً اخبر المبعوث البريطاني ان يرسل اعتراضا خطيا شخصيا الى هيلو .

ما من عمل يمكن ان يسر سبيرس اكثر . فيما بعد بفترة قصيرة كتب مذكرة ملهبة أعطاها الى المفوض العام يتهمه بها بانه «ديكتاتور بشكل غير مقبول «و بناء على المحادثة التي جرت في الليلة الماضية ، اعلن تطلعاته معتبرا اياها التزاما أخلاقيا منه .

حفاوة الاستقبال التي تلقاها سبيرس من اللبنانيين أينما حل في بيروت ذاك اليوم جعلت المبعوث البريطاني يشعر بالثقة الى أبعد الحدود . لكن رغم انه كان مستعدا لمواجهة الفرنسيين مباشرة ومن دون مساومة ، كان يعلم ان نظراءه في وزارة الخارجية غير مستعدين للقيام بذلك . اثناء زيارته الى لندن في وقت مبكر من تلك السنة اتخذ موقفا عدائيا فوريا من موظفين اثنين رئيسيين في الادارة الشرقية واصفا رئيس الادارة بانه «كبير ، مترهل ، مع عيون غائرة ، مخفيتين بالعدائية اشعر انها لن تختفي أبدا» ، ووصف مفوضه بانه» اغبى من التقيت به على الاطلاق» . فضلا عن ذلك ، ولان مسرح الحرب انسحب من الشرق الاوسط الى اوروبا بعد غزو الحلفاء شمال افريقيا وغزو ايطاليا ، قلق السلك الديبلوماسي البريطاني اكثر الان من فكرة إزعاج الفرنسيين من اجل تنفيذ ضمانة الاستقلال والتي عمرها سنتين ونصف حيث لم تعد لبنان تحت تهديد خطر مباشر بعد الان . الان العرب الذين لا يبدون بعد الان بوضع حرج ، تماماً مثل الحرب العالمية الاولى ، الحكومة البريطانية الان راضية عن تراجعها عن وعدها .

عندما حاولت وزارة الخارجية ايجاد أسس للتسوية في لبنان من خلال لوم الازمة على «الخطأ الفادح والنقص في المحاكمة من قبل الطرفين» ، رد سبيرس بطريقة تهكمية ان الشعب اللبناني فقط «اقترف الخطا الفادح» (كلماتكم) بان يفترض انهم احرار بالكامل حتى يغيروا قانونهم الخاص بهم كما يرونه مناسبا لهم ، لأنهم «شعب مستقل وذو سيادة» (كلماتنا) .

هذا الكره المعروف جدا من قبل سبيرس تجاه الفرنسيين قاد وزارة الخارجية الى عدم الأخذ بالحسبان تقاريره بان الوضع قابل للتدهور . الوزير البريطاني المسؤول عن العلاقات مع ديغول في الجزائر هارولد ماكميلان ، كان ميالا اكثر الى تصديق ادعاءات الفرنسيين - والتي تعتمد على تأكيدات هيلو - ان سبيرس وكاسي يبالغان في وصف الاحداث في بيروت . كتب

«اشعر ان سبيرس هناك لاثارة المشاكل والمجد الشخصي ، وكاسي ضعيف جداً لانه تماماً في جيبته» . ولان ماكميلان أصيب بجروح بالغة الخطورة في الحرب العالمية الاولى ، كان يفضل المفاوضات على المواجهة . كتب في مذكراته «سبيرس يريد الفاشودا» و«أنا لا اريد» .

بينما كان تقييم ماكميلان لهدف سبيرس بمحله ، تقييم سبيرس للوضع في لبنان كان صحيحا أيضاً . في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر في طرابلس ، قام جنود سنغاليون فرنسيون بناقلات مدرعة بالتوجه الى حشد يتظاهر ضد الاختطاف الفرنسي لحكومتهم ، دهسوا سبعة واطلقوا الرصاص على واحد اخر وقتلوه . في صيدا - مسقط رأس رئيس الوزراء رياض الصلح - تم قتل اربعة واصابوا بجروح بين خمسين وستين اخرين عندما امر حاكم المرفأ جنده بفتح النار لتفرقة مثيري الشغب . تم إصابة صبي وقتله عندما تم رؤيته يمزق صورة ديغول في بيروت . عندما زار كاسي ليقوم بتقييمه اكد ازدياد التوترات وان الوضع «من المحتمل في وقت قريب ان يصبح خطرا» .

قبل سنتين ادعى سبيرس ان «شعب المشرق ومن خلفهم الجماهير العربية الكبيرة لديها فقط أنا لاعبر عن مخاوفهم» ، وفي هذا الدور ألقى نفسه الان . تكلم في مظاهرة للنساء اللبنانيات اللواتي ، حسب احد شهود العيان ، «اشتد تظاهرهن عندما ألقى خطابا موجها لهن» . زار المواقع التي حصلت بها التظاهرات في كل بيروت ليرى النتائج ، كتب تقاريرا انه وجد علامات طلق الرصاص في الزفت ما يثبت ان الفرنسيين لم يطلقوا الرصاص في الهواء كما كانوا يدعون . وفي حالة ان وزارة الخارجية لم تكن ميالة الى أخذ كلماته على ما هي عليه ، ساعد صحافيين أرسلهم كاسي الى بيروت حتى يرسلوا تقاريرهم الى بلادهم ، بينما نفذ ما سماه «الرقابة الغير رسمية على الصحف حتى يتأكد من الموضوعية» . بشكل منفصل ، اقنع عضوين من البرلمان

اللذين عملا لديه في السابق في مهمته بان يطرحا أسئلة محرجة وصعبة عن الازمة في لندن .

في وضع حيث فشلت فيه الديبلوماسية ، شجاعة سبيرس الفجة فجأة اصبحت لها فائدة . عندما هاجم جندي فرنسي سيارته وجعله معرض للطلق الناري ، قفز من السيارة وكسر عكازه على راس الجندي . احد موظفيه الذي وصفه في السابق بانه «مغرور تماماً ، أناني ومليء بالخدع السياسية» الان انحاز الى صفه . «تصرف الجنرال مثل اسد يزأر ، «كتب ذلك متأثرا بالطريقة التي «أقحم سبيرس نفسه بها في القتال وكسر عكازه» .

مرة ثانية ، جاء كاسي ايضا لمساعدة سبيرس . حيث استقبل كاترو استقبالا باردا ، عندما في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، عبر الجنرال الفرنسي من القاهرة في طريقه الى بيروت ليحاول حل الأزمة . أصغى الأسترالي من دون تعاطف عندما كان كاترو «يحرث على كومة في ارض قديمة «و تدرب على المجادلة التي طلب منه ديغول القيام بها ، والتي كانت ان التدخل البريطاني سيجبر فرنسا على الانسحاب من المشرق بالكامل -افترض ديغول ان بريطانيا لا تريد ان تكرس موارد اكثر للدفاع وإدارة المنطقة لوحدها . أصر كاسي انه يجب على الفرنسيين اطلاق سراح الوزراء اللبنانيين واعادتهم الى مناصبهم بسرعة واستبعاد هيلو قبل ان يثور اللبنانيون . في اجتماع ثاني سري نزل كاترو الى مرحلة المرافعة . قال كاترو انه اذا تم استدعاء هيلو وتم اعادة الحكومة اللبنانية ، سيمثل ذلك» خسارة كبيرة لوجه» الفرنسيين . في دفتر يومياته ، استرجع كاسي ذكريات ما اخبره لكاترو انه لا يأبه حقيقة . «الصورة المركبة ليست وردية جداً بالنسبة له ، لكن ، كما قلت ، التعقيد لم يكن من صنعي» .

رفض سبيرس تهديد ان الفرنسيين قد يتركوا المشرق على اساس انه «ابتزاز محض» ، ورد بفعل غاضب على ما اشتبه به بانه جهود لشراء الوقت .

لانه ذكر لندن سابقا ان عضوين من البرلمان واللذين هربا من الاعتقال الذي حصل وقت الفجر ينظمان مقاومة مسلحة في الجبال خارج بيروت ، جادل ان البريطانيين «ببساطة لا يستطيعون إغراق تلك البلاد بالدماء والفوضى من اجل «وجه» الفرنسيين . سيكون القيام بذلك متعارض تماماً مع أسمنا الجيد في العالم كله» .

بطريقة حاسمة ، اتفق تشرشل مع رأي تابعه القديم . لن يسمح رئيس الوزراء البريطاني للفرنسيين باتباع أسلوبهم لانه اعتقد ان سمعته كانت في خطر . فقرة في ميثاق الاطلسي الذي وقع عليه تلزمه «برؤية اعادة حقوق الاستقلال والحكم الذاتي الى هؤلاء الذين حرموا منها بالقوة» .

على نحو غريب ، كان يحاول أيضاً إقناع روزفلت الذي كان تنتابه الشكوك من الموضوع بان يعترف باللجنة الفرنسية للتحرير الوطني على انها حكومة فرنسية تحت الانتظار ، الشيء الذي عنى بطريقة فعالة قبول ديغول ليكون الرئيس المنتظر لانه حتى الان تفوق على جيرود لتوليه منصب رئاسة الهيئة .

عزز مخاوف روزفلت دعم ديغول الظاهر للانقلاب في لبنان ان الرجل الفرنسي لديه نزعات ديكتاتورية ، لم يكن هنالك من طريقة يمكن فيها ان يقبل تشرشل بما فعله ديغول . عندما وصلته الاخبار ان قائد الفرنسيين الاحرار رفض مجددا وعلنا حركة الحكومة اللبنانية وهدد سرا بالاستقالة ، قرر رئيس الوزراء البريطاني انه حان وقت تحدي الجنرال . بناء على إصرار تشرشل ، ابلغ مجلس الحرب كاسي انه اذا لم يحصل اي تقدم حتى نهاية يوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ان يسافر الى بيروت اليوم التالي ويسلم كاترو إنذارا . سيكون امام الفرنسيين حتى الساعة العاشرة صباحا من اليوم الثاني والعشرين حتى يطلقوا سراح الوزراء ، والا سيعلن البريطانيون القانون العسكري .

رغم ذلك كاسي كان مذهولا عندما استلم الامر ، لانه لم يتطرق الى اعادة

الوزراء الى مناصبهم . شك بطريقة لا تخطئ ان ماكميلان كان يحاول حفظ ماء وجه ديغول ، اعترض على الفور الى تشرشل وأيدن . في البداية حاول أيدن تبرير الحذف ، قائلا انه لتطالب بإعادة الوزراء الى مناصبهم سيؤكد ببساطة التوصل الى طريق مسدود ناتج عن عدم الاتفاق على رأي ، لكن تشرشل وقف الى جانب كاسي» . هل تم اطلاق سراح الوزراء وإعادتهم الى مناصبهم؟» كرر ذلك بشكل لاذع جداً في نفس اليوم . وافق مجلس الحرب على تجنب اتخاذ قرار قاطع في الامر ، موافقا على ان اطلاق السراح وحده ليس كافيا ، لكن طلب من كاسي تجنب المطالبة بشكل صريح بإعادة التعيين في الوقت الحالي .

التقى كاسي بكاترو في بيروت بعد ظهر يوم التاسع عشر . «هذه فاشودا اخرى» ، رد كاترو عندما قدم له كاسي الإنذار . مثل الفاشودا ، لم يكن امام الفرنسيين من خيار سوى الاستسلام ، لان فرقة الجنود البريطانية المدرعة اتخذت موقعها في ملعب بيروت للغولف . لاحقا من الصباح التالي ذهب كاترو ليرى سبيرس ليخبره ان اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني قد وافقت على اطلاق سراح الرئيس وإعادته الى عمله ، لكن فقط ستطلق سراح رئيس الوزراء واعضاء مجلس الوزراء . لاحقا من نفس اليوم صوتت اللجنة لاستدعاء هيلو . كان هنالك فقط ثلاثة معترضين الذين تصدوا لعودة رياض الصلح الى الوزارة . اعتقد البريطانيون ان واحد منهم كان ديغول .

في الوقت الحالي ، رضخ أيدن الى رأي رئيس الوزراء . استاء من قلة سيطرته على ماكميلان المسؤول عن الاتصالات مع الفرنسيين الاحرار في الجزائر ، وكان يستسيغ فرصة اعادة وزيره الحديث الى مكانه . نفس اليوم اخبر ماكميلان بصراحة فظة ان فكرة اطلاق سراح من دون اعادة الحكومة الى عملها السابق «ليس حلا» ، واكد لكاسي انه»ما من مجال مهما كان «للمفاوضة مع الفرنسيين من اجل حكومة جديدة وغير دستورية ، كما كان

ديغول يتأمل حسب ما هو ظاهر .

إنتهاء الخلاف ضمن الحكومة البريطانية ترك اللجنة الفرنسية من دون خيار . في وقت متأخر من اليوم الحادي والعشرين انحنت لما لا يمكن تجنبه . اعلنوا انهم سيقومون باستدعاء هيلو ويطلقون سراح الرئيس بشارة الخوري وسيعيدونه الى عمله . في بيروت احتفل حشد من أربعين الف شخص عندما تم اطلاق سراح الرئيس والوزراء في اليوم التالي .

تضمن بيان اللجنة الفرنسية حسب ما وصف ماكميلان بانه» التباس مقصود» فيما يتعلق بوضع مجلس الوزراء ، الذي تامل ان لا يعمل الرئيس على إعادتهم لعملهم . لكن عندما رفض الخوري تعيين حكومة جديدة ، لم يكن من خيار امام كاترو سوى الإذعان . تجاهل كاترو امر ديغول وأعاد تعيين المجلس . اما طاقم مستشاري هيلو فقد ترك فيما بعد بفترة قصيرة .

بقي كاترو متأملا انه قد يكون من الممكن ان تتوصل فرنسا الى اتفاق مع اللبنانيين ، ووافق أيدن ، الذي عاد الى موقفه الطبيعي المؤيد للفرنسيين . اخبر وزير الخارجية البريطاني سبيرس ان عليه العمل من اجل وضع يكون فيه الفرنسيون في موقع في المشرق متوافقا مع موقع بريطانيا في العراق . لكن سبيرس رفض هذا في الحال . قال سيكون «مثير للسخرية» ، إجبار اللبنانيين توقيع معاهدة تمنح «مصالح استراتيجية في ارضهم لسلطة التي بناء على خبرة طويلة هم كرهونها ويخافون منها» . في الحقيقة ، عندما التقى المتدرب قانونيا الخوري بكاترو ، استخدم مجادلة ذروة في الاتقان بان كلاهما كان اقل عاطفة واكثر ذلا . محولا مجادلة ديغول المألوفة عن عجزه عن انهاء الانتداب الى ضده ، قال الخوري ان الحكومة اللبنانية لن تخوض مفاوضات معاهدة مع اللجنة الفرنسية ، «لان هذه الهيئة لن تلزم الحكومة الفرنسية في المستقبل» . عاد كاترو الى الجزائر يبدو الى حد ما منهكا ومكتئبا» .

كتب سبيرس تقريرا الى لندن عن الذل الذي الحقه الخوري بتلذذ

مكشوف . وبنشوة الظافر ، ذكر وزارة الخارجية بالتهديدات الثلاثة التي قام بها ديغول ولم ينفذها ، وكتب عن الإذلال الحقير الذي خضع له مجلس الوزراء اللبناني من قبل الفرنسيين عندما كانوا بالأسر . في أمسية عيد الميلاد اختصرت سكرتيرته وعشيقته الوضع كما رأته هي في رسالة لبلدها» . مكانة بريطانيا الان فوق في السماء في كل الشرق الاوسط ، ويقول الناس ان الجنرال سبيرس حقق ما فشل به لورانس ـ جعل الوحدة العربية حقيقة» . هذا كان مبالغة ، لكن عكس ما كان يظنه سبيرس عن نفسه .

بالرغم من ان الجهاز الامني قد بقي تحت السيطرة الفرنسية ، تم تحويل الوظائف المدنية التي كانت تقوم بها المفوضية العامة الفرنسية أخيرا الى الحكومتين اللبنانية والسورية في الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٤ . لاحقا من هذا الشهر ، كتب مراسل «التايمز» جيرالد نورمان تقديرا مطولا عن الاحداث في المشرق ومضامينها الهامة .

ومن دون ذكر اسم سبيرس بالتحديد ، اعترف بالدور الذي لعبه المبعوث البريطاني في كتابة التقارير التي لم يكن من الممكن تجاهلها من قبل الحكومتين البريطانية والاميركية في ذلك الحين .

كلا الحكومتين «بالتأكيد كانتا جزئيا قد تأهبتا بسبب الخوف من ان يتعرض مكانة وسمعة الحلفاء للخطر بمكان اخر . ما شجعهما ايضا هو الغضب الذي آثاره الاعلام حول الأزمة برسائله الاولى . عن طريق قرارهما في هذه الحادثة خلقوا حدثا سيستشهد به بالتأكيد .

سبيرس كان ظافرا ، لكن النصر هذا جاء مقابل ثمن شخصي كبير . ما ان عبرت الأزمة ، بدأ موظفون بريطانيون آخرون في المشرق بالتفكير بانه تجاوز الحد . كتب احدهم انه يعتقد ان سبيرس كان «مسؤولا بنسبة على الاقل خمسة وسبعين بالمئة عن المشاكل هناك» ، بينما كان اخر مرتبك

من العواطف القوية التي تمكن مبعوث بريطانيا من اثارتها : «شعبيتنا هنا عظيمة جداً لدرجة انها تكاد تكون مقلقة» . مراسل «التايمز» نورمان أيضاً كان مشوشا من ممثل بريطانيا الكبير في المشرق . بينما منعته الرقابة من جعل مخاوفه علنا ، اخبر السفير البريطاني الجديد لدى اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني ، دوف كوبر ، انه يعتقد ان سبيرس قد بالغ في الاحداث التي كتب عنها في تقاريره ، واكد ان الفرنسيين ينظرون الى الوزير البريطاني «ببغض شديد ومكثف الى اقصى حد» . ما الذي كان لا يعرفه ان بعض الموجودين في الادارة الفرنسية قد كونوا مسبقا حلفا مدهشا كوسيلة للانتقام .

الفصل الـ ٢٢

اصدقاء عند الحاجة

في اليوم التاسع والعشرين من شهر شباط / فبراير سنة ١٩٤٤ اخبر القنصل الفرنسي في القدس غاي دو شيلارد ، رئيسه رينيه ماسيغلي انه تم الاتصال به من قبل مجموعتين يهوديتين إرهابيتين ، الارغون زفاي لومي وعصابة الستيرن . الارغون بالأصل تشكلت فترة الثلاثينيات لتحارب العرب ؛ عصابة الستيرن انشقت عنها نتيجة خلاف حول السياسة التي سيتبعونها . كلاهما كان قد شن للتو حملات عنف ضد البريطانيين في فلسطين . الارغون التي أرسلت الى دو شيلارد نسخة من «اعلان الحرب» ضد البريطانيين ، كانت قد فجرت مكاتب الجمرك والضرائب في القدس ، حيفا وتل أبيب . وعصابة الستيرن حتى لا يتم التفوق عليها ، قتلت شرطيين بإطلاق النار عليهما في حيفا . في رسالة سرية تصف هذه الاعتداءات الاخيرة ، ارسل دو شيلارد نسخا من المواد التي استلمها الى مركز قيادة الفرنسيين الاحرار في الجزائر .

استلم دو شيلارد من عصابة الستيرن مقالا عن أزمة لبنان التي وقعت في شهر تشرين الثاني / نوفمبر الماضي ، وقد تم نشره في المنشور الدوري الخاص بالعصابة واسم هذا المنشور «هيشازيت» . بينما من السهل رؤية

لماذا إرهابيون يحاربون من اجل الاستقلال هم مهتمون في حادثة حصلت في لبنان، المقال كان مفاجئا، لانه الى حد ما بشكل متعمد اتبع نهجا متعاطفا جداً مع الفرنسيين. ملقيا اللوم على البريطانيين لأنهم سرعوا في حدوث الأزمة، مدح المقال جهود فرنسا «السريعة والمفعمة بالطاقة» لاعتقال مجلس الوزراء الذين كانوا «عملاء لانكلترا». أنهى المقال: «حركة المقاومة الصهيونية وفرنسا الحرة لديهما بوضوح كبير مصالح مشتركة. عاجلا ام آجلا سيعترف بها الفرنسيون». اذا بدا هذا توقعا جريئا، نبرة الثقة هذه جاءت من حقيقة ان العصابة كانت تعرف ان هذه المصالح المشتركة كانت سلفا قد وصلت الى منتصف الطريق. لانه حتى ذلك الحين بعض اعضاء الادارة الفرنسية في المشرق كانوا يدعمون في السر الإرهابيين الصهيونيين الذين يشاركونهم تصميمهم على اقتلاع جذور بريطانيا من فلسطين.

يعود تاريخ نقطة التقاء تلك المصالح الى شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٤٠، عندما وافق ديفيد هاكوهين الذي بنت شركته سور تيغارت، على مكوث ثلاثة ناشطين من الفرنسيين الاحرار في بيته في حيفا. وقتذاك الفيتشي كانت تسيطر على المناطق المجاورة سورية ولبنان، والفرنسيون الاحرار والهاغانا منظمة الدفاع اليهودية السرية، كلاهما كان يتفق على ان بريطانيا لا تتعامل مع تهديد المنظمة بشكل جاد كفاية. عندما رفض البريطانيون السماح للفرنسيين الاحرار بإذاعة بروبغندا من سورية، هاكوهين الذي كان عضوا في الهاغانا سمح للثلاثة بانشاء جهاز الاذاعة السري في منزله حتى يتمكن راديو «مشرق فرنسا الحر» من البث على الهواء بغض النظر عن اي شيء. كان هنالك سببا بسيطا لماذا الصهيونيون كانوا راغبين في المساعدة. حيث كما وضعها رئيس الادارة السياسية في الوكالة اليهودية، «بالرغم من صعوبات اليوم، سيلعب الفرنسيون الاحرار دورا هاما في فرنسا الغد ونحن على صواب بان نأمل انهم لن ينسوا التعاطف الذي أبداه لهم يهود القدس

عندما وجدت فرنسا نفسها في ضيق» .

و لان بيت هاكوهين يطل على ميناء حيفا ، شهد الفرنسيون الثلاثة مأساة وقعت في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٠ . في المرفأ من ذاك اليوم باخرة كبيرة اسمها «باتريا» كانت تستعد لتبحر الى موريتيوس . لكن ركابها كانوا غير راغبين بذلك لأنهم كانوا لاجئين من المانيا أرادوا الذهاب الى فلسطين . لدى وصول الباخرة اعتقلتهم السلطات البريطانية التي كانت مصممة على إجبارهم على اتباع تقييدات الهجرة حسب الكتاب الابيض الورقة البيضاء سنة ١٩٣٩ وجادلوا ان بين اللاجئين احتمال وجود جواسيس المان مهمتهم التحريض جاؤوا حتى يضرموا حريقا في فلسطين .

لم تغادر «الباتريا» الميناء أبدا . في صباح يوم الخامس والعشرين وعندما كان يتم زج اخر المطرودين في معبر السفينة ، وقع انفجار مدوي على متن الباخرة ثم غرقت وهي تميل الى احد جوانبها . رغم اندفاع البريطانيين بحماس لتخليص من هم عالقين فيها ، ماتوا كلهم والبالغ عددهم مئتين وثلاثة وستين .

كان من الواضح على الفور احتمال حدوث تخريب . وحاصر الرجال الفرنسيون هاكوهين ، لأنهم كانوا يعرفون ان الهاغانا تقف في وجه الجهود البريطانية لترحيل اللاجئين اليهود القادمين . تذكر احدهم اسمه ريموند شميتلان عندما اعترف بذلك هاكوهين : «وقفنا هناك فاغري الأفواه» ، اعترف هاكوهين بان سبب الانفجار هو لغم هربته الهاغانا الى ظهر الباخرة لتعطلها حتى لا تغادر . حينها سال هاكوهين فيما اذا اعتقدوا ان اليهود العصريين تنقصهم شجاعة شمشون الجبار . «بهذا استطاع اقناعنا» ، هذا ما قاله شميتلان . «تصميم وطني من هذا النوع لا يمكنه ان يحقق سوى النصر» .

تعاون بين هاتين الاقليتين واللتين كانتا تعتمدان بشكل محبط على

البريطانيين وكلاهما يكافح من اجل نيل حريته ، نما من هنا . وضعت الهاغانا شبكة مخابراتها في سورية تحت تصرف الفرنسيين الاحرار ، وزودتهم بمعلومات قيمة حتى وهبت عميلها الرئيسي نفسه الى رئيس السورتيه العام في المشرق واسمه كولومباني . هاكوهين بنفسه أخذ رسالة من الفرنسيين الاحرار الى دمشق داعيا الموظف الفرنسي الرئيسي في المدينة الى الانشقاق . وعندما تم الاتفاق في النهاية على غزو المشرق سنة ١٩٤١ ، زودت الهاغانا اعضاء من وحدتها وحدة الفدائيين النخبة المتدربين على الإغارة واسم هذه الوحدة «بالماتش» حيث قدمتهم ليتصرفوا كادلاء عندما بدأ التقدم في اليوم الثامن من شهر حزيران / يونيو . بالرغم من انه ، وكما تذكر احدهم ، «ما من احد منا يعرف سورية» والبالماخ بدورها استأجرت عربيا ليدلهم على الطريق ، انها كانت فكرة يعتمد عليها . وقت الأزمة اظهر الصهيونيون رغبتهم في مساعدة الفرنسيين .

العلاقة بين الفرنسيين الاحرار والصهيونيين ستتطور بشكل بارز خلال السنة التالية ، ولان الغضب اليهودي من سياسة الهجرة اليهودية قد نما بعد كارثة اخرى فترة الحرب وهي كارثة باخرة اخرى تم حشوها باللاجئين اليهود اسمها «ستروما» . بعد كارثة الباتريا ، لم يسمح البريطانيون بتحميل الستروما بوزن إضافي ، أبحرت الستروما من رومانيا في شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٤١ ، قرب ساحل فلسطين . قضت السفينة ثمانية أسابيع في ميناء اسطنبول بينما كانت الحكومة البريطانية حتى ذلك الوقت على علم كاف بالمصير المريع ان ركابها مستميتين للفرار ، وقتذاك جادلت الحكومة البريطانية ما يتوجب عليها القيام به . عندما اعلن البريطانيون أخيرا انهم لن يسمحوا للسفينة بالاقتراب من فلسطين ، تم سحبها لتعود الى البحر الاسود . بالكاد تركت اسطنبول عندما وقع انفجار ، ربما بسبب اما لغم او ضرب بالطربيد من مصدر غير معروف . غرق كل ركاب الستروما البالغ عددهم

سبعمائة وتسعة وستين راكب ماتوا كلهم باستثناء واحد . لم تكن مفاجأة بان كان هنالك تحيب في فلسطين .

بينما حاول البريطانيون تجنب اعطاء جواب صريح ومباشر عما حدث لسفينة الستورما ، رجل واحد قرر ان يتصرف . شاعر اديب كلاسيكي شاب متأنق عمره اربعة وثلاثين اسمه أبراهام ستيرن مثله الاعلى ايليزار بن ياير ، احد المتحمسين المتعصبين الذي في القرن الاول من السنة الميلادية قاوم الرومان في منطقة مسعدة (جنوب اسرائيل) قبل ان ينتحر حتى يتجنب إلقاء القبض عليه . سابقا كان مسؤولا عن علاقات الارغون الخارجية ، ستيرن ترك بعد خلاف حول سياسة العصابة في فترة مبكرة والخلاف كان حول المشاركة مع البريطانيين . كان يعتقد ان اليهود يجب ان يساعدوا في جهود البريطانيين في الحرب فقط بعد ان يمنح البريطانيون الصهيونيين استقلالهم . عندما اصبح واضحا انه ليس لديهم ثمة خطط ، سنة ١٩٤٠ مرر ستيرن رسالة الى فيتشي سورية ، عارضا القتال من اجل الألمان اذا كان بإمكان هتلر دعم اعادة بناء الدولة اليهودية ضمن حدودها التاريخية ، على أسس قومية ويحكمها حزب واحد يسيطر على كل موارد الدولة ، متحالفة مع الرايخ الالماني (الدولة الالمانية النازية الديكتاتورية سنة ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥)» . عرض ستيرن الغريب هذا بدا بانه قد جذب انتباه كولمباني الذي ارسله الى السفارة الالمانية في أنقرة .

بعد انتظار جواب من هتلر من دون جدوى ، في بداية سنة ١٩٤٢ شن ستيرن حملة عنف لمدة قصيرة تأمل ان يجبر من خلالها الحكومة البريطانية على منح اليهود في فلسطين الاستقلال . ولانه بحاجة الى المال باستماتة ، قامت العصابة بعملية سطو على مصرف يديره معارضوهم أيديولوجيا الهيستادروت ، لكنها قتلت يهوديين اثنين كانا فقط من بين المتفرجين . أيضاً اثنين من اصل ثلاثة من رجال الشرطة الذين قتلوهما في انفجار بعد عدة ايام كانا

يهود . بسرعة شكلت العصابة لها العديد من الأعداء وعندما عرضت الشرطة مكافأة لمن يقدم لهم معلومات استلموا خبرا عن مكان أعضائها . بعد اسبوع من السطو على البنك داهمت الشرطة منزلا في تل أبيب ، قتلت رجلين وجرحت اثنين آخرين ، احدهما من سرير المشفى بعدها قام من دون ان يلتفت بالكشف عن مكان ستيرن .

في اليوم الثاني عشر من شهر شباط / فبراير وجد ستيرن مختبا في خزانة الملابس في شقة بنفس المدينة ، بعد ان كشفت عن وجوده فرشاة الحلاقة الرطبة . وعندما اندفع الى النافذة بينما كان يرتدي ملابسه ، اطلق النار عليه بمكانه وفورا من قبل رجلي شرطة بريطانيين ، ستانلي هانكوك وجفري مورتون . في التقرير اليوم التالي ادعى مورتون انه هو وهانكوك اطلاقا الرصاص «عمليا بنفس الوقت» وبرر تصرفهما من خلال الاستشهاد بعبارة كتبها ستيرن يصرح فيها «لن أبقى صامتا حتى أقع في المعركة» ، تلك الكلمة وجدت في المبنى فيما بعد . بقيت ملابسات القتل غامضة . فيما بعد بفترة قصيرة ترك هانكوك الشرطة ومورتون لم يتطرق أبدا الى تورط زميله مجددا . لكن كما وضعها لاحقا ، «لم اكن رجل شرطة رجل كرسي» .

تقدمت شرطة فلسطين بسرعة حتى تحيط بكل اثر للعصابة ، التي كانت بحالة فوضى بعد موت قائدها الذي كان يتمتع بكاريزما . بعد حصولهم من مصدر مجهول على معلومات اخرى ، في نهاية شهر نيسان اعتقلت الشرطة اثني عشر عضو . حتى تاريخ يوم التاسع عشر من شهر ايار اعتقد رئيس القوة ان فقط عضوين من العصابة «معروفان ولهما اهمية» ما زالا طليقين ، لكنه حث على انه يجب عدم الاحساس بالرضى عن النفس كثيرا .

عندما كان ستيرن على قيد الحياة كان تقريبا من دون أصدقاء ، لكن ظروف موته المثيرة للجدل والضجة التي سببتها قصة الستورما ، التي غرقت فيما بعد بأيام ، بدت وكانها تبرر غضب ستيرن في الاخر ، هذا ما اقترحه

رئيس الشرطة وما قاد بعض الصهيونيين الى «التساؤل اذا كانت «مثالية» ستيرن ، بعد كل هذا ، لا تستحق تفكيرا جادا» .

في تلك المرحلة ، اكتشفت الشرطة البريطانية انه لم يكن فقط الصهيونيون من يمنحون عصابة الستيرن تفكيرا جادا . احد الايام في ربيع سنة ١٩٤٢ ، وبسبب تدهور العلاقات بين البريطانيين والفرنسيين بعد عودة سبيرس الى بيروت ، رئيس شرطة فلسطين في دائرة مباحث الجنايات أرثر غايل ، دخل وهو يمشي بخطوات كبيرة الى مكتب باتريك كوهيل ضابط مقاومة التجسس البريطانية الرئيسي في المشرق . «يا الهي» ، صاح غايل . «هؤلاء الفرنسيون يغيظون جداً بشكل لا يطاق . هل تعلم على ماذا ينون الان؟ «كوهيل لا يعرف ، لذلك تابع غايل شارحا .

قال المحقق المحنك انه قبل ثلاثة ايام استلمت دائرة التحقيقات الجنائية معلومة من مصدر مجهول عن مغادرة سيارة تاكسي تنقل الى القدس للتو ثلاثة اعضاء من عصابة ستيرن متجهة الى الشمال . لحق بهم محققون من طرفه في سيارة في طبريا وتبعوا السيارة من هناك الى الحدود اللبنانية . هناك ، رأوا ثلاثة رجال يهود يتم الترحيب بهم في لبنان من قبل ضابط فرنسي . مباشرة التقط كوهيل ما كان يعنيه غايل . بدت وكان «الفرنسيين يساعدون ويستخدمون عصابة الستيرن – انه امر بثمة جدية لا يمكن الاستخفاف به . كان غايل يرغي ويزبد من الغضب بالفعل» .

لكن غايل لا يستطيع انهاء هذه الشراكة التي صدمته وهي ما زالت في مراحلها الاولى ، لان كوهيل بحاجة الى تغطية حادثة محرجة ومربكة بنفسه . لم يشارك غايل بغضبه ذاك ، كوهيل كان مسرورا في سره ، لان توقيت الاكتشاف جاء هدية من الله . العلاقات بينه وبين نظيره في السورتيه العام هي بطبيعة الحال بمأزق الان على وشك ان تصبح أسوا بكثير . كانت السورتيه قد القت القبض للتو على عميل من هيئة العمليات التنفيذية

الخاصة البريطانية لانه كان يتصرف خارج نطاق صلاحياته الى ابعد حد من خلال محاولته تحريض جندي فرنسي على بيع السلاح له بشكل غير شرعي . لم تؤدي الحادثة الى فقط تلخيص المزاعم الفرنسية المتعلقة بالتآمر البريطاني ، بل ما زال أسوا من ذلك ، نفس الفرد عمل منذ ايام مضت على اطلاق النار من دون تركيز على سيارة كاترو عندما مر من أمامه بينما كان تحت تأثير الإسراف في الشرب في دمشق . كوهيل كان يصلي ان لا يربط الفرنسيون الحادثتين ببعض . اذا فعلوا ، حتما سيتهمون البريطانيين بمحاولة اغتيال كاترو .

لانه وجد فرصة حتى يتجنب التكلم عن هذه العلاقة ، فتح كوهيل موضوع ادعاءات بنفس خطورة ادعاءات غايل مع رئيس خدمة الاستخبارات الفرنسية في المشرق ، كولونيل ايمبلانك . من الواضح انه كان مصدوما ، قال ايمبلانك انه لا يعرف شيئا عن الموضوع لكنه سيتحقق . «في اليوم التالي» ، تذكر كوهيل ، «وصل ايمبلانك مبتسما واعلن انه سيتم تسليم الرجل الانكليزي منفذ العمليات الخاص في الحال ولم يقل شيئا اخر» . شرح رئيس المخابرات الفرنسية ان الفرنسيين كانوا يجندون عملاء مثل الاحتياط من اليهود ، تماماً مثلما كان المنفذ العمليات الخاص البريطاني ، وهذا كان حال الرجال الثلاثة الذين عبروا الحدود .

وكان هما قد أزيح عن صدره لانه «تم تجنب الشجار الأعظم» ، ترك كوهيل حتى يقنع دائرة مباحث الجنايات ان اعضاء عصابة الستيرن الثلاثة الذين خرجوا من سيارة الأجرة في طبريا ، وعلى نحو مطابق ، هم اليهود الثلاثة المجندون من قبل الفرنسيين قاموا حينها بإيقاف نفس التاكسي وذهبوا به الى الحدود . هذا التفسير الغير معقول زادت ركاكته من خلال حقيقة انه في ذلك الوقت ، اعتقل احد اعضاء العصابة والذي كان ما زال حرا طليقا في سورية .

بعد سنوات اكد عضو سابق في عصابة الستيرن ان إدارة الفيتشي في بيروت «زودتنا بكل سرور بالأسلحة من كل الانواع ، وهم يعرفون انهم سوف يهاجمون عدوهم البريطاني» . ما أثبتته تلك الفترة ان حركة المرور هذه لم تتوقف بعد غزو سنة ١٩٤١ : تم تعزيزها من قبل موظفي الفيشي السابقين الذين ابقاهم ديغول في مراكزهم . بالفعل ، انه كان قام الكولونيل ايمبلانك الذي انضم الى الفرنسيين الاحرار ، بتقديم استقالته فيما بعد بفترة قصيرة كنوع من الاحتجاج على نشاطات بلانشيت المستشار العسكري في المفوضية العامة والذي كان يمقت كل شيء يتعلق بالانكليز ، إذن انه كان ايمبلانك الذي اول من أدرك التأثيرالمؤذي لكادر موظفي الفيتشي السابقين والذين يقومون بإدارة الحكومة الفرنسية في المشرق . مع نهاية سنة ١٩٤٢حتى بدا يعتقد الممثل المحلي لخدمة الامن البريطانية (التي اسمها المختصر MI5) انه كانت «الأقلية الصغيرة من الفيشيين المصممين على موقفهم والمحتالين» في الادارة الفرنسية ، وليس الألمان ، هم الان «الخطر الرئيسي» على بريطانيا في المشرق .

استقال كل من بوغنر وبالين عندما تم استبدال هيلو في نهاية سنة ١٩٤٣ ، ولهذا السبب لماذا عصابة الستيرن كان عليها ان تبحث عن الدعم الفرنسي مجددا مع بداية سنة ١٩٤٤ . لأن الشرطة البريطانية كتمت أنفاسهم سنة ١٩٤٤ ، تطلعات العصابة تطورت بشكل دراماتيكي عندما في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ ، تماماً عندما كانت فرنسا متورطة بالأزمة اللبنانية ، عشرون من أعضائها حفروا طريقهم خارج مخيم سجن في اللطرون ، خمسين ميلا غرب القدس . ولكن عندما استأنفت عملياتها الإرهابية في شهر كانون الثاني / يناير التالي ، كانت ما زالت تعاني من نفس المشكلة الاساسية .

كما تذكر احد أعضائها الرئيسيين اسحاق شامير «كنا بحاجة ماسة الى موارد مالية ، لنبني القواعد ، نشتري أسلحة ، لندفع لاذاعاتنا والكراسات ،

لنبقى على قيد الحياة» . السطو يبدو مجددا الخيار الوحيد ،لكن كما اعترف شامير «مهما كان اقتحام الاماكن والكبسات أساسيا لنا ، سبب ذلك بشكل ملحوظ غضبا وعدم التعاطف معنا» . قررت عصابة الستيرن ، ان الجواب اللجوء الى مساعدة الفرنسيين . تأملت ان الفرنسيين الذين تعرضوا للإذلال على يد البريطانيين في لبنان ان يشكلوا معهم قضية مشتركة ضد عدوهما المشترك .

لهذا السبب ارسل دو شايلارد اول مقال يقوم بتشريح الأزمة اللبنانية والذي كان وقتذاك في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٤ ضمن العدد الاول من منشوراتهم باللغة الفرنسية «فرونت دو كومبات هيبرو» . هذا يصف نفسه على انه موجها الى «الفرنسيين وشعب الثقافة الفرنسية ، في البلدان التي تجاور اسرائيل» ، وتصور «انكلترا ، كل الوقت ترفع علم الديمقراطية» ، على انها عدوتنا الرئيسية» . هذا كان رأي من القلب يتفق عليه العديد من الفرنسيين في المشرق . سيلاحظون أيضاً ان الاستغاثة تم كتابتها من قبل ناطق باللغة الفرنسية التي هي لغته الام .

كانت العصابة سريعة في رسم خطوط الموضوع الرئيسية والتي تجمع شبها بينها وبين المقاومة الفرنسية . في العدد التالي من «فرونت دو كومبات هيبرو» وصف المقال صهيونيا يخرج من المكيز(و هي حركة فرنسية سرية كانت تحارب القوات الألمانية الغازية في الحرب العالمية الثانية) ـ المكيز هو اسم الارض الجافة التي تغطيها الشجيرات الصغيرة والتي منها اتخذت المقاومة في جنوب فرنسا اسمها ، أيضاً استشهد المقال بجماعة المقاومة الفرنسية الشيوعية ، الموالية للفرانك تيغوغز (هم الجيش الغير نظامي الذي شكلته فرنسا ليحارب في مرحلة مبكرة من الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ واستخدم هذا الاسم من قبل المتشددين لاحزابهم لتسمية حركتي مقاومة فرنسيتين ضد الالمان فترة الحرب العالمية الثانية وهذا التعبير

يستخدم بشكل عام ليدل على كل محاربي العصابات الذين يتمردون على القانون فترة الحرب) في تعليق على الصعوبات التي سيواجهها البريطانيون في التعامل مع حملة عصابة الستيرن في فلسطين «بقوة ساحقة ، لان الفرانك تيغوغز اطلقوا طلقتهم واختفوا» . فيما بعد تم توزيع منشور عصابة الستيرن في فرنسا والذي جعل المقارنة اكثر وضوحا . «نهجنا بسيط . هو العمل في السر في بلد محتل : حرب سرية ، حيث جنود مراوغون غير مرئيين يضعفون النظام الإمبريالي الضخم» .

هذه الجهود للحصول على المساعدة الفرنسية اصبحت علنا في شهر حزيران من تلك السنة ، في محاكمة لعضوين شابين من عصابة الستيرن اللذين تم اعتقالهما في تل أبيب . جذبت المحاكمة شعبية كبيرة لانها كانت المرة الاولى التي تكون فيها المتهمة امرأة ، لكن كانت الوثيقة التي وجدت مع شريكها في الجريمة هي ذات الاهمية البارزة . مكتوبة باللغة الفرنسية ، تشرح اهداف عصابة الستيرن وتطلب المساعدة من «السلطات الاجنبية التي مصالحها مطابقة لمصالحهم» . حاول رئيس المحكمة من دون جدوى إقناع المتهمين بالاعتراف الى من كان هذا النداء موجها ، بالرغم من ان لغة هذا الخطاب جعلتها واضحة بشكل صارخ .

لمحت المتهمة بيوم اخر من المحاكمة أيضاً ان الفرنسيين كانوا يدعمون عصابة الستيرن . البالغ من العمر اربعة وعشرين سنة رافائيل بيرنبوم كان اول شخص يعتقل بعد اعادة تطبيق قانون سنة ١٩٣٨ والذي ينفذ حكم الاعدام على كل من يلقى القبض عليه وبحوذته سلاح ناري . رفض بيرنبوم توكيل محام ودافع عن نفسه بلغة فصيحة علق انه ليس لديه شك انه اذا كان لبنانيا لا يهوديا ، فان البريطانيين سيسلحونه ليحارب النظام الفرنسي في المشرق» . اذا كانت فلسطين بحد ذاتها واقعة تحت الانتداب الفرنسي او اي بلد اخرى «لمح بانه» أنا مقتنع أنكم ، البريطانيين ، ستسلحونني . «عقوبة الموت المحكوم بها على بيرنبوم تم تخفيفها الى مؤبد .

في شهر تموز / يوليو كتب القلق دو شيلارد مرة ثانية الى ماسيغلي ، ليحذره ان المنشور الصادر باللغة العبرية فيه ان عصابة الستيرن تعترف بانهم يستلمون مساعدة أجنبية . سمع أيضاً «أصداء إشاعات» ان الإرهابيين اليهود في فلسطين يتم أمدادهم من قبل الفرنسيين ، ولام بروبغندا عصابة الستيرن باللغة الفرنسية على اثارتها تلك التقارير . العصابة بحد ذاتها كانت غارقة من انهماكها بملذة هذه الشراكة مع الفرنسيين . بتلك الفترة اتفقوا على نغمة تصفير حتى ينادوا بها بعضهم اثناء قيامهم بعملياتهم . تلك النغمة كانت المارسيلييز .

ولأن ثقتهم كبرت بازدياد ، حاولت الستيرن في ذلك الوقت بانقلابها الاكثر وقاحة حتى تلك اللحظة . في اليوم الثامن من شهر أب اغسطس حاولت اغتيال المندوب السامي في فلسطين الذي انتهت مدة خدمته السير هارولد ماكمايكل في طريقه الى حفل توديع من قبل بعض العرب على الساحل . الدعوة كانت الكل يعرف بها . بان ماكماهون راغبا في قبولها ما سبب انتقادات من قبل الصحف اليهودية اليمينية قبل موعدها بيوم واحد ، وكان امام العصابة الوقت حتى تخطط لمباغتة .

نصبوا فخهم في منطقة عندما يبدأ الطريق من القدس بالانعطاف بشكل ملتو هابطا من الهضاب على السهل الساحلي . على منعطف عريض اطلقوا النار على سائقي الدراجة النارية المرافقين للمندوب ، الذين كانوا يسيرون في الامام ، وسيارة الشرطة كانت تحمي الخلف . بنفس الوقت تم إشعال الحريق من خلال خيط من الزيت المسكوب على الطريق ، مما أدى الى إيقاف سيارة الروز رايز القديمة التي كان فيها ماكمايكل حتى تقف في مكانها في مرحلة على ما يبدو لم يكن هنالك من مكان للاختباء : جهة اليمين الهاوية ، جهة اليسار سفح الجبل . انه كان سائق ماكمايكل هو الذي انقذ حياتهم . دك السيارة الى الجانب الأيسر من الطريق حيث كانت محمية بشكل افضل من الطلقات القادمة من الاعلى من خلال بروز خفيف في

المنحدر ، ومن الصعب دفعها الى الهاوية جهة اليمين . وكما تذكر فيما بعد صديق ماكمايكل «لقد نجوا بأعجوبة» .

ربما لان ماكمايكل قد نجا او لانه كان سيغادر في وقت قريب ، كانت ردة فعل البريطانيين بحالة سبات على الاعتداء الذي تعرض له ممثلهم الرئيسي في فلسطين .

فرضت الشرطة عقوبات جماعية بقيمة خمسمائة جنيه على اقرب مستوطنة ،لكن بعد ثلاثة اشهر بقيت من دون ان تنفذ الحكم بدفع المخالفة . بالرغم من ان الاعتداء كان من الواضح ان دافعه سياسي ، ما من قرارات تم فرضها على المجتمع اليهودي ، بالرغم من ان تنديد الوكالة اليهودية لهذه المباغتة كان رخوا .

من القاهرة ، من تم تعيينه بعد كاسي وزير دولة اللورد موين ، ناقش ان كلا الاخفاقين من دون تعقل . قائلا «من الصعب ان يفشل الرأي في تلك البلاد بالمقارنة بين دافع عصابة الستيرن والعمليات التي يقومون بها ضد العرب بعد اغتيال السيد أندروس سنة ١٩٣٧ .

بعد ايام ، فشل في تحريض لندن ، ارسل برقية اخرى . ليؤكد مخاوفه هذه المرة اقتبس من خطاب ألقاه للتو ديفيد بن غوريون رئيس الهيئة التنفيذية في الوكالة اليهودية ويشير الى : «يجب ان نهاجر الى فلسطين حتى نشكل الأغلبية هناك . اذا استدعت الحاجة – سنحصل على ذلك بالقوة ؛ اذا كانت البلد صغيرة جداً ـ سنوسع حدودنا» .

بيان بن غوريون كان مصدر قلق لموين ، «في الواقع تحريض على العنف» . قليل ما يعرفه انه قريبا هو من سيكون اكثر ضحية مطلوبة من قبلهم .

الفصل الـ ٢٣

حماس كثير

«رجل صغير البنية الى حد ما ، يرتدي ربطة عنق كالفراشه وقميص ارتكس (قميص غير رسمي نسيجه القطني له حياكة خشنة قليلا ، في الحقيقة هو قميص عادي)» ، والذي كان «له اهتمام في اغلب الاشياء ، الأزهار البرية والحيوانات التي تعيش في البراري ، الادارة الاستعمارية ، نيو جينا(جزيرة ذات طبيعة خلابة قرب استرالية) اليخوت» ، انه اللورد موين الذي لم يبدو عليه انه يشكل التهديد الأخطر للأطماع الصهيونية والفرنسية في الشرق الاوسط . لكنه لانه المؤيد البريطاني الرئيسي «لسورية الكبرى» ، لهذا السبب كان ينظر اليه على انه كذلك . تكون هذا الرأي مع بداية شهر آب / أغسطس سنة ١٩٤٤ . مثل سبيرس ، يدين وزير الدولة الجديد في القاهرة بوظيفته الى حقيقة انه كان صديقا قديما لتشرشل ، لكن على عكس سبيرس ، الذي فقد مصداقيته بسرعة حتى ذلك الحين . موين كان عضوا في مجلس الوزراء وأحسن استخدام نفوذه الحقيقي . بالتحديد ، احترم زملاؤه دعمه الحماسي للدولة العربية المصممة لحماية المصالح البريطانية في الشرق الاوسط وتنفيس التوترات الناجمة عن موضوع الصهيونية في فلسطين .

بالرغم من انه رجل متواضع ، الا ان موين قد جسد ثقة الامبراطورية البريطانية بمكانتها العلياء . ولد ضمن عائلة تعمل في تخمير مشروب الغينيس فترة ۱۸۸۰ ، وفي حياته المهنية اتبع الطريق المعروف . بعد مدرسة أيتون انتسب الى الجيش البريطاني ، وبعد خدمة نشيطة في جنوب افريقيا دخل البرلمان . ولعه كان صيد الوحوش الكبيرة والمغامرات . قال بتعجب المؤلف الذي كتب عنه بعد وفاته لاحقا» ، على نحو متكرر ، كان يسافر فقط بصحبة السكان المحليين اهل البلد . «عندما استقال من البرلمان بعد خسارة المحافظين في انتخابات سنة ۱۹۲۹ ، عاد الى الاستكشاف ، واحضر معه تنينين من نوع الكومودو الى حديقة الحيوانات في لندن (حيوان تنين الكومودو من فصيلة الزواحف يشبه السحلية لكن بحجم كبير ، يعيش في اندونيسيا) .

يعود تاريخ الصداقة التي تجمع موين بتشرشل الى فترة العشرينيات عندما خدم منصب وزير خزينة الدولة بينما كان تشرشل وزير المالية . مع شهيتهما المشتركة بينهما في حب المغامرة ما أدى الى حدوث انسجام بينهما ، وتزلف تشرشل «لصديقه الاكثر تميزا وذكاء وملائمة «ليعود الى الحكومة سنة ١٩٤١ ليصبح وزير دولة في شؤون المستعمرات ـ الوظيفة التي جعلته مسؤولا عن فلسطين .

ولان اللورد موين كان وزير المستعمرات في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٤١ قام بتوزيع مذكرة عن «السياسة اليهودية «تساءل فيها عن فيما اذا كان الدعم البريطاني لسورية الكبرى قد يخفف التوترات التي من المؤكد سيتسبب بها تجديد هجرة اليهود الى فلسطين . حيث كتب «أنا متعاطف مع معاناة اليهود وأنا متأكد انه يجب ان نفكر بشكل جاد بحل لمشاكلهم» . مضيفا» لكن كلما فكرت اكثر بالموضوع كلما اقتنعت ان فلسطين وحدها لا يمكنها ان تقدم الحل» . خيار واحد لتخفيف الضغط الذي سيتسبب به

تدفق اليهود هو اقامة الوحدة العربية التي أشار اليها أيدن في خطابه في شهر ايار من تلك السنة . بالرغم من ان موين لم يعتقد ان هذا هو الجواب الكامل ، الا انه رآه فكرة «جذابة» .

بعد ثلاثة اشهر ، فشل اللورد موين في إظهار اي تعاطف مع معاناة اللاجئين اليهود الذين كانوا موجودين في سفينة الستورما ، لكنه أصر على ان السماح لهم بالتقدم من اسطنبول الى فلسطين هو» مخالفة صريحة لسياسة الحكومة» . عندما تم نقله من وزارة المستعمرات فيما بعد بفترة قصيرة ، ألقى خطابا في البرلمان وهو منذ ذلك الوقت وهو ينتقد بانه معاد للسامية بسبب تعليقاته عن «نقاء عرق» اليهود . مع ذلك ، فشل هذا التعليق في إيصال فكرته الملفتة للنظر الى اقصى درجة ـ ان احتمالية مستقبل الصهيونيين «محدودة جداً» وان الحكومة البريطانية يجب ان تتحقق فيما اذا الحكومات المجاورة حكومات لبنان وسورية وترانس الأردن ستكون راغبة في عرض اللجوء على المهاجرين اليهود . «سيكون على الصعيد المادي ممكنا لتلك الدول ، اذا كانوا راغبين ، على امتصاص أعداد كبيرة من اليهود مقابل مصالح متبادلة فيما بينهم ، ومن دون اي تهديد لاستقلالهم السياسي» ، هذا ما ناقشه مجادلا . بهذا الاحترام ، اقترح ان فيدرالية تتألف من الدول العربية في الشمال قد تساعد بثمة حل» .

بهذه الطريقة جعل موين دعمه «لسورية الكبرى» علنا ، في خطاب بدا بالكامل راديكاليا بقدر ما بدا انه غير عملي . مع ذلك ، لم يكن بعيدا عن الواقع بالكامل . بالرغم من ان فكرته ان الدول العربية المحيطة بفلسطين قد تقبل بالهجرة اليهودية كانت بالتأكيد أمنية مستحيلة ، رئيس الجامعة العبرية في القدس وأكاديميون آخرون اخبروا الحكومة البريطانية في نفس تلك السنة انهم كانوا يدعمون فكرة كيان يهودي مستقل بذاته ضمن حدود فيدرالية عربية .

فيما بعد بفترة قصيرة ، عندما تم تعيين موين وكيلا لكاسي في القاهرة ، كان قادرا على إعطاء الفيدرالية العربية تفكيرا اكثر ، ليس فقط لان ليس لديه سوى القليل ليقوم به . «البديل الوحيد للكتاب الابيض وبعد ما فكر مليا في بداية سنة ١٩٤٣ ، «يبدو بانه صفقة مع الدول العربية وليس لدينا مغريات نعرضها سوى ان نربط استقرار فلسطين مع جلاء الفرنسيين من سورية» . في شهر ايار ذاك ، قرر مجلس الحرب في الشرق الاوسط والذي كان يترأسه موين ، ان الوجود الفرنسي في المنطقة لم يعد بعد الان من المصالح البريطانية .

في تلك المرحلة ، لم يكن الدعم البريطاني«لسورية الكبرى» سياسة رسمية . لكن في شهر تموز / يوليو ذاك تم دعوة موين لينضم الى لجنة سرية في مجلس الوزراء أقامها تشرشل ليعيد التفكير بنهج الحكومة في فلسطين عندما سقط الكتاب الابيض سنة ١٩٣٩ في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٤ . عندما كتبت اللجنة تقريرا بعد خمسة اشهر رجحت انه ، ما ان تنهزم المانيا ، يجب ان تقسم فلسطين بين العرب واليهود ، على طول الخطوط التي اقترحها بييل قبل سبع سنوات . لتنفيس «حرقة القلب وخيبة الظن» التي سيحرضها ثمة افتراق بطريقة يصعب تفاديها ، اقترحت اللجنة أيضاً ان الحكومة البريطانية يجب ان تدعم اقامة سورية الكبرى التي تتألف من «سورية ، ترانس الأردن والمتبقي من فلسطين وحصة من جنوب لبنان وشرق صيدا» ـ دليل على تأثير موين في التقرير . هذا سيضع بريطانيا في موقف اصطدام مع فرنسا ،لكن كتب حينذاك عضو اخر في اللجنة الى موين ، «فقط اخراج النفوذ الفرنسي سيحقق استقرارا مرض في الشرق الاوسط» .

عندما ناقش مجلس الوزراء في النهاية الخطة في شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩٤٤ ، قال موين ان بدء العمل على اقامة سورية الكبرى في الحال امر بالغ الأهمية . سجلت دقائق الاجتماع مناقشته : «سيكون من سوء الحظ

جداً اذا ، بسبب التأخير ، قبلنا بتفويت فرصة تحويل المناطق العربية في فلسطين الى سورية الكبرى ، وانتظرنا حتى نواجه طلبا بهذا الشان» . بالرغم من ان مجلس الوزراء قد صادق بشكل رسمي على الخطة ، وصادق على «إجراءات اخرى ضرورية تحضيرية» متطلبة لإنجاز المشروع ، الخوف من حدوث صخب في الشرق الاوسط اذا تسربت تفاصيله ستجعل القيام باي شيء اخر مستحيلا في الوقت الحالي . قدمت وزارة المستعمرات ترتيبات لازمة لهذا الغرض تسمح بهجرة بعض اليهود ووسط آمال ان الحرب قد تنتهي خلال سنة ، تركت السياسة البريطانية حتى تسير حسب التيار .

عندما نجح موين ، مهمة كاسي كوزير دولة بداية سنة ١٩٤٤ بناء على ذلك كانت معقدة . ترجم «إجراءات اخرى ضرورية تحضيرية «لتشمل العمل على مشروعه الخاص به ،لكن الحاجة للمحافظة على السرية الصارمة ربطت يديه . أدرك بسرعة أيضاً ان العديد من زملائه في الشرق الاوسط لهم شكوكهم المتعلقة بهذا المشروع . سجل سفير القاهرة وسفير بغداد تحفظاتهما بعد تشجيع أيدن الذي هو نفسه كان شاكا بمشروع سورية الكبرى ، وفي فلسطين اظهر هارولد ماكمايكل قلقه من ان السوريين لن يقبلوا بعبد الله ملكا عليهم .

تقبل موين مخاوفه ، وبشهر نيسان / أبريل ذاك اتفق مع ماكمايكل انه بينما عليهما متابعة دعم مشروع سورية الكبرى ، عليهما ان لا يشجعا ذلك بشكل فعال حتى يصبح موقع فرنسا في الشرق الاوسط في المستقبل اكثر وضوحا . للوقاية من احتمالية ان الفرنسيين قد يستغلوا فرصة سورية الكبرى حتى يوسعوا نفوذهم «متجهين الى نصف الطريق نحو قناة السويس» ، قرروا أيضاً تقسيم المخطط الى قسمين . الخطوة الاولى ستكون وحدة المناطق العربية الفلسطينية مع ترانس الأردن تحت قيادة عبد الله . المرحلة الثانية ستكون وحدة على نطاق أوسع تتألف من تلك المناطق مع سورية ولبنان . بسبب خوف كلا الرجلين من احتمالية انتشار النفوذ الفرنسي ، طرد منافستهم

التاريخية كان الخطوة الثانية الضرورية التي لم يفصحا عنها . هذه التصور يبدو انه لم يقلق اللورد موين . على حسب ما قيل ، انه كان مستعدا «لرمي الفرنسيين الى الذئاب - او الى العرب - حتى يحقق استقرار فلسطين في المنطقة» .

فيما بعد بفترة قصيرة بدا البريطانيون في المشرق بالعمل على تقييم وتشجيع دعم العرب للمرحلتين من مشروع سورية الكبرى ، بالرغم من حقيقة عدم وجود دعم عميق من لندن لهذه السياسة . احد هؤلاء المشتركين في هذا العمل و . ف . ستيرلينغ الرجل الذي تم جلبه الى دمشق مع ت . ا . لورانس قبل فقط ربع قرن . تم استدعاءه ليخدم في سورية كضابط سياسي سنة ١٩٤١ ، تم تعيين ستيرلينغ في دمشق في بداية شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٤ ليكون قائد الصحراء ومناطق الحدود وضابط اتصالات بين الجيش البريطاني والرئيس السوري شكري القوتلي . علاقته المقربة من الشيوخ الرئيسيين وصلته بلورانس أزعجت الفرنسيين ، الذين كانوا قلقين عندما التقى على الفور برئيس الوزراء السوري على العشاء ولقبته احد الصحف المحلية : «زعيم قبائل سورية وترانس الاردن» .

يظهر الأرشيف الفرنسي الذي تم الكشف عنه حديثاً ان عملاء فرنسيين كانوا يتبعون ستيرلينغ أينما ذهب . ولدت مراقبتهم ملفا ضخما عن الكولونيل البريطاني ،وأكدت ان شكوكهم بمحلها ، لان ستيرلينغ كان مهتما بوضوح في شؤون أبعد بكثير من صلاحياته الغامضة . في سلسلة لقاءات مع السوريين اصحاب المقامات الرفيعة سال أسئلة رئيسية مثل ما رأيك بالوحدة العربية؟ ما رأيك بالحكومة الحالية؟ كيف ترى مستقبل سورية؟ لاحظ الفرنسيون عادة ان من كان يطرح عليهم الأسئلة يطلبون مساعدة البريطانيين .

سأل ستيرلينغ شيخا آخراً - زعيم ديني مهم - سؤالا يلمح به ان البريطانيين أيضاً مهتمون في مفاوضة معاهدة بشكل مباشر مع السوريين التي ستحفظ

لهم نفوذهم في البلد . سأل ستيرلينغ : «اذا لجانا الى سعادتكم من اجل مشاركة استشارية او فعلية» ، متابعا» هل تستطيع بريطانيا العظمى الاعتماد على نفوذكم الشخصي لخدمة بلدكم بينما أيضاً ترعى المصالح البريطانية العامة؟ .

اجاب الشيخ : «اذا اعترفت بريطانيا العظمى بنزاهة بحقوق هذا البلد الشرعية وباستقلالها . . . اعتقد ان كل الناس الشرفاء سيمدون يد الطاعة لها» .

ملفات الحكومة البريطانية السرية ، والتي تم ايضا الكشف عنها منذ عهد قريب فقط ، تفسر الان لماذا سال ستيرلينغ هذا السؤال . قبل ايام من وصول ستيرلينغ الى دمشق ، استلم سبيرس رسالة من وزير الخارجية السوري جميل مردم يعرض عليه «اتفاقا رسميا» بين سورية وبريطانيا لتجنب عودة السيطرة الفرنسية على المشرق .

الدليل لماذا كتب جميل مردم الرسالة موجود في وصفه في الرسالة للرئيس شكري القوتلي بانه «انسان مستعمرات» . تماماً كما تمنى الفرنسيون ، انقسمت الحكومة الوطنية الجديدة في سورية بشكل حاد حول مسالة كيف يجعلون الوحدة العربية واقعا . القوتلي الموالي للسعوديين والذي يكره بشدة الهاشميين كان حجر عثرة محتملة لخطط بريطانيا بضم عرب فلسطين الى ترانس الأردن ، وفي النهاية الى سورية ولبنان . مردم ، من ناحية اخرى ، يفضل الهاشمي عبد الله ليكون ملكا على العراق وسورية وترانس الأردن الموحدين ، وكان قد وقع مسبقا على بيان مع رئيس الوزراء العراقي في شهر نيسان يتعهد به الرجلان «بالجهاد في سبيل تشكيل دولة هاشمية عربية تضم سورية» . لهذا السبب أراد مردم مساعدة البريطانيين ، ولهذا السبب كان سبيرس الفائر بازدياد مستعدا ليساعده . «هدفي بسيط» ، هذا ما قاله سبيرس الى صحافي في تلك الفترة . «اريد مطاردة الفرنسيين حتى يخرجوا

من المشرق . فرنسا منحطة أخلاقيا بالكامل .سيكون من الغباء الاعتقاد انها ستكون سياسة جيدة بعد الحرب ان نعاشرها» .

في اليوم الخامس من شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٤ (قبل يوم واحد من اليوم الذي غزا فيه الحلفاء اوروبا في اليوم السادس من شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٤في الحرب العالمية الثانية) التقى سبيرس في السر مع مردم ورئيس الوزراء السوري سعد الله الجابري . اخبر كلا الرجلين انه في حال اتفق الرجلان على توقيع معاهدة مع بريطانيا وحدها ، ستدعم الحكومة البريطانية اي صيغة للفيدرالية العربية التي يريدونها . مقابل فوائد تجارية للشركات البريطانية أيضاً وعد سورية بالحصول على العضوية في» كتلة تجمع كل الدول التي تتعامل بالاسترليني» حتى تقاوم ارتفاع الأسعار الناتج عن ازدياد التضخم المالي ، الشيء الذي كان مشكلة متفاقمة . وأخيرا قال انه من خلال مناقشات اخرى يستطيعون اكتشاف مسائل اخرى ، من بينها ما هي الحقوق التي يجب على الشركات الاجنبية الاخرى ان تحصل عليها ومسالة اعادة تسليح الجيش السوري . كتب مردم مرة اخرى من نفس اليوم مكررا رغبته الشديدة للتوصل الى اتفاق . على نحو متوقع ، كان ينتظر وقتها الجواب .

حتى اليوم التاسع من شهر تموز / يوليو عرف الفرنسيون بأمر هذا الاجتماع السري . فيما بعد بفترة قصيرة ومن خلال عميل لهم حصلوا على نسخ من الرسالتين التي ارسلهما مردم الى الوزير البريطاني ، وملخصا عما وعد به سبيرس مردم . ولان سبيرس كان بنفس الوقت يحث الفرنسيين على تقديم أسلحة للدرك السوري ، توحي المعلومات التي تقدمها هذه الوثائق ان غاية كلا المسارين من النشاطات إعطاء السوريين كل من الغاية والوسيلة لطرد الفرنسيين بانفسهم . المفوض العام الجديد في المشرق بول باينيت الذي حل مكان المدمن على الكحول جان هيلو والذي خدم في المشرق فترة ثورة

الدروز ضابط مخابرات ، حذر اللجنة الفرنسية من اجل التحرير الوطني انه ، اذا حاول السوريون القيام بذلك ، ليس لديه جند كفاية ليحاربهم . وعندما حاول تجنب طلب سبيرس ، نجح سبيرس بإقناع الجيش البريطاني بالعرض على السوريين ترسانة أسلحة فيها سبعة آلاف بندقية - سبع أضعاف ما طلبوه - وبضع مئات من الأسلحة الأوتوماتيكية .

توحي معلومات اخرى حصل عليها الفرنسيون تعززت من خلال الإحساس العام ان الحرب في اوروبا قد دخلت في طورها النهائي ، باقتراب اللحظة النهائية . وزير الخارجية السوري جميل مردم أشار علنا ان مشروع الوحدة العربية «على وشك ان يصبح حقيقة» ، ومن خلال جاسوس في المفوضية الديبلوماسية البريطانية في بيروت عرف الفرنسيون ان البريطانيين يمارسون ضغطا كبيرا على السوريين واللبنانيين حتى يتوحدوا . في اليوم الخامس من شهر آب / أغسطس ، جيلبرت ماكيريث الذي انضم الان الى مهمة سبيرس ، ارسل رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح الى دمشق مع عرض ردا على رسالة مردم في شهر حزيران . تتعهد الرسالة بان تحمي بريطانيا سورية من العدوان الخارجي ، ووعدت «ان توقف الأطماع اليهودية بشكل كامل «و أشارت الى الدعم البريطاني لتوحيد سورية ، ترانس الأردن وفلسطين تحت حكم عبد الله . بعد اربعة ايام نشرت الصحيفة الموالية للصهيونية «بالاستاين بوست» قصة تدعي ان ممثلين لعدة دول عربية سيلتقون قريبا في الاسكندرية لمناقشة عرضا كان بشكل سحري مماثلا لهذا الوعد . بالرغم من ان الحكومة السورية أنكرت هذا التقرير المنشور في الصحيفة ، تناسب المقال مع المعلومات السرية الفرنسية ومع الاخبار التي جاءت بعد عدة ايام ان رئيس الوزراء العراقي نوري سعيد قد التقى بنظيره السوري واللبناني وقوميين آخرين في نهاية شهر تموز . حث احدهم على التحرك بأسرع وقت ممكن ، بينما الجيش البريطاني موجود في سورية و«مع دعم انكلترا لهذا

المشروع» . بعد ان ارسل باينيت المفوض العام الجديد الى ماسيغلي هذه المعلومات المتفرقة معلقا عليها انها مع بعض توحي ان الوحدة العربية فكرة «ذات منشأ بريطاني» .

في لندن لم يكن لدى وزير الخارجية اي فكرة عما يجري ، بالرغم من انه يستطيع رؤية ان الاحداث في سورية «تثير مشاكل حقيقة» لماسيغلي . «ليس لدي شك» ، حسب ما اخبر سفير بريطانيا الجديد لدى اللجنة الفرنسية دوف كوبر «انه (ماسيغلي) مقتنع بصدق ، مهما كان ذلك مغلوطا ، ان سلطاتنا المحلية في الخارج لتدمر ما بقي من المكانة الفرنسية في سورية ولا تفوت الفرصة أبدا للقيام بذلك» .

بالرغم من ان أيدن لم يكن يعرف بعد بالضبط لماذا ماسيغلي كان متأكد جداً ، كان عارفا ان الفرنسيين لديهم مسبقا دليلا مشوشا ومحرجا عن نشاطات سبيرس . في شهر شباط من تلك السنة ارسل سبيرس الى دوف كوبر رسالة مفعمة بالحياة ادعى فيها ان المستشار الجديد في المفوضية العامة في بيروت ستانيسلاس اوسترووروغ كان مدمن على الأفيون ، وان بوغنر والعديد من الرجال الاخرين كانوا قبل الحرب كاغولارد (جماعة اتخذت لها هذا الاسم من المعاطف التي لها قبعات لان هذا كان النوع من المعاطف التي يرتدونها ، وكانوا جماعة متطرفة للغاية عصابة يمينية يغتالون الشيوعيين في فرنسا قبل الحرب العالمية) . وبدلا عن ان يفتح السفير تلك الرسالة ، على أية حال ، وجدت تلك الرسالة طريقها الى السفير الفرنسي رينيه ماسيغلي الذي قراها . عندما اكتشف كوبر مضمون الرسالة انتحب قائلا» ما من وثائق قليلة الحظ ممكن انها وصلت الى ايادي الفرنسيين» .

لم يكن بإمكان سبيرس الاكتراث اقل من ذلك القدر ، لانه منذ مدة طويلة امتنع عن إزعاج نفسه حتى يخفي ازدرائه من الفرنسيين . اثناء الحرب العالمية الاولى ، الغرض من عمله في الاتصالات مع الفرنسيين مبني على اساس ان

حلف متين مع الفرنسيين كان وقتذاك الطريقة الوحيدة لهزم الألمان ، لكن تجربته الحديثة العهد جعلته يتساءل عن هذا السبب منذ البداية . بعد شهر واحد من غزو الحلفاء اوروبا ، ما ان أسس الحلفاء بنجاح قاعدة عسكرية لهم في النورماندي ، اخبر صديقا له ان تجربة السنوات الاربعة الماضية أثبتت له «انه يمكننا ان نحارب ونربح الحرب مع فرنسا عدائية ، او على الاقل فرنسا في احتلال عدواني» . منذ لم يعد هنالك حاجة كنتيجة لذلك «لشراء صداقة الفرنسيين باي ثمن» ، الان جادل انه ما من داعي الى إرضاء ديغول ، ليس فقط لانه لا يعتقد ان الرجل الفرنسي سيكون «من الممكن الاعتماد عليه كفاية ، اذا ترك ليكون مسؤولا عن المشرق ليمنحنا الأمن المطلق الذي نحتاج له لحماية القناة» .

أيدن كان مستميتا حتى يتخلص من هذه التبعية الديبلوماسية ، لكن حتى الان استمر تشرشل في حماية صديقه . عندما حذره أيدن ان «احد تقارير سبيرس اللاذعة الاكثر قسوة» تم اعتراض طريقها من قبل الفرنسيين ، اجاب رئيس الوزراء بعد عشرة ايام ان المصادر التي وظفها سبيرس لخدمة مخططه كانت «قيمة جداً» . مضيفا» أتطلع بالفعل الى اليوم الذي سنحصل فيه على ممثلين لفرنسا النظيفة ، رجال فرنسيين صادقين محترمين نستطيع العمل معهم ، بدلا عن الديغوليين المهجرين» .

جاءت فرصة أيدن عندما اعلن سبيرس ان بريطانيا ستسلح الدرك السوري ، الشيء الذي قام به من دون استشارة لندن . منع ايدن تحويل الاسلحة واعترف الى ماسيغلي عالمكشوف انه طلب من تشرشل مرتين استدعاء سبيرس ، وعرض على الرجل الفرنسي حلا وسط بان يرسل فقط ألفي بندقية من اصل السبعة آلاف التي وعد بهم المبعوث البريطاني السوريين بالأصل . بعد ايام اقنع تشرشل انه حان الوقت لاستدعاء سبيرس الى لندن حتى يتم تأنيبه .

ماسيغلي كان يعرف بالضغط المتفاقم في لندن من اجل ترحيل سبيرس ،

والجهود الكبيرة التي تم بذلها في المشرق لتحقيق وحدة عربية ، قرر ان اللحظة قد جاءت ليكشف لايدن معرفته عن نشاطات الوزير البريطاني السرية . عندما وصل الى لندن من اجل اجراء محادثات عن المشرق في اليوم الواحد والعشرين من شهر آب / أغسطس ، قبل ايام من تحرير باريس ، قدم مذكرة اتهم فيها البريطانيين باستغلال ضعف فرنسا ليوسعوا نفوذهم في المنطقة . رفض مناقشة الأجندة اكثر من هذا حتى يقوم أيدن بكلا الشيئين التكلم عن تلك المخاوف المتعلقة بتدخل الموظفين البريطانيين والاعتراف (أيضاً مرة اخرى) ان فرنسا يجب ان تتمتع بمكانة مرموقة في المشرق عندما تنتهي الحرب .

كان ايدن غير عارف بالفخ الذي حفره له ماسيغلي ، عندما انكر اتهامات نظيره الفرنسي . لم تكن» جزءا من سياسة حكومة جلالته» ، اخبره ايدن» إزاحة النفوذ الفرنسي في دول المشرق لنأخذ مكانه» ، بالرغم من انه عدل ذلك من خلال القول ان الحكومة لم «تنوي» انه يجب استخدام الموظفين البريطانيين ضد المصالح الفرنسية . الان ، اعلن عن عدم سعادته من جواب أيدن ، لوح ماسيغلي برسائل مردم ونسخة طبق الاصل عما اخبره سبيرس الى وزير الخارجية السوري ، ووضع تلك الاوراق امام أيدن إثباتا على ان «سبيرس ، بينما كان يعارض توقيع معاهدة بين فرنسا والدول العربية كان يجري مفاوضات عقد معاهدة بين الدول وانكلترا» . أيدن كان محتارا بشكل واضح ، انكر ان لتصرفات سبيرس دعم رسمي . لتفادي ملابسات عدم الثقة ، اخبر مجددا ماسيغلي انه يدعم جهود فرنسا لضمان معاهدة مع دولتي المشرق . ارسل مباشرة برقية الى مهمة سبيرس في بيروت أمرا إياها عدم تلبية مطالب جميل مردم .

حذر أيدن تشرشل في اليوم التالي»سبيرس قام بكتابة تسوية خطيا» ، مضيفا» لا نستطيع ان نتوقع منه ان يثقل وزنا على الفرنسيين لفترة أطول

من ذلك . وافق تشرشل في النهاية . حذر رئيس الوزراء سبيرس في وقت مبكر من تلك السنة انه ، بينما هو معجب» بجدارة وتيقذ» عمل أصدقائه القدامى ، «ما من داع للحماس الشديد» ، الان لام سبيرس بسبب فشله الأخذ بنصيحته «بان يحاول إبقاء كرهه لكل ما هو متعلق بالفرنسيين ضمن المعقول» . ملاحظا انه «لم يكن هنالك من شك ان الفرنسيين قد تم إزعاجهم كثيرا» ، في النهاية ارسل الى سبيرس إشعارا ليترك العمل . «مدة بحدود شهرين او ثلاثة لالتزامك في الخارج هناك» .

هذا ما حصل . عاد سيرس الى بيروت في شهر أيلول / سبتمبر ، لكنه لم يعد يتمتع بعد الان بالسلطة التي كانت لديه في السابق . مع باريس حرة ، فرنسا وديغول كلاهما انبعثت فيهما الحياة من جديد ، وسبيرس الان لديه تعليمات محددة جداً من أيدن ليساعد الفرنسيين في عقد معاهدات مع لبنان وسورية . ايضا ، بينما كان في لندن تم تخفيض مهمته بشكل دراماتيكي من قبل من كان تحت قيادته ماكيريث .

سبيرس وبخ ماكيريث بشكل لاذع ، لكن ماكيريث لم يتأثر . حتى ذلك الوقت ، كان ينظر الى سبيرس من قبل العديد من زملائه على انه كان عرقلة ، حتى كان ينظر له على هذا الأساس من خلال هؤلاء الذين كانوا يتفقون معه بالرأي . باتجاه اواخر شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، استلم في النهاية طلبا من تشرشل حتى يقدم استقالته التي قدمها في اليوم اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر .

في تلك الأثناء حاولت وزارة الخارجية توضيح غموض اجتماع سبيرس مع مردم ذاك الصيف» . لا استطيع التوقف عن التفكير من انه لا بد من وجود نار وراء هذا الدخان ، «هذا ما كتبه موظف ديبلوماسي بريطاني عندما كانت تتساءل الادارة الشرقية عن افضل طريقة حتى تتابع المسالة . باختصار ، فكروا في بإخفاء مصدر الوثائق ومواجهة سبيرس بالادعاءات تلك . لكن

حينها قلقوا ان سبيرس قد يدعي انه تم استدعاءه على اساس اتهامات فرنسية باطلة . قررت وزارة الخارجية انه من الافضل ترك الامر ليرتاح . بالرغم من خطورة ان يبدو الامر حيلة لما فيه من سرية اذا لم يجيبوا على ادعاءات ماسيغلي مباشرة ، كما وضعها عضو اخر في الادارة» ، اعتقد ان الفرنسيين سيتقبلون نفسيا انه اذا محادثات حزيران / يونيو تلك كانت في وقت ما برعاية حكومة جلالته ،لن تمثل سياستنا بعد الان» .

مع نهاية سنة ١٩٤٤ ، عاد سبيرس الى بريطانيا . حيث اتضح انه حان وقت رحيله .

الفصل الـ ٢٤

اغتيال اللورد موين

عندما كانت سيارة اللورد موين تتمايل وهي تقوم بعبور بوابة بيته في القاهرة فترة الغداء في اليوم السادس من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، الشابان اللذان كانا يتوقعان عودة الوزير البريطاني بسرعة رفعا السور في الخارج وأسرعا في تجاوز المعبر خلف السور . توقفت السيارة أمامهما ، وكان الضابط معاون اللورد موين والسائق قد خرجا من قبل : اتجه المعاون الى باب المنزل الأمامي ، والسائق كان يلف من وراء سيارته ليفتح الباب لوزير الدولة .

«لا تتحرك . أبقى مكانك . لا تتحرك» ، هذا ما قاله آلياهو هاكيم احد الشابين للضابط المعاون ، ملوحا اليه ببندقيته الطويلة نوع الريفولفر . وقتل شريك هاكيم اسمه آلياهو بيث تسوري ، السائق عندما سدد الهدف عليه من قرب مناسب . ثم دفع هاكيم البارودة بقوة من نافذة باب السيارة المفتوحة وصوبها على موين ، اطلق النار ثلاث مرات . حسب سكرتير موين الذي كان جالسا الى جانبه في السيارة» ، وضع اللورد موين يده على حلقه وقال «اه ، اطلقوا النار علينا» . «اخر كلمات الوزير كانت «متى سيصل الطبيب؟» بالرغم

من نقل الدم ، مات الساعة الثامنة من ذلك المساء .

حتى ذلك الوقت كان كل من هاكيم وبيث تسوري في قبضة الشرطة . لانهما عندما هربا من موقع الجريمة ركض معاون موين الى الشارع خلفهما ولوح لرجل شرطة مصري على دراجة نارية . طاردهما رجل الشرطة المصري ، وزجهما بعيدا عن الطريق عندما حاولا الهروب . لم يقم هاكيم بأية محاولة لانكار انه قتل وزير الدولة . اخبر الشرطة «تم إرسالي من قبل المنظمة بقصد قتل اللورد موين» ، هذه المنظمة هي عصابة الستيرن .

تقريبا بعد ثلاثة أسابيع ، دوف كوبر السفير البريطاني في حكومة ديغول ، الذي كان قد عاد الى باريس بعد تحرير الحلفاء المدينة ، استلم برقية ذات أولوية عالية من لندن تعطيه تعليمات بان يطلب من الفرنسيين عدم ارسال سفينة حربية للمشرق . حيرته الرسالة . «هم قلقون» ، كتب دوف كوبر «لان الباخرة التي اسمها اميلي بيرتان تزور بيروت ، الشيء الذي يعتقدون قد يسبب تعقيدات في وقت عندما الوضع في الشرق متأزم نتيجة مقتل اللورد موين» . عندما أجاب باستياء انه «لا يرى علاقة بين مقتل وزير إنكليزي في القاهرة من قبل إرهابيين يهود وزيارة سفينة فرنسية لسورية» ، بسرعة استلم ردا من أيدن يخبره ، بطريقة غير مباشرة فيها مراوغة ، ان يفعل ما امر به . لانه يوجد هنالك صلة ، وضحت ملفات حكومية تم الكشف عنها حديثا ان هذه الصلة توصلت لها خدمة المخابرات السرية البريطانية التي تسمى MI6 .

قبل ثمانية أسابيع ، الايام بعد تحرير باريس ، أصدرت محطة MI6 في المشرق اول التقارير الثلاثة عن ضابط مخابرات فرنسي اسمه كولونيل اليساندري . كضابط شاب خدم اليساندري في سورية اثناء ثورة الدروز . باكرا في الحرب ، كان الملحق العسكري في السفارة الفرنسية الفيتشي في طهران . الان وقد تبادل الأدوار اصبح مسؤولا عن قسم في خدمة المخابرات التابعة للفرنسيين الاحرار المعروفة باسم المكتب الاسود . كانت وظيفة

المكتب الاسود التصدي للنفوذ البريطاني في الشرق الاوسط ، في البداية اعتقد MI6 ان اليساندري واتباعه الذين رتبهم أدنى منه ، كانوا فقط يحاولون تأليب الغضب العربي في فلسطين للانتقام من التدخل البريطاني في الأزمة اللبنانية في شهر تشرين الثاني / نوفمبر الماضي .

لم يكن اليساندري غريبا عن البريطانيين . لانه كما كان يدعى انه قد انشق لينضم الى الفرنسيين الاحرار فقط لانه أراد «ان يتمتع بميزة وجود بعض النساء الفرنسيات في سورية» ، سنة ١٩٤٣ اصطدم مع ضابط سياسي بريطاني في دير الزور حول اي منهما يجب ان يسيطر على البلدة التي هي اهم بلدة في شرق سورية . مثل ديغول ، جادل اليساندري حقيقة ان الجند الفرنسيين اكثر عددا من الجند البريطانيين في المنطقة يعني انه هو من يجب ان يكون في موقع المسؤولية ،لكن نظيره البريطاني لم يتفق معه في الرأي .

حسب البريطانيين ، كان اليساندري «رجل مستقبله محدود» الذي ليس فقط «لم يعير انتباهه الى تعقيدات الحرب على امتداد العالم «لكن علنا نذر حماية مصالح فرنسا «قدما بقدم وبحياته» . بدا اليساندري بانه كان يتعمد اضعاف السلطة البريطانية في منطقة الصحراء الحساسة ما دفع البريطانيين في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٣ الى طلب استبعاده من المفوض العام الفرنسي في تلك الفترة هيلو .

اعترف هيلو ان اليساندري كان» دائماً معاد لكل شيء بريطاني بطريقة عنيفة» . لكن بالرغم من انه كان مستعدا لسحب الكولونيل الذي يمقت كل ما يتعلق بالانكليز من البلدة ، لا يستطيع نفيه من المشرق بسبب الضغط الذي سيمارس عليه من قبل كامل الكادر القوي من المستشارين وراءه ، الذين حولوا معاملة زميلهم الى قضية مبدا . لذلك بقي اليساندري في المشرق ، وأمضى فترة من الزمن قائد فرقة جنود الجبل في لبنان . هناك ، على عكس من كان يحميه في المفوضية العامة ، تمكن من تجنب نفيه عندما طرد هيلو

من وظيفته سنة ١٩٤٣ . تظهر سجلات الجيش الفرنسي سنة ١٩٤٤ انه كان رئيساً واحدا من اصل اثنين في خدمة المخابرات في المشرق . لاحظ البريطانيون في فترة سابقة من شهر آب / أغسطس سنة ١٩٤٣ : «بالتأكيد كان يأتي تحت عنوان «الرجل الفرنسي الغير مرغوب به» .

ما لم تستطع MI6 القول مباشرة فيما اذا كان اليساندري يتمتع بدعم رسمي على عمله ضمن المكتب الاسود . هنا ، وكيل سبيرس جيلبرت ماكيريث كان قادرا على المساعدة . لم يكن غريبا عن العمل السري هو بحد ذاته من ايام عمله في دمشق قبل الحرب ، كتب الى وزارة الخارجية قائلا انه يستطيع توضيح هذه الالتباس . اخبر لندن» من قلة اكتراث احد معارفنا الفرنسيين يجب ان نقول ان المفوضية تعلم وتوافق عليها (نشاطات اليساندري) ، «اقترح ان «إشارة مهمة يجب ان تعطى . . . اننا لا نكترث الى رائحة هذا العمل» .

اتفق زملاء ماكيريث في وزارة الخارجية معه في الرأي ، لكنهم لم يجرؤا على تسجيل شكوى تتعلق بالفرنسيين مباشرة . بالكاد مر اسبوع منذ مواجهة ماسيغلي لايدن بمراسلات سبيرس السرية مع الحكومة السورية . يعرف البريطانيون ان الفرنسيين سيتجاهلون اي احتجاج قاموا به ضد اليساندري حتى يقولوا انهم غيروا ممثلهم المتمرد في بيروت . ما ان عرف الفرنسيون ان سبيرس سيترك ، اصبحت الأجواء أصفى . في الوقت الحالي ، طلبت وزارة الخارجية من MI6 اذا بإمكانها «جمع أية معلومات سرية حتى ذلك الحين» .

عندما سبرت MI6 اكثر ، اكتشفت ان نشاطات اليساندري لم تقتصر على تشجيع العرب على إثارة المشاكل . عرفت عن طريق ضابط فرنسي ان المكتب الاسود كان يدعم الإرهابيين اليهود أيضاً . لم يكن اليساندري فقط يبيع الاسلحة الى منظمة الدفاع اليهودية الهاغانا ، لكن ابتداء من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٤ ـ الشهر الذي اغتيل فيه موين ـ بدأ بتمويل

عصابة الستيرن ، الشيء الذي كان أمرا هاما لان احد المعتدين على موين ، بيث تسوري ، اعترف في ذلك الوقت ان» مشكلة المنظمة الرئيسية الحالية هي المال» . شارك ضباط MI6 شكوك شرطة فلسطين الموجودة منذ سنتين ان اعضاء من عصابة الستيرن والارغان استخدموا لبنان وسورية كقاعدة آمنة لعملياتهم ، «ان لم تقم تلك العمليات بتستر من الفرنسيين على الاقل تمت بموافقة فرنسية ضمنية» .

اعتقدت MI6 ان دافع اليساندري «دعم أية حركة تعارض مشروع سورية الكبرى التي اذا تم تمهيد الطريق لها ، ما سيؤدي الى اضعاف النفوذ الفرنسي» . ما شجع اليساندري بالتأكيد هو تلك المعلومات التي كان يستلمها زملاؤه من جاسوسهم داخل المفوضية الديبلوماسية البريطانية . بالاضافة الى معلومات اخرى ما أقنعهم ان سبيرس ، بالرغم من الأوامر التي كان يتلقاها للقيام بعكس ذلك ، بقي يبذل قصارى جهده لمنع الرئيس القوتلي من توقيع معاهدة مع الفرنسيين وتحقيق مشروع سورية الكبرى . في المؤتمر العربي في الاسكندرية ، الذي افتتح في اليوم الخامس عشر من شهر أيلول / سبتمبر ، كان من الواضح ان البريطانيين كانوا يحاولون تنسيق اتفاق بين الأطراف لدرجة ان سوريا احد اعضاء الوفد كتب تقريرا : «هذا الكونغرس بريطاني وليس عربيا» . التقى اللورد موين بجميل مردم ورئيس الوزراء العراقي نوري سعيد عدة مرات وجدد العربيان بشكل سري قسمهما لتوحيد بلادهما تحت الملكية الهاشمية و«تحرير سورية من عبودية الاستعمار» . بنفس الوقت ، بدأت في دمشق حملة قوية روجت لعبد الله ليصبح رئيساً لثمة دولة .

بعد اعادة النظر بتلك الاحداث اواخر شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٤٤ وصف زميل اليساندري رئيس المخابرات العسكرية الفرنسية ، تغير الايقاع في السياسة البريطانية بشكل مقلق . اعتقد ان البريطانيين يقدمون انفسهم «على انهم القوة الوحيدة القادرة على ضمان الاستقلال السوري . . . ضد

عودة الفرنسيين ، وضد التهديد التركي والروسي» وممارسة الضغط على العرب حتى يتوحدوا . للوقوف في وجه هذا المخطط تم اغتيال موين الذي اول من ايد «سورية الكبرى» على يد عصابة الستيرن في اليوم السادس من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . وما هو مثير للفضول ، اليساندري كان في القاهرة وقت الاغتيال .

ما من شك ان اللورد موين بالاصل لم يتمتع بشعبية بين اليهود بسبب دوره في كارثة الستروما . لكن دليلا من ذلك الوقت يوحي ان دعمه لسورية الكبرى هو الذي قضى عليه . فقط قبل اكثر من اسبوع على موته ، بدات كتيبات تتوزع تتهمه بترخيصه «توزيع الاسلحة بين العرب «حتى يتمكنوا من مهاجمة اليهود . هذا كان إشارة الى قرار من قبل البريطانيين لتسليح الدرك السوري قبل أسابيع . معرفتهم هذا الشيء ، ودعم موين لمشروع سورية الكبرى ، على الأغلب انه جاء من الفرنسيين الذين كانوا حتى ذلك الحين يشركون الصهيونيين بالمعلومات التي يتلقوها من جاسوسهم داخل المفوضية الديبلوماسية البريطانية .

حتى ان هناك احتمالية مثيرة للفضول ان تلك معلومات ربما جاءت من داخل مكتب موين ، لانه في شهر ايار من تلك السنة عرفت مصلحة الأمن البريطانية MI5 ان شبكة استخبارات تقوم بعملياتها في القاهرة من بين أعضائها عدة وطنين فرنسيين لديهم عميل في مقسم الهاتف في مكتب موين . نظريا ، الشبكة ودية ، لكن MI5 تساءلت فيما اذا «التوتر الحالي في العلاقات الإنكلو ـ فرنسية واحتمالية نزاعات سياسية اخرى بشكل عام في علاقاتنا مع ديغول» قد شجعت الاعضاء الفرنسيين في تلك الشبكة لتمرير معلومات لرفاق بلدهم . يعتقد بالتأكيد ان عددا من الاوراق البريطانية غاية في السرية والتي حصلت عليها الوكالة اليهودية جاءت من مكتب وزير الدولة .

من دون شك ، خطر على بال البريطانيين ان الفرنسيين قد يكون لهم

صلة باغتيال موين . هذا يفسر قرار وزارة الخارجية الغريب ان تطلب من السفير البريطاني في باريس ان يعترض على وصول الباخرة الفرنسية «اميلي بيرتان» الى بيروت بعد ايام من كشف الام أي ٦ عن صلة تربط اليساندري بعصابة ستيرن . وعندما التقى ديغول بتشرشل في باريس بعد خمسة ايام من الاغتيال كان على غير عادته يدافع عن النشاطات الفرنسية في المشرق . حيث اخبر رئيس الوزراء البريطاني «نحن لا نفعل شيئا ولن نفعل اي شيء ضدكم في العراق ، فلسطين او مصر» .

اغتيال موين صدم تشرشل الذي كان مثابرا على دعمه للصهيونية منذ زيارته التي أثرت به بسبب» جمال البساتين «اليهودية في فلسطين سنة ١٩٢١ . عندما عاد الى لندن بعد لقائه مع ديغول ، قام بإلقاء خطاب قال فيه ان اغتيال صديقه كان امتحانا لهذا الدعم . اخبر مجلس العموم «اذا كان حلمنا بالصهيونية سينتهي في دخان بنادق الاغتيالات وجهودنا من اجل مستقبلها سيولد مجموعة جديدة من المجرمين مثل المانيا النازية ، العديد مثلي أنا سيتوجب علينا اعادة النظر بالمكانة التي عززناها بتماسك ولمدة طويلة في الماضي» . مضيفا «اذا هنالك اي امل لمستقبل للصهيونية ناجح ومسالم هذه النشاطات الشريرة يجب ان تتوقف وهؤلاء المسؤولون عنها يجب ان يقتلعوا ، من الجذور حتى الفروع» .

بالرغم من ان اللهجة غاضبة ، لم يحتوي خطاب تشرشل على عقوبات لان خياراته كانت محدودة جداً . بينما العديد من الموظفين البريطانيين في الشرق الاوسط هم في الخارج للقتال ، يطالبون ببحث واسع النطاق عن الاسلحة ومنع لهجرة يهودية اكثر من ذلك ، درجة الاحتياجات العسكرية في مكان اخر والخوف من ردة فعل عكسية جعلت كلا الفكرتين متعذر العمل بموجبهما . قال قادة أركان الحرب في لندن ان عمليات بحث سوف «تستلزم تعهد عسكري الذي يمكن تحقيقه فقط على حساب العمليات ضد المانيا

بشكل مباشر» ، بينما شعر تشرشل ان تعليق الهجرة سيكون فقط «ببساطة لمصلحة المتطرفين» . أيضاً قلق من الانتقاد الصهيوني في أميركيا ، ففضل تحذير تشايم وايزمان في السر انه سيتم تعليق الهجرة اذا استمر الإرهاب .

وايزمان الذي قلق الان قام بممارسة الضغط على الوكالة اليهودية التي بسرعة جددت عرضها لدعم ملاحقة الإرهابيين في فلسطين . بدأت الوكالة بالتعاون مع الشرطة الفلسطينية في الصيف بعد ان بدأ الإداريون فيها بادراك ان سلطتها كانت تتراجع بسبب تزايد دعم الشباب اليهود لحملات الإرهاب . بسرعة جاءت الشرطة لتعتمد على ضابط الاتصالات الذي زودتهم به الوكالة والذي سيصبح في المستقبل محافظ القدس اسمه تيدي كوليك لانها لم تنجح على الاطلاق باختراق عصابة الستيرن والارغان التي استخدمت بنيانا خلويا من ثلاثة رجال وجندت لاجئين من اوروبا الشرقية حتى تقلل من خطر التسريب .

من ناحية الأرقام ، بدت نتائج المشاركة هذه ذات تأثير . في الوقت الذي اعتقدت فيه MI5 ان عصابة الستيرن تتالف من خمسمئة عضو ، في غضون الشهر الذي مات فيه موين زودت الوكالة اليهودية الشرطة بأسماء خمسمائة مشتبه بهم ليتم اعتقالهم . عندما أرسلت الام اي ٦ ضابطا كبيرا اسمه اليك كيلار ليقوم بتقييم تقدم تحقيقات الشرطة ، لم يكن مسرورا . اسماء بعض هؤلاء اتضح انهم أبرياء ، كما لاحظ بان ذلك يوحي ان الوكالة ببساطة «تستغل الفرصة حتى تنتقم وتسدد حساباتها من خلال إعطاء السلطات اسماء أشخاص مصدر إزعاج لهم اكثر مما هم مصدر إزعاج لنا» . سجلات الشرطة لم تكن كافية ، قسم المخابرات السياسية في دائرة مباحث الجنايات ليس لديه كادر كاف حتى يقوم بالوظائف الضرورية ، وبالكاد اي محقق بريطاني يفهم العبرية ؛ الرجل الاساسي الذي يتكلم اللغة العبرية اغتالته الارغان سنة ١٩٣٩ . في تلك الظروف ، لم يكن امام الشرطة من خيار سوى

مطاردة المشتبهين الذين زودتهم الوكالة بأسمائهم .

أرادت الام أي ٥ والشرطة تفاصيل اكثر عن منظمة عصابة الستيرن والارغان ، لكن الوكالة اليهودية لم تزويدهم بذلك . لم يقدم كوليك أية معلومات هامة اكثر من الاسماء ، بالرغم من انه وصف كيف قادت الهاغانا العديد من الاعتقالات بمبادرة منها ووصف أساليب استجوابها بانها «غير تقليدي» لكن نتائجها مثمرة» . تحفظ كوليك متعمد . اراد ان يستفيد من السلطة التي اكتسبها لنفسه الان ليمارسها على الشرطة ، وأراد ان يعتقد البريطانيون ان لا الوكالة اليهودية ولا الهاغانا لهما علاقة مع اي من عصابة الستيرن او الارغان . لكنه فشل بخداع إليك كيلر من الام أي ٥ الذي استنتج عندما عاد الى لندن ان الوكالة اليهودية «على نحو أكيد تماماً يلحقون مصالحهم اكثر من مصالحنا «و ان تعاونها سيستمر فقط طالما تعتقد ان بريطانيا ستعمل على اقامة الدولة اليهودية في النهاية .

لم يؤكد كوليك مضمون استنتاجات الام أي ٥ الا بعد وقت متاخر . قال «الفرنسيون» هم «على تواطؤ مع اليهود المتطرفين ، وان إرهابيين معروفين تناولوا الغداء مع الكولونيل اليساندري» . ادعى ان الوكالة رفضت التنازل عن تلك المعلومات المفيدة في السابق لانها خافت من ان يفتح البريطانيون الموضوع مع الفرنسيين مباشرة وبذلك تعرض مصادرها للخطر في بيروت .

ما ان تم تحديد موعد مغادرة سبيرس ، في نهاية شهر كانون الاول سنة ١٩٤٤ أخيرا حتى أتيحت الفرصة لوزارة الخارجية من اجل طلب ترحيل اليساندري . لكن حتى ذلك الحين الضابط الفرنسي الغامض كان بالأصل قد ترك لصالحه بعد ان أدرك الفرنسيون ان البريطانيين مهتمين بعمل المكتب الاسود . لدى الام أي ٦ معلومة اخرى اخيرة عن الكولونيل . في شهر آذار / مارس سنة ١٩٤٥ كتبوا تقريرا انه عائد الى باريس ليتابع نفس العمل من هناك .

مع اللورد موين ماتت السياسة التي كان مناصرا لها بحماس شديد . في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٥ الذي جاء مكانه وزير الدولة السير أدوارد غريغ جادل ان بريطانيا يجب ان تتنازل عن التقسيم كسياسة متبعة وعوضا عن ذلك ان تسعى الى انتداب معدل ليحكم فلسطين على اعتبارها «دولة مسالمة يعيش في كنفها عرقان» . رسم غريغ هذا النهج على اساس انه مناسب اكثر «لامبراطورية ظافرة وبمكانة أسمى بكثير مما كانت عليه قبل هذه الحرب» ، لكن في الحقيقة مكانة بريطانيا كانت تضعف كل الوقت . السبب الحقيقي لماذا بريطانيا لا تستطيع بعد الان دعم التقسيم ، او مشروع سورية الكبرى ، بسبب المعارضة الواضحة للصهيونيين من قبل العصبة العربية الجديدة . تشكلت في القاهرة يوم الثاني والعشرين من شهر آذار / مارس سنة ١٩٤٥ ، لم تنبثق العصبة بالطريقة التي كانت تتمناها الحكومة البريطانية . لم يكن اعضاء العصبة جريئين كفاية لقبول اقامة دولة يهودية ، كانوا غير موحدين بكل معنى الكلمة . السياسة الوحيدة التي يمكن ان يتفقوا عليها ، كما لاحظ السفير البريطاني في القاهرة «اخراج الفرنسيين من سورية و . . . منع سيطرة الصهيونية على فلسطين» . بخصوص هذا الموضوع أصدرت العصبة تهديدا واضحا : «تشكــل فلسطين جزءا هاما من العالم العربي وحقوق العرب (هناك) لا يمكن مسها من دون الضرر بالسلام والاستقرار في العالم العربي» .

بسبب اقتناع أيدن ان البريطانيين قد القوا بثقلهم وراء اقامة سورية الكبرى لإقناع العرب قبول الاستيطان اليهودي الدائم في فلسطين ، هذه الاستراتيجية فشلت في تحقيق الغاية المرجوة منها . عندما أعاد أيدن النظر بنهج الحكومة في فلسطين في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٥ ، لمح ان موين نفسه بدأ يتساءل عن حكمة هذه الاستراتيجية التي كان يؤيدها . «حذرني المرحوم اللورد موين . . . انه يجب علينا مواجهة الحقيقة الجديدة ان فكرة قادة الدول العربية الرئيسية هي التنسيق لتقديم واجهة موحدة في وجه اي شيء ينظرون

له على انه عدوان على أية دولة عربية» . ولان الوحدة العربية قد فشلت في ان تتطور بطريقة تخدم المصالح البريطانية ، جادل أيدن ان الترويج لسورية الكبرى «لم يعد سياستهم في الوقت الحالي» .

تم اعدام قتلة موين في نفس اليوم الذي تشكلت فيه العصبة العربية ، لكن ضعف بريطانيا قد انكشف بطريقة محبطة . ولان رئيس الوزراء كان مواجها باغتيال عضو في البرلمان في وضح النهار ، كان على وشك ان يهدد بإعادة النظر بدعمه للصهيونية . المحاولة التي ستاتي لاحقا من قبل السلطات البريطانية في فلسطين لتقبض على هؤلاء الذين كانوا وراء الاغتيال كشفت لهم انهم تقريبا بالكامل معتمدين على الوكالة اليهودية في الحصول على المعلومات . احد الموظفين البريطانيين والذي أمضى مدة طويلة في العمل ، تنبأ بالنتيجة التي سيتوصل لها الصهيونيون عندما رأوا تردد السياسة البريطانية : «كلما طال الوقت الذي لا تفعل فيه حكومة جلالته شيئا ، كلما كان اكثر صعوبة مقاومة نتيجة ان الإرهاب يفي بالغرض ، وانه اذا فقط استمر الضغط ، سرعان ما سنحصل على الدولة اليهودية ـ التي هي الهدف الرسمي لكل الحركة الصهيونية» .

الجزء الرابع

الخروج ١٩٤٥ - ١٩٤٩

الفصل ٢٥

حان وقت حسم المسالة

في اليوم الخامس من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٥ دعا شارل ديغول كل من وزير خارجيته جورج بيدو والمفوض العام في المشرق بول بينيه لحضور اجتماع يناقش فيه اخر متطلبات الحكومة السورية - الحاجة الى تحويل الجيش الخاص ، الميليشيا السورية القوية البالغ عددها عشرين الف والتي ما زالت بقيادة الفرنسيين . وصف ضابط بريطاني هذه الميليشيا بطريقة حط بها من شانها قائلا : «انها مجموعة من السمر عديمي الفائدة منمقون بملابس الجنود» ، هذه الميليشيا هامة بالنسبة للفرنسيين لان عدد قواتهم في المنطقة من دون الميليشيا فقط ثلاثة آلاف ومئتين جندي من المشاة من نوعية رديئة للعمل في المستعمرات - عاد افضل جندهم بالكامل ليشارك في تحرير فرنسا . الجيش الخاص كان «اخر مقومات السلطة التي نملك تحت تصرفنا الان» . هذا الشيء يعرفه السوريون أيضاً . كتب جميل مردم في رسالة وجدت طريقها الى الفرنسيين : «عندما نملك الجيش ستصبح فرنسا لا شيء في بلدنا» . ولهذا السبب كان ديغول مصمما جداً على عدم تسليمه هذه الجيوش .

منذ ان استقبل استقبالا يليق بالأبطال لدى عودته الى باريس المحررة من وقت قريب في شهر آب / أغسطس سنة ١٩٤٤ ، بذل ديغول قصارى جهده لإعادة تأسيس فرنسا كقوة عظمى ، تعامل بالمثل من قبل الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى .

بيدو رئيس إدارة المجلس الوطني للمقاومة هذا المجلس الذي يتسم بالتعصب ، وبيدو الذي كان استاذ تاريخ في السابق ، لم يتبع ديغول نصيحته بان يعلن الجمهورية من شرفة فندق دوفيل ، كما حصل بعد حقب تاريخية مضطربة مرت على البلد في الماضي . سال ديغول بيدو «لماذا يجب ان نعلن الجمهورية؟» فهي «لم تزول حتى توجد» .

«رأس ديغول بين الغيوم وقدماه في الزبالة» ، هذه العبارة مأخوذة من رسوم فنان كاريكاتير من باريس تصف عدم استعداد الجنرال للاعتراف بوضع بلده الكارثي . هذا الموقف تجاه الاحداث أيضاً اثر في تحليل ديغول لخياراته في المشرق» . نحن بعيدون جداً عن ان نكون قد خسرنا أوراقنا في اللعبة السورية» ، كان قد حث مسبقا بيدو الذي كان يشك بذلك ، وجادل في اجتماع اليوم الخامس من شهر نيسان / أبريل ان ما حصل في الأشهر الاخيرة قد اكد له ذلك . رحل سبيرس والحكومة البريطانية التي ضيق عليها الإرهاب اليهودي بتمويل ورعاية فرنسية في فلسطين ، الان «تنشد الهدوء» في المشرق . تشاجر السوريون مع اللبنانيين ، ومشروع سورية الكبرى يبدو انه تم التخلي عنه في الوقت الحالي .

في رأي ديغول ، الظروف بناء على ذلك كانت مؤاتية لفرنسا لترفض طلب السوريين بالكامل . في اجتماع شهر نيسان / أبريل ذاك ادعى ان السوريين فوتوا «فرصة العمر» ، ولان البريطانيين بحاجة الى علاقات حسنة مع الفرنسيين في اوروبا وحياة هادئة قدر الإمكان في فلسطين ، سيساعدون على قمع السوريين . قال : «يمكنك الاعتماد عليهم زيادة حرص» . هذا كان

سوء في التقدير أدى مباشرة الى ترحيل فرنسا من المشرق .

بالرغم من ان جورج بيدو قد اعترف علنا انه «لا يعرف شيئا وليس لديه خبرة «في السياسة الخارجية ، استطاع ان يتوقع النتيجة . بالرغم من دفع رئيسه الاستفزازي له حتى يشرب ، يستطيع الرؤية بوضوح ان الرفض القاطع لتسليم الجيش الخاص حتما سيسبب المشاكل . لتعزيز «أعراف فرنسا التي تعود الى الف سنة للوراء» في المشرق ، فضل تكتيكات اكثر دهاء . اقترح انه يجب على فرنسا العرض على السوريين تاخير موعد تحويل الجيش ، عوضا عن تسليمه مباشرة . التوقيت الذي اقترحه : ستة اشهر بعد نهاية الحرب وبعد شهر واحد من رحيل البريطانيين . هذا سوف يعطي السوريين الدافع لإجبار البريطانيين على الخروج ، وما ان يبتعد البريطانيون عن الطريق ، حينها تستطيع فرنسا ان تتراجع عن الاتفاق .

كذلك كان المفوض العام بينيه قلقا من خطة ديغول . قال ان هذه الخطة ستؤجج الأزمة وطلب من الجنرال ان يسمح بارسال التعزيزات لاحتواء الأزمة . أمضى السنة الاخيرة يقوم بما يستطيع عليه لاسترجاع النفوذ الفرنسي في المشرق ،لكنه لم يكن اطلاقا قادرا على إقناع السوريين انه يجب عليهم اجراء مفاوضات معاهدة معه . كان اقل حماسا وثقة بكثير من ديغول فيما يتعلق بهذا الوضع ، وتوقع ان يتمرد الجند على قادتهم اذا لم يحدد الفرنسيون المهلة الزمنية التي سيقومون فيها بتحويل الجند الخاص الى سيطرة السوريين . ولم يكن حتى متأكدا من الموقف الذي سيتخذه البريطانيون اذا رفض السوريون قبول عرض الحكومة الفرنسية وتمرد الجند الخاص .

كان البريطانيون يرسلون لعدة اشهر إشارات متناقضة عن رغبتهم في التساهل مع الوجود الفرنسي الذي ما زال موجودا في المشرق . في نهاية شهر كانون الثاني / يناير من تلك السنة ، تم إبلاغ وزير الخارجية دوف كوبر ان يترك الفرنسيين لا يشكون في ان «هناك حدود للتوسع الذي نحن مهيؤن له حتى

نعرض انفسنا لسوء الظن والعدوانية ، او اكثر من ذلك ، حتى نعرض مكانتنا للخطر في الشرق الاوسط بالنيابة عنهم» . لكن بعد شهر رينيه ماسيغلي ، الان السفير الفرنسي في لندن ، لفت الانتباه الى خطاب ألقاه تشرشل بدا فيه رئيس الوزراء انه يتراجع عن فكرة ان تكون بريطانيا كفيلة للاستقلال السوري واللبناني . قال تشرشل في الخطاب بانه ليس من اجل بريطانيا «وحدها ستدافع باستخدام القوة اما عن الاستقلال السوري او اللبناني او مكانة الفرنسيين . نسعى لكلا الشيئين ، ولا نعتقد انهما متعارضان . لذلك يجب ان لا يلقى الكثير على أكتاف بريطانيا العظمى» .

بطريقة غامضة حصل الفرنسيون على برقية بريطانية غاية في السرية عززت أملهم ان البريطانيين بالهم مشغول جداً والتزاماتهم اكبر من امكانياتهم حتى يتدخلوا في المشرق . في البرقية وضح القائد العام البريطاني في الشرق الاوسط السير برنارد باجيه انه بينما قالت وزارة الخارجية انها خططت «للتعامل بحزم» مع الفرنسيين في حالة وقوع أزمة ، «لا يثق كثيرا بتطبيق هذه النية» . الوضع المتدهور في فلسطين ، تابع شارحا ، يعني انه لا يملك الجند المتوفر ليسعف التهديد الديبلوماسي بالقوات . تم الطلب من الملحق العسكري الفرنسي في السفارة في لندن اذا كان بإمكانه التأكد من صحة هذه المعلومات بشكل سري . بالرغم من ان افضل مصدر لديه في مكتب الحرب كان في إجازة مرضية ، اخبر باريس ان قلق باجيه يبدو معقولا على ما هو ظاهر . في رأيه مكانة بريطانيا كانت : «لن نثير المسائل السورية بينما صداها في العالم العربي قد يعرض امننا للخطر في الشرق الاوسط والطريق الى الهند» .

من خلال هذا التقييم الخاطئ استنتج الفرنسيون على نحو خاطئ انه حتى لو قاد رفضهم لتسليم الجند الخاص الى مشاكل ، من المحتمل ان لا يتدخل البريطانيون . حتى كاترو الذي كان على أبواب ان يصبح السفير

الفرنسي في موسكو ، ساهم في هذا التقييم . عندما مر من بيروت في طريقه الى وظيفته الجديدة ، ناقش ان فرنسا يجب ان ترسل جندا للمشرق لتفرض مشيئتها . «ما من شك سيتبع ذلك تعقيدات دولية جادة لكن على الصعيد المحلي التأثير المفيد سيكون هاما» . في الماضي ، الف البريطانيون نكتة ان كاترو «استاذ خبير في تطوير الحيل لحفظ ماء الوجه» ، لكن منذ ان بقي صامتا حيال ما كان يحدث في لبنان شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٣ حتى هو الان يبدو ان لديه نزعة عدوانية للقتال .

بعد ان تم تحريض ديغول على رفض طلب الحكومة السورية لتسليم الجند الخاص ، وافق على طلب باينيت بان يرسل ثلاث كتائب اخر للتعامل مع المشاكل التي سيحرضها هذا الاعلان ، وقام بالترتيبات من اجل ارسال التعزيزات عن طريق البحر الى بيروت .

قبل ان تنطلق هذه الجيوش اخبر بيدو ، الذي ذهب الى سان فرانسيسكو ليمثل فرنسا في مؤتمر السلام الذي سينجب الامم المتحدة ، ان مغادرة تلك الكتائب قد سجلت «نهاية مرحلة اضمحلال فرنسا وسيادة بريطانيا» . حتى ترسخ هذه الرسالة ، نصح ديغول وزيره ان يبحر جنده في الباخرة «مونتكالم» وهي احد اكبر البوارج الحربية الفرنسية . أيضاً اخبر بيدو ان يتجاهل النكد البريطاني الذي لا يمكن تجنبه والذي حتما سيتسبب به ظهورهم في بيروت . وقال له» الان حان وقت حسم المسألة» .

عندما وصلت لندن أنباء عن ان ثمانمائة جندي سينغالي في طريقهم الى بيروت ، طلبت الحكومة البريطانية من ديغول ان يحول مونتكالم الى الإسكندرية فورا . لكن دوف كوبر الذي كان يحمل تلك الرسالة الى ديغول في اليوم الثلاثين من شهر نيسان ، شعر في اعماقه انه «من الصعب جداً علينا ان نجادل انه يتوجب على الفرنسيين عدم ارسال جند بينما نحن انفسنا نحتفظ بقوات اكبر بكثير هناك» . شعر ديغول بحياء السفير البريطاني

وشن حملة تعنيف ضد عدوهما المشترك سبيرس قائلا انه كان من الواضح ان الحكومة البريطانية ما زالت مشتركة بتصميم وزيرها السابق بان ترى فرنسا مطرودة من المشرق . قال انه يحتاج الى ارسال جند على وجه الخصوص ، لانه يريد ان يسلم الجند الخاص الى سورية .

بعد ان كتب كوبر تقريرا الى الوايتهول عن موقف ديغول المتصلب ، حاول تشرشل تهدئة الوضع . في اليوم الرابع من شهر ايار / مايو ارسل برقية الى ديغول ، مخبرا إياه ان الحكومة البريطانية كانت تستعد لسحب جندها لحظة انتهاء الحرب وعندما تتوصل فرنسا الى معاهدات مع كلا الحكومتين .

لكن ، اللهجة الودية في الرسالة تم الاستخفاف بها بطريقة قاضية من خلال المعلومات التي استلمها الفرنسيون والتي توحي ان بريطانيا لم تتنازل عن طموح سورية الكبرى ، وبسبب صدفة حصلت : بنفس الوقت ، حيث ارسل القائد البريطاني باجيه فرقة من جنده العرب الفلسطينيين الى لبنان للاستراحة والتدريب . غضب تشرشل عندما سمع بما فعله باجيه . واشتكى الى موظفيه : «لماذا يتم اتخاذ ثمة خطوات لها عواقب سياسية كبيرة في هذا الوقت من دون أخذ نصيحتي؟» ظهور جند اكثر في المشرق ، أعطى ديغول العذر حتى يتجاهله . اطلق القائد الفرنسي رسالة كالنار الى تشرشل ردا على رسالته في اليوم السادس ، مخبرا إياه انه كان يرسل باينيه الى هناك لإجراء مفاوضات المعاهدات التي كما اضاف ربما قد تم التوقيع عليها مسبقا ، تجعل حكومات دمشق وبيروت لا تشعران بانه «يمكنهما تجنب اي تعهد من خلال الاتكاء عليكم ضدنا . وجود جنودكم وموقف عملائكم ساعدهم لسوء الحظ في هذا التسييس السلبي» .

لذلك عندما رست مونتكالم في ميناء بيروت نفس اليوم وأنزلت جنودها السنغاليين ، لم يعلق البريطانيون فورا . سر لذلك الفرنسيون معتقدين ان الصمت البريطاني سيجعل السوريين واللبنانيين يشعرون انهم لوحدهم

وعلى استعداد اكثر للتنازل عن مطالبهم . مستفيدين من عدم الاحتجاج البريطاني واعلان استسلام المانيا في اليوم السابع من الشهر ، كامل فترة الليل ، غطى الفرنسيون بيروت بصور ديغول . في يوم يوم الانتصار نفسه نظموا شاحنات محملة بالجند ليطوفوا في المدينة يهتفون بشعارات يحيا ديغول! نحن أبناؤك!» و«هذا البلد بلدك يا ديغول» !

في اليوم التالي نظم القوميون العرب مظاهرات احتجاجية التي شارك فيها بعض جند باجيه العرب ، في موكب عرض من الجند رافعين صورة كبيرة للمفتي الذي فر الى المانيا اثناء الحرب وعرض خدماته على هتلر . عندما تم رمي حجارة على صورة المفتي ، تحولت المظاهرة الى عنف . أصاب المحتجون ديرا للرهبان مجاورا بالأضرار ، ومزقوا العلم الفرنسي الثلاثي الألوان الذي رفعه الفرنسيون في ارجاء المدينة . انتهز الفرنسيون الامر بسرعة ، وادعوا ان الجند العرب الذين كانوا يلوحون بعلم النازية المرسوم عليه الصليب المعكوف ، هم المسؤولون عن نمو التوتر في سورية ولبنان .

جادل ديغول انه يحتاج الى ارسال جند الى المشرق ليعوض عن الفراغ الذي سيخلفه تحويل الجند الخاص ، لكنه ارسل بينيه الى بيروت مع تعليمات واضحة ان لا يسلم اي من الميليشيا السورية حتى يحصل على تعهد من السوريين ان فرنسا ستحصل على القواعد العسكرية التي يريدها هو . وصل بينيه الى بيروت في اليوم الثاني عشر من شهر ايار / مايو ليجد ان لا الحكومة السورية ولا الحكومة اللبنانية ستتفاوض معه حتى يعيد التعزيزات . لم يفعل ذلك المفوض العام . وفي اليوم السابع عشر من شهر ايار / مايو بارجة اخرى ، اسمها جان دارك ، وصلت لتنزل خمسمئة جندي فرنسي اخر . برر بينيه وصولها من خلال الاشارة الى فرقة العسكر التي ارسلها البريطانيون الى المشرق .

مقتل ثلاثة جنود فرنسيين في عمليات شغب في حلب اليوم العشرين

من شهر أيار مايو أعطى باجيت العذر الذي يحتاج له حتى يتدخل . لان الفرنسيين قاموا بلوم حدوث القتل على فشل الدرك السوري في المحافظة على النظام ، لذلك عندما التقى القائد العام البريطاني باينيه بعد يومين تحدى المفوض العام الفرنسي من خلال عرضه تزويد الدرك بأسلحة ومواصلات زيادة يحتاجون اليها . طبعا رفض بينيه قبول العرض ، لكن من خلال القيام بذلك اكد شكوك باجيت ان أولوية فرنسا الحقيقية تحسين مكانتها في المشرق اكثر مما هي اعادة الأمن .

في اليوم السابع والعشرين من شهر ايار / مايو انفجر القتال في حمص وحماه ، المدينتين الرئيسيتين بين دمشق وحلب . في حماه تصاعد خلاف بين الفرنسيين والدرك السوري حول من سيسيطر على محطة سكة الحديد . بعد ان باغت السوريون فرقة عسكرية فرنسية احتياط خارج البلدة ، مستولين على سلاح المدفعية وسيارات مدرعة ، ثار الفرنسيون بقصف مدافع الهاون ، وقصفوا البلدة بالمدفعيات الرشاشة والقنابل . مات ثمانون شخصا .

«ستكون معجزة اذا لم تنهض دمشق أيضاً» ، هذا ما لاحظه وزير بريطاني في المشرق ، تيرينس شون ، الذي حل مكان سبيرس في نهاية سنة ١٩٤٤ . يعمل في السلك الديبلوماسي منذ مدة طويلة ، بدا شون الى حد ما حياديا لدى مقارنته بسبيرس ، لكنه كان تواقا مثل سلفه ليرى حربا . يرتدي ربطة عنق قديمة منذ ايام المدرسة ويأخذ مسدس زوجته لانه لا يستطيع ان يجد مسدسه- كتبت زوجته : «يبدو غير متاكد قليلا من طريقة استخدامه» ، -قاد شون سيارة مدرعة الى دمشق مزينة بعلم بريطانيا الوطني ليرى الرئيس القوتلي وليحاول إقناعه ان لا يصل الى مستو الاستفزاز الفرنسي . في تلك الاثناء مساعده ، غيري ينغ ، ذهب ليرى بينيه مرة اخرى . وجد المفوض العام الفرنسي «هادئ ومبتهج» ، ولكن بمزاج مولع بالقتال بشكل واضح . اعلن الفرنسي «دملة دمشق يجب ان نشرطها» . كأن مثالا واحدا ليس كافيا ،

أضاف «البرميل الان تخمر ويجب شرب النبيذ» .

لمح يونغ «قد يثبت بطريقة ما انه مر المذاق» .

بدا القصف الفرنسي على مدينة دمشق الساعة السابعة من مساء اليوم التاسع والعشرين ، بناء على أوامر من الجنرال فيرناند أوليفا روجيه ، ممثل بنيه في المدينة . و . ف . ستيرلينغ ضابط الاتصالات البريطاني مع الرئيس القوتلي كان في دمشق في ذلك الوقت . حسب كلامه ، استعمل بنفس الوقت المدافع التقليدية والمدافع الرشاشة السريعة في كل المدينة تبعها بعد ذلك بفترة قصيرة نيران مدافع ثقيلة ومدفع الهاون . خلال دقائق «عمت الفوضى» . عندما هبط الليل كان يراقب قاذفة قنابل فرنسية تطوق المدينة القديمة ، تسقط القنابل على قلاعها ومراكز قيادة الدرك .

بينما احتمى ستيرلينغ في منزله ، في قصر الحكومة على بعد صف من الابنية ، حاول وزير المالية السوري خالد العظم معرفة ما يجري . لكن خط الهاتف من مكتبه كان مقطوعا وبعد ان وصلته اخبار ان جنود سنغاليين فرنسيين يوجهون نيران مدفعيتهم على البرلمان ، ثم يستعملون السواطير لذبح الدرك المتبقي الذي كان يحرسه ، كان من الحكمة الرحيل . قام هو وزملاؤه بوضع سور حول القصر من مفروشات الوزارة ، وتمكنوا من الهرب الى بيته قرب الجامع الكبير في المدينة القديمة .

يبدو ان موقع الحكومة السورية قد بقي غير معروف من قبل الفرنسيين الى ان حاول جميل مردم استعمال هاتف بيت العظم . وقتها عرف الفرنسيون الذين كانوا يراقبون الخط الموقع ، ونقلوا خبر معرفتهم مكان مجلس الوزراء الى مدفعياتهم الموجودة في مرتفعات دمشق . هاجم الدروز بيت العظم فترة ثورتهم سنة ١٩٢٥ ؛ الان جاء دور الفرنسيين حتى يقصفوا هذا المكان الجميل الواقع في قلب المدينة القديمة والذي يعود الى القرن الثامن عشر . بدات تسقط القنابل على باحة القصر بعد مدة قصيرة ، ما اجبر العظم وزملاءه

على الاختباء في مكان آمن .

لم تكن كل خطوط الهاتف مقطوعة بعد . من القنصلية البريطانية التي تم أيضاً ضربها بنيران المدفعية الرشاشة ، تمكن شون من الوصول الى مساعده يونغ في بيروت ليخبره بما يجري . مرر يونغ الرسالة الى القاهرة وذاك المساء اخبر مركز باجيه القيادي لندن ان الفرنسيين» أثاروا الفوضى في دمشق وان هنالك اطلاق نار من دون تمييز وإلقاء قذائف في البلدة» ، مضيفا ان أوليفيا روجيه قد ظهر على انه «غير مسؤول بالكامل وان السلطات العسكرية الفرنسية اما لا تستطيع او لن تسيطر عليه» .

كما وضعها ستيرلينغ لاحقا ، «اعتقد اننا لن نعرف ما هي التعليمات التي أعطاها ديغول الى الجنرال أوليفا روجيه» . خدم أوليفا روجيه اغلب حياته المهنية في المشرق ، بالإصل في جبل الدروز؛ شخصية غريبة ولا تعرف الفكاهة ، يخبر أشخاصا بالكاد يعرفهم انه مصاب بعقدة أوديب . وصفه رئيس المخابرات البريطاني كوهيل بانه» من احد أسوا كولونيل فرنسي» . لكن حتى شهر ايارمايو سنة ١٩٤٥و بالرغم من انه ممثل باينيه الرئيسي في دمشق لم يخلق أوليفا روجيه هذا الأثر الكبير . تم تهميشه بالكامل من قبل السوريين وكان يعاني من الألم بشكل دائم ـ عرف البريطانيون من بياض عينه المصفر انه مصاب بمرض في الكبد . في نهاية هذا الشهر ، يبدو عليه انه أخيرا قد انهار .

أوليفا روجيه كان دائماً يشك بالبريطانيين . بعد غزو سورية سنة ١٩٤١ ، تناول الغداء مع موظف بريطانيا اسمه اليك كيركبرايد الذي كان له يد في دعم الدروز بشكل سري في السابق . سال كيركبرايد بشكل مباشر فيما اذا كان يرسل أية بنادق الى الدروز مؤخراً . كلا ، أجاب كيركبرايد ، «لكن لدينا بعض الخطوط المثيرة للاهتمام لنعرضها مؤخراً من اسلحة رشاشة خفيفة قادمة في الطريق» . عرف فيما بعد ان أوليفا روجيه قد كتب تقريرا عن

ملاحظته الى بيروت على انها دليل قاطع بانه كان مهرب سلاح .

عندما اطلع اوليفا روجيه على الملفات الفرنسية التي تم الكشف عنها حديثاً ، احتفظ بعدم ثقته العميق لرجل واحد بالتحديد . عندما وصل و . ف . ستيرلينغ الى دمشق ليقوم بدوره بالاتصال مع الرئيس القوتلي ، اشتكى أوليفا ـ روجيه فورا ان دور الضابط البريطاني الذي له خبرة طويلة في المجال العسكري هو حيلة على الحكومة الفرنسية . بعد ان ارسل ضباط مخابرات لمراقبة رجل الكلب ، كما كان يسميه (لان ستيرلينغ لقلما شوهد من دون كلبه الكبير الاسود) ، بسرعة استنتج ان الضابط البريطاني كان بشكل فعال خلفا للويس سبيرس . محذرا زملاءه ان لا ينخدعوا «بسيماء ستيرلينغ الطبيعية التي تبدو خيرة» قال ان الكولونيل المسن احد اخطر العملاء البريطانيين في سورية» ، وان لقب وظيفته ببساطة غطاء لمسؤوليته الحقيقية والتي كانت التوفيق بين الجهود البريطانية لتحقيق سورية الكبرى . ذكرت ملاحظات خطية فرنسية قصيرة عن ستيرلينغ من دون تغيير الى حقيقة اخرى : صداقة ستيرلينغ مع ت . ا . لورانس .

لان أوليفا روجيه مقتنع ان التوترات في دمشق صنع ستيرلينغ ، اعلن انه سيعلم السوريين «درسا جيدا» ـ وسمح لإطلاق النار بالاستمرار في كل يوم الثلاثين من شهر ايار / مايو . هؤلاء الذين تحملوا وطأة الهجوم وصفوا الحرب بانها شرسة بشكل لا مثيل له . روسي اختبا داخل فندق القصر الشرقي والذي كان في ستالينغراد ، قال فيما بعد لم أعيش تجربة مثل هذه» . عندما زار ستيرلينغ الفندق ، الذي كان ذات يوم أرقى فندق في المدينة ، لاحظ : «كل نافذة مهشمة ؛ كان هناك على الاقل ارتفاع انش من الزجاج المحطم على ارض الطابق الاول ؛ طاولات غرفة الطعام محفور عليها علامات الرصاص ؛ تقريبا كل الانابيب كانت تسرب الماء ، مثقبة بالرصاص ؛ وجدران غرف النوم من الجانب الخارجي من البناء كانت مكسوة بثقوب الرصاص» . امضى

نزلاء الفندق يومين متكورين في القبو ؛ قتل ضابط بريطاني عندما رمى جندي فرنسي قنبلة يدوية في البناء .

اتصل القوتلي المريض اليائس بشون ليراه في نفس اليوم ، وسأله الى متى ستترك بريطانيا ديغول «يصب جام غضبه علينا «في محاولة اخيرة لتشجيع البريطانيين القيام بشيء ما ، كتب عدد من المذكرات واعدا انه سيتابع مشروع الوحدة العربية وعرض على بريطانيا مكانة مرموقة في سورية المستقلة .

أملى شون رسالة على الهاتف الى بيروت ليتم تحويلها الى وزير الخارجية في لندن . «يحكم الفرنسيون حكم الإرهاب في دمشق . الى جانب القصف من دون تمييز ، يتصرف جنودهم السود والبيض مثل المجانين ، رشوا الشوارع بنيران الرشاش من السيارات والابنية» . من بين التقارير ، لم يعد عند الفرنسيين طعام وهم يعطون جندهم النبيذ فقط ، توسل شون الى حكومته حتى تترك باجيه يتدخل .

رفض تشرشل القيام بذلك لانه خشي من الطريقة التي سيرى بها التدخل البريطاني في الخارج ، وقال في اجتماع لمجلس الوزراء بنفس اليوم انه يريد دعما أميركيا اولا . مات حليفه القديم فرانكلين د . روزفلت قبل ثمانية أسابيع ، والرئيس الجديد نائب روزفلت هاري س . ترومان ، لم يجاوب فورا لمؤازرته . لذلك كان تشرشل مضطرا لإرسال رسالته الى ديغول بغض النظر عن اي شيء . التي وصلت الى امر مباشر ، اخبر القائد الفرنسي ، ان باجيه سيتدخل ، «لتجنب التصادم بين القوات البريطانية والفرنسية نطلب منك على الفور امر الجند الفرنسيين وقف اطلاق النار والانسحاب الى ثكناتهم» . حتى قبل ان تصل البرقية الى باريس ، اعلن أيدن رسالته امام البرلمان ، جاعلا إنذاره واضحا للعالم .

عندما استلم البريطانيون في دمشق اخبار طلب تشرشل الساعة السادسة من نفس المساء ، وجدوا أوليفا-روجيه وسلموه الامر من باجيه لإيقاف النار .

لكن رفض الجنرال الفرنسي قبول تفويض باجيه ولم يحصل حتى الصباح الباكر من اليوم التالي ، بعد ان سمع مباشرة من بيروت ، انه أخيرا اوقف قواته . احتفل اهالي دمشق وطافت الدبابات البريطانية والسيارات المدرعة ووصلت الى مركز المدينة في نفس بعد ظهر ذاك اليوم .

في اقل من ثلاثة ايام ، قتل حوالى ثمانمئة سوري والأضرار التي أصابت العاصمة كانت شاملة . البرلمان بحد ذاته كان قنبلة دخان . منطقة كبيرة من مركز المدينة تدمرت بفعل النار ، والشوارع محفرة بثقوب القذائف وغمرها الزجاج المحطم وشحف مواد البناء . تم العثور على عشرين رجل من الدرك السوري كانوا مفقودين في قبر ضخم في مطار فرنسي : تم تشويههم وبتر أعضائهم قبل قتلهم . تنبا الرئيس شكري القوتلي فيما بعد : «هذا الجيل من السوريين «بانه «لن يتحمل رؤية رجل فرنسي يمشي في شوارع دمشق» . اراد بينيه وأوليفا روجيه ان يحاكما محاكمة مجرمي حرب .

بالرغم من ان فرنسا كما في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، هي التي جنت على نفسها ، لم يجعل البريطانيون وضع فرنسا اكثر سهولة . فرض باجيه حظر التجول على كل المواطنين الفرنسيين ، ومنع السفن والطائرات الفرنسية من التحرك . لم يكن مسموحا للجنود الفرنسيين بإطلاق النار الا دفاعا عن النفس . بالرغم من ان منع التجول ربما كان لمصلحة الفرنسيين ـ اعتقد كوهيل : «اذا لم نكن هنا وتدخلنا عندما فعلنا ، عمليا كانت ستقطع عنق كل رجل فرنسي» ـ هذه الخطوات الجائرة كانت مهينة الى جانب الضرر الذي نحن سببناه لأنفسنا . وصف بينيه الإجراءات بانها «طعنة في الظهر» .

دعا بيدو دوف كوبر ليراه ، قائلا انه «مهما كانت الأخطاء التي اقترفتها فرنسا ، لا تستحق مثل هذه إهانة» . تعاطف معه كوبر . اعترف ان أوامر باجيه بدت على انها فرض شروط على عدو مغلوب نرغب باذلاله ، اكثر مما هي معاملة لحليفة نحاول مساعدتها» . عندما سئل أوليفا روجيه الذي ارسل الى

بلده الى باريس بعد فترة قصيرة ،عن معاملة البريطانيين له بعد استلامهم ،رد بطريقة ساخرة : «كانوا لطفاء معي جداً . اصطحبوني والرشاش في ظهري» .

في مؤتمر صحافي نسق على عجل في باريس في اليوم الثاني من شهر حزيران / يونيو ، لام ديغول ما حدث على» نشاطات عدد من العملاء البريطانيين في المشرق» . لمح ان البريطانيين قاموا بشكل متعمد بتسليح الدرك السوري في وقت مبكر من تلك السنة ليمكنهم من مواجهة الفرنسيين . كما ادعى ان وقف اطلاق النار كان قد تم قبل تدخل البريطانيين . حتى دوف كوبر الرجل الذي يصدق الفرنسيين ، وصف اداء ديغول بانه» مزيج من الزيف النفاق وطمس للحقائق الغير ملائمة ورميها على البريطانيين» . احتار عندما التقى الجنرال الفرنسي في اليوم التالي ليجده» مقتنعا تماماً «بان كل الحادثة قد تم «الترتيب لها من قبل البريطانيين لينفذوا سياستهم منذ أمد طويل لجر الفرنسيين الى خارج المشرق حتى يأخذوا مكانهم» . ايد أوليفا روجيه ادعاءات ديغول . قال بانه تم استفزازهم من قبل الدرك ، الذين شجعهم العملاء البريطانيون الذين هوياتهم «معروفة جيدا» . أضاف ان احدهم هو الكولونيل ستيرلينغ .

اعطى الجيش البريطاني ستيرلينغ على عجل إجازة شهر ليعود الى بلده . الذي كتب لاحقا : «في عيون كل رجل فرنسي ، «كنت»ملطخا بفرشاة لورانس وكان يفترض انني كنت اعمل ضد المصالح الفرنسية . «و ليرد على رواية أوليفا روجيه للأحداث ، أشار الى حقيقة انه لم يكن هنالك دليلا ماديا لدعم الجدل الفرنسي انهم هم من اعتدى اولا . بعد ان جال في المدينة بنفسه ، لاحظ ان «لا المفوضية الفرنسية ولا مكاتب مركز القيادة ولا مقر اقامة الجنرال الفرنسي فيهم زجاج نافذة واحدة مكسور او إشارة على علامة رصاصة ، بينما المصرف السوري ونادي الضباط البريطانيين كلها كانت مكسوة بالرصاص» .

رفض القوتلي نفسه فكرة ان يكون ستيرلينغ وراء العنف ووصفها بانها «كذبة مضحكة» . وصف اتهامات الفرنسيين الموجهة الى العملاء البريطانيين على انهم كانوا يثيرون المشاكل بانها «موال قديم نسمعه من الخمسة وعشرين سنة الاخيرة كلما أرادوا اضطهادنا ومتى أرادت بريطانيا العظمى الوقوف في طريقهم» . لكن ليس هنالك من شك ، في تلك الفترة ، سالت الحكومة السورية ستيرلينغ وزملاءه ماذا سيكون موقفهم اذا حاولوا الانقلاب للتخلص من الفرنسيين . عندما واجهوا هذا السؤال ، اخبرهم ضابط بريطاني بعد ان وجه له هذا السؤال «أن يوقفوا هذا الشيء بما اننا الكفيل لأمنكم الداخلي في سورية طالما نحن هناك» . طبعا ، ثمة جواب عمل فقط على تشجيع السوريين للتهديد بخوض الحرب . لانه بغض النظر عن جهود تشرشل باكرا من تلك السنة ليدعي بان بريطانيا ليست مسؤولة عن ضبط الأمن بين السوريين والفرنسيين ، يعتقد كل ضابط بريطاني في دمشق انه اذا نشبت المشاكل هناك ، سيتدخلون قبل ان ينتشر الاضطراب .

يعتقد كوهيل انه اذا وقف البريطانيون بعيدا ، «سيقتل الآلاف من السوريين ، والعراق ومن المحتمل ترانس الاردن ستنضم اليهم وكل الشرق الاوسط سينهض كذلك يهود فلسطين بالتأكيد سيفكرون ان هذه فرصتهم أيضاً» .

السرور السوري الذي لا يخفى من كيف جرت الامور عزز الاعتقاد الفرنسي الراسخ انهم كانوا على حق في شكوكهم بالدوافع البريطانية ، وفي اجتماع مع كوبر في اليوم الرابع من شهر حزيران / يونيو لمح ديغول انه يفكر في الانتقام» . اعترف اننا لسنا في موقع لبدء عدوان ضدكم في الوقت الحالي . لكنكم اهنتوا فرنسا وخنتوا الغرب . هذا لا يمكن نسيانه» .

انفجار ديغول كان فوري ومتوقع ؛ حقد بيدو الذي يحترق ببطء ، اتخذ مدة أطول حتى يتجلى بوضوح . في منتصف شهر حزيران / يونيو ، اضطر

وزير خارجية فرنسا القيام بتحضير بيان محرج لاجتماع فرنسا المؤقت حول ما جرى في المشرق في الأسبوعين الفائتين. «لنختصر»، ختم على هذا النحو «العالم، بالتحديد الشرق، جرى فيه صخب مع ضحك، ضحك على حسابنا، والشيء الذي منه أنا منقاد الى الاعتقاد، ان البعض يعتقد انهم سينتفعون». رافضا زعم الحكومة البريطانية ان موظفيها لم يساهموا ولا بشكل من الاشكال بالمشاكل التي واجهتها فرنسا، أنهى بتهديد ينذر بسوء. مستشهدا بالمثل اللاتيني: «غالبا يحفر على شواهد القبور معناه: اليوم قدري، غداً قدرك.

انهيار النفوذ الفرنسي في سورية كان فوريا وتاما. مع نهاية هذا الشهر كتب موظف فرنسي في بيروت انه لا هو ولا زملاءه يجرؤ على السفر الى اي البلدات السورية الرئيسية من دون مرافق، لخوفهم من ان يتم اغتيالهم. تم تحويل الجند الخاص الى سيطرة السوريين واللبنانيين في الشهر التالي، لكن، كما هو متوقع، لم يكن السوريون ولا اللبنانيون مستعدون ان يضمنوا لحاكمهم السابق القاعدة العسكرية في الشرق الاوسط الذي يرغب بها ديغول. عمل البريطانيون والفرنسيون على صياغة اتفاق ليتركوا بنفس الوقت - كتب وزير الخارجية بتفاؤل: «هذا يجب ان ينهي المكائد الفرنسية في فلسطين»، وانسحب جند كلا الطرفين من سورية في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٦، ومن لبنان في شهر آب / أغسطس. بعد ستة وعشرين سنة، انتهى الانتداب الفرنسي في الشرق الاوسط.

خسارة لبنان وسورية عبدت الطريق لسياسة فرنسية جديدة موالية للصهيونية. في نهاية شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٥، كتب المفوض العام الفرنسي في المشرق بول بينيه الى ديغول ليشير الى ان خلال أزمة دمشق «فقط يهود فلسطين» كانوا الى جانب الفرنسيين. شعر العديد من اليهود في فلسطين براحة البال بسبب وجود لبنان المسيحية الى جوارهم، لانهم

كانوا يعرفون ان المسيحيين سيشاركوهم خوفهم من انهم محاطون بالمسلمين الاكثر عددا منهم . الان قلقوا بعمق من فكرة ان فرنسا سيلقى بها خارج المشرق ، كل من الوكالة اليهودية والمنظمات الإرهابية عملت على اجراء اتصالاتها حتى «تعرض خدماتها» حسب ما شرح بينيه . «أعطيت أوامرا لتعزيز الاتصالات» .

في البداية ، المقابل الذي اراده اليهود الشيء القليل جداً . «تأكيد شفهي ، ليس بالضرورة دعم الحركة الصهيونية ومطالبها ، لكن الامتناع عن تبني موقف عدائي ، خصوصا عندما تأتي الى مسالة الهجرة الى فلسطين ، سيكون كافيا» . هذا ما اخبره بينيه لديغول . شخصيا ، شعر ان «الظلم ومعاناة اليهود الفرنسيين في ظل الاحتلال الالماني صعبت الامور حتى نأخذ اي موقف اخر» . ولم يكن بينيه الرجل الفرنسي الوحيد الذي التقى به الصهيونيون . هنري بونيه السفير في واشنطن العاصمة ، أيضاً تم التقرب منه . هو أيضاً جادل ان «جماعة الصهيونيين يمكنها ان تمثل عنصر دعم لبلدنا الشيء الذي يجب ان لا نهمله» . المندوب الصهيوني الذي زار سفارته لخص الجدل ببساطة كبيرة : «على اليهود والمسيحيين ان يدافعوا عن انفسهم ضد الخطر العربي المدعوم من قبل انكلترا» .

بعد شهرين ، رجل اسمه توفيا آرازي التقى مدير الدائرة الاوروبية في الكاي دورسيه في باريس ، فرانسوا كوليت . سجلت دقائق الاجتماع ان هدف اللقاء تجديد علاقات الصداقة بين الرجلين ، التي يعود تاريخها الى سنة ١٩٤٠ . في ذلك الوقت ، كان آرازي الجاسوس الرئيسي في الهاغانا داخل سورية الخاضعة للاحتلال الفيشي ، بينما كوليت كان احد الرجال الثلاثة الذين آواهم ديفيد هاكوهين في حيفا ، الذين شاهدوا السفينة باتريا التي تم تعطيلها وهي تغرق في الماء .

بعد استرجاع ذكريات تلك الأوقات القديمة ، التي رأته يقفز من نافذة في

الطابق الرابع ليهرب من حبس الفيشي الفرنسي السورتيه ، آرازي غير الحديث لينتقل الى مستقبل العلاقات بين فرنسا ودولة اليهود . متذكرا خطابا ألقاه سبيرس قبل بضعة اشهر ، قال فيه السياسي البريطاني ان فرنسا والصهيونيين هما الإعاقة الرئيسية لسياسة بريطانيا الشرق أوسطية ، لمح آرازي انه هنالك اكثر من اساس إيجابي من مجرد انهما يشتركان في كرههما لبريطانيا حتى يكون هنالك حلفا بين الطرفين . كل ما كان مطلوبا هو ان تعيد فرنسا التفكير في سياستها الخارجية . وقارن بانه في الوقت الذي اثارت فيه فرنسا كرها انتشر الان في الشرق الاوسط العربي ، قال بان هنالك منظمات صهيونية ملتزمة تعترف بمكانة فرنسا الشرعية في العالم ، وتأمل ان تفرضها فرنسا مرة ثانية .

بالرغم من ان ديغول غير متعاطف كثيرا مع اليهود ، لم ينسى «اهانة» حزيران / يونيوو يمكنه بسرعة ان يرى كيف يمكن للصهيونية ان تكون مفيدة للانتقام . عندما التقى الممثل الفرنسي للحركة الصهيونية مارك جاربلوم في باريس فيما بعد من تلك السنة ، فكر مليا بان»اليهود في فلسطين هم الوحيدون الذين بإمكانهم مطاردة البريطانيين حتى يخرجوا من الشرق الاوسط» .

كان بيدو يناقش لأشهر ان الفرنسيين يحتاجون لان يتخلوا عن تكتيكات التأجيل التي فشلت في المشرق لصالح ما سماه «السياسة العظمى» التي ستمكن فرنسا من استرجاع المبادرة ، لا سيما في تعاملها مع المستعمرات العربية المتبقية في شمال افريقيا . رأى فيما كان يعرضه الصهيونيون نواة ثمة مشروع . يمكن لفرنسا ان تستخدم الصهيونيين ليس فقط حتى تنتقم من البريطانيين في فلسطين ، ولكن لتهزمت العصبة العربية ، التي جعلت فلسطين قضيتها ، لان القومية العربية كانت قوة متنامية في شمال افريقيا الفرنسية كذلك .

في اليوم العاشر من شهر تشرين الثانينوفمبر ، اخبر بيدو ديفيد بن ـ غوريون

في السر ان فرنسا ستدعم القضية الصهيونية . قبل سنة ونصف عرض بن - غوريون الأمل علنا ، انه بعد الحرب ، سيجد اليهود ان فرنسا متجددة الشباب سوف» تتخذ موقفا متفهما نحونا» . تم الاستجابة لتلك الصلاة الان . لم يستغرق الكثير من الوقت حتى بزغت سياسة فرنسا الكبرى من اجل دعم الصهيونيين بشكل سري ، وحتى أدرك البريطانيون ان مقولة بيدو التي عادة تنقش على الأضرحة هم المعنيون فيها .

الفصل الـ ٢٦

يجب ان نفكر مجددا

تركت الحرب اوروبا في أزمة إنسانية لم يسبق لها مثيل . يعيش حوالى ربع مليون «لاجئ» في المخيمات على امتداد القارة الأوروبية . البعض - هؤلاء الذين اجبروا على العمل في المانيا النازية ، والاطفال الذين افترقوا عن أهاليهم - يريدون العودة الى بلدهم . آخرون ، مثل الذين من اوروبا الشرقية فروا من الحكم السوفيتي واليهود الذين تم انقاذهم من معسكرات الاعتقال ، أرادوا اي شيء الا العودة . الصهيونيون أيدوا بسرعة انه يجب السماح لهم العيش في فلسطين .

المختصر ، بدا كأن الحكومة البريطانية الجديدة قد توافق . في الانتخابات العامة شهر تموز / يوليو سنة ١٩٤٥ انهزم حزب تشرشل للمحافظين هزيمة ساحقة بشكل واضح وملفت للنظر ، من قبل كليمنت أتلي من حزب العمال الذي قرر قبل شهرين ان فلسطين يجب ان تزود وطنا للناجين اليهود من المحرقة . في شهر ايار / مايو ذاك الرجل الذي كان حينذاك وزير المالية هوغ دالتون جادل ان «الرعب الذي لا يوصف والذي ارتكب بحق يهود المانيا وبلدان اخرى محتلة في اوروبا» يعني ان «فرض العقبات على الدخول الى

فلسطين الان لأي يهودي يرغب في الذهاب الى هناك أخلاقيا خطا ويتعذر الدفاع عنه» . وافق مجلس الحزب . القرار الذي تم تبنيه في ذلك الوقت دعا «لتشجيع العرب على الرحيل عندما ينتقل اليهود الى الداخل» . على افتراض ان العرب بالأساس بدو مهيئين للرحيل .

وضع هذا القرار موضع التطبيق كان المهمة الملقاة على عاتق إرنست بيفن وزير الخارجية البريطاني الجديد . انه النقيض التام لمن كان قبله الأنيق الجذاب أيدن ، كان خشن المظهر ترك المدرسة عندما كان في الحادية عشر وشق طريقه للأعلى من اجير في مزرعة الى وزارة الخارجية ، من خلال رئاسة مجلس حركة نقابة العمال . جاءت فرصته سنة ١٩٤٠ عندما اثر في تشرشل عدائية بيفن لدعوة السلام التي قامت بها نقابة العمال وعلى ما يبدو شهيته غير المحدودة للعمل ، فدعاه للانضمام الى مجلس الوزراء ليصبح وزيرا للعمل . كان تشرشل يعتقد ان بيفن» الرجل الاكثر تميزا على الاطلاق الذي قدمه حزب العمل في وقتي» . في البداية نظر الموظفون في وزارة الخارجية الى رئيسهم الجديد بخوف ، لكن سرعان ما أدركوا ان رئيس الوزراء السابق كان على حق . كتب سكرتير بيفن الدائم عنه انه «واسع المعرفة ، مستعد لقراءة أية كمية ، يبدو عليه بانه مأخوذ بما يقرا ، وقادرا على التوصل الى قرارات ويلتزم بوجهة نظره او وجهة نظرنا ضد اي احد» .

على حد علم وزارة الخارجية ، هذا كان قيمة حقيقية ، لان الحكومة البريطانية كانت تواجه ضغطا شديدا من حكومة الولايات المتحدة حتى ترخي تقييداتها المتشددة على هجرة اليهود الى فلسطين . بينما الرئيس السابق روزفلت كان قد حافظ على نهج عادل ما ساعد البريطانيين بشكل كبير ، قرر خلفه هاري ترومان ان المواربة المستمرة غير حكيمة من الناحية السياسية . هول المحرقة كان حتى ذلك الوقت واضحا ، والزعماء الصهيونيون ، زعماء الخمس ملايين يهودي قوي في اميريكا كانوا يحثونه على اتخاذ موقف .

مزارع في السابق ورجل اعمال غير ناجح الذي لم يدرس أبدا في كلية ، بالسليقة ، لا يثق تورمان بالنصيحة التي تقدمها له عصبة خريجي جامعات النخبة المثقفه «صبية يرتدون سراويل مخططة» الموجودين في إدارة الحكومة ، الذين جادلوا ان موالاة العرب لا موالاة الصهيونيين سياسة من مصالح أميركا الاكثر اهمية على الأمد الطويل ، جاعلين اعتماد الولايات المتحدة على النفط من الشرق الاوسط . ادعى ترومان فيما بعد ان دافعه كان إنسانيا . حيث كتب «كان شعوري انه يمكننا حماية مصالح بلدنا البعيدة الأمد بينما نساعد في نفس الوقت هؤلاء ضحايا الاضطهاد سيئي الحظ حتى يجدوا وطنا» ، لكن الدليل على هذا التوقيت هو الذي أوحى ان الحسابات الانتخابية كانت اكثر اهمية بشكل ملفت للنظر لتحديد موقفه . «أنا أسف يا رجال» ، اخبر مجموعة من السفراء العرب الذين جاؤوا ليشتكوا من تحيزه ، «لكن علي ان أجيب على مئات الآلاف من هؤلاء القلقين على نجاح الصهيونية ؛ ليس عندي مئات الآلاف من العرب الناخبين» .

في منتصف شهر آب / أغسطس سنة ١٩٤٥ ، تعمد ترومان جعل موقفه علنا في مؤتمر صحفي . عندما اجاب على سؤال مراسل صحافي ، اعلن ان هدفه «ان يدخل قدر الإمكان العديد من اليهود الى فلسطين مع بقاء تعزيز السلام المدني» . بعد ان استلم تقريرا عن معاناة اللاجئين واخبار إذن الحكومة البريطانية للهجرة الى فلسطين الذي على وشك ان ينتهي ، حينها وضع رقما لهذا التطلع . عندما كتب بشكل سري بعد أسبوعين الى أتلي ليقول ان الأميركيين شعروا ان الهجرة الى فلسطين يجب ان لا تغلق أبوابها ، اقترح ان تصدر الحكومة البريطانية مائة الف فيزا اخرى . هذا الرقم الكبير الصحيح من دون كسور ، الذي أيدته في البداية الوكالة اليهودية ، سيكتسب مغزى مثل اهمية شعار امريكا في المباحثات الذي تبعت . من الرقم المقدر بالربع مليون لاجئ ، من بينهم مئة وثمانية وثلاثين الف يهودي .

ربما لم يظن ترومان على الاطلاق ان عرضه سوف يتم رفضه ، لانه في منافسة الانتخابات العامة حزب العمال كان موال للصهيونية بحماس . لكن فقط في حالة واحدة في وزارة الخارجية بيفن كان ـ على عكس ترومان ـ ميال الى رأي مستشاريه . «كليم» قال لأتلي ذات يوم ، «بخصوص فلسطين . حسب الرفاق في الوزارة ، حسبناها خطا . يجب ان نفكر مجددا» .

أخبر رفاق بيفن بيفن ان لا يرضخ لهذه الدعوات لقبول عدد كبير من المهاجرين اليهود ـ الذين حتما سيطالبون بالاستقلال ويسببون الكرب للشعب العربي ـ لانه في رأيهم فشل علاقة بريطانية مع الحكومة الوطنية المصرية جعل فلسطين اهم من اي شيء اخر . كانت مصر قاعدة لبريطانيا في الشرق الاوسط لأكثر من خمسين سنة ، لكن رئيس الوزراء الجديد للبلاد اسماعيل صدقي يبدو الان على انه مصمم على انهاء تلك الحقبة . كلما بدا نجاح محاولة صدقي محتمل اكثر كلما اقتنع البريطانيون ان التمسك بفلسطين حاسم من الناحية الاستراتيجية . من هناك سيكونون قادرين على السيطرة على قناة السويس ، والانتداب سيكون قاعدة مفيدة لتوجيه وادارة السلطة البريطانية حول العالم .

الخلل الاساسي في هذا المخطط الضخم ان فلسطين ، في وضعها الحالي ، غير مناسبة مطلقا لتكون قاعدة . في نهاية شهر آب / أغسطس حذر السكرتير الرئيسي للادارة الفلسطينية ان التوترات في الانتداب على وشك الانفجار . بيان ترومان الصحافي «اثار خشية العرب اكثر» ، شرح ، بانه بينما ظهر ان القادة اليهود على انهم «يدفعون متعمدين الإرهاب الى مرحلة لا يمكن فيها تجنب الانفجار اكثر و(هم) لا يترددون في استغلال محنة اليهود في اوروبا على انها قضية سياسية رئيسية» . ولا بريطانيا التي انهكتها الحرب لديها الموارد للتعامل مع المشاكل : اكثر من ثلث الشرطة الفلسطينية دون مستوى القوة المطلوب . فهم بيفن المشكلة تماماً ، وجاء بخطة . «دعونا

ننتظر حتى نرمم قوتنا ودعونا في تلك الأثناء ، مع مساعدة الولايات المتحدة عند الضرورة ، نحافظ على مواقعنا الاساسية» .

بعد ان اخبر أتلي ترومان بشكل قاطع ان ترك مئة الف يهودي يدخلون فلسطين سوف «يلهب كل الشرق الاوسط» ويسبب «أذى بالغا للعلاقات بين بلدينا» ، شرع بيفن ليجد طريقة ليقرب إدارة الولايات المتحدة من وجهة النظر البريطانية . جادل الديبلوماسيون البريطانيون في واشنطن العاصمة ان استمرار سيطرة بريطانيا على فلسطين من مصالح كلا الحكومتين لمحاولة احتواء التهديد السوفيتي . عرض بيفن بعد بضعة أسابيع تشكيل مامورية مشتركة انكلو - أميركية للتحقيقات مهمتها ان تتحرى اين يمكن ان يستقر هؤلاء اللاجئون ، وان ترجح حلا مبدئيا لكلا الحكومتين حتى تتمكن الامم المتحدة من تحضير خطاب رسمي يتعلق بهذه المسالة . ترومان ، الذي وافق على الفكرة طالما ستتحقق بالتحديد من فيما اذا ستقدم فلسطين الجواب ، فيما بعد اتهم البريطانيين «بالتكتيكات البطيئة» ، لكن النتيجة ناسبته أيضاً . لم يرد الاعتراف بفشل محاولته فرض تغيير فوري على سياسة الهجرة البريطانية قبل ان تتم انتخابات البلدية في نيويورك ، في حال رد على نحو سيء سكان المدينة اليهود والذين عددهم كبير هناك .

في الحقيقة ، يعرف اليهود سلفا ان البريطانيين لا يخططون لأية تغييرات جذرية لسياساتهم ، شكراً للمعلومات المقدمة لهم من قبل الفرنسيين . بناء على ذلك ، في شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٤٥ رئيس اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية ديفيد بن - غوريون ، اخبر سرا قائد الهاغانا موشي سنيه ان يبدأ بالتعاون مباشرة مع الارغان وعصابة ستيرن ليشكلوا حركة مقاومة يهودية . على حد علمه ، انتهت الحرب الان ، ولم يعد هنالك حاجة لموانع اخرى . صرح من العاصمة الفرنسية ان الكتاب الابيض سنة ١٩٣٩ والتي تحد من الهجرة لم يعد لها اساس أخلاقي او قانوني . «هناك شيئان لن يقبل

بهما اليهود : وضع الأقلية في بلدهم والهجرة الى فلسطين تحت رحمة احد . لا يريدون ان يعيشوا تحت حكم اجنبي في وطنهم» . في فلسطين ، كتب المندوب السامي البريطاني الجديد اللورد غورت الى من كان قبله : «أخشى ان الدكتور وايزمان ومستشاريه المعتدلين غريبون عن هذا العصر وان بن - غوريون والرجال الاكثر همجية قد أخذوا السيطرة منه» .

بدا سنيه اللقاء مع قادة الارغان زافي لومي وعصابة الستيرن ، ميناشيم بيجن وناثان فرايدمان - يلين ، ليوفقوا بين جهودهم . مقررين عدم انتظار بيفن لينجز بيانا رسميا حول سياسة الحكومة الجديدة على فلسطين ، التي كانت متوقعة في وقت قريب ، في مساء الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول / اكتوبر نفذوا هجومهم المشترك الاول ، مخربين شبكة سكة الحديد الفلسطينية بأكثر من مائة وخمسين مكانا ، كذلك مصفاة تكرير نفط حيفا . قتل الهجوم اربعة ،لكن لم يكن ذلك قصدهم . هدفهم الذي لم يسبق له مثيل مصمما ليكون تحذيرا للحكومة البريطانية بما ، يمكن ان تفعله المجموعات الثلاثة الموحدة .

اختار بيفن تجاهل التهديد . ابتهال صاخب احتفى به عندما اخبر أخيرا مجلس العموم البريطاني في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر قبول حكومة الولايات المتحدة دعوته للانضمام الى اللجنة الإنكلو - أميركية للتحقيقات حتى تتقصى تصورات نجاح الهجرة الصهيونية الى فلسطين . ما قصده حقيقة من هذا الاعلان ان الضغوطات من الخارج لن تهدده حتى يغير سياسة الهجرة البريطانية المشددة : لا من قبل الصهيونيين ، ولا من قبل أميركا . مع تفهم قليل ظاهر لما قد يشعر به الناجون من المحرقة ، نظر بيفن الى الامر بانه يجب ان يعودوا الى بلدهم . حتى يرضخ بيفن لمطالب اليهود بانه يجب ان يتلقوا معاملة خاصة ، جادل في مؤتمر صحافي مباشرة بعد بيانه في مجلس العموم ، ذكر «بخطورة ردة فعل اخرى معادية للسامية» من قبل

اللاجئين الذين هم أيضاً ينتظرون العودة لبلادهم . قد يبدو الجدل منطقيا ، بل حتى فاضلا عفيفا ، لرفضه للتمييز ، هل كان موقف بيفن لا يتمتع بالشفافية بالكامل : كان مصمما على ان لا يتم المضي قدما في هجرة اليهود بكميات كبيرة الى فلسطين لان ذلك سيعمل فقط على اضعاف الانتداب البريطاني اكثر .

اعلان بيفن وهذه التعليقات التي لم تراعي مشاعر الاخرين سبب ضجة في الولايات المتحدة وتبعها انفجار اخر للعنف . كتب عضو في عصابة الستيرن «المبدا الاساسي» ، هو «بقدر ما يخرج موظفون ، جنود ورجال شرطة بريطانيون ، بقدر ما يترك المستعمر الاجنبي ارضنا بسرعة اكبر» . في الأشهر الثمانية التالية قتل الإرهابيون اليهود سبعة وعشرين ، وأصابوا بجروح مئة واربعة وستين آخرين ، وسببوا اضرارا قيمتها تعادل اربعة ملايين جنيه . في نهاية شهر تشرين الثاني / نوفمبرنسفت حركة المقاومة اليهودية محطتي خفر سواحل .

في نهاية شهر كانون الاول ديمسبر ، أداروا انتباههم الى الشرطة ، قصفوا مركز قيادتها في القدس ومخفر شرطة في يافا ، ثم رشوا الناجين بمسدسات رشاشة وهم يخرجون من الابنية المهدمة . برر بن ـ غوريون بشكل فعال هذا الاعتداء عندما قال بعد فترة قصيرة ، انه كان «من الصعب الطلب من ييشوف ان يراعي تطبيق القانون في وقت عندما حكومة الانتداب نفسها تقوم بشكل مستمر بانتهاك القانون الجوهري للبلاد متجسدا بانتداب فلسطين» .

استمر العنف سنة ١٩٤٦ . درب بعض أعضاء الارغون الجيش البولندي قبل الحرب . وقد هاجموا قطارا في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني / يناير ، استولوا على مبلغ خمسة وثلاثين الف جنيه مخصص لدفع رواتب العاملين في سكة الحديد . بعد سبعة ايام دمروا محطة كهرباء فرعية في القدس وفي اليوم التالي هاجموا خفر السواحل مرة ثانية . في شهر شباط /

فبراير داهم إرهابيون يهود مستودعا عسكريا للحصول على مزيد من الاسلحة ، وهاجموا معسكرا عسكريا واخر تابعا للشرطة ومهبط للطائرات ، محطمين على الارض اثني عشر طائرة بريطانية تساوي ثلاثة أرباع مليون جنيه . قتل يهوديين متورطين في الاعتداء على معسكر الشرطة . حضر جنازتهما خمسون الف شخص .

في تلك الفترة ، يروي صحافي فرنسي زار فلسطين محادثة جرت معه في مقهى في تل أبيب بعد ان أنهى شاب طعامه وكان جالسا على طاولة بجواره ، دفع الحساب وغادر .

«هل تعلم من كان هذا؟» سال مرشده من الوكالة اليهودية .

«كلا» ، قال المراسل .

«انه انتيل ، احد اعضاء الارغون . لـ سعر على راسه» .

«الكل يعرف من هو؟»

«نعم ، أنا ، الزبائن الآخرون ، النادلة ، كل واحد ـ انت أيضاً الان . يتناول غداءه هنا كل يوم» .

«و لم يسلمه احد للشرطة؟»

«لا . لا احد» .

ضابط بريطاني يحاول تفسير فشل الجيش في فرض سيطرته ، محتجا : «ما من احد من هؤلاء الفتية يرتدي ملابسا رسمية فلا تستطيع تمييزه عن المواطنين الملتزمين بالقانون ، لذلك المبادرة دائماً كانت بأيديهم» .

من لندن ، أصرت الحكومة على التشديد بينما تقوم المأمورية الإنكلو - أميركية بدراسة الوضع . وقد عرض الجند البريطاني تقديرات مضحكة لما يحتاجون اليه اثناء مقاومتهم التمرد المسلح . في احدى المناسبات ، عندما

تم اخبار ضباط الفرقة العسكرية الجوية السادسة ان يرتدوا ملابس غير رسمية في محاولة لتحديد موقع جهاز إذاعة غير نظامي في تل أبيب ، ظهر كل واحد منهم «متنكرا ، كما كل واحد يعتقد انه مناسب ، ارتدوا جواكيت خفيفة بالوان عسكرية وقمصان داخلية رمادية اللون ، لكن سرعان ما تم ترتيب ذلك بالشكل الصحيح» . هذا البحث كان مثمرا . عثروا على المبنى الذي كان يتم منه البث على الهواء تم تطويقه والاستيلاء على الراديو والقبض على مقدميه المسلحين . «بشكل مناسب كفاية ، النص كان مفتوحا على فقرة مكتوب فيها القسم ان معلنيها مستعدون للدفاع عن الراديو حتى اخر رجل فيهم . لكنهم كانوا يفكرون بشيء افضل من ذلك» . نجاحات ثانوية من هذا النوع كانت قليلة وفي فترات متباعدة . في الوقت الحالي أخذ معدل الموتى البريطانيون بالارتفاع . باكرا من شهر آذار / مارس هاجم الارغان مستودع أسلحة في قاعدة الجيش البريطانية في صرفند ، قتلوا اثناءها احد رجال الشرطة . في محاولة للاستيلاء على أسلحة اكثر ، هاجموا محطة الشرطة في رمات غان اواخر شهر نيسان / أبريل ، وقتلوا ثلاثة رجال شرطة وخسروا اربعة من رجالهم ، بسبب إصابتهم بجروح . ثم في ليلة الرابع والعشرين من شهر نيسان / أبريل استولت عصابة الستيرن على وحدة المظلية العسكرية من المرآب في تل أبيب . ومع قوة تتضمن على الاقل ستة نساء قتلت العصابة ستة جنود ، اثنان منهما كانا ما زالا في السرير .

تذكر ضابط الفرقة العسكرية السادسة «برهن اليهود خاصة الارغان زافي لومي على انهم مقاتلي عصابات الأكثر شجاعة والاكثر دهاء التقيت بهم على الاطلاق» . لكن قدرة الفرقة على محاربتهم كانت تسوء . تتألف بالكامل من ضباط الجيش النظاميين ورجال تطوعوا للانضمام الى قوة المظلية ، بدات تعاني لانه ما ان انتهت الحرب ، حتى بدا التسريح . ولان التسريح طبق حسب مبدا «اول من انتسب ، اول من يتم تسريحه» ، فالضباط ذوي الخدمة

الطويلة في الفرقة وضباط صف المرؤوسين الذين رتبهم العسكرية اقل الرتب هؤلاء كانوا اول من عاد للبلد . تم استبداهم برجال اقل خبرة . هذا لم يفرض نفس الاحترام بين الرجال ، الذين اخذ تدريبهم يسوء وهم ينتظرون تسريحهم . بعد الهجوم على المرآب ، حصل تمرد صغير من قبل الجنود على قوادهم . تخوف ضابط هيئة اركان الحرب الخاصة بالمستعمرات واسمه اللورد الانبروك والذي كان قد أنهى خدمته ، قال انه «لا يمكن السيطرة على الجند» اذا استمرت الاعتداءات المتعنتة بينما الجند غير مسموح لهم الرد على القتال بقتال .

وقتذاك ، فشلت المأمورية الإنكلو - أميركية بتحرير التقرير الذي يرغب به بيفن . بعيدا عن التعاطف مع المأزق البريطاني ، اعتقد اغلب الستة الأميركيين من لجنة الحكم الإثني عشر رجل ان المشكلة سيتم حلها اذا قبلت بريطانيا المئة الف كما طلب ترومان . قبل اعضاء اللجنة البريطانيون على مضض هذا الترجيح ؛ لكنهم تمكنوا من إقناع زملاءهم الأميركيين على الموافقة على إدراج انتقاد حاد لشجب بن - غوريون من نصف قلبه الاعتداءات على محطة الشرطة في شهر كانون الأول / ديسمبر الفائت ، ومناشدة الوكالة اليهودية لتستانف تعاونها مع الحكومة البريطانية لإيقاف الإرهاب والهجرة الغير شرعية . التقرير أيضاً رجح ان الإرهاب يجب ان «يتم منعه بشكل صارم» .

من دون ان يقوم ترومان باستشارة أتلي ، مباشرة وافق على عروض المأمورية من اجل الهجرة ، لكنه رفض بوضوح عرض أية مساعدات أميركية اخرى تعزز سياسة ستقود حتما الى احتجاج عربي . لم يخفي أتلي غضبه . الحقيقة كانت ، كما اخبر مجلس الوزراء ، ان الولايات المتحدة أرادت «مصالحها على حسابنا» ولتحقيق مصالحها ، مارست ضغطا كبيرا على اعضاء المأمورية الأميركيين . وبسبب تصاعد غضب الحكومة مع حليفتها ،

اخبر بيفن فيما بعد بصراحة فظة جمعا من حزب العمال ان الأميركيين يضغطون على البريطانيين لقبول اللاجئين اليهود «لأنهم لا يريدون الكثير منهم في نيويورك» . هذا التعليق كما هو متوقع سبب سخطا في أميركيا ، لكن في الحقيقة بيفن كان فقط يعيد صياغة ما قاله له وزير الدولة الأميركي جيمس بايرنس .

الناحية الوحيدة المفيدة في هذا التقرير ، حسب راي البريطانيين ، هو انتقاده للوكالة اليهودية ، لان نفوذ الوكالة المؤذي في فلسطين كان يزعجهم لأشهر . تشكلت سنة ١٩٢٩ ، حيث نما دورها الاستشاري والثانوي التابع اكثر من اللزوم ضمن الدولة المنتدبة . من مركز قيادتها المبني من الحجر الذي يشبه القلعة في غرب القدس الان تقوم بعمليات كانها حكومة موازية للادارة البريطانية التي مقرها جناح من فندق الملك ديفيد على بعد نصف مايلا من الوكالة . لدى الوكالة مسبقا هيئة تشريعية منتخبة ، مجلس ، إدارة تنفيذية وجيش نصف سري لنفسها . ادى مؤخرا اعتماد السلطات البريطانية على الوكالة للحصول على معلومات متعلقة بالإرهابيين ، الى وهبها شيئا ثمينا أيضاً : السلطة . يقول اليك كيلار من الام أي ٥ ، «لديها شيئا من وضع حكومة في قلب حكومة» ـ دولة ضمن دولة .

نما عدم الراحة الذي شعر به البريطانيون من قوة الوكالة المتزايدة عندما لمح رئيس مجلسها بن ـ غوريون تلميحا واضحا ان يوشوف يحتاج لان يكون جاهزا للحرب . وكما علق السكرتير الرئيسي في فلسطين ، قد تعمل الوكالة اليهودية على «استهجان الإرهاب ؛ لكن كل خطاب متطرف . . . فيه استخفاف فظيع من ناحية واحدة بسلطة الحكومة لتعزيز القانون والنظام ومن ناحية اخرى بقضية العرب ، شدة الوطنية وتعصب نظامهم التعليمي ، كل تلك الاشياء ساهمت في مناخ ترعرع فيه التعصب والإرهاب» .

حتى نهاية سنة ١٩٤٥ عرف البريطانيون ان الوكالة اليهودية لم تكن

ببساطة تتغاضى عن الإرهاب ، لكن بشكل فعال تتآمر مع الإرهابيين . حصل البريطانيون من خلال اعتراضهم طريق تلك المعلومات ومصادرهم داخل الوكالة ، على عدد من البرقيات في فصل الخريف من تلك السنة تظهر ان هيئة الوكالة التنفيذية قد صادقت على عدد كبير من الهجمات على سكة الحديد يوم الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول / اكتوبر وانها توصلت الى «تنسيق عمل مع منظمات معارضة وانه بناء على ذلك كنا نكلفهم بمهام فيها بقيادتنا» .

فكرة بدات تتبلور في أذهان البريطانيين . اذا لم يستطيعوا اختراق شبكات الإرهاب مباشرة ، إذن ربما ، من خلال مداهمة الوكالة اليهودية ، لن يتمكنوا فقط من تسديد ضربة قاضية للإرهابيين ولكن ، من خلال إثبات الصلات المباشرة بين الوكالة والإرهابيين ، سيجعل من الصعب على إدارة ترومان دعم آرائها . حتى انهم تاملوا ان يجدوا وثائق تورط الفرنسيين في الجرائم .

لقت الفكرة قبولا من قبل رئيس القوات المسلحة الجديد المولع بالقتال برنارد مونتغوميري . في جولة قام بها حتى يألف ويتعرف على الالتزامات البريطانية في الخارج قبل ان يستلم منصبه في نهاية شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٦ ، زار مونتغوميري فلسطين ، حيث روع ليجد «ان حال الحكم البريطاني موجود بالاسم فقط ، الحكام الحقيقيون اليهود الذين شعارهم المستتر كان «لا تجرؤ على لمسنا» . تأكدت هذه الحالة الحقيقية بجلاء بعد ايام ، عندما خطف الارغون خمس ضباط بريطانيين وهم يتناولون الغداء في ناديهم في تل أبيب . بسرعة أفرجت المنظمة عن اثنين لتجعلها واضحة ان تحرير الاخرين يعتمد على فيما اذا نفذ البريطانيون اعدام اثنين من أعضائها ، الذين تم حديثاً الحكم عليهما بالإعدام . عندما وبسرعة عمل البريطانيون على تخفيف العقوبات لكلا العضوين ، أفرغت الارغون المتبقي من الثلاثة في قفص للشحن خارج النادي من حيث تم أخذهما . كتب احد الضباط

«شيء مخجل للغاية!» . تم استخدام الخطف من قبل الارغان فيما بعد لإلغاء القرارات .

مونتغوميري ، الان مارشال وفيكونت ، كان مصمما على تدوير الطاولة . قبل الحرب في فلسطين استخدم قوة عسكرية ساحقة لإخماد ثورة العرب ، وهو الان يعرض نفس الوسائل للتعامل مع اليهود . حتى ذلك الحين وافق مجلس وزراء اتللي . «لا نستطيع الاستمرار في الاحتجاج وكتابة بيانات برلمانية» وافق على ذلك مفوض رئيس الوزراء هيربرت موريسون . عندما انتهت الاستعدادات لعملية ضخمة اسمها «اغاثا» ، ضد الوكالة اليهودية والهاغانا وسط سرية كبرى ، في نهاية شهر حزيران / يونيو امر مونتغوميري السير ايفلين باركر القائد البريطاني العام في فلسطين ، «ان يضرب بقوة وبسرعة وبتصميم عظيمين بهدف هزيمة اليهود بالكامل بأقرب وقت ممكن . . . اليهود الان وجهوا التحدي الى وجهنا ، يجب ان يهزموا بالكامل ويجب ان تسحق منظماتهم الغير شرعية للابد» .

اختار البريطانيون يوم السبت ، ساباث اليهود ، للضربة . عند الساعة الرابعة والربع صباح يوم التاسع والعشرين من شهر حزيران / يونيو ، قوة مشتركة تتالف من سبعة عشر الف جندي بريطاني من الفرقة الجوية العسكرية السادسة وشرطة فلسطين انقضوا على الوكالة اليهودية وبنفس الوقت على اعضاء المدراء التنفيذيين في منازلهم ، وكذلك الذين يعتقدون انهم اعضاء في وحدة الهاغانا النخبة المتدربين على الإغارة الفدائيين واسم هذه الوحدة البالماخ . جمع البريطانيون ثلاث شاحنات وثائق من الوكالة ، وتم احتجاز ٢ ، ٧١٨ شخص من بينهم اغلب التنفيذيين في الوكالة اليهودية واعضاء عدة من البالماش التي ذهل قائدها من كم كانت معلومات البريطانيين «دقيقة بشكل مذهل» . لم يفهم الضباط البريطانيون العدائية التي واجهونها» . هؤلاء اليهود اللعينين» ، قال احدهم . «أنقذناهم في العلمين واماكن اخرى وهم يفعلون هذا لنا» .

العملية لم يسبق لها مثيل بمستواها . لكنها فشلت في تحقيق الانقلاب الذي أراده البريطانيون . لانه ، من خلال المعلومات التي حصلوا عليها من ضابط جيش بريطاني متعاطف» ، كانت مصلحة المخابرات اليهودية تعلم منذ أسابيع ان الكبسة آتية ، وأذاعت تحذيرا قبل اسبوع من العملية انه سيتم تنفيذها . نتيجة لذلك ، بالرغم من ان الجنود البريطانيين قد كشفوا عن مخبأ أسلحة كبير ومخفي ببراعة في احد المستوطنات ، لم يكشف بحثهم في الوكالة اليهودية عن اي شيء يدينهم حقاً .

في البداية كان البريطانيون محتارين . «فشلنا في الحصول على دليل لنجد صلة تربط الوكالة بالإرهاب اليهودي . فشلنا في الحصول على دليل ، أنا متأكد انه كان هناك ، قبل ان نصل ، لربطهم بحركة الهجرة الغير شرعية» ، اشتكى رئيس المخابرات السياسية في دائرة مباحث الجنايات ديك كاتلينغ . «فشلنا ، لم نحصل على شيء» . في تلك الأثناء عمل الفرنسيون على الاستمتاع باللحظة عندما اخبرهم ضابط الام أي ٥ في فلسطين «بشيء من الذهول» ، ان بريطانيا لم تجد شيئا يعرضهم للشكوك بين الاوراق المستولى عليها من الوكالة . الدليل الوحيد للصلات القريبة بشكل متزايد بين الحكومة الفرنسية والصهيونيين صورة فوتوغرافية مأخوذة يوم العملية . تظهر كلا الرجلين الاكثر طلبا من قبل البريطانيين ، رئيس مجلس الوكالة اليهودية ورئيس الهاغانا مسترخيان جالسان على طاولة في مقهى الأرصفة . ديفيد بن-غورون وموشي سنيه كانا على بعد اكثر من ألفي مايلا في باريس .

مع ذلك ، أفقدت عملية أغاثا بحجمها ثقة الصهيونيين الذين لم يكونوا مباشرة متأكدين ان كان البحث في الوكالة اليهودية قد كشف عن أية أدلة تورطهم . في اليوم الاول من شهر تموز / يوليو ارسل سنيه رسالة الى قائد الارغان ميناشيم بيجن أمرا إياه قصف مركز قيادة الادارة البريطانية في فلسطين حيث افترض ان الوثائق المستولى عليها يتم تحليلها هناك . تماماً

بعد منتصف ظهر يوم الثاني والعشرين من شهر تموز / يوليو ، عبر سبع اعضاء من الارغان متنكرين على اساس انهم عرب بائعي حليب ، مروا من خلال امن الفندق وجروا معهم على العجلات أحواض الحليب تحتوي على ٢٥٠ كيلو غراما من المتفجرات عن طريق مطابخ الفندق والى اللاريجنس ، ملهى ليلي يقع مباشرة تحت مركز القيادة البريطاني . سلكوا طريقهم الى خارج الفندق ، قفزوا الى سيارة الهرب المركونة خارج القنصلية الفرنسية فقط عند الزاوية القريبة . عند الساعة الثانية عشر وسبعة وثلاثين دقيقة بعد الظهر انفجرت القنبلة ، وانهار الجناح الجنوبي من الفندق . في المجمل قتل واحد وتسعين شخص وأصيب بجروح خمسة وأربعين آخرين .

احد الناجين ، روبرت نيوتن ، يعمل في الطابق الخامس من الفندق . «بدلا من الجدار وراء كرسيي ، وجدت انني على حافة خمس طوابق مهدمة» ، كما تذكر . «ارض المصعد والسلالم من الجانب الاخر من الجدار المهدم قد اختفت ، ومعهم غرفة الطباعة التي كنت قد زرتها للتو والغرفة المجاورة لاحد زملائي الذي كان يشاركني بيتي في غياب زوجاتنا . هو بالطبع كان في مكان ما تحت الأنقاض ميتا ومعه الفتيات المخلصات المبتهجات اللواتي عملن لديه» .

«خسرت حوالى مئة من افضل الضباط والأصدقاء القدامى» ، كتب بألم السكرتير الرئيسي السير جون شو . «كنت أتي وارحل من والى فلسطين لمدة احدى عشر سنة : هؤلاء الناس يعنون لي الكثير ، ليس فقط الضباط البريطانيين بكل تاكيد ، لكن أيضاً الفلسطينيين المخلصين والأوفياء من بينهم عدة يهود . مرافقي من الشرطة الذي كان لا يتركني وصديق لمدة عشرين شهرا ، سائقي الأميركي ، وأشخاص آخرون بسطاء من هذا النوع كانوا بين الموتى . ساعدت في استخراج أجسادهم المتعفنة وحضرت حوالى اربعة عشر جنازة في ثلاثة ايام . شو ، الذي نجا بأعجوبة من القتل عندما

سقطت ثريا في مكتبه، حينها تمكن من منع نفسه من ان يخطو خارج مكتبه الى الهاوية التي خلفتها القنبلة. تم تحذيره بالتحديد قبل ثمانية اشهر ان اللاريجنس يشكل تهديدا على امن كادره، لكنه عارض إغلاق الملهى الليلي لانه، منذ بداية حملة الإرهاب لم يعد هنالك سوى اماكن قليلة يستطيع التردد عليها الكادر المصروف عن العمل.

كتب القنصل الفرنسي في القدس تقريرا بسرور بعد يومين: «تماماً مثل مؤامرة البارود سنة ١٦٠٥ (وهي محاولة اغتيال فاشلة سنة ١٦٠٥ ضد ملك انكلترا وملك اسكتلندا من قبل جماعة كاثوليك انكليز بقيادة روبرت كاتسبي الخطة كانت تفجير مجلس العموم) اهمل البريطانيون التفكير في القبو». يلقي اللوم على البريطانيين لاعتقادهم انهم «هزموا» اليهود بعملية أغاثا كأنهم اماتوا الشاه بلعبة الشطرنج. لكنه سرعان ما وجد نفسه ينكر ادعاء الارغون ان القنصلية الفرنسية، مثل الفندق، استلمت مكالمة هاتفية تحذيرية قبل انفجار القنبلة، وان طاقمه اعطي ثوان حاسمة لفتح كل نوافذ البناء للتخفيف من خطر تطاير الزجاج. لانه يعلم جيدا ان البريطانيين يحاولون ربط الفرنسيين بالإرهاب اليهودي، أصر القنصل على ان ضغط موجة الانفجار هو الذي فتح النوافذ؛ قال ان التحذير جاء الساعة الثانية عشر وخمسة وأربعين دقيقة بعد الظهر ثمانية دقائق بعد الانفجار.

الان اصدر الجنرال باركر أمرا شديدا لضباطه حتى يقطعوا كل روابطهم مع الشعب اليهودي - «معاقبا اليهود بالنفور - من خلال مهاجمة جماعاتهم المنعزلة وإظهار احتقارنا نحوهم» - وامر بإجراء عملية بحث اخرى كبيرة. اكتشف الجنود البريطانيون خمسة مؤن للأسلحة، تتضمن ذخيرة خاصة بعصابة الستيرن في قبو كنيست رئيسي في تل أبيب. أيضاً رقيب في الشرطة يتميز بعينين نظرتهما ثاقبة استطاع تحديد هوية عضو رئيسي في عصابة ستيرن اسحاق شامير، بسبب حواجبه المميزة، رغم انه كان متنكرا على

انه حاخام . لكنهم لم يجدوا الرجل المسؤول عن التفجير ، ميناحيم بيجن . بيجن ، الذي كان مختبا في حجيرة في شقته في الطابق الأرضي في تل أبيب ، بقي حوالى اربعة ايام من دون طعام او ماء بسبب وجود مجموعة من الجنود البريطانيين يخيمون في الحديقة في الخارج . فتشوا الشقة جيدا ، في مرحلة ما طرقوا على الجدار الذي كان يختبئ خلفه . «طرقوا بقوة» ، وهو حسب ما يتذكر ، انني بالكاد استطعت منع نفسي من ان أطرق ردا عليهم» .

بالرغم من ان تفجير فندق الملك ديفيد كان ضربة كبيرة للادارة البريطانية في فلسطين ، كان له من الناحية السياسية ردة فعل عكسية على الارغون والوكالة اليهودية . وسط تنديد دولي لهذا الاعتداء ، بسرعة قطعت الوكالة علاقاتها مع كل من الارغون وعصابة الستيرن وشعرت بانها مضطرة «للتعبير عن روعها من هذه الجريمة الدنيئة المخترقة من قبل عصابة الأوباش» الذين فجروا الفندق ، بالرغم من انها بقيت لم تشجب بشكل صريح الانتهاك . بالرغم من إنكار بن ـ غوريون تواطؤ الوكالة مع الإرهابيين ضعف هذا الموقف عندما قدمت الحكومة البريطانية على عجل ورقة بيضاء تنشر الأدلة التي لديها ، والتي توحي ان الوكالة متواطئة مع كلا المنظمتين الإرهابيتين .

رفضت الوكالة الورقة البيضاء على انها «لخبطة «و في محاولة لتقويضها ، تحدت الحكومة البريطانية إثبات ادعاءاتها من خلال كشف مصادر معلوماتها ، خطوة تعرف ان البريطانيين لن يقوموا بها . لكن ، بسبب الارتباك والقلق الذي انتابها نتيجة اعتقال اغلب لجانها التنفيذية ، لم يعد أمامها من خيار سوى الموافقة على محادثات اخرى . نوه بيفن في مجلس الوزراء في يوم الخامس والعشرين من شهر تموز / يوليو مع بعض الرضا ان «اليهود قبلوا بالتقسيم» .

ترك تغير موقف الوكالة الغير متوقع زعماء الارغون وعصابة الستيرن بيجن وفرايدمان ـ يلين ، يشعران بانهما معزولان . ولانهما كانا مقتنعين ان بن ـ غوريون سيخونهما الان ، نظرا للخارج حتى يتابعا حربهما .

الفصل الـ ٢٧

العصبة الاميركية من أجل تحرير فلسطين

تماماً بعد اسبوع واحد من تفجير فندق الملك داوود ، نشرت مجموعة تطلق على نفسها اسم العصبة الاميركية من اجل تحرير فلسطين رسالة مفتوحة الى هاري س . ترومان في «نيويورك بوست» ، تحث الرئيس على ان يبرهن عن كلامه . منذ ان دعا الرئيس البريطانيين ترك مائة الف يهودي يدخلون فلسطين ، أشارت الرسالة انه مر تقريبا سنة من دون نتيجة . «المليون والنصف عبري في اوروبا ينتظرون في الغيتو المشبع بالدماء ، في مخيمات اللاجئين ، في الطرقات العامة وفي المرافئ . انهم ينتظرون إشارة من الولايات المتحدة ، منك ، سيادة الرئيس ، انهم لم يتم تجاهلهم ولكن لهم الحق الاساسي في العيش بكرامة وحرية» .

أسس العصبة قبل سنتين رجل اسمه بيتر بيرجسون ولديه مكتب في شارع الويست رقم ٤٩ في نيويورك ، قامت العصبة بهذا التحدي في رسالتها جزئيا لانها شمت رائحة دم . في شهر تشرين الثاني / نوفمبر كانت الانتخابات النصف نهائية تقترب وكان واضحا ان رئاسة ترومان في مأزق . توقعت أميركيا ان يتبع السلام ازدهار ، لكن توقف الانتاج الصناعي على مدار الأربع وعشرين

ساعة قاد الى البطالة وتخفيض الأجور. أدى تخفيض الأجور الى إضرابات التي سببت قطع الكهرباء. باكرا من سنة ١٩٤٦، اضطرت إدارة ترومان الى الاعتراف بتاجيل تسريح العديد من رجال الخدمة. هؤلاء الذين عادوا الى بلدهم وجدوا النقص في كل شيء، خصوصا السكن. ارتفعت نسبة الطلاق وشعبية ترومان التي هبطت بسرعة ومع اقتراب الاقتراع معارضوه الجمهوريون اختصروا رسالتهم الى كلمتين فقط. «هل اكتفيت؟» هذا كان سؤال ملصقات إعلاناتهم الجدارية.

ترومان كان هزيلا عنده قصر نظر بعينيه سريع الانفعال لا يمكنه ابدا ان يأمل ان يشبه سلفه روزفلت. كان نائب الرئيس لمدة اقل من اثني عشر اسبوع عندما اخبر ان روزفلت قد مات. المزارع السابق وصف فيما بعد اللحظة عندما أدرك فيها انه اصبح الان رئيس أقوى أمة على الارض مثل الذي وقع عليه «كومة كبيرة من القش». الارتباك كان واضحا عليه. كتب احد معاصريه متذكرا ترومان وهو ينتظر لحظة تأدية اليمين: «بدا لي مثل رجل صغير جداً عندما جلس... على الكرسي الجلد الكبير». زوجة روزفلت ايليانور كانت مرتابة صراحة في وجه ترومان. عندما، بعد ان مر نبا وفاة زوجها، سألها ترومان اذا كان بإمكانه فعل اي شيء لمساعدتها، أجابت، «هل هنالك من شيء نحن نستطيع ان نفعله لك؟ لأنك انت الان في مشكلة». السياسة التي صنعها روزفلت متماسكة ومقنعة الان بدا ايقاعها حادا وملخبطا عندما جاءت من ترومان. ما كان يمكن ان يفعل روزفلت اذا بقي على قيد الحياة؟ هكذا كان يتساءل الناس. في صيف سنة ١٩٤٦ بدأوا يمزحون: ماذا كان يمكن ان يفعل ترومان لو كان على قيد الحياة؟

مع الانتخابات على الأبواب، كانت العصبة الاميركية تحاول عمدا الاستفادة من صورة ترومان على انه رجل غير قيادي. لم يكن هنالك تقدما منذ كتبت تقريرها المأمورية الإنكلو- أميركية في شهر نيسان / أبريل ذاك. عزم أتلي على

تطبيق ترجيحات المأمورية بشرط تجريد المجموعات الإرهابية اليهودية من الاسلحة ، ومن ثم أصر على ان يتم مناقشة الترجيحات من قبل لجنة خبراء من كلا البلدين . عندما وافق ترومان على تلك الفكرة ، جاء اعضاء الوفد البريطاني بقائمة تتألف من ثلاثة وأربعين فكرة اخرى شعروا انها جديرة بان تأخذ بعين الاعتبار . عندما وأخيرا ، كان الخبراء على وشك اصدار تقريرهم ، تسرب عرضهم بان تكون الامم المتحدة كفيلة دولة فيدرالية تتألف من مقاطعات عربية ويهودية ذات حكم ذاتي ، مع انتقاد مكثف من كلا الطرفين فشل المشروع . انزعج ترومان من بطء التقدم ومن الضغط المستمر من الصهيونيين ، واخبر مجلس الوزراء انه «ليس بحاجة» لليهود و«غير مهتم بما حصل لهم» .

لكن هنالك سببا ثانيا حاسما لماذا قررت العصبة الاميركية التدخل لتبقي الضوء مسلطا على سياسة الهجرة البريطانية المقيدة والضغط على الرئيس . بعد يوم من تفجير فندق الملك داوود ، اصدر ترومان بيانا مؤثرا دعى فيه «كل قائد يهودي مسؤول» ان ينضم له «في شجبه للذبح الوحشي للإنسان» . وتابع ليقول ان التفجير «قد يؤخر» هجرة اليهود الى فلسطين . للعصبة الاميركية سبب اخر يقلقها اكثر هو ان الانتهاك قد يولد تعاطفا أميركيا مع البريطانيين . لان العصبة الاميركية من اجل تحرير فلسطين هي في الحقيقة واجهة الارغانميناحيم بيجن ، الذين فجروا الفندق . «بيتر بيرجسون» كان الاسم المستعار . الاسم الحقيقي لمنظم وموجد العصبة الاميركية هيلل كوك ، عضو كبير في الارغان .

كوك ، ابن حاخام معروف جداً في فلسطين ، وصل الى الولايات المتحدة سنة ١٩٤٠ ، متوقعا ان يجد فيها مفتاح بلوغ الطموح الصهيوني ، بسبب وجود الشعب اليهودي الخمس ملايين القوي فيها . لكنه وجد الهيئة اليهودية الرئيسية هناك ، اللجنة الطارئة الصهيونية الاميركية منقسمة فيما بينها . رئيسا مجلس إدارتها رابيس ستيفان وايز وهيليل سيلفر ، غير متفقين على

التكتيكات : سيلفر ، من الجمهوريين أراد ممارسة ضغط اكثر على روزفلت حتى ينفذ مشروع السور ؛ وايز ، من الديمقراطيين مثل روزفلت ،لم يرد ذلك .

خاب امل كوك من هذا الشجار بين الرجلين . ولانه كان مقتنعا انه هذا هو سبب عدم نجاح الصهيونيين اكثر من ذلك ، أسس العصبة الاميركية لتحرير فلسطين سنة ١٩٤٤ . هدف العصبة ، الذي يعكس موقف الصهيونيين المكافح في فلسطين على نحو متزايد ، هذا الهدف كان جمع التبرعات للارغون والتعاطف مع أساليبهم العنيفة من خلال المساواة بين الصراع الصهيوني ضد البريطانيين وحرب الأميركيين من اجل حصولهم على الاستقلال قبل قرن ونصف للوراء . «لأنها أمة ولدت وسط ثورة ضد نفس نوع الاستبداد البريطاني ، نعلم انه لا يهم مرارة الصراع وقسوته ، انه ديفيد العبري هو الذي سيهزم جالوت البريطاني» ، هذا كان اعلان اخر من العصبة الاميركية دوى صداه مثل الرعد في شهر تموز / يوليو سنة ١٩٤٦ . بعد اسبوع عقد كوك مؤتمرا صحافيا . قال فيه : «أمم العالم المتحضرة يجب ان تقف مع احد الطرفين في هذا الصراع» . وأضاف «يجب ان تقف مع المعتدي البريطاني او مع الضحايا العبريين» .

السلطة الأهم التي كان يتمتع بها كوك هي ضمان مشاهير مستعدون للمصادقة على وجهة النظر تلك . فرانك سيناترة ، بوب هوب ، الأخوة ماركس وليونارد بيرنستين كانوا بين العديد ممن وقعوا للانضمام الى حملته . حتى أيضاً ، بشكل بارز ، فعلت ايليانور روزفلت . هم بالاضافة الى المال الذي أغدق به على الإعلانات الصفحة الكاملة ، ما كفل تغطية العصبة في الاعلام . لكن ليتاكد ان له نفوذ وسلطة في واشنطن العاصمة أيضاً ، استأجر غاي جيليت ، عضو سابق في مجلس الشيوخ من الديمقراطيين الذي خسر مقعد ولاية ايوا ، سنة ١٩٤٤ . وصف من قبل عضو من كادره بانه «ربما احد افضل الرجال من حيث المظهر قد عمل في هذه الهيئة» ، جيليت ذو الشعر الابيض يتمتع بالجاذبية والحضور الضروريين لإضفاء المعقولية على العصبة

في الكابيتول هيل (كناية عن الكونغرس الأميركي) .

حتى الان لم يكن البريطانيين على علم بصلة العصبة الاميركية بالارغون ، لذلك سمحوا لجيليت زيارة فلسطين تماماً بعد تفجير فندق الملك ديفيد . من القدس من شهر آب / أغسطس ذاك انضم السيناتور الى النداءات من اجل التخلي عن العرض القائم على ان تقوم الامم المتحدة بدور الكفيل على دولة فلسطين الفيدرالية . في برقية ارسلها جيليت الى ترومان ، ادعى ان هذه الفكرة التي قدمها تقرير المأمورية الإنكلو ـ أميركية ، «سيكون لها اثار تحول تلك الامة من دولة مستقلة تحت انتداب مؤقت الى مقاطعة في الامبراطورية البريطانية» . عندما عاد جيليت من فلسطين انتقد فكرة ان بريطانيا حضور يبعث على الاستقرار في الشرق الاوسط . وأصر على انه «اذا خرج البريطانيون ، لن يكون هنالك عداوة بين اليهود والعرب» .

مع اقتراب الجولة النصف نهائية للانتخابات ، جاء كوك بطريقة رائعة ليضمن ان تعلق فلسطين في أذهان كل من المصوتين والسياسيين . في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، مع تسعة أسابيع قبل الاقتراع ، قدمت العصبة الاميركية عرض مسرحية جديدة في البرودواي . بعنوان» ولادة علم» اعتمدت على علاقات كوك في مجال المنوعات والبرامج الترفيهية الى اقصى حد . المسرحية من تأليف الكاتب بن هيشت ، موسيقى المسرحية قام بها الملحن كورت وايل والتعليق من قبل مراسل الحرب كوينتين رينولد ، «ولادة علم» مسرحية تروي قصة ثلاث يهود ناجين من معسكرات الاعتقال يحاولون الوصول الى فلسطين . تعيقهم القوى العظمى ـ لكن بالأخص بريطانيا ـ فقط واحد ، «ديفيد» الذي يقوم بدوره الممثل مارلون براندو ، ينجو ويحقق ذلك في النهاية . «اين كنتم؟» يكرر براندو سائلا الجمهور في اللحظات الاخيرة من ذروة المسرحية . «اين كنتم . . . عندما كان القتل يستمر؟ عندما ستة ملايين احرقوا ودفنوا احياء متيبسين ، اين كنتم؟ . . . ولا في مكان! لأنكم كنتم تشعرون بالخزي من البكاء مثل اليهود!

اللعنة على صمتكم . والان انتم تتكلمون قليلا . قلوبكم تبكي ـ ومعكم الدولار من اجل يهود اوروبا . شكراً . شكراً» .

هذا الخطاب الذي ختم المسرحية حول المشهد الى إغاثة لجمع التبرعات . بعد نهاية كل عرض ، كان يقف المدير والأضواء مسلطة عليه ويعلن ان اي مال يتم جمعه هذا المساء سيتم مباشرة إرساله برقية للخارج لشراء سفن لأخذ اللاجئين اليهود الى فلسطين . جمعت المسرحية على الاقل ٤٠٠,٠٠٠ دولارا ـ اكثر بقليل من نصف دخل العصبة ٧٤٠,٠٠٠ دولارا سنة ١٩٤٦ . البرنامج التذكاري ، مع غلاف مرسوم عليه رسوم توضيحية يشبه العباقرة اليهود في فلسطين بالثائرين الأميركيين سنة ١٧٧٦ ، إشارة الى ما كان يشتريه هذا المال ، لانه يتضمن شعار الارغان ـ بندقية بقبضة يد تمسك خريطة فلسطين وترانس الأردن .

ألهبت المسرحية الجو السياسي المحموم في نيويورك ، حيث استفاد كوك والصهيونيون الآخرون من شكوك الحزبين الديمقراطي والجمهوري فيما اذا سياسة كل حزب منهما المتعلقة بفلسطين كافية حتى يربحوا «التصويت اليهودي» في المدينة . وكما وضعها موظف بريطاني فيما بعد ، كان الصهيونيون» ميالين للادعاء ان قوة تصويتهم حاسمة في مناطق معينة وتبدو الادارة مستعدة بالكامل لتصديقهم» . لكن ما كان هنالك من سؤال ان اليهود لهم شانهم في نيويورك . خاف الديمقراطيون عندما اكتشفوا ان حاكم الجمهوريين في المدينة ، توماس دووي ، عازم على اعلان دعمه للهجرة اليهودية الى فلسطين في اليوم السادس من شهر تشرين الأول / اكتوبر . حث مستشار ترومان ، ديفيد نايلز ، الرئيس على التقدم خطوة واحدة اخرى أبعد من الحاكم . في اليوم الرابع من شهر تشرين الأول / اكتوبر ـ في أمسية يوم خيبر ـ قام ترومان بذلك ، من خلال المناداة بإقامة «دولة يهودية قابلة للتطبيق» . بعد يومين عرض دووي اكثر ، نادى من اجل «السماح لمئة الف»

يهودي بالدخول الى فلسطين .

فشل تصريح ترومان بتغيير نتيجة انتخابات شهر تشرين الثاني / نوفمبر . تم اعادة انتخاب دووي بسهولة ليصبح حاكم نيويورك ، وربح الجمهوريون اغلبية الكونغرس للمرة الاولى منذ سنة ١٩٢٨ . ترومان نفسه ضجر من مضايقة الوفود اليهودية «الانانية» . «المسيح لم يستطع ان يرضيهم عندما كان هنا على الارض» ، قالها ترومان وهو يتنهد «إذن كيف لاي احد ان يتوقع انه سيحالفني الحظ بذلك؟» حاول فيما بعد ، بشكل مثير للضحك ، ان يدعي ان توقيت تصريح يوم خيبر لا علاقة له بالانتخابات ، لكن في شهر شباط / فبراير الذي تلا كشف بيفن عن ان وزارة الخارجية أخبرته ان بيان الرئيس كان محاولة للمزاودة على دووي . وليخفف بيفن عن نفسه ، اخبر مجلس العموم ان «في العلاقات الدولية لا يستطيع حل الامور اذا اصبحت مشكلته موضوع انتخابات محلية» . هذا البوح الانتقادي الجائر واللاذع الذي باح به بيفن ازعج ترومان . في نفس اليوم ، اذاع الناطق الرسمي باسم الرئيس تعنيفا بالكاد كان مخفيا ، مدعيا ان تصريح ترومان ليس فيه اي شيء جديد ، وببساطة كان يعكس «رغبة الرئيس بتقديم حل عادل لمشكلة فلسطين» .

مع ذلك لم يخفى على ترومان ان دعم دولة يهودية سياسة جيدة . موقفه كان له تأثير ليس فقط على الأميركيين اليهود ، بل على الشعب البروتستانتي قارئ الإنجيل الاكبر بكثير ، الذين رأوا الامر انه من واجبهم مساعدة الإسرائيليين على استعادة ارض الميعاد . لهذا السبب كانت دائما بروبغندا كوك تشير الى «العبريين» اكثر مما كانت تشير الى «اليهود» . اعترف العديد من الأميركيين بالصهيونيين على انهم رفاق مستوطنين ، كذلك السود الأميركيون كانوا ميالين الى رغبة ترومان في دعم المستضعفين . أظهرت الانتخابات حتى سنة ١٩٤٧ ان ، اثنين مقابل واحد من الأميركيين مع اقامة دولة يهودية . وكما لمح البريطانيون بطريقة هادئة ، سياسة ترومان كانت من

السياسات التي حتى الأميركيين المعادين للسامية قد يتفقوا على مساعدة اليهود ، لانه اذا لم يكن الوضع كذلك سيتوجب على الولايات المتحدة ان تجد وطنا ليهود اوروبا المطرودين .

الحسابات الاستراتيجية تهم أيضاً . في بداية شهر آذار / مارس خاطب الرئيس ترومان مجلس النواب في واشنطن وقدم سياسته الخارجية . قبل سنة قدمت له نصيحة من قبل موظف شاب رائع في وزارة الخارجية اسمه جورج كينان ، انه يتوجب على الولايات المتحدة ان تعمل على «كبح نزعات روسيا التوسعية بأناة ولأمد طويل لكن بصرامة وبتيقظ» . الان اعلن الرئيس ان حكومته ستقدم الدعم المالي لليونان وتركية ـ العمل الذي قامت به بريطانيا في الماضي ـ وحدد ما سيعرف بمبدأ ترومان . اعلن : «يجب ان تكون سياسة الولايات المتحدة دعم الناس الاحرار الذين يقاومون قمع الاعتداء من قبل أقليات مسلحة او من قبل ضغوطات خارجية» . أميركيا «يجب ان تساعد الناس الاحرار لتقرير مصائرهم على طريقتهم» . التعليقات كانت موجهة الى روسيا السوفيتية ، لكن بالطبع لديهم حالة مشابهة شائكة تتعلق ببريطانيا في فلسطين ، حيث قلق ترومان من «غريبي الأطوار والمنفردين بآرائهم» فقد «يحولوا البلد الى ستالين اذا سنحت لهم نصف الفرصة» .

حققت العصبة الاميركية هدفها . لم تعمل فقط على إجبار كلا الحزبين في الولايات المتحدة على شن حرب مراهنات حول هجرة اليهود ، لكنها أيضاً أثارت التوتر بين إدارة الولايات المتحدة والبريطانيين التي ستثبت في الوقت المناسب انها مهمة . كوك كان يشكل ملامح الرأي الأميركي : جدله الذي عمل هو على الترويج له الان اخذ يسمعه من الاخرين . مثلا كتب مسيحي ناشط في رسالة الى مؤتمر صهيوني : «نساء ورجال حركة المقاومة في فلسطين الشجعان ليسوا اكثر تطرفا من المستعمرين الأمريكيين الذين صعدوا الى المرفأ في حفلة الشاي في بوسطن (حفلة الشاي في بوسطن هي

قصة احتجاج سياسي سنة ١٧٧٣ من قبل الأميركيين الذين دمروا سفينة شحن كاملة من الشاي في ميناء بوسطن خربوا كل الشاي . كانت ردة فعل البريطانيين عنيفة أدت الى الثورة الاميركية واصبحت هذه القصة رمزا في التاريخ الأميركي) او الثوار الأيرلنديين فترة العشرينيات» ، تابع كلامه حتى يقترح ان «تستمر المقاومة ضد الطغيان البريطاني في فلسطين بنفس الروح المعنوية ـ وبقوة اكبر ـ في الايام الصعاب التي امامنا» .

في شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٤٦ أقام كوك فرعا للعصبة الاميركية في باريس في محاولة مماثلة لكسب التعاطف الفرنسي من خلال اظهار التساوي بين صراع الارغان والمقاومة الفرنسية فترة الحرب . بينما في أميركا سعت العصبة الى توقيع نجوم هوليوود ، العصبة الفرنسية من اجل تحرير فلسطين ، كما هو متوقع ، قدمت السجائر للمدخنين اصحاب الفكر ضمن مجموعة الريف غوش : حتى جعلت العصبة موقعها لمكان قريب منهم في فندق لوتيتيا في سان جيرمان . والريف غوش هذه (هي جماعة كبيرة من المفكرين والكتاب الفرنسيين البوهيميين تجتمع عند ضفة نهر السين الغربية ومنها أخذت اسمها) .

هدف العصبة الأعظم كسب دعم سيمون دو بوفوار وجان بول سارتر ، الذي كتب اثناء الحرب في «الكومبات» وهي صحيفة المقاومة التي ذات يوم كان يكتب فيها وزير الخارجية جورج بيدو . من خلالهما استمدت العصبة دعم العديد من الكتاب والفلاسفة الاخرين الذين تعرض أفكارهم في منشور أسبوعي ، اسمه «لا ريبوست» .

وقع أيضاً اعضاء كانوا في المقاومة في السابق ، منهم بشكل ملفت للنظر ، أدغار فور ودانيال ماير الذي اشترك مع بيدو في المجلس الوطني للمقاومة . وكذلك وقع العديد من السياسيين الفرنسيين الذين كانوا قلقين حتى يكفروا عن ذنب اشتراكهم بجريمة فرنسا في ترحيل اليهود الى المانيا اثناء الحرب .

من هذه الاتجاهات المتعددة صنع كوك صلته الاكثر اهمية - مع جورج بيدو نفسه ، الذي بذل قصارى جهده ليطمئنه ان الارغان سترعى الاماكن المقدسة المسيحية في الدولة اليهودية الجديدة .

ربما فعلت معاملة البريطانيين لرجل واحد اكثر من اي شيء اخر حتى يربح كوك المعركة لصالحه . دوف غرونر ، عضو في الارغان تم القاء القبض عليه من قبل البريطانيين بعد ان أصيب بجروح خطيرة اثناء اعتداء على مخفر الشرطة في مدينة رامات غان ، في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٦ . تهشم فكه جداً وأمضى أشهرا في المستشفى قبل ان تتم محاكمته . ولكن عندما أخيرا قام بذلك ، النتيجة كانت متوقعة . في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩٤٧ ، حكم عليه بالموت . ولانه لم يكن يعرف شرعية المحكمة البريطانية ، رفض الطعن في الحكم . ما جعل غرونر استثنائيا للغاية «انه قبل الانضمام الى الارغون قاتل مع الجيش البريطاني في الحرب . ولد في هنغاريا ، هاجر الى فلسطين في شبابه وتطوع ليحارب من اجل بريطانيا بعد ان نشبت الحرب سنة ١٩٣٩ . وعندما تم تعيينه في الوحدة المساعدة انشق وانتسب مجددا حتى يستطيع القتال على الجبهة الأمامية ، الشيء الذي فعله - على امتداد شمال افريقيا ومن ثم عبر اوروبا .

فكرة ان تعدم بريطانيا رجلا حارب ليحفظ حريتهم جذبت ذهولا دوليا وشجبا . حتى توقف الارغون اعدام غرونر ، خطفت موظفين بريطانيين في اليوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني / يناير . احدهما ، قاضي اسمه السير رالف ويندهام ، قبضوا عليه من المحكمة عندما كان يستمع الى قضية «مملة الى حدما» . اكتشف ويندهام اهتماما مشتركا في الموسيقى الكلاسيكية ، بينه وبين السجانين «كانا الى حد ما ودودين مع بعضهم» ، هذا ما تذكره القاضي بعد الإفراج عنه الشيء الذي حصل بعد ان قرر البريطانيون تأجيل اعدام غرونر . بقي غرونر في زنزانة الاعدام في شهري شباط / فبرايرو آذار

بينما كانت تقوم الحكومة البريطانية بمحاولة وساطة أخيرة غير ناجحة لعقد صفقة بين العرب واليهود ، ومن ثم من دون تطويل حكم عليه حكما عسكريا بعد تفجير اخر . بعد استئناف إجراءات قانونية مدنية ، تم اعدام غرونر من دون تحذير باكرا في اليوم السادس عشر من شهر نيسان / أبريل ، قبل ان تتمكن أخته التي تعيش في فيلادلفيا من رؤيته للمرة الاخيرة . كتب في رسالة تركها لتفتح بعد موته «لا أريد ان اكون شهيدا من اجل ديني» ، لكنني «مستعد لتقديم نفسي لاضحي من اجل شعبي ، تماماً كما فعل المسيح» .

«كانت جريمة من دون تحذير» ، صرحت العصبة الاميركية لتحرير فلسطين في اعلان اخر من نفس الاسبوع دعت فيه القراء الى «تشييد نصب تذكاري لدوف غرونر» من خلال التبرع الى «بالاستاين فريدم درايف» . «مبلغ سبعة ملايين وخمسمائة الف دولارا يوضع هذا المبلغ في الاماكن المناسبة الان سيجعلنا نربح المعركة للحصول على فلسطين . . . هذا النصر لن يعتمد فقط على الاعمال الخيرية او على مديح الافتتاحيات في عالم الصحافة . سيتم ربح المعركة من خلال العبريين الذين يحاربون بدمائهم وشجاعتهم . . . ودولاراتكم» .

وتدفقت الدولارات . بحثت العصبة في كل مكان من اجل الحصول على المال . حتى انها أقامت مناسبة لجمع التبرعات من اعضاء المافيا اسم العصابة الويست كوست مافيا . احدهم ، لص ومجرم اسمه ميكي كوهين لاحقا تباهى انه ساعد بالتبرع بمليون دولار للارغان ؛ المبلغ الحقيقي ربما كان عشر هذا المبلغ ، لكنه رغم ذلك يبقى ذا اهمية . الحكومة البريطانية التي كانت تتابع عمل العصبة بغضب متزايد ، حاولت مسبقا إقناع إدارة ترومان ايجاد طريقة لتجنب دعاياتها في الاعلام . وفي النهاية انفجرت عندما نشر كوك في شهر ايار / مايو ذاك رسالة اخرى مفتوحة في «النيويورك بوست» ، هذه المرة «الى ارهابيي فلسطين» بقلم بن هيشت . «كل مرة تفجر ترسانة

بريطانية او تخرب سجن بريطاني او تنسف سكة قطار بريطانية حتى يصل الى اعلى السماء ، او تسطو على بنك بريطاني ، او تحمل السلاح والقنابل ضد الخونة البريطانيين وغزاة بلدك ، ستنعش قلوب يهود أميركا بذلك . ليس كل اليهود بالطبع . المرة الوحيدة التي يمثل فيها اليهود جبهة موحدة عندما يتكدسون في حفرة مجزرة» .

«ماذا لو فعل الشيوعيون البريطانيون نفس الشيء في الاعلام البريطاني؟» تساءل بثورة غضب السكرتير الدائم في وزارة الخارجية عندما التقى بلويس دوغلاس السفير الأميركي في لندن . من الظاهر انه «توسل» الى دوغلاس ان يفعل ما يستطيع عليه ليوقف العصبة عن الاعلان ، لكن من دون فائدة . في البداية شعر البريطانيون ان الادارة خائفة من اللوبي اليهودي الأميركي ، لكن اتضح ان عوامل اخرى ثانوية وتبدو غير هامة هي التي تتحكم في ذلك . حيث اعترف بذلك موظف بريطاني : «المشكلة الحقيقية ، بالاضافة الى المنحى السياسي الداخلي ، هي النقص الواضح في العقوبات القانونية التي يمكن ان توضع موضع التطبيق من قبل حكومة الولايات المتحدة» . نتيجة لذلك ، لم تتابع فقط العصبة الاعلان في الاعلام ، بل وكانت أيضاً معفاة من الضرائب لانها كانت هيئة لا تحقق مكاسبا مادية .

قام ترومان بإصدار مناشدة في الشهر التالي ، طالبا من مواطني الولايات المتحدة «الاحجام . . . عن الاشتراك او تسهيل أية نشاطات قد تنزع الى إلهاب مشاعر سكان فلسطين اكثر ، الى تقويض النظام والقانون في فلسطين او الى ترويج العنف في ذلك البلد» ، لكن الجمعية لم تكن منزعجة . سئلت فيما اذا كانت تنوي الأخذ بطلب ترومان ، جواب الناطق الرسمي باسمها كان قصيرا وفظا .

قال : «طبعا لا» .

الفصل الـ ٢٨

الدسائس الصهيونية الفرنسية

ساعات قبل اعدام دوف غرونر في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٧ فتاة شابة أنيقة مغناج تحمل حقيبة يد زرقاء أنيقة ورزمة ملفوفة بورق صحيفة اتجهت الى حارس في مركز قيادة مكتب الاستعمار في الوايتهول وسالت فيما اذا كان بإمكانها استعمال دورة المياه لحاجة ملحة . عندما بدا وكانه سيرفض اعترفت انها تريد إصلاح نسل في جواربها . تحركت شهامته ـ او من المحتمل مخيلته ـ بسبب هذه التفاصيل الإضافية ، طري الحارس وأشار لها الى مكان الحمام في القبو . كان فقط حتى وقت لاحق من نفس اليوم ، بعد مدة طويلة من وجود ورحيل الفتاة ، أن وجدت عاملة التنظيفات رزمة متروكة على مقعد المرحاض . التقطتها ومزقت الجريدة وسحبت سلكا وأدركت انها كانت تحمل قنبلة . لم تنفجر فقط لان ساعة التوقيت كانت عالقة .

ما ان تم نزع الفتيل ، حتى زودت القنبلة «سكوتلاند يارد» بدليلين اثنين هامين . تتألف من اثني عشر عود من الجيليغنيت (نوع من الديناميت يستخدم للنسف) الفرنسي الصنع والتي كانت مغطاة ببصمات رجل هارب

من السجن في فلسطين سنة ١٩٤٣ تذكر الحارس تفصيلا آخراً مهما . المرأة الشابة المرتبكة التي تركت القنبلة كانت تتكلم الانكليزية بلهجة فرنسية . المحقق الرئيسي جونس في الفرع الخاص سافر بسرعة الى باريس . اخفت الصحف عندما كتبت بغية التستر انه «بعد القيام بعدة استقصاءات محددة «ذهب الى مؤتمر مع ضباط كبار من شرطة فرنسا . من المحتمل انه تكلم أيضاً مع جون بروس ـ لوكهارت الذي يتمتع باهمية الى اعلى مستو وهو رئيس محطة الام أي ٦ في باريس .

بالرغم من ان الحكومة البريطانية تعلم منذ فترة ان الارغون وعصابة الستيرن يخططان لاستخدام باريس كقاعدة لاغتيال سياسيين بريطانيين رئيسيين من بينهم تشرشل وبيفن ، لم يتمكن بروس-لوكهارت من تقديم معلومات مفيدة اكثر . قلق ضباط مخابرات بريطانيين في فلسطين ، بعد ان عرف الكولونيل اليساندري من المكتب الاسود باهتمامهم به وعاد الى فرنسا ، ولانه لن يكون من السهل متابعة «مراقبة الدسائس بين الفرنسيين والصهيونيين عن قرب . . . في باريس كما هو في الشرق الاوسط» ، ونقص المعلومات المهمة الذي نتج عن ذلك اثبت لهم انهم على حق . في بداية سنة ١٩٤٧ كتبت محطة الام أي ٦ في باريس تقريرا ان السورتيه الفرنسية التقت بميناحيم بيجن في باريس . بعد شهر أضافت انه يعتقد ان زعيم الارغان قد قام بعمليات جراحية تجميلية ليغير مظهره ، معترفة ، «ليس لدينا وصفا لوجهه الجديد» . بيجن ، الذي كان في تل أبيب كل تلك الفترة ، قام بالفعل بجهود لتغيير مظهره ، لكنه فقط نما لحية .

هذا كله جعل ظهور المحقق الرئيسي جونس مرحباً به اكثر ، لانه أخيرا احضر معلومات دامغة . كان قادرا على اخبار بروس ـ لوكهارت والفرنسيين ان الرجل الذي بصماته على القنبلة هو ياكوف لافستين عضو في عصابة ستيرن .

من مواليد روسيا ، عمره ثلاثين سنة متفوق بصناعة القنابل ، جرح واعتقل في مداهمة الشرطة الاولى بعد خيانة العصابة في شهر شباط / فبراير سنة ١٩٤٢ . حيث قادت امه من دون قصد الشرطة من جانب سرير المستشفى الى مخبأ ستيرن في تل أبيب ، وقتها اطلق الرصاص المحقق البريطاني جيفري مورتون على زعيم العصابة الجذاب وقتله . شفيت جروح لافستين وحكم عليه بالسجن المؤبد ، لكنه لم يبقى في السجن الكثير من مدة حكمه . بعد ثمانية اشهر هرب وبقي طليقا حتى انتهت الحرب ، بعد ذلك شق طريقه من فلسطين ، عبر مصر ، الى فرنسا . مشوشا ومحطما . محاطا بالمتعاطفين ومغمورا بالاسلحة ، البلد كان المكان المناسب له ليفتح جبهة جديدة ضد البريطانيين .

عندما وصل لافستين الى باريس ذهب اليوزارة الخارجية الفرنسيه وحاول الاتصال باليساندري ، لكنه اخبر ان ضابط المخابرات الفرنسي تم تعيينه لفترة مؤقتة في تونس . بعد حوالى شهر كما كان يتذكر فيما بعد ، اخبره بواب الفندق الذي كان نزيلا فيه ان لديه زائر مظهره يوحي انه ذو شان يريد ان يراه . «بسرعة وضعت معطفي وربطة عنقي» ، كما تذكر لاحقا ، «و نزلت الدرج ، رجل فرنسي طويل أرستقراطي المظهر وقف هناك مع عكاز ونظارة بعين واحدة وقبعة طويلة . بعد ان تحقق من هويتي عانقني مثل صديق قديم . تحدثنا لبضع دقائق ، واخبرني انه سيجمعني مع جهات فرنسية رسمية محددة لنبدأ التفاوض» . كتب لافستين الى فلسطين ان الكولونيل اليساندري قد وجده .

التقى لافستين باليساندري مجددا بعد عدة ايام . في ذلك الوقت مبعوث عصابة الستيرن لدى الفرنسيين في بيروت غابرييل ميسيري ، انضم الى لافستين ، واحضر اليساندري معه اندريه بلوميل محامي ومستشار رئيس الوزراء الفرنسي السابق ليون بلم ، اول قائد يهودي لفرنسا . طلب الان لافستين وميسيري من اليساندري وبلوميل «أسلحة ، وقاعدة سرية لخوض

حرب ضد لندن . «حسب لافستين» ، اخبرنا بلوميل ان لديه أوامر ليخبرنا باسم الحكومة الفرنسية ان الحكومة مستعدة من حيث المبدا على توقيع اتفاق مع ليهي ، وتحتاج فقط الى بضعة ايام لتدرس الامر بشكل كامل» . بالرغم من ان بلوميل كان غير قادر في النهاية على عقد اتفاق لان الحكومة الفرنسية «قد تدخل في مشكلة سياسية مع البريطانيين» ، كتب ان الفرنسيين ما زالوا يحققون فيما اذا بإمكانهم تقديم دعم سري . «هو . . . امل ان تحصل ليهي على كل المساعدة التي تحتاجها في كفاحها ضد البريطانيين» . في المقابل ، وافقت عصابة الستيرن على عدم شن اعتداءات على بريطانيا من فرنسا نفسها .

أيضاً أجرى لافستين اتصالا مع رجل اسمه ديفيد نوت ، شاعر يهودي روسي اخر ، الذي ساعد على تأسيس منظمة مقاومة يهودية تدعى»أرميه جويف» شهر كانون الثاني / ينايرسنة ١٩٤٢ . بعد ان حرمت حكومة فيتشي اليهود من الحياة العامة وبدات بترحيلهم ، من شهر تموز / يوليو سنة ١٩٤٢ كان لدى كل يهود فرنسا كل دافع لينضموا الى المقاومة ، التي لعبوا فيها دورا حيويا بشكل متفاوت . هربت هذه المنظمة اليهود الى خارج فرنسا والمال هربوه الى الداخل ، وحاولت اغتيال مخبرين خانوا اليهود . في فصل الخريف سنة ١٩٤٣ أسست «ماكيز» لنفسها في الجبل الاسود ، قسم وعر من جنوب غرب فرنسا حيث كان نشاط المقاومة فيه مكثفا الى اقصى درجة . لكن بالنسبة الى نوت كان للمنظمة»ارميه جويف» غاية اخرى هامة . بعد الحرب توقع منها ان تساعد على اقامة دولة يهودية في فلسطين . كتب : اليهود «اما سيعودون ليعيشوا جميعهم معا او سيموتون فرادى» .

حتى يساعد نوت لافستين ، تطوع بابنته اسمها بتي ، جميلة عمرها تسعة عشرة سنة التي كانت مسبقا قد عرضت نفسها للموت بسبب عملها مرسالة لهذه المنظمة»ارميه جويف» . معا لافستين وبتي نوت عادا وانعشا شبكة

المنظمة فترة الحرب ، عملا على تخصيص مخابئ للأسلحة ، جندا اعضاء جددا وأنتجا منشورا خاصا بالمنظمة اسمه «لااندبياندانس» أيضاً طلب لافستين دعم جان بول سارتر ، الذي كان قد وقع للتو على تأييده لعصبة هيليل كوك العصبة الفرنسية من اجل تحرير فلسطين ، وتمكن من توظيف احد طلاب سارتر في السوربون اسمه روبرت ميزراهي ،لينفذ اول عملية تفجير له على الارض البريطانية . في اليوم السابع من شهر آذارس ما ترك ميزراهي قنبلة ـ والتي كانت داخل معطف في احد الاسفنجات الداعمة للاكتاف تم استبدالها بالجيلغنيت (نوع من الديناميت) ـ في نادي المستعمرات ، وهو نادي اجتماعي للرجال العاملين في الخدمة العسكرية ، بعيدا عن ساحه «ترافالغر سكوير» في لندن . قالت الشرطة ان سبب الانفجار تسرب في الغاز ، لكن بعد يوم واحد في بيان أذاعته عصابة الستيرن قالت انها هي المسؤولة ووعدت ان الاعتداءات ستستمر حتى تخرج بريطانيا من فلسطين .

كتب لافستين لاحقا : «ما من إجراءات أمنية بإمكانها إيقاف تخطيطات متطورة واسعة الخيال» ، كتب ذلك وهو مسرور من السهولة التي نفذ بها ميسراهي مهمته . ما لم يخطط له هو ماذا سيحصل اذا لم تنفجر احدى قنابله . نتيجة لذلك ، عندما لم تنفجر قنبلته التالية ، زودت جونز من الفرع الخاص في لندن بدليل كاف حتى يأتي الى باريس ليحث الفرنسيين على مطاردته . في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان / أبريل كتبت صحيفة «اللوموند» ان البريطانيين يطاردون امرأة فرنسية لها صلة بالقنبلة التي اكتشفت في وزارة المستعمرات . لم يعرفوا حتى هذه المرحلة انها كانت بتي نوت .

لم يكن سهلا إقناع الشرطة الفرنسية اتخاذ إجراءات صارمة ضد الإرهاب اليهودي ، لان وزير الداخلية في ذلك الوقت أدوارد ديبرو كان متعاطفا مع الصهيونيين . اشتراكي كل حياته ، ديبرو أيضاً كان معجبا كبيرا برئيس الوزراء السابق بلم . كان بلم قد أمضى سنتين في الحرب في بوكنوالد (احد اكبر

المحارق على ارض المانيا) ومن ثم داكوا (محرقة لليهود أيضاً) يوميا كان يتوقع إعدامه ، اعلن بعد تفجير فندق الملك ديفيد ان الإرهاب اليهودي «لم يكن سوى شكل يائس للثورة» . لام رئيس الوزراء الفرنسي السابق الحكومة البريطانية على تحريضها للإرهاب «من خلال إغلاق درب تلو الاخر من دروب الأمل لليهود في فلسطين وللصهيونيين عبر العالم» .

اتبع ديبرو نفس الخط . عندما احتجزت شرطة جنوب فرنسا بضاعة أسلحة للصهيونيين سنة ١٩٤٦ ، تدخل وامر بالإفراج عن الاسلحة حتى يكون بالإمكان شحنهم الى فلسطين . أيضاً كان له يد في تأكيد قرار الحكومة الفرنسية في ربيع سنة ١٩٤٧ ، بان لا يضيع موظفوها الكثير من الجهد يحققون في فيز هؤلاء المغادرين من فرنسا ، وعندما هرب خمسة اعضاء من الارغون وعصابة الستيرن من مخيم سجن بريطاني في اريتيريا وتمكنوا من الوصول الى المستعمرة الفرنسية المجاورة جيبوتي ، كان ديبرو الذي عرض عليهم اللجوء في فرنسا . احد الخمسة اسحاق شامير يتذكر كيف لدى وصولهم الى طولون هو وقائد عصابة الستيرن أريحه بن - اليزار تلقيا احر استقبال ممكن . . . كانوا أصدقاء قدامى من لوهي والارغان ، واعطي لي ولاريحه إذن حتى نبقى في فرنسا قدر ما نحب» .

بعد ان تم الكشف عن ان البريطانيين يطاردون بيتي نوت ، وتم الكشف عن دورها في المقاومة فترة الحرب ، اصبح من الواضح بسرعة ان السورتيه لن تبذل اي طاقة للعثور عليها . كما صورت احدى الصحف الباريسية التوتر بين اسكوتلاند يارد والسورتيه «الاولى تريد اعدام بيتي والاخيرة تريد إنقاذها» بعد خمسة أسابيع من ظهور رئيس التحقيق جونز في باريس اخيرا داهمت الشرطة الفرنسية شقة في الحي اللاتيني معتقلة خمسة طلاب بعضهم مسجل في السوربون المجاورة . لفائف متفجرة بلاستيكية وعدة لصناعة القنابل التي وجدت هناك تتطابق مع قنبلة وزارة المستعمرات ، ولكن لم يكن هنالك

اي علامة على وجود لافستين او نوت . ليحافظ على اتفاقه مع بلوميل ان لا يثير الحرب من على تراب فرنسا ، كان لدى لافستين حقيبة ظهر مثقلة بالرسائل المفخخة مكتوب عليها عناوين السياسيين البريطانيين البارزين عبر حدود الألب الفرنسية مع ايطاليا حتى يتمكن من إرسالهم بريديا من مدينة تورين . وصلت الرسائل الى بريطانيا في الاسبوع الاول من شهر حزيران / يونيو ولحسن الحظ لم تنفجر ولا واحدة منها ، وجدت الفحوصات الجنائية لاحقا انه بالرغم من ان المغلف رفيع لدرجة تخدع النظر ، اخترع لافستين قنبلة قوية كفاية لتنسف ثقبا في صفيحة من الفولاذ . شعرت سكرتيرة وزير المالية ان رسالتها أخذت حرارتها تزداد عندما بدات تفتحها ، والمرسال الذي وزعها للتو سحبها منها وألقى بها في سلة المحروقات . حمل أنتوني أيدن رسالته معه كل اليوم في زيارته للاحتفال السنوي في اليوم الرابع من شهر حزيران / يونيو في مدرسته القديمة أيتون . اقل شخص يستحق هذه الرسائل مدير مصبغة نوروود وديلويش في منطقة جيبسي هيل ، جنوب لندن . الذي سوء حظه ان اسمه يشبه اسم صراف الرواتب أرثر غرينوود . بشكل مثير للاهتمام ، لويس سبيرس استلم رسالة أيضاً .

حتى ذلك الحين كان قد تم إلقاء القبض على كل من لافستين ونوت . في مهمة الى بلجيكا لإرسال رسائل مفخخة ولمحاولة نسف مدمرة بريطانية زائرة ، تم إيقافهما على الحدود من قبل موظفين جمارك بلجيكيين الذين اكتشفوا ان نوت ترتدي سترة من الديناميت وان صندوق السيارة يخفي مكانا فيه رسائل مفخخة مطابقة لهؤلاء الذين ظهروا في بريطانيا . نوت كانت تحمل نفس حقيبة اليد الزرقاء التي تم رؤيتها تحملها في وزارة المستعمرات .

بدأت الحكومة البريطانية الان في ممارسة الضغط على البلجيكيين لتسليم كل من نوت ولافستين الى بريطانيا ، لكن البلجيكيين رفضوا القيام بذلك ، واصفين جريمتهما على انها «سياسية» . المحامي الموالي

للصهيونيين اندريه بلوميل زارهما كلاهما ونظم الدفاع عنهما . في شهر أيلول / سبتمبر ذاك ، غرمت محكمة في «مونس» نوت بألف فرنك وحكمت عليها بالسجن اثني عشر شهرا . لافستين ، الذي أعطى نوت اغلب المتفجرات لتعبر الحدود حكم عليه بثمانية اشهر وغرامة قدرها نصف قيمة غرامة نوت . حكمه على الاقل يعني عدم تنفيذ فكرته الشيطانية والتي كانت تسميم تمديدات مياه لندن ببكتيريا الكوليرا التي زوده بها المتعاطفون العاملون في معهد باستور في باريس .

أخذ البلجيكيون بعين الاعتبار الزمن الذي قضاه لافستين سابقا في السجن ، لذلك اطلقوا سراحه بعد اربعة اشهر . ولكن عندما عبر صانع القنابل عائدا الى فرنسا تم اعتقاله مجددا من دون ابطاء . «اعرف كل شيء عنك . لا تستطيع إخفاء اي شيء عني» ، قال له رئيس الشرطة الفرنسية المحلية عندما تم إحضاره الى مخفر الشرطة : «اخبرني ، بيننا ، هل تحاول حقاً قتل الرجال الإنكليز؟» عندما حاول لافستين إنكار تورطه بعصابة الستيرن ، اتخذت المحادثة مجرى غير متوقع . اخبره رجل الشرطة «على الواحد قتل البريطانيين أينما يجدهم» ، مضيفا «الكذب عندهم مرضي وبهذه الطريقة حكموا العالم كله . رايتها بنفسي . خدمت في سورية ولبنان في جيش ديغول الفرنسي الحر . أريقت دماؤنا لمساعدة البريطانيين في المشرق ، وبعد ان استلموا مكاننا في لبنان وسورية رموا بنا للكلاب» . ومع هذا قدم زجاجة نبيذ وسكب للافستين ولنفسه الشراب .

تم طي عملية لافستين في باريس لكن ، على بعد مسافة قصيرة الارغان ما زالت نشيطة . زعيمها ايلي تافين ، خريج فلسفة من الجامعة العبرية في القدس ، كان رئيس مخابرات المنظمة في فلسطين حتى تم اختطافه وتعذيبه من قبل الهاغانا اثناء تنفيذ الإجراءات الصارمة ضد المنظمات الإرهابية بعد اغتيال اللورد موين . اطلق سراحه في نهاية الحرب عندما قرر بن - غوريون ان

الهاغانا يجب ان تتعاون مع الارغون وعصابة ستيرن ، ذهب تافين الى ايطاليا ليبحث عن اليهود اللاجئين وليدربهم حتى يصبحوا إرهابيين وينظم دخولهم الغير شرعي الى فلسطين . بقي هناك حتى احد الايام في شهر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٤٦ اتصل به مرسال يهودي شاب من جنوب افريقيا اسمه صموئيل كاتز . كعب حذاء كاتز كان يحتوي على رسالة مخفية الى تافين تخبره ان يذهب الى باريس ليستلم قيادة عمليات الارغون هناك . قبل ان يقوم بذلك ، كان عليه ان يفجر السفارة البريطانية في روما ، التي كانت في تلك المرحلة مركز محاولة بريطانيا لإعاقة عملية هجرة اليهود الى فلسطين .

في الساعات المبكرة من اليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول / اكتوبر تركت الارغان حقيبتين داخلهما متفجرات شديدة الخطورة خارج السفارة البريطانية . نتيجة الانفجار نزعت واجهة البناء ، كانت هذه المحاولة في السابق قد تعززت بسلسلة من المكالمات الهاتفية التهديدية بأسماء مستعارة موجهة للسياسيين البريطانيين والضباط العسكريين ، أثارت عناوين مقلقة في الصحف البريطانية . كاتز ، الذي بعد لقائه بتافين ذهب للعاصمة البريطانية ليقييم عواقب اعتداء روما ، كان مسرورا من رؤيته لوحات الإعلانات الكبيرة في الطرقات تعلن «الارغان تهدد لندن» . كما عكس لاحقا ، هذه كانت مبالغة مهتاجة وبناء على ذلك مفيدة ومبالغة لقدرة الارغان الهجومية وقتذاك . «حتى ربيع سنة ١٩٤٧ لم يكن هنالك حتى اي خطة محددة للعمليات هناك ، وحتى ما من احد في انكلترا يستطيع تنفيذها» .

وصل تافين الى باريس ليجد ان من كان قبله شمويل ارييل ، قد توصل الى تفاهم مع الحكومة الفرنسية ، من نفس نوع التفاوض بين عصابة الستيرن واليساندري . الارغون وعصابة الستيرن يمكنهما ان يرا باريس قاعدة على ان لا ينفذوا عمليات ضد البريطانيين من على التراب الفرنسي : قبل ان تقوم الأميرة إليزابيث ـ الملكة الحالية ـ بالزيارة سنة ١٩٤٨ ، التقت الشرطة

الفرنسية مع الاورغون وجها لوجه لتتأكد للمرة الثانية انهم لن يحاولوا قتلها . أيضاً جعل ارييل فندق لوتيتيا مقرا له ، الفندق الكبير في سان جيرمان كان مسبقا مقر واجهة الارغون الاخرى ، العصبة الفرنسية من اجل تحرير فلسطين . اختيار هذا الموقع ساهم في قرار قيادة الارغون تبديل ارييل بتافين ـ على أساس ان ارييل يعيش حياة بزخ بالنسبة لممثل منظمة تدعي الفقر ـ لكن في الحقيقة الموقع كان مصدر الهام .

لان هذا الفندق ، الذي استولت عيه المخابرات العسكرية الالمانية فترة الحرب ، اصبح الان دارا لاستقبال رفاق عائدين الى فرنسا كانوا في السابق في معسكرات الاعتقال . كان الناجون يرسلون صورا فوتوغرافية ومواصفات العائلات المفقودة والأصدقاء ويضعونها على لوح كبير خارج لوبي الفندق . بهذه الطريقة بدا بوضوح حجم المحرقة : لوتيتيا كان المكان النموذجي لتوظيف مؤيدي قضية الارغون في فلسطين .

اول الرجال الذين طلبوا مساعدة تافين لم يكن احد الناجين عائد من مخيمات الموت لكن حاخام عمره ثلاثة وثلاثين من نيويورك . باروش كورف هاجر الى الولايات المتحدة عندما كان عمره اثني عشر سنة . هناك عندما بدات الحرب اشترك في عصبة كوك الاميركية من اجل تحرير فلسطين ، وكانت مهمته محاولة التأكد ان العصبة ومنظمات اخرى تحمل نفس الأفكار تستلم حصة الاسد من رخص جمع التبرعات من الشوارع والتي يتم إصدارها من قبل الجهة المسؤولة في المدينة عن تخصيص أموال الإغاثة العامة . كان من الواضح انه رجل له قدرة على الاقناع . امرأة عملت في المدينة ، أخبرت البريطانيين فيما بعد ان «شخصيات من اعلى المراكز» في الادارة ومجلس البلدية عملوا بين وقت واخر على توسيع القوانين لتمكين الجماعات اليهودية من الحصول على ايام جمع اكثر ، وأيضاً حجزت مواعيدا مقدما لمدة طويلة لجماعات تفضلها عن غيرها» .

في اواخر صيف سنة ١٩٤٧ ، انتقل كورف الى باريس ليرى اذا بإمكانه إحراز تقدم في مشروع جنوني بان يهبط اليهود بالمظلات الى فلسطين ، هكذا يحتالون على الجهود البريطانية لإيقاف هجرة اليهود عن طريق البحر . لكن عندما وضع فكرة امطار اليهود الى ارض الميعاد تحت تصرف وزير خارجية فرنسا ، رفض طلبه بشكل لبق . لذلك عمل كورف على اعادة النظر بمخططه . قرر استئجار طائرة خاصة ليسقط اولا بروبغندا ومن ثم قنابل على لندن ، بدلا عن خطته الاولى . طبع عشرة آلاف نسخة من كتيب يعلن ان الحكومة البريطانية «غمست تاج جلالته بدم اليهود ولمعته بالنفط العربي» ، ويدعو من يستلم هذا الكتيب الى الضغط على الحكومة البريطانية حتى «تترك . . . اسرائيل الان» ، استأجر كورف طيارا ونظم موعدا معه في ميناء جوي على بعد عشرة أميال خارج باريس في وقت مبكر من يوم الرابع من شهر أيلول / سبتمبر . لكن الطيار كشف هذه المعلومات الى السورتيه الفرنسية . وبنهاية للقصة بطريقة غير معقولة من كثرة ما كانت مناسبة ، عندما التقى مع كورف في مهبط الطائرات تم اعتقالهما من قبل فرقة تتالف من عشرين رجل شرطة متنكرين على انهم ميكانيكيون .

رغم ذلك لم يبذل الفرنسيون اي جهد على الاطلاق لاعاقة الجهود الصهيونية لتنظيم هجرة غير شرعية كبيرة الى فلسطين من جنوب فرنسا . في شهر آذار / مارس من تلك السنة قرر مجلس الوزراء الفرنسي عدم فرض تفتيش صارم على الناس الراغبين بمغادرة البلاد ، مع عواقب اصبحت بشكل مباشر واضحة . قبل ان ينصرم الشهر زار السفير البريطاني دوف كوبر وزارة الخارجية الفرنسية ليسجل احتجاجا على «التراخي الفرنسي في منع المغادرات الغير شرعية لليهود الى فلسطين» . بيدو ، على السطح كان متعاطفا ، استمر في عدم فعل اي شيء لمساعدة كوبر . الفت احد الصحف كلاما متبادلا بين مجموعة يهودية تريد ان تهاجر ورجل شرطة في صيف سنة ١٩٤٧ . الى

اين ذاهبون؟ سال رجل الشرطة . «ذاهبون الى بوليفيا» ، رد قائد المجموعة وهو يجمع فيزهم ويقدمها له ليثبت ذلك . «بلد جميل» ، يعلق الشرطي وهو يحدق في الوثيقة وسلمها اليه» . اعرفها جيدا . خدمت ثلاث سنوات في سورية» .

سرعان ما جاء يهود من كل اوروبا ليصعدوا على متن السفن الراسية في موانئ فرنسا الجنوبية . مع اقتراب منتصف سنة ١٩٤٧ قوافل من الشاحنات تحمل بين مئة الى خمس مائة يهودي كانت تصل الموانئ مساء كل يومين . في البداية وقتوا عبورهم للحدود الفرنسية في عطل نهاية الاسبوع ، عندما يكون عدد الكوادر في مراكز الحدود غير كاف والموظفون الحاضرون يرغبون بحياة هادئة قدر المستطاع . اكتشفوا بالتدريج ان العديد من الموظفين متعاطفون معهم . كذلك ايضا كان حال مجموعة الصيادين ، الحمالين وعمال الشحن في الموانئ . حتى في احدى المراحل أوقف شيوعيون إضراب عمال نقليات بضائع حتى تتمكن قافلة من اليهود من الوصول الى مارسيل .

في الميناء ، كان يتم مساعدة اللاجئين للصعود على متن العديد من السفن الغريبة التي تمكنت الهاغانا من الحصول عليها من خلال الخدمة المسؤولة عن الهجرة تسمى «الموساد» . «ما هذا بحق الجحيم» ، قال رجل الهاغانا في باريس عندما تم فحص صلاحية ابحار احد المراكب التي اشتراها ، «اكتشف كولومبوس أميركيا في مركب وزنه تسعة وأربعين طنا» . قدر قراء الصحف الفرنسية الظروف التي مر بها المهاجرون في طريقهم الى فلسطين من خلال مراسلين صحفيين فرنسيين الذين زرعتهم الهاغانا على متن السفن . «اذا عشت حتى المئة سنة ، لن أنسى تلك الساعات المشؤومة ، التي يحوم فيها الموت فوق تيودور هيرزل ، غيتو عائم مكسو بالقذارة والدماء ، بالتنهدات والشتائم» ، هذا ما كتبه احدهم اسمه بيير جوفروي ، في «لو باريسيان ليبيغه» .

لجا البريطانيون الى إجراءات متطرفة ليحاولوا إيقاف حركة المرور . نهاية سنة ١٩٤٦ طلبت الحكومة مساعدة الام اي ٦ التي جاءت بسلسلة من الخطط ، من بينها التلاعب بإمدادات مياه وطعام السفن وإشعال الحرائق ، ليلقى باللوم على منظمة إرهاب عربية جديدة تم اختراعها . في اليوم الرابع عشر من شهر شباط / فبراير سنة ١٩٤٧ ، أعطت الحكومة إذنا للقيام بعمليات اعتداءات على سفن فارغة في المياه الايطالية . لكن ليس في المياه الفرنسية . تم مهاجمة خمس سفن .

السفينة الاكثر شهرة من بين السفن التي غادرت مارسيل تدعىٰ»اكسودوس» التي كان اسمها في السابق «الرئيس وارفيلد» كانت تبحر بانتظام عابرة خليج الشيسابيك من مدينة بالتيمور . قبطانها من مواليد الدانزيغ واسمه اسحاق اهارونوفيتش ، البحار الحاصل على تأهيله في الملاحة من لندن ، بعد ذلك عاد الى فلسطين لينضم الى «الباليام» وهي وحدة الملاحة شقيقة «البالماخ» . بسرعة تميز اهارونوفيتش عن بقية العسكر العاديين برتب متدنية ، ربما فقط لان «الباليام» ليس لديها بحار محترف اخر . في نهاية سنة ١٩٤٦ تم إرساله الى بالتيمور ليشرف على الصدع في احدى السفن البخارية القديمة وليطور جودة محركاتها . وبقيادة اهارونوفيتش ورفرفة علم بلد الهوندوران(مدينة صغيرة جداً تقع في أميركيا الوسطى) ، هدر صوت محرك الباخرة التي اسمها «الرئيس وارفيلد» وهي تبحر عبر الاطلسي الى ان وصلت الى مارسيل في اليوم الثاني عشر من شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٧ ، هناك بقيت السفينة ثلاثة أسابيع . عقب اعدام دوف غرونر ، أرادت الهاغانا الان تحريض البريطانيين حتى يتصرفوا بصرامة ومن دون حسابات بينما الاعلام الدولي ما زال مهتما . تم تغيير اسم الباخرة «الرئيس وارفيلد» باسم «ايكسودوس» حتى تكون الوسيلة التي سيحققوا هدفهم من ورائها .

ولانه كان يتم أخذ الإمدادات في مارسيل ، ابحر وقتها اهارونوفيتش

بالاوكسودوس باتجاه الغرب من ميناء «سيت «حتى ينقل ركابها على متن الاكسودس . الميناء كان معروفا جيدا باستعداده لمساعدة اليهود . المفوض المحلي كان وزير المواصلات اليهودي ، جوليه موش الذي اغتيل ابنه من قبل الغيستابو(البوليس السري النازي) اثناء الحرب ، بينما احد أقارب موشي كان رئيس البلدية . خلال الايام الثلاثة التالية صعد على ظهر الباخرة اكثر من اربعة آلاف وخمسمائة راكب . هؤلاء الذين اختارتهم الهاغانا ، وبعد ان فكروا بالأضواء التي سيتم تسليطها عليهم . فيما بعد ، قال احد هؤلاء الذين تم اختيارهم بانه سر معروف جدا بان السفينة تحتوي على كمية كبيرة من النساء الحوامل في الاشهر المتقدمة من الحمل ، أمهات مع أطفال صغار السن ، العجزة والمرضى . مرصوصين في السفينة بأسرة من ثلاث طوابق ، أبحروا نحو فلسطين في اليوم الثاني عشر من شهر تموزيوليو . خطة اهارونوفيتش كانت ان يبحر قرب فلسطين قدر الإمكان ثم يحاول ان يسبق البحرية الملكية من خلال فتح محركات السفينة الى اقصى سرعتها والتي تساوي عشرين ميلا حسب المقاييس الملاحية .

كانت الحكومة البريطانية تعلم ان المواجهة قادمة . حذرها عملاؤها في جنوب فرنسا ان الموساد لديهم بقدر ثلاثين ألف لاجئ جاهز للإبحار ، ولدى الام أي ٦ يختا على ظهره عملاء مخربون (مهمتهم شل وتدمير عدوهم في البحر) كانوا يمشون في ظل الاكسودس . لكن حتى ذلك الحين رفضت وزارة الخارجية القيام باي عمليات تخريب اخرى ، ولم تعطي الام أي ٦ إذنا حتى تحاول تدمير الباخرة . ما ان أبحرت الاكسودس الى فلسطين في اليوم الثاني عشر ، اشتكى رسميا بيفن الى بيدو . عندما أشار بيدو الى انه ، اذا كانت البحرية الملكية قادرة على اعتراض السفينة ، قد يعود ركابها الى فرنسا ، قررت الحكومة البريطانية ان ترتقي الى مستوى تحدي الهاغانا . اخبر السكرتير المسؤول عن الشؤون الاستعمارية أرثر كريتش جونز ، المندوب

السامي البريطاني في فلسطين ان يبعد ركاب الاكسودس حتى يطبقوا» بوضوح مبدا اخراج اللاجئ الى خارج البلد الذي يريد الذهاب اليه حتى يتم إدخاله قانونيا» .

حقق تعامل بريطانيا مع تلك المرحلة بالفعل صد وتخييب ظن ، بالرغم من انه ليس تماماً بالطريقة التي تصورها جونز . تم اللحاق بالاكسودوس من قبل البحرية الملكية على طول المتوسط باتجاه الأسفل ، لكن اهارونوفيتش لم يكن قادرا على إعطاء امر بفتح كامل للبخار . في الساعات القليلة من يوم الثامن عشر من شهر تموز / يوليو سحبت مدمرتان بريطانيتان الاكسودس على بعد عشرين ميلا من غزة بينما ما زالت في مياه دولية . صعد على متن السفينة المحاصرة بحارة بريطانيون مسلحون باسلحة ثقيلة لكن عندما أدار اليهود الموجودون فيها نفاثات البخار عليهم والقوا قنابل دخان ومفرقعات نارية ومواد مسيلة للدموع ، بدا البريطانيون بإطلاق النار .

من على ظهر المركب ما زال أهارونوفيتش متأملا ان يصل بالسفينة الى الشاطئ ، لكن قائد الهاغانا الذي كان على ظهر المركب أيضاً قد تحكم فيه ولم يسمح له بذلك ، وقتذاك كانت الاكسودس تغرق ببطء . استسلم اهارونوفيتش بعد ثلاث ساعات من المقاومة ، مع تفاصيل كانت تنقلها السفينة الى الشاطئ من خلال الراديو . تم سحب الاكسودس الى حيفا ، حيث ثلاث مراكب كانت جاهزة لنقل الركاب الى فرنسا . مع حلول الظلام من نفس اليوم ، اولهم كانت في طريق عودتها الى مارسيل ، لكن ليس قبل ان يقوم اثنين من اعضاء اللجنه الخاصة بالأمم المتحدة في فلسطين ، اميل ساندستورم وفلاديمير سيميك بالشهود على ما حدث . شعر معاونهم ان مشاهد الجرحى وهم يتم انتزاعهم من الاكسودس قد سجلت نقطة تحول في موقف كلا الرجلين من الانتداب البريطاني .

اثارت عودة السفن الثلاثة الى ميناء «بورت دو بوك» . عند مصب نهر

الرون خلافا بين الحكومتين البريطانية والفرنسية . كان دوف كوبر ساخطا من الفرنسيين ، الذين كما قال انهم «تصرفوا بطريقة بغيضة . اتخذوا على عاتقهم مسؤولية فحص الفيز بعناية وتنفيذ احتياطات سلامة الحياة حسب أعراف البحر ـ وسمحوا لخمسة آلاف يهودي مع بشكل واضح فيزا مزورة للإبحار في سفينة غير ملائمة وباعترافهم ، لنقل اي ركاب» . بيدو ، الذي كان تماماً غاضبا من ان الحكومتين البريطانية والاميركية قد وافقتا للتو على اتفاق لدعم الانتاج الصناعي الالماني من وراء ظهره ، ادعى انه شعر بالأمر بقوة شانه شان كوبر . لكن مجددا قاوم الضغط الذي كان يمارسه كوبر للقيام باي شيء لمساعدة البريطانيين . مخفيا مشاعره الحقيقية ، وألقى لوم هذه المشكلة على الاشتراكيين الذين معه في مجلس الوزراء ، ديبرو وموش ، وتأثير ليون بلم .

من الوايتهول أعطى بيفن تعليمات لكوبر بان يطلب من الفرنسيين المساعدة في إنزال اليهود العائدين بالقوة ، لكن كوبر رأى ان هذه فكرة مجنونة .

في اليوم الثلاثين من شهر تموز / يوليو بعد يوم واحد من وصول السفن الثلاثة الى الساحل الفرنسي ، وقف الاعلام الفرنسي عالميا ضد البريطانيين . اخبر مدير فندق في باريس صموئيل كاتز العميل في الارغان : «كلنا معكم» . لم يكن كاتز متأكدا . سال كاتز : «الا تعتقد ان حكومتك قد تستسلم وتجبر الناس على النزول من القوارب؟» . «مستحيل!» رد المدير ، «الحكومة ستسقط» ـ قالها وهو يقصف بأصبعيه ـ «مثل هكذا» . كتب عضو اخر في الارغون «كان الفرنسيون غاضبين ، «مضيفا» حقدهم القديم على الإنكليز اشتعل من جديد . ما من تعابير تبدو قوية بشكل كاف لتعبر عن مشاعر الخوف والاشمئزاز من هؤلاء الذين أثاروا ثمة معاناة لركاب الاكسودس . ما من احد يمكنه ان يفكر ان فرنسا وبريطانيا كانتا بلدين حليفتين . أخذت الصور للمطاعم ، مترو الانفاق ، حتى الى أرصفة الجادات تركت الانطباع ان هنالك حرب بين الشعبين» .

فقط واحد وثلاثين مهاجر قبلوا الدعوة الفرنسية للنزول من على ظهر السفينة والبقية تجاهلوا التهديد البريطاني انه اذا لم يفعلوا ذلك ، سيتم الإبحار بهم الى المانيا حيث بالقوة سيتم ترحيلهم بدلا عن ذلك . بعد ثلاثة أسابيع من التوقف ، في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب / أغسطس ، أبحرت السفن مجددا ، هذه المرة ، كما هدد البريطانيون ، الى هامبرغ . هناك ، الف جندي بريطاني مدعومون من قبل الف وخمسمائة شرطي ألماني ، استعملوا خراطيم الماء ، الهراوات ، مسيلات الدموع ، لإنزال الركاب من السفن . أثبتت هذه المرحلة انه لا يمكن لبريطانيا ان تحكم فلسطين بشكل فعال مدة اطول من هذه ، وعززت حكم اللجنه الخاصة بالأمم المتحدة من اجل فلسطين قبل ايام قليلة ، ان الانتداب يجب ان ينتهي وتقسم البلد بين العرب واليهود ، مع القدس منطقة دولية . بينما كان يتم أخذ اليهود بعيدا لإسكانهم في مخيمات الاعتقال في السابق ، في الخلفية كانت تعزف الفرقة العسكرية معزوفة مصممة لابتلاع صراخ الاحتجاج ، نغماتها الصاخبة كانت على نحو فعال نهاية الانتداب البريطاني في فلسطين .

الفصل الـ ٢٩

المركز الاخير

عندما اعلن إرنست بيفن المغلوب على أمره في اليوم الثامن عشر من شهر شباط / فبرايرسنة ١٩٤٧ ان ، بعد فشل المحادثات مع الممثلين العرب واليهود كاخر محاولة لمساعيهم ، الطريق الوحيد المتبقي امام الحكومة البريطانية هو ان تقدم المشكلة الى الامم المتحدة ، اعتقد البعض ان هذه كانت بداية نهاية حكم بريطانيا في فلسطين . منذ سنة ١٧٧٦ لم يتنازل البريطانيون عن اي جزء من إمبراطوريتهم ولم يحصل ذلك أبدا بشكل تطوعي .

لم تصدق تماماً الحكومة البريطانية هذا الامر هي نفسها . اخبر بيفن في السر مجلس الوزراء : «يجب ان نبقى نحاول ايجاد طريقة للتمسك بالشرق الاوسط» ، وأمل انه اذا دعمت الامم المتحدة حلا فيدراليا في فلسطين قد توكل بريطانيا بمهمة إدارتها . بعد اسبوع وضح سكرتير الشؤون الاستعمارية كريتش جونز ان قرار بريطانيا إحالة المشكلة لا يعني انها ستتنازل تماماً بعد . اكد : «لن نذهب للأمم المتحدة لنسلم الانتداب» ، اضاف «نحن ذاهبون الى الامم المتحدة حتى نعرض المشكلة ونطلب نصيحتهم حول كيف يمكن إدارة الانتداب . اذا كان الانتداب لا يمكن إدارته في الشكل

الحالي نحن نطلب كيف يمكن ان نحسنها» . مضمون كلام كريتش جونز كان مهيجا ، دافعا كل من الارغون وعصابة الستيرن الى مضاعفة جهودهم لإخراج البريطانيين .

بعد بيان كريتش جونز بأربعة ايام قصفت الارغون نادي الضباط البريطانيين في القدس ، اعتداء اسفر عن مقتل ثلاثين وأصيب بجروح ستة عشر آخرين . في نهاية شهر آذار / مارس تم مهاجمة مصفاة شركة شيل لتكرير النفط ، ما سبب أضرارا تساوي ربع مليون جنيها ، وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان / أبريل تم اخراج قطار عن سكة حديد خط القاهرة ـ حيفا بواسطة متفجرات تم طمرها في الارض ، ما سبب مقتل ثمانية اشخاص وجرح واحد وأربعين آخرين . بعد يومين رئيس الفرع الخاص في حيفا . ا . ي . كونكويست ، قتل بإطلاق النار عليه من قبل يهوديين شابيين عندما كان يركن سيارته قرب منزله بعد يوم طويل اخر في مكتبه .

وعدت مجددا الوكالة اليهودية بان تشن حملة ضد الإرهاب ، وبالرغم من ان الهاغانا قد أنقذت أرواحا من خلال تحذير البريطانيين ان الارغون على وشك تفجير لغم تحت مقر قيادة الشرطة في تل أبيب ، عرض الوكالة السخي جاء متأخرا جداً لمساعدة البريطانيين القضاء على المعارضة المتزايدة لوجودهم . الفصاحة والبلاغة التي كانت تعتمد عليها القيادة المعادية للبريطانيين كانت منذ مدة وهي تغسل عقول جيل اليهود الشباب . كما لاحظت «التايمز» ، الشباب الذين اطلقوا النار على ضابط الشرطة الكبير كونكويست ، من المحتمل لم يكونوا قد ولدوا بعد عندما انضم المحقق الى شرطة فلسطين قبل ثمانية عشر عاما ، سنة ١٩٢٩ . علاوة على ذلك منذ مدة طويلة لم يخسر البريطانيون معركة مع الإرهابيين ، لانه اصبح من الواضح انهم لا يستطيعون حماية حتى اليهود المتعاطفين من تهديدات الإرهابيين . جاؤوا بفكرة نشر صور فوتوغرافية للإرهابيين المطلوبين في الصحف المحلية ، لكن

الفكرة فشلت عندما تلقى المحررون وقتها مكالمات هاتفية من مجهولي الهوية تعطي بالضبط تفاصيل ماذا يمكن ان يحدث لهم شخصيا اذا فعلوا ذلك . عندما حاولت وكالة الانباء رويترز تأسيس مكتبا لها في فلسطين ، خوفتها الارغان ، اما الوكالة الفرنسية للأنباء والتي كانت في ذلك الوقت سلاح الحكومة الفرنسية ، كانت الارغان سعيدة للسماح لها بتأسيس مكتب لها في تل أبيب .

في اليوم الرابع من شهر ايار / مايو ، شنت الارغان هجوما رائعا على سجن عكا . متنكرين على انهم جنود بريطانيين ، نسفوا ثقبا في جدار السجن ـ المفترض انه قلعة صليبية منيعة ـ سامحين بالهرب لمئات السجناء العرب ، وحوالى ثلاثين إرهابي يهودي . الجنود البريطانيون الذين كانوا يسبحون على الشاطئ الجنوبي من البلدة بسرعة نفذوا مباغتة ضد قوات الارغون الهاربة ، قتلوا تسعة والقوا القبض على ثمانية . لكن اغلب المجرمين تمكنوا من الهرب .

حتى الان كان يتم انتقاد شرطة فلسطين بشدة وفي لندن لجا مكتب الحرب الى إجراءات خارقة محاولا أخذ الحرب الى الإرهابيين انفسهم . مع دعم مونتغوميري ، الذي وافق مجلس الوزراء للتو على طلبه بالحصول على إذن لاستخدام إجراءات «غليظة» ، اختار المكتب ضابطا من فرقة الحرس اسمه بيرنارد فيرغسون ليجند سرايا خاصة لتقوم بعملياتها ضد الإرهابيين اليهود . فيرغسون الذي خدم في فلسطين ، ثم في بورما (بلدة جنوب شرق اسيا) مع الشنديتص (اعضاء من قوات الحلفاء خلف جبهة اليابانيين في بورما) ، ويعرف جيدا أورد وينغيت ، تأمل ان تكتيكات وينغيت من عشر سنوات قد يصلح استخدامها في شوارع وأزقة القدس وتل أبيب . بدأ بتجنيد رجال جيدين لعمل قذر . احد هؤلاء الذين اختارهم عمره ستة وعشرين سنة ضابط كان يعلمه في ساندهيرست . اسمه روي فاران حاصل على ميدالية

رفيعة جداً عندما كان في السابق قائدا لاسطول جوي (يتألف من اثني عشر طائرة) في الخدمة الجوية الخاصة ، بالاضافة الى خبرته المكثفة في القتال خلف خطوط العدو . مثل العديد من ابطال الحرب السابقين ، فكر فاران مليا بامكانية تحقيق السلام بقلق عميق وتحمس لعهد معلمه القديم بانه سيرى حربا عنيفة في وقت قريب مرة اخرى .

وصل فاران الى فلسطين في ملابس الشرطة الرسمية شهر آذار / مارس سنة ١٩٤٧ ، واختار سرية من بين السرايا ؛ بعد بضعة أسابيع من التدريب على الهدف في المدينة العربية جنين ، انطلق محاولا ايقاع الإرهابيين في الفخ . في اليوم السادس من شهر ايار / مايو اخفق اخفاقا مروعا . طوق ضواحي الرحافيا غرب القدس بملابس سادة وسيارة من دون رقم ، وجدت سريته بالصدفة صبيا عمره ستة عشر سنة اسمه الكسندر روبويتز ، الذي كان يلصق صورا لصالح عصابة الستيرن . فاران بنفسه طارد روبويتز الى اخر الشارع ، وأضاع قبعته وهو يركض . امسك بالصبي ودكه بعنف في السيارة واسرع مبتعدا . روبويتز لم يعد يرى مجددا بعد ذلك .

في اليوم التالي اعترف فاران لفيرغسون انه قتل روبويتز بينما كان يحاول استجوابه ، وحذر فيرغسون رئيس شرطة فلسطين الجديد نيكول غري مخبرا اياه بما حدث . غري ، ضابط عسكري مثل كل من فيرغسون وفاران ، في البداية حاول تجنب التحقيق ،لكن بعد ان كتب الاعلام عن اختفاء روبويتز ، وقبعة فاران التي كان اسمه مكتوبا عليها ،موجودة في مسرح الجريمة ، التغطية هنا مستحيلة ـ بالرغم من انه حتى الان شرطة فلسطين كانت تنكر معرفة اي شيء عن اختفاء روبويتز . على مضض ، أرسل غري الامر الى مفوضه أرثر غايل من اجل اتخاذ إجراءات اخرى .

غايل ـ الرجل الذي اول من أسس صلة بين عصابة ستيرن والفرنسيين – ليس لديه وقت على الاطلاق من اجل غري ، الذي هبط عليه من الاعلى

من منطاد ولا يعرف اي شيء عن عمل الشرطة . على الفور اخبر السكرتير الرئيسي في الإدارة الفلسطينية عن الاغتيال . بدا التحقيق لكن بتقدم بطيء لان فاران ، كان خائفا لانه على وشك ان يصبح كبش فداء ، فر الى سورية حيث اصبح لاجئا سياسيا . في النهاية اقنعه الضابط الذي كان قائده سابقا بتسليم نفسه .

عاد فاران الى فلسطين تماماً لدى وصول الثلاثة وعشرين عضو من اللجنة الخاصة من الامم المتحدة في فلسطين لتقييم ماذا يجب ان يحدث للانتداب البريطاني ، لكنه لم يمكث طويلا . بعد يومين هرب مجددا ، ولان الاعلام أوجد صلة بينه وبين اختفاء روبويتز ، بدا اعضاء في شرطة فلسطين الذين يكرهون التدخل العسكري في عملهم بتسريب ما كان يفعل حقيقة الى المراسلين . وعندما جال المفوضون من المالمتحدة لخاصة بالأمم المتحدة في فلسطين ، بدا من الواضح بشكل متزايد ان البريطانيين انفسهم قد لجاؤا الى العنف ، بالرغم من الإنكار الشديد من قبل الحكومة في لندن . حددت عصابة الستيرن انتقامها ، قتلت خمسة جنود وجرحت اثنين آخرين في عمليتي اطلاق منفصلتين في اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران / يونيو . احد هؤلاء الذين قتلوا كان صديق فاران ، الذي سلم نفسه مرة اخرى فيما بعد بفترة قصيرة . عندما في النهاية مثل فاران امام المحاكمة ذاك الخريف ، رفض فيرغسون تكرار ما قاله له ضابط خدمة الملاحة الجوية الخاصة الشاب في اليوم السابع من شهر ايار / مايو ؛ ودفتر الملاحظات الذي كتب فاران فيه ببساطة مسؤوليته عن موت روبويتز ، حكم بانه دليل غير مقبول . بالرغم من الدليل القاطع بعكس ذلك ، تم تبرأته من جريمة القتل .

سبب قرار المحكمة في قضية فاران ابتهاجا في الاعلام البريطاني ، لانه حتى ذلك الحين تحول المزاج بشكل حاقد ضد الصهيونيين في بريطانيا - بالفعل ،في اماكن محددة ،وضد اليهود بشكل عام . في اليوم التاسع والعشرين

من شهر تموز / يوليو ، اهمل البريطانيون اتصالات من اعضاء يونسكوب (مختصر لتلك المأمورية) لإظهار اعتدال وأعدموا ثلاثة من الارغون الذين القوا القبض عليهم في مباغتة بعد اقتحام سجن عكا . هذه المرة انتقمت الارغون بالمثل . في لقاء سري مع رئيس مجلس المأمورية التابعة للأمم المتحدة ، اميل ساندستورم ، حذر ميناحيم بيجن انه «اذا اعدم البريطانيون رجال الارغون ، الارغون ستعدم الرجال البريطانيين ـ أيضاً بالشنق» .

نفذ بيجن هذا التهديد في اليوم الثلاثين من شهر تموز / يوليو . ذاك اليوم اعلنت الارغون انهم اعدموا رقيبين بريطانيين اثنين ، كليف مارتن ومارفين بييس ، الذين اختطفتهما قبل أسبوعين عندما كانا يمشيان الى البيت من الحانة . أصدرت الارغون بلاغا رسميا بلغة موضوعها جاد لكن في قالب هزلي مستخدمة فيه مصطلحات بريطانيا القانونية ، تشير الى ان الرجلين الميتين وجدا مذنبين بتهمة «الدخول الغير شرعي الى الوطن العبري» ، ولأنهم اعضاء «في منظمة إرهابية اجرامية ـ اي ، «جيش الاحتلال البريطاني في فلسطين» ـ وبتهمة «اقتناء غير شرعي للأسلحة» . بربغندا اخترعتها الجماعة فيما بعد بفترة قصيرة تستهدف الجنود البريطانيين العاديين نوهت انه حين ، كما في مناسبات سابقة ، خطفوا الضباط البريطانيين ، بسرعة خففف او أجل البريطانيون أحكام الموت ، لكن عندما تكون فقط حياة من رتبهم رقيب في خطر ، لا يكترثون . نجح التكتيك . لم ينفذ البريطانيون بعد ذلك اي عمليات اعدام في فلسطين .

جثتا الرقيبين وجدتا معلقتين في بستان كينا قرب منطقة نتانيا في اليوم التالي ، وقبل ان يتم استرجاعهما كان مسموح للصحافة تصويرهما . عرضت «الديلي اكسبرس» صورها فوق تعليق ، «بريطانيون مشنوقون : صور ستصدم العالم» . الارض تحت جثث المشنوقين مزروعة بالألغام لذلك حدث انفجار عندما تم قطع الحبال لانزالهما . تم تشويه احد الأجساد ونسف مسافة

عشرين ياردا ؛ أشلاء صغيرة من الاخر وجدت على بعد مئتي يارد . أثارت تقارير الصحافة عن الاكتشاف الفظيع ونتائج الأفخاخ الملغومة شغبا في اكثر من اثني عشر بلدة ومدينة في أنحاء بريطانيا في الاسبوع الاول من شهر آب / أغسطس . في ليفربول هوجم اكثر من ثلاثمائة عقار يهودي واعتقلت الشرطة ثمانية وثمانين شخصا . القي القبض على امرأتين لانهما كانتا تحطمان واجهات محلين بالقرميد في سالفورد ، كانتا غير نادمتين . «لقد فعلناها» ، قالتا ، «لان المالك يهودي» .

بعد اسبوع ، كتب وزير المالية هوغ دالتون الى أتلي مجادلا انه حان الوقت لبريطانيا حتى تترك فلسطين ، مهما كان قرار لجنة الامم المتحدة «الوضع الحالي ليست فقط مكلفا من حيث القوى البشرية والمال لكنه كما انت وأنا نوافق على هذا الكلام ، من دون قيمة من وجهة النظر الاستراتيجية ـ لا تستطيع بأية حالة ان تحصل على اساس آمن فوق عش دبابير ـ وتعرض حياة شبابنا للخطر ، من دون ان يكون هنالك سببا مقنعا ، من اجل خبرات بغيضة وتولد معاداة للسامية وبسرعة تصدم لكثرة ما هي كبيرة» .

ايضا بعض اعضاء لجنة الامم المتحدة الذين شهدوا إخفاق الاكسودس الذي لعب دورا بنفس الوقت ، اتفقوا على ان الانتداب البريطاني يجب ان ينتهي . عندما كتبت اللجنة تقريرها في الاول من شهر أيلول / سبتمبر ، اعلنت ان ممثلين ثمانية من الهيئة المتالفة من الامم الأحدى عشر تدعم تقسيم البلد الى دولتين عربية ويهودية واقامة منطقة دولية في القدس . الثلاثة الذين خالفوا الرأي ، الهند ، ايران ويوغوسلافيا ـ كلهم لديهم شعب مسلم كبير ـ فضلوا بدلا عن ذلك دولة فيدرالية موحدة .

أتلي المقتنع ان العرض لا هو عادل للعرب وغير قابل للتطبيق بسبب الكره بين الطرفين ، لم ينتظر حدوثه ليكون موضع نقاش في الاجتماع العام الجديد للأمم المتحدة . في اليوم السادس والعشرين من شهر أيلول / سبتمبر اعلنت

الحكومة ان بريطانيا ستنسحب من طرف واحد من فلسطين السنة التالية ، في اليوم الرابع عشر من شهر ايار / مايو سنة ١٩٤٨ ، بغض النظر عن قرار الامم المتحدة . كان هذا بشكل فعال استهانة بالهيئة الدولية الجديدة ، لانها أشارت الى انه مهما كان قرار الاجتماع العام ، التقسيم من اي نوع سيتم فور انسحاب البريطانيين . كما وضعها بيفن ، «الطبيعة تقسم فلسطين» .

عرض التقسيم ، الذي يحتاج الى اغلبية الثلثين ليتم تنفيذه كقرار ، تم مناقشته في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ذاك في الاجتماع العام للأمم المتحدة في فلاشينغ ميدو في نيويورك . كانت لعبة محلية بالنسبة للوفد الصهيوني الذي نظم حشدا من المؤيدين المحليين ليتظاهروا خارج البناء ، وحاولوا ممارسة الضغط لتغيير القرارات لصالحهم بشكل رائع . تنظيمهم ونقاشاتهم تناقضت بشكل صاعق مع الممثلين العرب الفلسطينيين والدول العربية المجاورة الغير موحدين الذين حسب كلمات موظف بريطاني الذي خيب ظنه ذلك ، كانوا «الى حد ما درجة ثانية» . حتى عندما اصبح من الواضح ان الوفد الصهيوني لا يمكنه بعد قيادة الأغلبية الضرورية لتمرير القرار الذي يحتاجون له باستماتة شديدة . من خلال المماطلة في الخطابات لكسب الوقت لصالحهم تمكنوا من تأجيل التصويت ثلاثة ايام ، حتى يوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . هذا اشترى الوقت لمؤيديهم في نيويورك لممارسة ضغط اكثر على الدول المترددة ، من خلال تشديد سلطتهم على الرئيس - الرجل الذي اجبر على مسرحية مكشوفة لصالح التصويت اليهودي تماماً قبل سنة . كان هنالك بلد واحد لم يتخذ قرارا بعد تم تكريس انتباه خاص له : فرنسا .

حوالى اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر - الموعد الذي من المفترض ان يتم فيه التصويت - مندوب فرنسا لدى الامم المتحدة القصير ومظهره غير ملفت للنظر الكسندر بارودي ، استقبل زيارة من رجل اعمال

يهودي اسمه برنارد باروخ ، رجل انيق طويل جمع ثروة منذ سنوات في أسواق التبادل الأجنبية من بيع السلع غير المملوكة . الان في اواخر السبعينيات ، باروخ لطالما كان على صلة بالحزب الديمقراطي . ساعد على تمويل حملة وودرو ويلسون الانتخابية سنة ١٩١٢ ـ عندما كان عمر بارودي احدى عشر سنة ـ واثناء الحرب كان مستشار فرانكلين د . روزفلت في الشؤون الاقتصادية في ذلك الوقت صحيح كان مستشارا بشكل غير رسمي لكن بالرغم من ذلك كان له تاثير واضح . هذا في السابق الان تم تعيينه من قبل ترومان سفير الولايات المتحدة لدى لجنة وكالة الذرة الناشئة التابعة للأمم المتحدة ، استغل باروخ سمعته قدر الستطاع على انه رجل صاحب نفوذ عظيم من دون صفة رسمية . لكن صلته الاكثر اهمية في تلك الفترة والتي كان يتكتم عليها على غير عادته . كان مؤيدا للارغون ولواجهتها العصبة الاميركية من اجل تحرير فلسطين . في تلك المرحلة عندما كان يتنصل الاخرون من صلتهم من صورة العصبة القاتمة في الاعلانات . باروخ عانى في بحثه حتى وجد مؤلف العصبة بن هيشت . اخبر هيشت «أنا الى جانبك» . مضيفا : «فكر بي على انني احد اليهود المقاتلين وسط العشب الطويل مع مسدس طويل .

اخبر باروخ بارودي بصراحة فظة انه اذا فشلت فرنسا بدعم التقسيم ـ السياسة التي هو يعرف ان الرئيس ترومان شخصيا يدعمها ـ اسهم فرنسا في الولايات المتحدة ستهبط حتما . كلمة «لا» الفرنسية ستغضب ترومان ، هذا ما لمح اليه ، واشتبه انه نتيجة لذلك قد تحول الادارة المعونة التي كانت تخطط لضخها الى فرنسا الى قضايا اخرى اهم . على الفور حذر بارودي السفير الفرنسي هنري بونيه ، حول هذه التهديدات وهو بدوره قام بإبلاغ بيدو في نفس ذلك اليوم .

حتى هذه المرحلة ، اكد بيدو ان موقف فرنسا الشعبي المتعلق بفلسطين هو عن عمد موقف فيه حرص . كان على علم بردة الفعل المحتملة في

المستعمرات العربية المتبقية لفرنسا في شمال افريقيا اذا دعم البلد التقسيم ، كان لديه ريبة عميقة من تقديم الدعم الفرنسي للشعب اليهودي في النهاية ، ليس فقط عندما قالت الحكومة البريطانية انها ستمتنع . في محاولة حتى تبدو بانها تراعي مصالح العرب ، عندما تم تشكيل لجنة الامم المتحدة قبل ثمانية اشهر طالب بارودي الامم المتحدة بتحقيق «صيغة مصالحة» . في منتصف شهر تشرين الأول / اكتوبر ، عندما اصبح واضحا ان هنالك ضغطا للتصويت على تقرير لجنة الامم المتحدة ، أعطى بيدو تعليمات لبارودي ان يبذل قصارى جهده لتأجيل التصويت اذا امكن .

أيضاً في الخارجية الفرنسية كانت الآراء مختلفة بشكل عميق حول الامر . بالرغم من ان بيدو نفسه يستطيع ان يرى انه من الحكمة متابعة سياسة تقلل من حجم بريطانيا ، وتجبر منافسة فرنسا الاكثر قدما على البدء في معاملة الدول المجاورة لها بالمساواة ، العديد من طاقمه لم ير ذلك . بالتحديد جون شوفل اكبر موظف في االخارجية الفرنسية جادل ضد التصويت لصالح التقسيم . في شهر أيلول / سبتمبراخبر بوضوح مبعوث اللجنة العربية العليا - الذي يمثل الفلسطينيين - ان فرنسا ستتجنب اتخاذ موقف ضد المصالح العربية .

خطر التصويت لصالح التقسيم الذي قد يولد غضبا في شمال افريقيا الفرنسية الان يقف في وجهه خطر ثان : امتناع الولايات المتحدة عن ارسال المال الذي تحتاجه فرنسا باستماتة لإعادة البناء . لم يعد عند فرنسا عملة متبقية محفوظة ،وبلغ عجز ميزانية فرنسا عشرة مليارات فرنكا نتيجة الفرق بين مجمل قيمة مدفوعات فرنسا للدول الاجنبية وبين مجمل ما يتم استلامه من الدول الاجنبية . حقيقة ، أعطت الولايات المتحدة فرنسا تقريبا بليونا دولارا اكثرها دين منذ التحرير . لكن ، منذ ان اعلن وزير الدولة الجديد جورج مارشال تمويل اعادة البناء الذي يحمل اسمه ذاك الصيف ، كان هنالك إشارات مقلقة

انه على راس قائمة أولوياته المانيا . في منتصف حادثة الاكسودس ، عقد كل من الأميركيين والبريطانيين اتفاقا يفيد المانيا ، لا فرنسا ، والمشاكل ذات تأثير شيوعي في فرنسا ذاك الخريف لم تكن ستشجع بالتأكيد وزارة الخارجية حتى تكون اكثر كرما .

نتيجة تقييم بيدو لتلك المخاطر المرتبطة ببعضها اصبحت واضحة في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر . بعد المناداة قبل يوم من اجل تأجيل اربع وعشرين ساعة حتى يتم التوصل الى تسوية ـ إيماءة لتهدئة المستعمرات ـ في اليوم التاسع والعشرين اعلن بارودي تصويت فرنسا لصالح التقسيم . كذلك أيضاً ، كما تأمل الصهيونيون ، فعلت الدول المجاورة لفرنسا بلجيكا لوكسمبورغ وهولندا .

يتطلب القرار اغلبية الثلثين حتى يطبق ، لذلك تلك الأصوات الأربعة تهم لانها ساعدت على ضمان تطبيق القرار تماما على الحد ، من خلال ٣٣ صوت مقابل ١٣ . عشر دول اخرى امتنعت ، من ضمنها بريطانيا . ردة الفعل في فلسطين كانت فورية . اليهود حسب ما سجل جنرال بريطانيا في فلسطين : «مبتهجون بشكل هستريائي» ، العرب «مذهولون ولم يصدقوا» . في تل أبيب صوت الصياح : «تحيا فرنسا!»

اعترف ترومان فيما بعد انه كان خاضعا «لوابل مستمر» من «بعض الزعماء الصهيونيين المتطرفين» الذين «كانوا حتى يقترحون علينا ان نمارس ضغوطات على أمم مستقلة ذات سيادة لصالح بعض الأصوات في الاجتماع العام . لكنه انكر انه استسلم لهذا الضغط الذي لم يسبق له مثيل ودحض الادعاءات ان بلده مارس ضغطا على دول اخرى قبل التصويت . «لم أوافق أبدا على ممارسة فرض مشيئة القوي على الضعيف ، فيما اذا كان هذا بين الرجال او بين الامم . ساعدنا اليونان . نحن في الحقيقة تبنينا استقلال الفلبين . لكن هذا لم يجعلنا نسير هؤلاء الامم في فلكنا او نجبرهم على

التصويت معنا على تقسيم فلسطين او اي امر اخر» . لكن الضغط الذي مارسه سفيره باروخ على بارودي يتناقض مع هذا الادعاء الورع . اما ترومان كان يكذب ، او لم يكن مسيطرا بشكل كامل على إدارته . بشكل مثير للاهتمام ، لم يتطرق الى فرنسا في إنكاره .

غبطة تصويت الاجتماع العام بسرعة تبددت عندما أدرك الصهاينة بسرعة ان عليهم الان القتال من اجل البقاء . بدات الاعتداءات العربية على المستوطنات اليهودية بعد يوم واحد من التصويت وكان واضحا للصهيونيين ان يتوقعوا قريبا هجوما منسقا من كل الجهات . للتخفيف من وطأة التهديد الأعظم ، والذي كان فيلق عبد الله العربي الذي تم تدريبه وتسليحه من قبل بريطانيا في كل الأردن ، بدأوا مسبقا بشكل سري اجراء محادثات مع الملك العربي بقصد تقسيم فلسطين الذي فيه فوائد متبادلة بطريقة مختلفة عن تلك التي تصورتها مامورية الامم المتحدة الخاصة . ولمقاومة الدول العربية الاخرى ، يحتاجون الى أسلحة افضل . كتب احد اعضاء الهاغانا غير المسرور : «احمل فقط نوع من أسلحة اللعب من نوع تستخدمه السيدات لإطلاق النار على العشاق» .

يهودي أسترالي هاجر الى فلسطين اسمه إيهود افريل تم إرساله الى باريس في شهر تشرين الثاني / نوفمبرسنة ١٩٤٧ لشراء أسلحة للهاغانا ، الشيء الذي على جناح السرعة أعادت ترتيبه الوكالة اليهودية على انه سلاح نظامي . لم يستغرق الكثير من الوقت قبل ان يتم التقرب منه . «عثرنا على منجم ذهب في الواقع في اليوم بعد وصولي بهيئة . . . رجل جنتلمان جاء ليراني . . . معه كتالوغ أسلحة من مصانع اسلحة في تشكسلوفاكيا ، الذي قدمه قبل الحرب العالمية الثانية بلغة بلده الرومانية» . لكن كان هنالك ممسكا : الحكومة التشيكوسلوفاكية تعقد فقط صفقات تبادل بين الدول حكومة لحكومة . لكن هذا الاشتراط لم يضايق افريل لمدة طويلة . شرح بانه» لحسن الحظ كثيرا ما

كنا نملك منذ الايام القديمة ايام الهجرة غير الشرعية كل من القرطاسيات وأختام الحكومة الكريمة جداً التي كانت تضع تلك الاشياء تحت تصرفنا ، «مضيفا و«استخدمنا بعض هذه الاشياء» . ما ان يتم شراء الاسلحة ، تطير من تشيكوسلوفاكيا الى فلسطين عبر الاراضي الفرنسية مع موافقة الحكومة الفرنسية . استعمل الفرنسيون أيضاً دولارات أميركية مستعارة لتمويل مبيعات الاسلحة مباشرة الى الصهيونيين في شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩٤٨ وافق جورج بيدو على صفقة بقيمة ستة وعشرين مليون دولار لتسليح ثمانية آلاف جندي في الهاغانا .

رغبة فرنسا في مساعدة الصهيونيين نتجت مباشرة بشكل جزئي من الاعتقاد السائد في وزارة الخارجية الفرنسية ان البريطانيين لا ينوون الانسحاب من فلسطين . أصرت مرة ثانية الحكومة البريطانية في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر ان الانتداب سينتهي في اليوم الرابع عشر من شهر ايار / مايو السنة التالية ،لكن كنزا من الوثائق البريطانية السرية التي استولت عليها الهاغانا بعد اربعة ايام توحي بشيء مختلف تماماً . في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر اعترضت الهاغانا شاحنة بريطانية مسافرة من بيروت ، التي تحول أرشيفا من مهمة المتوفى سبيرس الى حيفا لشحنها عبر البحر الى الوطن . عندما أضحت الهاغانا على علم بأهمية ما اكتشفت ، نبهت الفرنسيين . في غضون ساعات ، ضابط مخابرات فرنسي تظاهر بانه مراسل صحيفة بطريقه الى تل أبيب حتى يطلع على المواد .

كشفت الوثائق عن توسع التجسس البريطاني في لبنان وسورية اثناء الحرب وأكدت الشكوك الفرنسية التي لطالما كانت موجودة . أشارت الوثائق على ما هو ظاهر ، ان محسن البرازي ، الذي كان سكرتير الرئيس السوري القوتلي الخاص ، عميل بريطاني يدار من قبل و . ف . ستيرلينغ ، الذي بقي في دمشق حتى نهاية الحرب . كان البريطانيون أيضاً يستلمون معلومات من

طبيب ابن سعود. مدربه كان رجلا اشتبه به الفرنسيون بانه يعمل عملا سريا منذ قيام ثورة الدروز. في فترة التدخل والتر سمارت القنصل السابق في دمشق الذي يشبه السرعوف (نوع من الجراد التشبيه لان وقفته تشبه وقفة السرعوف فيها اناقة ونسك) لم يبتعد كثيرا. الان السكرتير في الشؤون الشرقية في السفارة البريطانية في القاهرة.

وهكذا المعلومات التي التقطها الفرنسيون تعزز الشكوك التي حسب كلام احد المراقبين: البريطانيون «خرجوا من الباب ودخلوا من النافذة». هذا الانطباع دقيق بشكل قطعي لانه، كما اعترف بيفن ضمن حدود اجتماع مجلس الوزراء، كانت بريطانيا تبحث عن طريقة لتعزز فيها نفوذها في الشرق الاوسط، ليس فقط نكاية بالولايات المتحدة. حتى نهاية سنة ١٩٤٧، الرجل الذي استثمروا فيه كل آمالهم لتحقيق ذلك كان الملك عبد الله.

مضى واحد وثلاثون سنة منذ ان انتقص لورانس من عبد الله بشكل مقصود بوصفه اياه بانه «الاكثر تنظيما وترتيبا» بهدف إقناع رؤسائه دعم أخيه الشاب فيصل الاكثر مرونة. لكن الان مات كل من لورانس وفيصل، والحكومة البريطانية منذ مدة طويلة حولت إيمانها الى اخ فيصل الاكبر. معتمدا على الذهب وخبرة بريطانيا العسكرية، مع سنة ١٩٣٩ أضحى عبد الله حليف بريطانيا العربي الاكثر اعتمادا عليه. ولان الحكم الفرنسي في المنطقة المجاورة في سورية ولبنان قد انتهى، في شهر آذار / مارس سنة ١٩٤٦ أخيرا وقعت بريطانيا معاهدة مع عبد الله أنهت بها الانتداب. تم اعادة تسمية ترانس الأردن ـ واصبح اسمها الأردن ـ اصبحت الان دولة مستقلة، لكن البريطانيين فاوضوا اتفاقا عمره خمسة وعشرين سنة ينص على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في الاراضي الاردنية وعبد الله بقي معتمدا على المال البريطاني. في ملحق سري بالمعاهدة التي وقع عليها البلدان، وافقت بريطانيا على الدفع للقوات العسكرية التي جعلت عبد الله تهديدا

كبيرا : الفيلق العربي بقيادة الضابط البريطاني جون غلوب . لقب ديبلوماسيون في وزارة الخارجية عبد الله «السيد ملك بيفن الصغير» .

طبيعة العبودية في علاقة الأردن ببريطانيا هذه لم تكن سرا مكتوما . لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفيتي ، الذي كان يحاول كسب نفوذ في الشرق الاوسط ، لم تعترفا في البداية بالأردن على انها دولة مستقلة . لكن قرب عبد الله من البريطانيين له إيجابية واحدة . كان يعرف منذ بداية سنة ١٩٤٦ ان البريطانيين يفكرون بالانسحاب من فلسطين ، وبهذا رأى فرصته حتى يحقق طموحه الذي لطالما تمسك به وهو اقامة وحكم سورية الكبرى . في فترة الفوضى التي ستعقب مغادرة بريطانيا سيسعى الى دمج الأردن مع مناطق فلسطين العربية . ثم عندما يسيطر على القدس وبعض الزخم السياسي سيسعى الى ضم سورية والعراق أيضاً .

في شهر آب / أغسطس سنة ١٩٤٦ ، حاول عبد الله كسب دعم الوكالة اليهودية لصالح حركته . «عمري ستة وستين سنة» ، اخبر الملك الياس ساسون خبير الوكالة اليهودية في شؤون العالم العربي الرئيسي . «سنوات عمري المتبقية معدودة . ليس لديكم اي زعيم عربي واقعي مثلي في كل العالم العربي . أمامكم طريقان : الانضمام لي ونعمل معا ، او التخلي عني» . في شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٧عقد معاهدة «الحلف والأخوة» مع العراق ، وحتى نهاية نفس السنة كان مشغولا بمحاولة إقناع الدروز بالانسحاب من سورية .

لم يكن الصهيونيون الشعب الوحيد الذي أفضى لهم عبد الله بطموحه . تكلم بحرية عن أمله بحكم سورية الكبرى مع ممثل بريطانيا الرئيسي في عمان ، السير اليك كيركبرايد . كيركبرايد قدر بالكامل حلم الملك لانه عندما كان شابا ، حارب كل الوقت الى جانب لورانس والعرب في ثورة ١٩١٦ ـ ١٩١٨ ؛ لكنه شك ان عبد الله يمكنه تحقيق ذلك ، الى جانب عدم شعبيته

في الدول العربية المجاورة . بالرغم من ذلك ، يمكنه ان يرى الإيجابيات اذا ضمت الأردن الأجزاء العربية من فلسطين . كما وضعها بشكل ديبلوماسي الى لندن ، ثمة حركة «لن تكون معارضة للمصالح البريطانية «لانه اذا نجح عبد الله قد يكسب منفذا على البحر المتوسط في غزة ، الشيء الذي سيرضي مصالح بريطانيا الاستراتيجية بشكل لطيف .

اثنا عشر يوما قبل تصويت الاجتماع العام لصالح التقسيم ، مندوبة من الوكالة اليهودية رئيسة وزراء اسرائيل في المستقبل غولدا مائير قامت برحلة خطرة الى الأردن لزيارة عبد الله . بالرغم من انها رفضت بشكل قاطع اقتراحه انه قد يريد اليهود المشاركة في فكرته ، وافق الاثنان على تقسيم فلسطين بينهما . بينهما شيء مشترك هو التصميم الغامر لمنع المفتي من استلام المناطق العربية للبلاد ، المفتي الذي ظهر الان مجددا في سورية ، بعد ان هرب بشكل غامض من بيت الحراسة المفرضة عليه في باريس بعد ان دعم هتلر فترة الحرب .

هذا كان اتفاق يمكن للبريطانيين دعمه ، في السر . عندما التقى بيفن بشكل سري برئيس وزراء عبد الله توفيق باشا ، في لندن في اليوم السابع من شهر شباط / فبراير سنة ١٩٤٨ ، جعلها واضحة ان الحكومة البريطانية راضية عن خطة عبد الله . عندما قال توفيق ان الفيلق العربي يخطط لاحتلال المناطق العربية عندما ترحل بريطانيا ، أجاب بيفن : «يبدو انه الشيء البديهي القيام بذلك . لكن لا تغزو المناطق المخصصة لليهود» .

في الوقت الحالي ، نما العنف في فلسطين بشكل أسوا . في نهاية شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٤٧ ألقى إرهابيون من الارغون قنابل يدوية في منطقة مكتظة بالعرب في مصفاة تكرير النفط في حيفا . ركض العرب بحالة هلع ، وقتلوا واحد وأربعين يهوديا وأصابوا بجروح احدى عشر آخرين . بعد ثلاثة ايام انتقم اليهود وقتلوا اربعة عشر عربيا في اعتداء في حيفا . بين

التقارير ان مئات من العرب المسلحين بشكل جيد ، من بينهم زعيم العصابات فوزي القاوقجي الجذاب الملفت للنظر ، دخلوا فلسطين من دون ان يقف في وجههم احد ، اتهم الصهيونيون البريطانيين بالوقوف جانبا . انكر البريطانيون بحمية هذا الاتهام . ادعى المندوب السامي : «لولا جهود قوى الأمن على امتداد الشهر السابق ، كان كلا الشعبين الان غارق في ذبح مهلك .

لكن اتضح ان هذا ما كان يحصل اصلا . اللجنة الفلسطينية ، التي أنشأتها الامم المتحدة حتى تطبق قرار التقسيم ، كتبت في اليوم السادس عشر من شهر شباط / فبرايرسنة ١٩٤٨ انه في الأشهر الثلاثة التي تلت تصويت الاجتماع العام هناك ٢ ، ٧٧٨ شخص بين جريح وقتيل في فلسطين ، الأغلبية الساحقة منهم يهود او عرب . حذرت من احتمال فقدان الأمن الا اذا توفرت «وسائل كافية» حتى «تمارس سلطتها» ، منذ ان قالت اللجنة العربية العليا انها ستقاوم أية محاولة لإقامة دولة يهودية باستخدام القوة ، والروح المعنوية لدى العرب اخذت ترتفع . مضمون اللجنة واضح : فلسطين هي الامتحان الأعظم الاول لسلطة الامم المتحدة . اذا لم تستطع الامم المتحدة فرض مشيئتها ، قد يكون هذا أيضاً الامتحان الاخير .

لكن ما من احد مستعد لإرسال جنده . ممثل الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة وارن أوستين ، جادل ان القوى المسلحة لا يمكن استخدامها لان ميثاق الامم المتحدة يسمح فقط باستخدام القوى لإعادة السلام في نزاعات دولية ؛ لكن هم الادارة الحقيقي كان ان ارسال قوات أميركية لن يلقى شعبية في الوطن ، وسيدعو الى تدخل من قبل الجند السوفيتي أيضاً . الفرنسيون أيضاً رفضوا التدخل . بالرغم من ان ردة فعل شمال افريقيا لتصويتهم لصالح التقسيم كانت على نحو مفاجئ خانعة ، لم يريدوا ان يتورطوا في فرض تلك السياسة على عرب فلسطين بالقوة . بيفن كان ببساطة مصمما على ان لا يعطي اي عضو اخر في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الانطباع ان

بريطانيا ستكون راغبة بان تأخذ على عاتقها مسؤولية الأمن في فلسطين بعد يوم الرابع عشر من شهر ايار / مايو .

في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط / فبراير ، اقترح أوستن اخر محاولة للتوصل الى تسوية ، لكن هذه الفكرة رفضت بسرعة من قبل اعضاء آخرين في مجلس الأمن . المفوض الفرنسي بارودي اخبر حكومته انه يعتقد ان خطة التقسيم «ميتة» ، وان وكالة مؤقتة يجب ان تنشا في فلسطين لتكون مثل الجسر من الناحية الزمنية تصل نهاية الانتداب بمرحلة حيث يكون قد تحقق فيها الاستقرار . في خطاب في اليوم الخامس من شهر آذار / مارس اعلن ان فرنسا تسحب دعمها للتقسيم . حينها ، في غياب الاتفاق بين العرب واليهود ، او ضمن مجلس الأمن ، دعا سكرتير الدولة في الولايات المتحدة جورج مارشال الى مؤتمر صحافي في اليوم العشرين . مواجها بتصور تخلي المملكة المتحدة عن الانتداب في منتصف الطريق خلال شهر ايار / مايو ، من دون ان تترك بعدها أحدا يضمن تطبيق النظام والقانون ، اقترح مارشال وكالة ، تماماً كما تنبأ بارودي . حينها تقربت وزارة الخارجية من الحكومة البريطانية لترى فيما اذا كانت مستعدة لفرض تلك الوكالة .

الجواب القصير كان لا . في اجتماع مجلس الوزراء يوم الثاني والعشرين من شهر آذار / مارس استساغ بيفن التنبيه الأميركي . اخبر زملاءه وهو مسرور جدا من نفسه ، ان الوضع هو ما حصل عندما «سمح ترومان للاحتياجات الانتخابية في امريكا بالتأثير على سياسة الولايات المتحدة الخارجية» ، ولا يريد للجند البريطاني ان يعلقوا في العواقب . في تلك اللحظة كان التشريع لإنهاء الانتداب يمر على البرلمان . في البداية بيفن أراد تأجيله ، على الاقل حتى يتمكن من التفكير بشكل تقني في رأي مارشال . لكن عندما اوحى ذلك ان هذا قد يحمل في طياته معنى ان بريطانيا مستعدة للبقاء في فلسطين ، غير رأيه . «حسنا جداً إذن» ، أنهى . ادفعها» .

بعد ثلاثة ايام سلم شمويل اريبل مبعوث الارغون في باريس مذكرة الى وزارة الخارجية الفرنسية . تعرض الوثيقة عقد اتفاق بين الارغون والحكومة الفرنسية ، طالبا من فرنسا تسليح فرقتي جنود من الارغون وإمدادهما بالأجهزة ، وتزويد احدهما بقاعدة في مكان ما على الاراضي الفرنسية حتى يتم طلبهما بعد اليوم الرابع عشر من شهر ايار / مايو . في رسالة تغطية مكتوبة حتى يتم الاتصال بهم من قبل الوزارة ، عبر اريبل عن أمله ان يوافق جورج بيدو بسرعة على هذا الإجراء . «في ضوء إلحاح الامر» أنهى ، «اقدر اذا بإمكانك إبلاغي قريبا بالجواب المفصل» .

سجل هذا الالتماس احياء العلاقات الجيدة بين الارغون والحكومة الفرنسية التي قبل أسبوعين بدت قريبة من الانفجار . كانون الأول / ديسمبر الفائت ، اعلنت الولايات المتحدة فرض حظر على شحن الاسلحة الى الشرق الاوسط ، وحثت حلفاءها على القيام بنفس الشيء . في اليوم الخامس من شهر آذار / مارس سنة ١٩٤٨ ، القى ضباط فرنسيون القبض على مؤنة أسلحة قرب مارسيل واعتقلوا الذين يقومون بتوزيعها ، الذين كانوا اعضاء في الارغان . حتى هذه المرحلة كان اعضاء الارغان يصنعون أسلحتهم مستخدمين آلة في مصنع سحابات : كانت الارغون بحاجة ماسة الى مصادر أسلحة جديدة وافضل . «لسنا مسرورين على الاطلاق «تذكر صاموئيل كاتز ، «نحن نعلم عندما فعلنا ذلك ان الهاوية بين احتياجاتنا ومصادرنا كبيرة وتعيقنا . ليس كافيا ان نقرر تحويل خمسة آلاف ارغون قوي الى جيش فعال ؛ نحتاج أيضاً الى تسليح رجالنا» .

لان الارغون تاملت إقناع الحكومة الفرنسية الإفراج عن البضاعة ومرسليها ، ذهب مندوب الارغون ليرى مبعوث الحكومة الفرنسية الخاص في فلسطين ، رينيه دو لاشارييه . ذكره ان البريطانيين يساعدون بتسليح عبد الله ، حذر دو لاشارييه من» حقيقة ان الشرطة الفرنسية التي كانت لمدة طويلة من دون علم

بنشاطاتنا تختار هذا الوقت من المحنة لاعتقال أصدقاءنا يمكن ان يرى فقط من قبل الارغون على انه إشارة الى العدائية . . . سنكون متأسفين بعمق ان نستنتج ان فرنسا تتخلى عن سياستها التقليدية بدعم الناس المضطهدين» .
قال : «الإفراج عن بضاعة الاسلحة المحتجزة هو «مسالة حياة او موت» . دو لاشاريبه كان في مشكلة بشكل واضح بسبب هذا اللقاء . «الارغون» ، ذكر باريس ، «قوة ذات اهمية حاسمة الان في فلسطين . هذه حقيقة من الافضل ان لا نكسب معارضتهم وفي الحقيقة نشاطاتها حتى الان فيها شيء بشكل غيرمباشر مؤات للمصالح الفرنسية» .

في باريس ، وافق بيدو ومستشاروه . تم التقرب منهم هم أيضاً بشكل مشابه للتأثير على قراراتهم ولتغييرها لصالح الارغون من قبل هليل كوك مؤسس العصبة الفرنسية من اجل تحرير فلسطين ، ويعرف جيدا ان بريطانيا تحاول ايجاد طرق للف والدوران حول هذا الحظر المفروض . في وقت مبكر من تلك السنة تمكن ضباط المخابرات الفرنسيون من عرقلة محاولة من قبل بريطانيا لتأخذ دور الوسيط بين شركة سويسرية واثيوبيا من اجل عقد صفقة أسلحة ، بعد ان عرفوا ان من سيستلم الاسلحة الحقيقيون مصر والأردن . كانوا مصممين على عدم خروج بريطانيا من الأشهر الاخيرة من الانتداب الفترة التي كانت مضطربة بموقف أقوى مما كانوا هم عليه . لدى الارغون طموح بتوسيع الدولة اليهودية الى ما بعد الأردن ، والاستفادة منها كطريقة حتى تقاوم فيلق غلوب العربي تبدو الان انها فكرة جيدة .

كان مستشار بيدو جاك بواسير بشكل خاص ميالا الى الارغون . في بداية شهر ايار / مايو كتب مذكرة يجادل فيها ان على فرنسا دعم الجماعة ، التي وصفها «ليست فقط بضعة إرهابيين وعصابات» لكن «جند متدرب جدا ، متمرن جيدا ويتم قيادته بشكل حسن ليقاتل ويربح» . يجب تشجيع السلطات الفرنسية على «غض النظر عن شراء الاسلحة التي يصنعها اليهود في السر في

فرنسا ، او عن عبور تجهيزات الحرب عن طريق الاراضي الفرنسية» ، متحدية بذلك الحظر الأميركي . أخذ بيدو بنصيحة بواسير . في نهاية شهر ايار / مايو توصل الى اتفاق سري مع اربيل . ستزود فرنسا أسلحة بقيمة ١٥٣ مليون فرنك ، مقابل نفوذها في الدولة اليهودية المستقلة حديثاً . تم ارسال الاسلحة الى اربيل في ميناء بورت ـ دو ـ بوك في بداية شهر حزيران / يونيو وتم شحنها الى تل أبيب على ظهر سفينة حربية للنزول الى البر اشترتها الارغان ، اسم السفينة الحربية «التالينا» . بالرغم من ان «التالينا» قد تم اغراقها بناء على أوامر من بن ـ غوريون بعيدا عن تل أبيب ليتجنب ان تصبح الارغون قوية جداً ، الا ان هذه الصفقة قد شكلت بداية علاقة وطيدة : ستكون فرنسا موردة الاسلحة الرئيسية لاسرائيل حتى سنة١٩٥٦ .

في محاولة للوصول الى القدس ، التي كانت محاطة بالقوات العربية العدوانية ، في اليوم الاول من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٨ شن الصهيونيون عملية اسمها «اوبيريشن ناتشون» ليحاولوا انهاء الحصار العربي على المدينة المقدسة . بدت الجيوش العربية هائلة ـ انطباع شجعه الصهيونيون حتى يشجعوا تبرعات الاسلحة والمال ـ لكن في الحقيقة كانوا غير موحدين بالمرة . بعد ان دعت العصبة العربية لاجتماع لتقرر التكتيكات ، سال ضابط بريطاني في الفيلق العربي عراقيا عن الاجتماع كيف جرى . «رائع» ، جاء الجواب . «كلنا قررنا ان نحارب بشكل منفصل» . في شمال فلسطين ، كان يقوم بالعمليات فوزي القاوقجي في ارض معروفة ، البلد المثلثة الشكل التي تقع على الهضاب بين نابلس ، جنين وطولكرم ، والتي كانت مركز العصيان المسلح العربي قبل عشر سنوات . الى جهة الجنوب عبد القادر حسيني الرجل الذي عينه المفتي ليكون قائده الرئيسي في فلسطين ، استولى على بلدة قسطل المهمة التي تطل على طريق القدس ـ يافا ، لكن كانت تنقصه الاسلحة . السبب وراء هذا النقص ، رفض السوريون والأردنيون تزويده

بالأسلحة بشكل كاف. الرئيس السوري شكري القوتلي كان يدعم فوزي القاوقجي ، بينما وضع عبد الله إيمانه في غلوب الذي بشكل مفاجئ تنكر له البريطانيون بجهود واهية حتى يتظاهروا انه لا علاقة لهم بما يجري .

لم تكن بهذه البساطة ان القوتلي وعبد الله لا يريدان المفتي الحاج محمد امين الحسيني ان يستلم السلطة في الضفة الغربية : كل واحد أراد ان يحرم الاخر من الحصول على المنطقة . عبد الله بالطبع نظر الى الملحق من مناطق فلسطين العربية على انه المرحلة الاولى من مخططه الكبير . القوتلي الذي ما زال يشعر بعمق انه مهدد بسبب تأييد عبد الله المفتوح لسورية الكبرى ، كان مصمما على استخدام القاوقجي حتى يوقف الملك الاردني الطموح عن سيره . ونتيجة كل هذا القتال الداخلي فيما بينهم ، ما حصل انه بعد ان استولت البالماخ الاعضاء النخبة المتدربة على الاغارة التابعة للهاغانا على قسطل في اليوم الثالث من شهر نيسان / أبريل ، حاول عبد القادر استرجاع البلدة الهضبية من دون ان يكون لديه إمدادات كافية . كتب احد ضباطه : «بدأت الذخيرة بالنفاذ» ، لكن «استنجادنا طلبا لمساعدة قوات القاوقجي المعروفة بجيش التحرير العربي بقيادة فوزي القاوقجي) وقوات الفيلق العربي الاردني تقريبا لم يتم الرد عليه» . نداء مباشر من قبل عبد القادر نفسه قوبل بالصمت . عنفهم قائلا «كلكم خونة» ، وان»التاريخ سيسجل أنكم أضعتم فلسطين!» قتل في محاولة عربية لاستعادة البلدة . قتل العرب سجناءهم اليهود الخمسين .

ثم في وقت مبكر من اليوم التاسع من شهر نيسان / أبريليوم جنازة عبد القادر الحسيني في القدس هاجمت قوة من المحاربين من الارغون وعصابة الستيرن قرية عربية اسمها دير ياسين تقع تماماً غرب المدينة . بعد الاستيلاء عليها ، قتلوا٢٥٠ ـ حوالى ثلث السكان ـ وعرضوا من تبقى منهم عبر القدس . شهود عيان الذين وصلوا الى القرية فيما بعد بفترة قصيرة سجلوا مشاهد

مروعة . احدهم رأى امرأة حامل بقر بطنها : جنينها مطروح على الارض الى جانبها . هذه الوحشية مباشرة تم شجبها من قبل الوكالة اليهودية ، لكنه كان من الواضح انها مبيتة .

احد ضباط غلوب سال قبل الحادثة موظفا يهوديا فيما اذا سيكون هنالك توترات عدائية بين اليهود والعرب بعد ان يترك البريطانيون في اليوم الرابع عشر من شهر ايار / مايو . «اه لا» ، رد الموظف . «سيتم تصليح ذلك . ببضع المجازر المحسوبة سنتخلص منهم» . بعد اربعة ايام رد العرب بالمثل ، مباغتين موكبا طبيا وقتلوا اكثر من سبعين طبيبا ، وممرضة وطلابا في الجامعة العبرية .

العرب الأثرياء كانوا قد فرو مسبقا من فلسطين ، لكن الاخبار المنتشرة عما حدث في دير ياسين أثارت هجرة جماعية اكبر بكثير . في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان / أبريل في حيفا ، الضابط القيادي البريطاني هوغ ستوكويل استدعى موظف الوكالة اليهودية واخبره انه سيخلي قريبا الوظائف البريطانية في المدينة قبل الانسحاب النهائي الشهر التالي . «كنا بوضوح تام نقوم بتسليم المدينة الى اليهود ، «هذا ما كان يقوله متذكرا أدوارد هندرسون ، احد ضباط ستوكويل المبتدئين ، «و تقريبا كل المواطنين العرب سينساقون للخارج من قبل الجيوش اليهودية غير النظامية امام أعيننا في ليس بأكثر بكثير من اربع وعشرين ساعة في اليومين الواحد والعشرين والثاني والعشرين من شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٤٨» . كانت الهاغانا تذيع لايام رسائلا تخبر العرب بان يغادروا البلدة قبل فوات الأوان . لكن حسب هاندرسون كانوا حينها «يشتكون لنا في اليوم الثالث والعشرين انهم يواجهون صعوبات في ممارسة الخدمات المحلية لان عمال البلدية على ما يبدو» على نحو غريب «قد غادروا» . العرب الذين تركوا كان من الحكمة ان يفعلوا ذلك ، لان الهاغانا دخلت الميناء بأوامر «اقتل اي عربي تواجهه ؛ احرق كل شيء قابل للاشتعال واقتحم الأبواب بالمتفجرات» ، في عملية اسمها «مقصات» . مع

نهاية شهر نيسان / أبريل سيطر الصهيونيون على طبريا ويافا أيضاً .

كتب ضابط بريطاني اسمه جيمس بولوك عن الايام العجيبة الاخيرة للحكم البريطاني : «انه شيء يزعجني تماماً وصف الوضع الحالي . ليالينا تقريبا بلا نوم بسبب نيران الرشاشات والبنادق المتواصلة ، مع التفجيرات الثقيلة ومدافع الهاون» . في نهاية شهر نيسان / أبريل سدد البريطانيون رواتب كادرهم المحلي واستعدوا للرحيل . السكرتير الرئيسي ومن دون عمل اخر يقوم فيه ، وجد لنفسه الوقت ليلعب التنس وسط ضجيج اطلاق النار المتواصل . في اليوم الرابع عشر من شهر ايار / مايو كما وعد ، ترك المندوب السامي البريطاني القدس بالطائرة ، انتهى الانتداب ، ورفع الملك عبد الله على جسر النبي مسدسه واطلق النار وصاح «للإمام!» بعد ليلة واحدة اعترف ترومان بدولة اسرائيل وفي اليوم الخامس عشر بدات رسميا اول حرب عربية ـ إسرائيلية .

بعد سنوات سئل السير جون شو السكرتير الرئيسي السابق في فلسطين الذي نجا من تفجير فندق الملك ديفيد ، ليقيم بريطانيا في الانتداب .

قال : «في كل الأحوال فكرنا اننا نقوم بعمل جيد للناس المعنيين ، وبالفعل كنا كذلك» ، مضيفا «اعني قضينا على كل انواع الاضطهاد والاخطاء المرتكبة وأشياء اخرى لكن» ، تردد ، «اذا نظرت اليها من وجهة النظر الفلسفية الرفيعة المستوى بشكل صرف ، اعتقد انه عمل غير أخلاقي ، واعتقد انه . . . انه ليس فقط غير أخلاقي لكن غير صائب» .

سئل شو : «لماذا؟» .

«لماذا؟ حسنا . . . لانه ليس من شانك او شاني ، او شان بريطانيا ، او (من اجل) اي احد اخر التدخل في بلدان أناس آخرين وأخبارهم كيف يديرونها ، او حتى إدارتها بشكل جيد . يجب ان تترك لهم ليخلصوا انفسهم من الأذى» .

الخاتمه

تصفية حسابات

عندما طرق ثلاثة عرب باب ستيرلينغفي وقت متأخر من يوم السادس من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، وأصروا على رؤيته ، لم يكن في البداية ميالا للقائهم . كان مساء يوم الأحد ، ولم يكن يتوقع حضور هؤلاء الثلاثة ، وكان هو وزوجته ماريغولد لديهما مسبقا ضيفين على العشاء .

كان الكولونيل ستيرلينغ البالغ من العمر تسعة وستين سنة ضابط اتصالات سابق مع الحكومة السورية والان اصبح مراسلا لصحيفة التايمز في دمشق ، كان يجب عليه ان يثق بغريزته . لكنه كان ميالا للانفاق على معيشته اكثر مما يسمح به دخله ودائماً يعاني من ضائقة مادية . كان يعرف انه لا يستطيع تفويت سبق صحفي لان «التايمز» طردت من كان قبله بسبب تفويت الاخبار ومن تجربته الشخصية التي تعود للوراء الى اكثر من ثلاثين سنة يوم تشرين الأول / اكتوبر المفرح عندما وصل الى دمشق مع لورانس العرب ، يعرف كم سورية يمكنها ان تكون غير متوقعة .

منذ ان ربحت سورية الاستقلال سنة ١٩٤٦ في نهاية ربع قرن من الحكم الفرنسي ، أثبتت انها معروفة بعدم استقرارها ، حتى حسب مقاييس المنطقة .

وحتى شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ وقع انقلابان في ذلك العام . وتم اسقاط شكري القوتلي ، الذي قاد البلد الى الاستقلال في شهر آذار / مارس من قبل ضابط في الجيش هو حسني الزعيم الذي بدوره اغتيل عندما استولى على السلطة وقتذاك سامي الحناوي في شهر آب / أغسطس . الحناوي الذي وصفه احد الدبلوماسيين بانه» انسان بدين ، يشبه الحلزون من دون دماغ» . وحتى يتنكر لهذه الطريقة الوحشية التي أطاحت بالزعيم ، عمل على الدعوة الى انتخابات عامة التي كانت ستنعقد بعد عدة ايام فقط .

ولان الحناوي الذي جاء من مدينة حلب القديمة في الشمال ، فالاقتراع كان مصدر خلاف إذ حرم رجال القبائل البدو النصف رحل في شرق سورية من التصويت على أساس انهم ضعفاء امام تلاعب القوى الخارجية القادمة من وراء حدود الصحراء المفتوحة .

هذا التوتر بين الحضر جهة الغرب الخصيب المتمدن ، والرحل الصحراويين من جهة الصحراء الشرقية هو احد الأشياء التي جعلت السياسة السورية متقلبة جداً . رجال القبائل كانوا غاضبين جدا بسبب حرمانهم من حق التصويت ـ ستيرلينغ كان على علم تام بالموضوع ، لانه ذهب قبل ثمانية أسابيع الى قلب الصحراء ليكتب تقريرا عن امتعاضهم هذا . لذلك عندما وقف الرجال الثلاثة على بابه مدعين ان من أرسلهم شيخ قبيلة كبيرة ذات نفوذ والذي كان صديقا قديما له ، فان ستيرلينغ اتخذ إصرارهم على انهم يحملون له أخبارا قد يكون لها معنى عن التصويت المرتقب . فاستجاب واخبر خادمه علي ان يدعهم يدخلون . اثبت ذلك انه خطأ قاض .

دخل الرجال الثلاثة الى مكتب ستيرلينغ دفعة واحدة ، لكن رفضوا دعوة المضيف لهم للجلوس ، وبدلا عن ذلك تقدموا نحوه . وعندما نهض ستيرلينغ من خلف مكتبه وعرض عليهم علبة السجائر الفضية قاطعه قائد الثلاثة وسأله بطريقة تنذر بالشؤم فيما اذا كان هو الكولونيل ستيرلينغ . عندما أومأ

ستيرلينغ براسه مجيبا بنعم ، شهر الرجل مسدس كولت أوتوماتيكي .

تم تكوين الفكرة فيما بعد ان الطلقة الاولى أطاحت بعلبة السجائر من يد ستيرلينغ . الثانية إصابته في المعدة ، وواحدة ثقبت كبده . الرابعة إصابته في الصدر . الخامسة خدشت الأوردة العنقية . السادسة اخترقت ساعده الأيمن جاعلة إياه يدور ، حتى يسقط على الارض . حينها استدار من هاجم استيرلينغ واطلق النار على علي . الذي هرع الى المكتب بعد ان قد سمع صوت اطلاق النار . وقتها قام هو وشركاؤه في الجريمة بالهروب الى اسفل السلم . خارج الباب والى اخر الشارع .

وجدت زوجة ستيرلينغ ماريغولد علي اولا ، طريحا على السجادة الفارسية في المكتب ،وسترته البيضاء غارقة بالدماء . يحتضر ،لكنه يحاول ان يتكلم .

«علي ، علي ، ما ذا حدث؟» توسلت له ماريغولد وهي راكعة الى جانبه .

يقول الخادم وهو يلتقط انفاسه بصعوبة «مدام ، الكولونيل ، الكولونيل» .

وكان من الغرفة ينبعثانين . نهضت ماريغولد ستيرلينغ . فجدت زوجها خلف المكتب مستلقيا ويفقد وعيه بسرعة .

بعد عدة ايام من اطلاق النار على مراسل «التايمز» في دمشق ، سمع عربيان يتحدثان عن الاعتداء في مقهى بالمدينة . متسائلين : «هل يعتقدون انهم حقاً يستطيعون قتل الكولونيل ستيرلينغ بست طلقات فقط؟» . سال واحد الاخر . لان ستيرلينغ ، قد نجا من محاولة قتله بأعجوبة .

«حسنا ، اعتقد انني ميت ، او على الاقل أموت ، لكن علي اللعنة اذا أعجبني ذلك» ستيرلينغ كان يتذكر عندما كان يفكر وهو مستلقيا على ارض المكتب ينزف ويفقد الوعي . لم تكن قوة إرادته هي التي انقذت حياته بل احد ضيفيه . إرنست التونيان الذي وصل فقط قبل عشرين دقيقة ليسأله اذا بإمكانه المكوث فترة الليل ، كان طبيبا معروفا يدير مشفى خاصا صغيرا

في حلب أسسه أبوه . عائلة الالتونيان كانت معجبة ببريطانيا . وارسله والده الى مدرسة روكبي في انكلترا ، حيث تدرب أرنيست ليصبح دكتورا وتزوج من امرأة إنكليزية ، اسمها دورا . كانا صديقي المؤلف أرثر رانسوم ، وتابع أولادهما ليصبحا نماذجا لشخصيات كرتونية لسلسلة قصص الاطفال «رانسوم سوالوس» . رانسوم (مؤلف قصص الاطفال) ، تم كشفها حديثاً ، انه عمل لخدمة المخابرات البريطانية الام أي ٦ بعد ان غزا البريطانيون سورية سنة ١٩٤١ ، تطوع التونيان لخدمتهم . عمل لدى المخابرات العسكرية فترة الحرب في شمال سورية ، بهذه الطريقة تعرف على ستيرلينغ .

أجرى التونيان عملية لستيرلينغ خلال نصف ساعة من الاعتداء . استخرج بنجاح رصاصتين من اصل ستة من جسم صديقه القديم ، وقرر ان الاربعة رصاصات الأخريات يجب ان يبقوا مكانهم . اثبت ستيرلينغ انه بصحة جيدة بطريقه للشفاء عندما ، بعد ايام ، طلب من الممرضة في المستشفى بعض الماء ، فقدمت له كاسا ممتلئة على صينية . أخذ القدح ، تجرع منه ، وارتعد . «هذه ليست ماء الصودا ، «لاحظ . اتضح ان الممرضة عن غير قصد أملت الكأس بالسبيرتو الكحولي . على ما يبدو ان هذا الكحول لم يسبب له الأذى ، وخلال ايام خرج من المستشفى . بعد ذلك بفترة قصيرة سافر بالطائرة الى القاهرة ، ولم يعود بعدها أبدا .

الدليل الهام على من أراد ستيرلينغ ميتا ولماذا موجود في الإشاعات التي كانت تتناقل قبل اطلاق النار . هذه الإشاعات زعمت ان ستيرلينغ كان عميلا لبريطانيا الذي يحاول التأثير على نتائج الانتخابات العامة التي كانت ستنعقد بعد تسعة ايام من اطلاق النار عليه . ثمة تأثير للإشعاعات انه ، عندما قدم اربعة رجال في النهاية ليمثلوا امام المحكمة بتهمة الاعتداء عليه بداية سنة ١٩٥١ ، اقترح رئيس الادعاء السوري ان دافع الاربعة المتهمين انهم» اعتقدوا ان (ستيرلينغ) لعب دورا هاما في اغتيال حسني الزعيم وانه

كان يقوم بعمليات تجسس بين القبائل» .

عندما استولى حسني الزعيم على السلطة من شكري القوتلي في اليوم الثلاثين من شهر آذارمارس سنة ١٩٤٩ ، الاقتصاد السوري كان في وضع خطر والاسرائيليون هزموا جيشه في شهر تشرين الثاني / نوفمبر الفائت .

بعد خلع القوتلي من دون عنف كان يعرف الزعيم انه بحاجة ليحارب على كلا الجبهتين بسرعة . ، شرع في فتح محادثات سلام مع الإسرائيليين وتصحيح العلاقات مع الفرنسيين من خلال اتفاقية نقديه وصفقة أسلحة التي سوف تعبد الطريق امام تجديد النفوذ الفرنسي في الدولة المنتدبة في السابق . لكن حكم الزعيم لم يستمر لمدة طويلة . بعد مئة وسبعة وثلاثين يوما من استلامه السلطة وفي اليوم الرابع عشر من شهر آب / أغسطس تم خلعهو إعدامه .

وكان الذي لفت الانتباه الى مصدر الإشاعات نظير ستيرلينغ في الدولة المجاورة اسرائيل ، وهومراسل معروف للتايمز»اسمه لويس هيرين ، بان زميله لعب دورا في إسقاط الزعيم . الرجل الذي قام فيما بعد بصياغة هذه البديهية في الصحافة العنيدة» .

دائماً اسأل نفسك لماذا هؤلاء الأوغاد الكاذبون يكذبون عليك «أشار هيرين انه لم يكن السوريون بل وكالة الأنباء الفرنسية هي التي اول من ادعى ان ستيرلينغ جاسوس ، واسترجع ذكرى ادعاءات الجنرال الفرنسي فيرناند أوليفا ـ روجيه بعد فشل الانقلاب الفرنسي في دمشق في شهر حزيران سنة ١٩٤٥ . رأي هيرين ان اطلاق الرصاص على ستيرلينغ له علاقة بهذا الخصام القديم . وقال انه كان جزء من «صراع غبي الى حد ما غير ضروري وبالتأكيد خطر ولم يكن على الصعيد الرسمي متأرجح بين رجال فرنسيين ورجال إنكليز معينين في تلك الاماكن» . وأوحى ان «الكولونيل يعرف اكثر عن

سبب تلك المحاولة اكثر مما يبالي بالاعتراف» ، طريقة ديبلوماسية يوحي ان ستيرلينغ كان اكثر من مجرد مراسل صحيفة .

اعتقد هيرين في وقت أبكر من تلك السنة انها ستكون» فكرة جيدة جداً «اذا حاولت بريطانيا في الخفاء «طرد الفرنسيين بشكل نهائي من المشرق» ، لكن إعترافه بان ستيرلينغ متورط في نشاط سري يبدو انه قد غير موقفه . ربما قلق مما قد يحدث له اذا استمرت إشاعات عن ان صحيفته تزود واجهة للتجسس البريطاني . وقرر الان ان هناك العديد ممن يمكن ان يكونوا خلفاء للورانس ؛ هنالك مرارة كبيره بين الجماعتين من الوطنيين لا داعي لها» ، مجادلا انه «لا بد ان يحصل شيء حيال ذلك» . لا اقصد ان استنتج ان الرجل الفرنسي هو المسؤول» ، أضاف هيرين ، لكنه اقترح ان الوكالة الفرنسية للأنباء خلقت مناخا من الشك الذي كان سيشجع آخرين على استهداف ستيرلينغ . بنما ذهب زميله في القاهرة سيريل كويليام أبعد من ذلك . كويليام ضابط مخابرات سابق ويدير الان عملية «التايمز» في الشرق الاوسط ، ناقش ان تورط الوكالة الفرنسية للأنباء يدل على ان الاعتداء على ستيرلينغ لديه دعم رسمي لان وكالة الأنباء تعتمد على معونة مالية من الحكومة الفرنسية تساوي حوالى الثمانمئة مليون فرنك . ملقيا اللوم على وكالة الانباء الفرنسية لانها كانت تخلد صورة الغوللعميل البريطاني الغامض المعادي للفرنسيين» . اشار الى انه بعد ذلك قامت بتمويل الصحيفة السورية التي كانت تنتقد ستيرلينغ بشكل متكرر .

من ناحية الدافع ، اعتقد كويليام انه انتقام . لقد قال ان الفرنسيين «اعتمدوا كثيرا على الزعيم» ، معتقدين انه من خلاله يستطيعون اعادة تأسيس نفوذهم الذي خسروه بعد ان اجبروا على الخروج من سورية عندما حصلت البلد على استقلالها . عندما تم خلع وقتل الزعيم تبددت آمالهم ، كانوا غاضبين . بعد أسبوعين من الانقلاب ، كتب كويليام تقريرا ، ما زال الفرنسيون يخبرون اي

انسان يريد ان يصغي لهم ان البريطانيين هم المسؤولون عن اغتيال الزعيم» .

ربما شعر كويليام بالمسؤولية لما حصل حينها لستيرلينغ ، لانه كان هو من شجعه ليسبر بشكل اكثر عمقا في ظروف وفاة الزعيم . تكلم ستيرلينغ مع وزير خارجية الرئيس المقتول ، وحفظ مقالا يروي ان السفير الفرنسي في دمشق جون -شارلس سيريس في وقت مبكر من تلك السنة قد سمم متعمدا احتمالية معاهدة مع العراق من خلال اخبار الزعيم ان العراقيين يستعدون للغزو . ستيرلينغ أيضاً لفت الانتباه الى حقيقة ان فرنسا قد خرقت قانون حظر الاسلحة المفروض من قبل الامم المتحدة من خلال بيع أسلحة وذخيرة للزعيم في محاولة منها لاستمالته الى جانبها . واقترح ، ان قبول تلك الاسلحة «غلطة الزعيم الكبرى» ، لانها ذكرت مناهضيه بالتدخل الفرنسي الجائر في دمشق سنة ١٩٤٥ .

المقال «لم يتم وضع اسم كاتبه بل كتبت التايمز فقط «من مراسلنا في دمشق» ونشر في اليوم السادس والعشرين من شهر آب / أغسطس» ولكنه مس العصب . كويليام كان مندهشا ان السلطات السورية لم تفرض الرقابة على المقال . لم يمنح فقط ستيرلينغ شانا عظيما من الثناء من قبل الناس الذين اعتقدوا انه تمثيل دقيق للأحداث ، بل استفز وزارة الخارجية الفرنسية الكائنه في حي الكاي دورسيه . واستدعى الفرنسيون بغضب مراسل «التايمز» في باريس ليشتكوا انهم رأوا «يد الكولونيل ستيرلينغ» في المقال ، الذي رفضوه «على انه لا يمت الى الحقيقة بصلة» .

لقد كان سيرس ـ على النقيض الى حد ما ، من تأليفه لكتاب عن البروتوكول الديبلوماسي ـ بينما كان يقود الحمله لنشر إشاعات مؤذية وكاذبة لتلطيخ سمعة ستيرلينغ . وصف مسبقا مراسل التايمز بانه» مستعد لتغيير شعار فرسان سانت جورج (اسم مستعار اعطي للجنيه الانكليزي الذهب ، بسبب تصميم القديس جورج والتنين على خلف القطعة النقدية) حتى

يصبح النفوذ البريطاني على حساب الفرنسيين في سورية ، ولم يحاول إخفاء جهوده . كتب ديبلوماسي أميركي تقريرا الى واشنطن ان» سيرس لم يفوت فرصة حتى يفقد البريطانيون مصداقيتهم في الشرق الاوسط» . كتبت وكالة الأنباء الفرنسية تقريرا ان ستيرلينغ عميل بريطاني ، تهمة تكررت في الصحافة السورية وتردد صداها في صحيفة «اللوموند» الفرنسيه ، والتي ادعت ان المال والنفوذ البريطاني وراء مقتل الزعيم . وكتب ستيرلينغ الى رئيسه في «التايمز» ، قبل فترة قصيرة من اطلاق النار عليه»انه منذ ان أتيت الى سورية سنة ١٩٤١ والفرنسيون مقتنعون انني اكره كل شيء يمت الى الفرنسيين بصلة وبشكل متطرف وانني عملت ضدهم ـ ومن المحتمل بسبب صلتي بلورانس . يعتقد ستيرلينغ ان الذين هاجموه ليسوا رجالا محليين ، لأنهم كانوا قد عرفوا انه يأخذ كلبه ليمشي به كل مساء ، وكان بإمكانهم ان ينتظروه حتى ذلك الحين ليقتلوه . وعندما وصل الى منطقة آمنة نسبيا القاهرة اخبر كويليام انه يعتقد ان الذين أرادوا قتله على الاغلب عملاء لمفتي القدس وظفهم الفرنسيون» ، الذين كانوا يحاولون التخلص منه بسبب دعمه للوحدة السياسية بين العراق وسورية . من الواضح ان كويليام قد وافقه الاعتقاد . حتى ذلك الحين حاولت كل من» التايمز» والحكومة البريطانية أبعاد انفسهم عن ستيرلينغ وعن الصراع السري الذي كاد يقتله .

ولاحظ مراسل الصحيفة في باريس-الذي احتجت عليه وزارة الخارجية الفرنسيه الكاي دورسيه بسبب مقاله عن ستيرلينغ في شهر آب / أغسطس وقبل زيارة رسميه للرئيس الفرنسي الى بريطانيا في نهاية شهر تشرين الثاني / نوفمبر ـ لاحظ انه «في ذاك النزاع المزعوم حول المصالح الإنكلو ـ فرنسية في الشرق الاوسط . . . قد تم تحقيق تقدم كبير في التوصل الى فهم مشترك» .

لكنه اعترف ان «اتفاقا في لندن وباريس هو امر آخر ونشاطات كل من الفرنسيين والإنكليز في الميدان شيء اخر» . من الواضح ان وزير الخارجية

البريطاني بيفن قد طلب من نظيره الفرنسي روبرت شومان الايربط سياسة الحكومة البريطانية بتصرفات افراد غير مسؤولين مثل الجنرال سبيرس او الكولونيل ستيرلينغ» . اي ان ستيرلينغ ترك لوحده من جراء تصرفاته .

بقي الفرنسيون غير مستعدين لإعطاء أية معلومات عن اطلاق النار على ستيرلنغ . وفي اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، اخبر باريس القائم بالاعمال الفرنسي في دمشق انه تم اطلاق النار على ستيرلينغ ، لكنه لم يستطع مقاومة وصفه بانه»رسميا يعمل كمراسل «التايمز»» . وتابع : «التفسيرات الاوسع خيالا التي تم اختراعها لتفسير الاعتداء» . وأضاف وكانما الكلمات جاءت بعد التفكير ، «لكنها كانت مقبولة اكثر عموما» على انها «كانت نتيجة تصفية حسابات» .

وعتبرانتقال و . ف . ستيرلينغ الى القاهرة كنهاية لثلاثين سنة لامبراطورية فاقمت الصراع الذي بقي من دون حل الى اليوم .لقد كان الصراع بين بريطانيا وفرنسا من اجل الهيمنةعلى الشرق الاوسط الذي قاد البلدين الى تقسيم الامبراطورية العثمانية في اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وكان عدم الرضا البريطاني عن نتيجة هذا الاتفاق هو الذي دفعهم بشكل مشؤوم ، الى مناداتهم الى دعم المطامع الصهيونية في تصريح بلفور . وهكذا حق اليهود في بلد لهم اصبح مرتبطا بشكل خطير بالمناورة الإمبريالية الانانية التي كانت مصممة بالأصل لخداع الفرنسيين .

وعد بلفور كان اعترافا بحقيقة ان ذروة الامبراطورية قد ولى الان . حدود مثل التي رسمها سايكس» بضربة قلم رصاص عبر خريطة العالم» ، حسب كلام احد معاصريه ـ والتي كانت تبدو واثقة جداً عندما كانوا يستخدمونها لتقسيم افريقيا في القرن التاسع عشر ، بدت متعجرفة عندما طبقت على الامبراطورية العثمانية في القرن العشرين . منحهم الحق هذا الركيك الغير مقنع لإعادة رسم الخريطة السياسية للشرق الاوسط يفسر لماذا البريطانيون

الان عليهم ان يقوموا بتعهدات للشعوب التي لا وطن لها لإخفاء تصميمهم على تسلم السلطة في فلسطين . عندما أدرك الفرنسيون عمق المعارضة العربية لحكمهم بسرعة فعلوا مثل بريطانيا ، نقلوا ملكية تجارة وصناعة لبنان الى المسيحيين تحقيقا لرغبات المجتمع المسيحي هناك .

تمويل بريطانيا لليهود في فلسطين وتفضيل الفرنسيين للمسيحيين في لبنان كانتا سياستين مصممتين لتقوية مواقعهما في المنطقة من خلال الحصول على امتنان الاقليتين . التقدير الذي تولد من خلال القيام بذلك لم يستمر طويلا ، لكنهم أثاروا بشكل عميق عداوة الشعب العربي المسلم الاكثر عددا بكلا البلدين ، والمنطقة على نطاق أوسع ، بتأثيرات لا يمكن إصلاحها . ولان بريطانيا وفرنسا أصبحتا من دون شعبية ، اضطرتا الى تحالفات متأرجحة بتطرف في مواقفها وآرائها ما أدى فقط الى تبني اراء متعارضة كليا بين العرب واليهود ، المسيحيين والمسلمين على نطاق أوسع . التغيرات التي كانت تحصل فجاة من قبل الدول المنتدبة في السياسة نتيجة الضغط ، ورفضهم لإقامة حكومة تمثيلية لها وزن وقيمة ، جعل من الواضح لهؤلاء الذين يحكموهم ان العنف يؤدي الى نتيجة .

حتى الحرب العالمية الثانية قبلت بريطانيا على مضض بالوجود الفرنسي وكما يدعوها سفيرهم في القاهرة اللورد كيليران «شيطان غير ضروري والذي يجب ان نستخلص فقط افضل شيء منه» . بينما حرب اخرى مع المانيا تبدو محتملة ، حينها من المحتمل علاقة بريطانيا مع فرنسا العلاقة التي لا يمكن تجنبها في النهاية اكثر اهمية . «الحقيقة الواضحة ان وجود الفرنسيين في الشرق الاوسط كان مصدر ازعاج بشكل دائم للسياسة البريطانية في الشرق الاوسط» ، اعترف بذلك كيليران ، «لكن لطالما أدركت اننا هنا يجب علينا مطابقة وتكييف سياستنا المحلية مع احتياجات مصالحنا الاعلى في ما يتعلق بفرنسا القريبة منا التي كانت جارتنا تماماً عبر القناة» .

انهيار فرنسا سنة ١٩٤٠ قضى على هذا الافتراض الذي كانت ترتكز عليه تلك السياسة ـ ان فرنسا ستكون حليفا هاما في اي صراع مع المانيا . الفراغ أعطى الموظفين البريطانيين الفرصة للحث على استقلال سورية ولبنان ، لتزويد العرب بحكومات تمثلهم . هم ما زالوا غير مستعدين للقيام بذلك في فلسطين . هذا الجهد لشل الانتباه لفترة قصيرة أدى الى نتيجة ،لكن بالكامل عواقبه هزمت نفسها بنفسها . كما اعترف شهود عيان مباشرة ، استقلال لبنان وسورية اصبح مثلا يحتذى به جهة الجنوب مباشرة ، ولم يستغرق الكثير من الوقت حتى تم طرد البريطانيين هم أيضاً .

المشاجرة بين بريطانيا والفرنسيين الاحرار خلال سنوات الحرب كان لها عواقب اخرى بعيدة المدى . عندما عاد ديغول الى السلطة سنة ١٩٥٨ . رئيساً لفرنسا كان هو الذي استخدم حق الفيتو ضد استمارة هارولد ماكميلان للانضمام الى السوق المشتركة . لتعقب بالضبط لماذا قال ديغول لا ، على نحو مفاجئ ، يجب ان ننظر الى المدن الحارة والصاخبة بيروت ودمشق . خبرة الجنرال بالدسائس البريطانية في كلا المكانين شكلت بعمق رفضه للسماح لمنافسيه فترة الحرب الى الانضمام الى ناديه الاوروبي . انها حكاية لم يخرج كلا البلدين منها برصيد كبير .

الفهرست